الهجرة الألمانية إلى لجزائر خلال
القرن 19 (1830 – 1900)

د. عدة بن داهة،

قسم التاريخ، جامعة معسكر.

ملخص:

قبل احتلال فرنسا للجزائر كانت القارة الأمريكية هي الوجهة المفضلة للمهاجرين الأوروبيين، وبعد الاحتلال (1830- 1848) كلفت الحكومة الفرنسة وكلاء بدعوة الفرسين والأوروبيين وترغيبهم في الهجرة إلى الجزائر.

وفي سنة 1848 نشرت الجمعية الوطنية الفرنسية إعلانين عامين احدهما في 1848/09/20، وثانيهما في 1848/09/23 يدعوان العمال والمواطنين ويرغبانهم في الهجرة إلى الجزائر مع منحهم قرضا ماليا يسمح لهم ببناء منزل

وشراء أدوات زراعية، لأنه متى نزلوا بالجزائر وجدوا في انتظارهم قطعا أرضية زراعية من 02 إلى 10 هكتار.

وبمجرد ملء التشكيلات الضرورية، فان المهاجرين يهيئون ضمن مجموعات متجانسة – من نفس المنطقة – تجتاز قبل ركوبها البحر المناطق الكثيفة السكان والأشد حرمانا لحمل أهلها للانضم ام إلى قافلة المهاجرين إلى الجزائر . أما عام 1870 فقد تميز بتدفق المهاجرين من الألزاس واللوران على الجزائر . انجرت عن الهجرة أثار جد سلبية تحمل نتائجها الاقتصادية والاجتماعية المجتمع الجزائري لوحده.

مع نهاية سنة 1830 وبداية 1831 أقلعت سفينة من ميناء الهاف ر باتجاه العالم الجديد (أمريكا) وعلى متنها أكثر من 700 مهاجر أغلبهم من إقليم «رينانيا» و«بافاريا» و«ووتمبرغ»، ومن بينهم أيضا مهاجرون من سويسرا والألزاس؛ وهم في طريقهم إلى البرازيل توقفوا بدانكارك، وتحت تأثير الدعاية الفرنسية الماهرة، قبل هؤلاء التحول إلى الجزائر بعد أن تلقوا وعودا بالحصول على أراضي زراعية خصبة إثر حلولهم بها، فكانت أولى منازلهم في الجزائر دالي إبراهيم والقبة، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستقرار بهما، فحوّلوا إلى غرب الجزائر ليثبتوا في المراكز

الاستيطانية لوادي التاغية (جنوب معسكر) وجورج كليمنص و(ستيديا حاليا)، وسانت ليوني (المقهوم حاليا) (C.A.O.M. Carton 1 M/9 et 2M/30).

وهكذا تكون فرنسا قد سدّت طريق الهجرة الفرنسية والأوروبية إلى العالم الجديد، وحولتها صوب الجزائر، حتى يحل حسب زعمها الحلم الجزائري محل الحلم الأمريكي «Le rêve Américain doit devenir le rêve Algérien»، وحسب بعض الكتابات يبدوأن هناك محاولة ثانية لتوطين مهاجرين ألمان وسويسريين تعود إلى سنة 1832 حيث وصلت سفينة إلى ميناء الجزائر العاصمة محملة بـ 400 مهاجر ألماني وسويسري تم توزيعهم على مناطق مختلفة في مدينة الجزائر ومنحت لهم أراضي زراعية. (بن خرف الله ، ط. 1995 : 142)

وفيما بين 1849- 1850 تمكن رجال «باد» (Bade) و«بالاتينا» (Palatinat) الواقعتان في إقليم رينانيا الفارين من بروسيا من الاستقرار بمركزي «دوبلينو» (حسين حاليا) و«ديتري» (سيدي لحسن). (Goinard, 1984: 98)

وللعلم فقد استفاد الألمان المهاجرون إلى الجزائر من الجنسية الفرنسية حيث بلغ عددهم 6.950 نسمة سنة 1904. (Demontes, 1906: 340) إلا أن هؤلاء الألمان الذين تميزوا بجودة عالية في خدمة الأرض (الفلاحة) ظل عددهم يتناقص حتى آل بهم الأمر إلى الاختفاء.

أصبحت هجرة الهانوفريين الأوائل إلى الجزائر سنة 1831 مثالا يقتدى به لدى باقي الهانوفريين والألمانيين المهددين في حياتهم، والمعرضين لعمليات ابتزاز واغتصاب صارخة من قبل البروسيين الذين فرضوا عليهم ضرائب فادحة وأجبروهم على أداء الخدمة العسكرية لصالح بروسيا.

وعندما حاول ملك هانوفر تقديم مساعدات مالية للعسكريين الهانوفريين الموجودين رهن الهجرة والنفي تعرضت ممتلكاته للمصادرة والاغتصاب (J.M. Di Costanzo, 2000 : 80).

وفي غضون هذه الظروف أنشئ اللفيف الأجنبي بمقتضى قرار من ملك فرنسا لويس فيليب (1830- 1848) بتاريخ 10 مارس 1831، وفي شهر أوت 1831 نزل اللفيف الأجنبي بالجزائر ضمن وحدة عسكرية تتكون من سبعة فيالق تم توزيعهم على الأقاليم الساحلية:

- ثلاثة فيالق جميع مجنديها من أصل ألماني.

- فيلق واحد جميع مجنديه من أصل أسباني.
- فيلق واحد جميع مجنديه من أصل إيطالي.
- فيلق واحد جميع مجنديه من أصل بلجيكي.
- فيلق واحد جميع مجنديه من أصل بولندي.

بينما تمركزت الفيالق : 01 ، 02 ، 03 ، 05 و07 بإقليم العاصمة فإن الفيلق السادس أخذ موقعه في عنابة؛ أما الفيلق الرابع فقد ثبت بإقليم وهران، وهذا الأخير جميع مجنديه من أصل إسباني.

لم يحدث خلط بين مختلف الجنسيات ضمن الفيلق الواحد إلاّ بعد مرور خمس سنوات (1837)، وذلك بعد مجيء العقيد «برنال» (BERNELLE) حيث فرضت اللغة الفرنسية كوسيلة إجبارية للتعامل بين أفراد عساكر اللفيف الأجنبي.

وقد أسند «بيجو» إلى اللفيف الأجنبي مهمة حماية المنشآت الاستعمارية الفرنسية، وتقديم المساعدة للكولون القادمين من صقلية وإسبانيا في بناء مساكنهم (E. BERGOT, 1987: 35-37).

وعلى أي حال فإن المجندين في اللفيف الأجنبي من ذوي الأصول الألمانية هم جزء من المهاجرين الألمان إلى الجزائر وإن كانت هذه الهجرة قسرية.

ونظرة متفحصة لسجلات الترخيص بالدخول إلى الجزائر (C.A.O.M. Carton 80 / F) تسمح لنا بالكشف عن قوافل المهاجرين من أصل ألماني وسويسري وألزاسي ممن قدموا إلى الجزائر ابتداء من 19 أكتوبر 1841.

فهذه السجلات تحتوي ترخيصات على الموافقة بالهجرة إلى الجزائر لمهاجرين من سويسرا، وألمانيا، والألزاس واللورين، خاصة من المدن الكبرى مثل : ستراسبورغ، ميلوز، متز، وكولمار(Dpt d'Oran et son Conseil gl 1830-1930: 260).

وابتداء من عام 1843 ظهرت إلى الوجود تجمعات سكنية (مراكز استيطانية) في الجزائر تجمع مستوطنين ينتمون إلى نفس التركيبة العرقية، كما هوالحال بالنسبة لمركز وادي الحمام (حسين حاليا : قرب معسكر) الذي تميز بإيوائه لمهاجرين من أصل ألماني فقط؛ حيث نزل في شهر مارس 1854 بوادي الحمام 164 مهاجرا من إقليم رينانيا الألماني يتألفون من 24 عائلة، تم تشغيلهم في أعمال إنجاز الطريق الواصل وهران بمعسكر عبر جبال بني شقران، ومنح لهذه العائلات 400

هكتار من الأراضي الفلاحية، و26 ثورا، و16 عربة ، و32 محراثا، و32 معولا و30 منجلا، ومجرفة واحدة (J.L. DONNADIEU, 1987: 53).

ويظهر أن فرنسا خلال هذه الفترة لم تكن تفرق بين المهاجرين الفرنسيين وباقي المهاجرين الأوروبيين إلى الجزائر؛ فالذي كان يهمها هوخ لق رافد بشري فرنسي وأوروبي مسيحي في الجزائر كما تدل على ذلك الإعلانات الخاصة بالهجرة لعام 1848 والتي تدعوالفرنسيين والأوروبيين للإقامة في الجزائر.

وإذا كان توطين معمرين من نفس المجموعة الإتنية (العرقية) بنفس المركز الاستيطاني كما هوالحال مع مركز وادي الحما م بغرب البلاد والذي ثبت به مهاجرون ألمان، فعلى العكس من ذلك ووجد بإقليم قسنطينة مراكز استيطانية تجمع في آن واحد مستوطنين من جهات أوروبية مختلفة وغير منسجمة عرقيا كما هوشأن مركز سقان (Vallée de L'Oued Seguin) الذي ثبتت به سنة 1861 : 32 عائلة من الراين الأدنى؛ و09 عائلات من الراين الأعلى؛ و19 عائلة من باد، وبروسيا (C.A.O.M. Carton L / 06).

وهكذا يتأكد مرة أخرى أن فرنسا لم يكن يهمها سوى تعمير البلاد بمهاجرين من أصل فرنسي وأوروبي.

عاشت ألمانيا فيما بين 1866 وبداية القرن العشرين مرحلة دقيقة وحاسمة من تاريخها (Période Historique précise et cruciale). ففي هذه السنة تحققت الوحدة الألمانية وانتصرت بروسيا على النمسا في سدوا (Sadowa) شهر أوت 1866.

وفي غضون هذه الأحداث تمنت فرنسا الحصول على تعويضات ترابية (Compensation territoriales) مقابل حيادها في الصراع بين النمسا وبروسيا؛ وعليه طالب نابليون الثالث من بسماك أن يغض الطرف عن ضم فرنسا لكل من بافاريا، ومايانس، وبلجيكا، ودوقية لكسمبورغ وسويسرا الروماندية (Suisse Romande) (Larousse. 1991: 1548).

أمام الرفض البروسي لهذا المطلب، حرضت فرنسا دول ألمانيا الجنوبية المستقلة ضد بروسيا، إلا أن بعض الدول أسرعت إلى عقد اتفاقيات عسكرية ثنائية مع بسمارك احتياطا منها ضد أطماع فرنسا التوسعية.

وفي ظروف الهزائم الدبلوماسية الفرنسية نشأت فكرة اللفيف الهانوفري (La légion Hanovrienne)، حيث تقدم الجنرال ماك ماهون الحاكم العام للجزائر

بطلب إلى السلطات الفرنسية التي سبق له أن كاتبها قائلا : «لقد غادر الهانوفريون بلدهم تملصا من الخدمة العسكرية لصالح بروسيا على أمل حمل السلاح ضدها في حالة إذا ما أدت الأزمة بشأن لكسمبورغ إلى حرب بين فرنسا وبروسيا ». (J.M. Di Costanzo, 2000: 80)

وللعلم فقد كانت الوحدة العسكرية الفارة من هانوفر تتشكل من 1000 إلى 12000 رجل من بينهم ضباط، وجنود بسطاء، ومجندون جدد؛ لجأت هذه الوحدة العسكرية أولا إلى هولندا، ومن ثم إلى سويسرا بعد ضم بروسيا لبلدهم عقب إنشاء كونفدرالية شمال ألمانيا.

وهكذا فكر ماك ماهون في تحويل وجهة هؤلاء العسكريين الهانوفريين الفارين صوب الجزائر.

في ظرف أيام قلائل احتل البروسيون الألزاس واللورين، وسجل يوم 02 سبتمبر 1870 استسلام الإمبراطور الفرنسي في سيدان على رأس 80000 مقاتل.

وفي 04 سبتمبر تم الإعلان عن الجمهورية بمقر بلدية باريس التي يحاصرها البروسيون الذين أصبح شمال شرقي فرنسا تحت سيطرتهم، بينما كان غامبيتا ينظم المقاومة خارج العاصمة الفرنسية.

في ظل هذه الظروف الجدّ معقدة كاتب الجنرال قائد القسم الجنوبي الشرقي لفرنسا وزير الحربية في يوم 04 أكتوبر 1870 يقول له: «بأمر من السلطات المدنية تم استقبال 260 مها جر أجنبي من هانوفر بقلعة بايون من دون علم السلطات العسكرية، وقد اختلط هؤلاء المهاجرون بمجندينا وانبثّوا داخل صفوف الشبان المدعوين لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية ممّن لازالوا يرتدون الزي المدني، إلى حدّ لم نستطع فيه التمييز بين هؤلاء وأولئك». (J.M. Di Costanzo, 2000: 81)

وجهل السكان لأسباب وجود هؤلاء الهانوفريين ببايون جعلهم ينظرون إليهم على أنهم جواسيس في خدمة غيوم الأول.

وفي 10 أكتوبر 1870 نشرت جريدة «L'Indépendant de Pau» مقالا جاء فيه : «لقد انتقل الهانوفريون المائة الذين كانوا محتجزين في بايون إلى محطة «بو» قصد السفر إلى الجزائر، بعدما رفضوا الخدمة ضد فرنسا وأكدوا إخلاصهم لها.

وعندما نزلوا بوهران تجند البعض منهم في صفوف اللفيف الأجنبي، حيث أصبح حوالي 800 منهم معمرين يعملون في الأرض أ وحرفيين، إذ يمكن إحصاء 145

فلاحا، و51 إسكافيا، و48 نجارا، و28 حدادا، و38 خياطا، و27 قفالا (صانع أقفال)، ومعلم ابتدائي واحد، و04 مستخدمي مطبعة (imprimeur)، وبحار (marin)، وصانع مشروبات كحولية، وطبيب، وفارس (محترف في سباق الخيول). (J.M. Di Costanzo, 2000: 81)

وبينما كانت المحادثات تجري بقصر فرساي بين تيار وبسمارك حول السلام بين بلديهما، صدر مرسوم في 15 مارس 1871 يسمح لغير الراغبين في الالتحاق باللفيف الأجنبي والممتنعين عن العمل في الأرض أن يلتحقوا بكتيبة المشاة تحت إسم «الإضافيون الهانوفريون» (Auxiliaire Hanovrien) التي سرعان ما حلت وتحوّل بعض عناصرها إلى اللفيف الأجنبي.

وفي اليوم الموالي 16 مارس 1871 اندلعت الثورة في برج بوعريريج؛ وبعد أسبوعين حل الأميرال دي قيدون بالجزائر بصفة حاكم عام – مدني- فقمع ثورة المقراني بعنف شديد، وصادر من الثوار أكثر من 500000 هكتار من الأراضي الفلاحية وزّع منها 100000 هكتار بمقتضى قانون 09 جوان 1871 على 10000 حتى 12000 مهاجر من الألزاس واللورين وقد اندسّ بينهم عدد من المهاجرين من أصل ألماني.(J.M. Di Costanzo, 2000: 81)

وتذكر بعض الكتابات أن نسبة المستوطنين الأوروبيين في الجزائر سنة 1872 قد بلغت 11،6٪ من مجموع السكان، بينما قدرت نسبة المهاجرين الألمان بـ 02٪(4،933 ن).

وللعلم فإن عائلات من أصل بافاري سبق لها أن نزحت إلى الألزاس واللورين سنة 1866 بعد تحالف ملك بافاريا مع النمسا؛ وفي سنة 1871 انتقلت هذه العائلات البافارية إلى الجزائر واستقرت بالزيتونة (Bessonbourg) على بعد 16 كيلومتر من القل (Collo) بدائرة سكيكدة (Philippeville)؛ وتحصلت هذه العائلات على العمل في تعاونية بيسون (Compagnie Besson) التي يوجد بحوزتها 25000 هكتار من غابات الصنوبر والفلين.

وبمقتضى معاهدة فرانكفورت (1871/05/10) أصبح إقليم الراين الأسفل والأعلى، والموزال وقسم من الموز تحت سلطة بروسيا، فتحول حوالي 158000 شخص من سكان هذه الأقاليم إلى فرنسا والجزائر (M. LE BEL, 1985: 115).

وما تجدر ملاحظته أن الهجرة من المناطق الحدودية الشمالية مع ألمانيا حتى عام 1870 (40 سنة) لم ترتبط فقط بالوضعية السياسية والدبلوماسية وإنما أيضا

بالوضعية الخطيرة التي كانت تعيشها فرنسا على الصعيد الديمغرافي الذي تجسد في التخلص من الفائض السكاني في هذه الأقاليم الحدودية، وهي الوضعية التي نتجت عنها مشكلات سياسية واقتصادية كان لابد لفرنسا أن تجد لها الحل عن طريق الهجرة، ومراجعة السجلات الخاصة بالأشخاص المرخص لهم با لهجرة إلى الجزائر تثبت ذلك (Fischer، F. 1999: 06-21).

مثل العقد الزماني (1871- 1882) العصر الذهبي للهجرة من المناطق الحدودية الشمالية لفرنسا، خاصة من الألزاس واللورين صوب الجزائر.

وهيأت سلطات الاحتلال الفرنسي أراضي زراعية خصبة صادرتها من الأهالي الجزائريين لاستقبال هؤلاء المهاجرين تجاوزت 300000 هكتار، وأنشأت 175 مركزا استيطانيا في منطقة التل الجزائري (B. DROZ, 2001: 54).

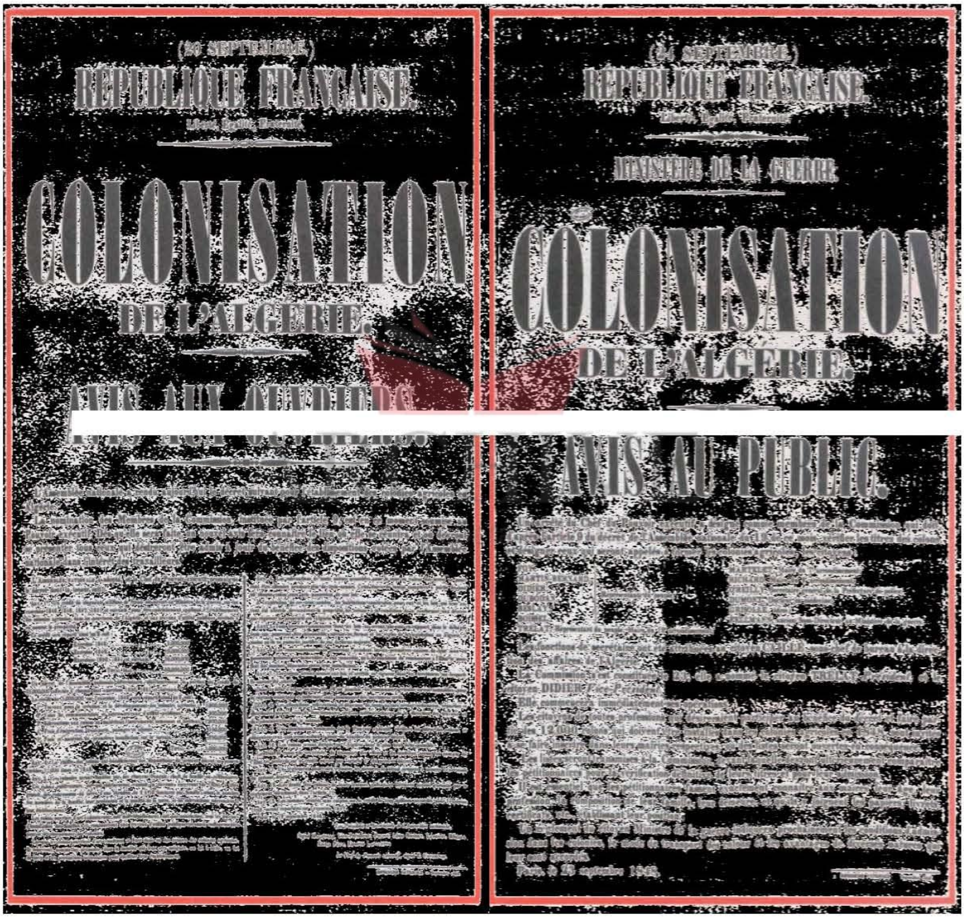
وأثبتت إحصائيات 1876 أن العدد قد تزايد بـ 789 ألمانيا، مما يشير إلى ارتفاع الجالية الألمانية في الجزائر بعد عام 1870.

ومن الأعمال التي اشتهر بها الألمان في الجزائر زراعة البطاطا كما هوالحال بالنسبة "لأوسترتاغ جان" (Ostertag Jean) الذي تحصل على جائزة مالية سنة 1864 قدرها 60 فرنكا مكافأة له على جودة محصول البطاطا- بالبرواقية (J. Accouturier, 1987: 94)، وانتشار صناعة السباكة (La forge)؛ ولاسيما صناعة الجعة (Bierre) حيث بلغ عدد مصانع الجعة سنة 1878: 22 مصنعا في عمالة قسنطينة منها 06 في قسنطينة، 03 في كل من سكيكدة وسطيف، 02 في كل من باتنة وعنابة وقالمة، وبرج بوعريريج، ومصنع واحد في كل من بجاية وسوق أهراس ... كما أن مصانع الجع ة وحانات الخمر في كل من سكيكدة وسوق أهراس، وعين سينور وقسنطينة كان أغلب عمالها من ذوي الأصول الألمانية.

ونتج أيضا عن هجرة الألمان بالجزائر انتشار المذهب البروتستاني- الكالفيني-

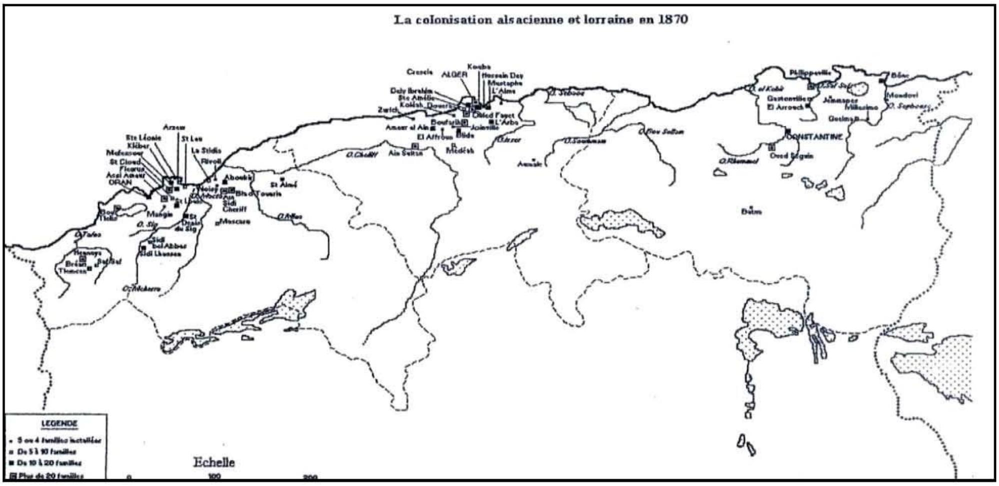
أما أسوء نتيجة للهجرة من جنوب ألمانيا ومن الألزاس واللورين لاسيما عقب ثورة المقراني فقد تمثلت في سن قانون 21 جوان 1871 الذي يمنح أراضي زراعية تقدر بـ 100000 هـ للوافدين من شمال فرنسا بعد حجزها من الفلاحين عقب ثورة المقراني (B.O.A. 1871 : 298-332)

إن المشروع الاستيطاري الذي روجت له فرنسا للهجرة إلى الجزائر وأعطته هالة وغطاء اقتصادي كبيرا يفتح أفاقا شاسعة بإمكانها تطوير القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر ، ومنح مكتسبات إستراتيجية للمهاجرين الأوربيين قد اثر سلبا على المجتمع الجزائري واحدث به أضرارا اقتصادية واجتماعية بعد مصادرة الأراضي الفلاحية من أصحابها الأصليين وتهجيرهم منها ومنحها لقمة سائغة للمهاجرين الأوربيين يستأثرون بها وينزفون خيراتها وثرواتها السطحية والجوفية



المرجع: **Algérie. Histoire et nostalgie, 1830-1987**" Historia spécial, juin 1987" pages 53

مراكز المستوطنين الألزاس واللورين في الجزائر عام 1870

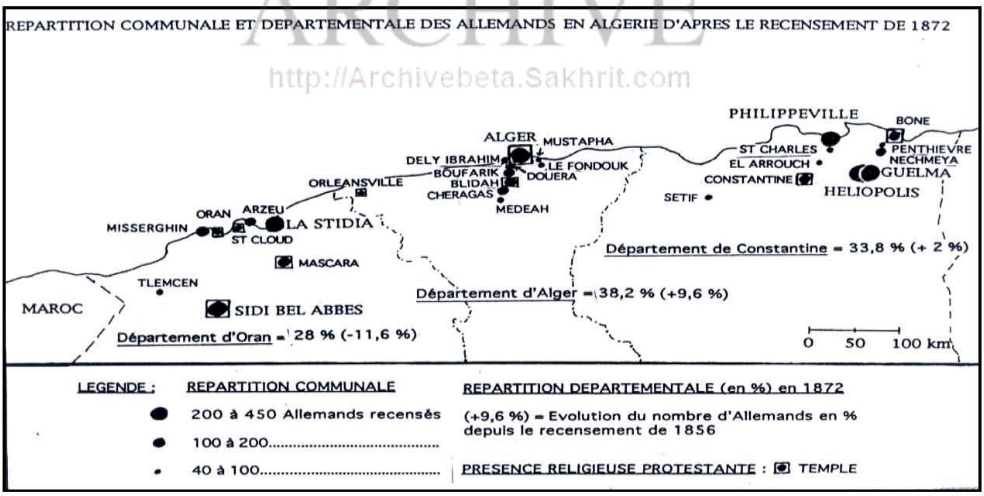


المرجع :

Fabienne FISCHER. "Alsaciens et Lorrains en ALGERIE. Histoire d'une migration. 1830-1914". Nice : Edition Jacques Gandini 1999 P.41 *Algérie. Histoire et nostalgie, 1830-1987* " Historia spécial, juin 1987" page 24

مراكز الاستيطان الألماني في الجزائر من خلال إحصائيات1872

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



المرجع:

Jean Maurice DI COSTANZO, "Présences Allemandes en Algérie : Emigration Politique, occultation identitaire et entreprise familiale (1866- début du 20ème siècle)" in *Ultimarines* N° 20 spécial C.A.O.M Aix-en- Provence 1998.p83.

المصادر والمراجع

- بن خرف الله، الطاهر (1995). «التحول الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للريف الجزائري 1830- 1962» الذاكرة، العدد 02، السنة 02. ص. 142- 173.
- Accouturier, Jean. (1987) « L'aventure d'un Alsacien-Lorrain » Historia Spécial n° 486, Juin 1987, pp. 92-95.
- B.O.A. 1871, pp. 298 a 332.
- Bergot, Erwan.(1987) «La légion Etrangère» Historia Spécial n°486, Juin1987, pp. 35-37.
- C.A.O.M. Carton 1M / 9 et 2M / 30 (création des centres de colonisation).
- C.A.O.M. Carton F.80 (registre d'autorisation de passages 1841-1845).
- C.A.O.M, Carton L.06 (Lettre du préfet de Constantine au gouverneur général:27/04/1863).
- DEMONTES Victor (1906) le peuple Algérien, essai de démographie Algérienne, Alger, p340.
- Le Département d'Oran et son conseil général 1830-1930, p 216.
- Di Costanzo, Jean- Marie (2000) «présences Allemandes en Algérie: Emigration politique, occultation identitaire et entreprise familiale: 1866 début du 20éme siècle» , Ultimarines n° 20 pp. 80-85.
- DONNADIEU, Jean Louis. (1987) «Ponteba: Un village de quarante-Huitards» historia spécial n° 486, Juin 1987 pp. 53-68.
- DROZ Bernard (2001). «Main basse sur les terres», les collections de l'histoire, n°11, Paris 2001, pp. 50-55.
- Fischer, Fabienne. (1999). Alsaciens et lorrains en Algérie, Histoire d'une migration 1830-1914, Nice: Editions Jacques gandini.
- Goinard, Pierre (1984). Algérie: L'œuvre Française, Paris, éditions Robert Laffont.
- Petit Larousse illustré. (1991). Paris cedex 06.
- Le Bel, M. (1985). L'Emigration Allemande en Algérie au 19éme siècle 1830-1890, Aix-en Provence.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهجرة اليهودية إلى منطقة الخليج العربي في النصف الأول من القرن العشرين

محمد نايف العنزي،

كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الكويت.

ملخص

تعنى هذه الدراسة بتقديم لمحة تاريخية عن الوجود اليهودي في منطقة الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد رافق هذا الوجود نشاط الإرسالية التبشيرية الأمريكية «Arabian missionary» في جنبات المنطقة مما أدى إلى وقوع نوع من المماحكات أو الاحتكاكات بينهم وبين اليهود المتواجدين بالمنطقة.

وصحيح أن هذه الاحتكاكات تعد بمثابة سلوكيات يومية معتادة، إلا أنها في الحقيقة لم تخلو من فوائد تاريخية، حيث وفرت - عرضاً - قدراً من المعلومات المتنوعة عن الطائفة اليهودية المحدودة من العدد، وما كانت عليه أحوالها الاجتماعية وأنشطتها الاقتصادية، ومساحة التوافق والتسامح التي أتاحت لها ممارسة شعائرها الدينية.

كما عنت الدراسة أيضا، بتقديم خلفية تاريخية عن الوجود اليهودي في العصر الحديث وصولاً إلى ختام القرن التاسع عشر. وتطرقت الدراسة في السياق نفسه إلى الوجود اليهودي في عُمان والبحرين والكويت مستفيداً من أجواء الانفتاح الاقتصادي الذي شاع فيها، فضلاً عن تميزها بالتسامح الديني المعقول والمقبول مقارنة بغيرها من المناطق. وفي هذا الإطار رصدت الدراسة النشاط الاقتصادي للجاليات اليهودية، وشؤونها الاجتماعية والدينية، بالإضافة إلى التأثيرات التي طالتها بصورة أو بأخرى من جراء تردي الأوضاع في فلسطين المحتلة.

مقدمة:

تتقصى هذه الدراسة عبر محاور عدة، الوجود اليهودي بمنطقة الخليج العربي في النصف الأول من القرن العشرين، والذي شهد أيضاً بداية النشاط الفعلي للإرسالية التبشيرية الأمريكية «Arabian missionary» في منطقة الخليج العربي، بيد أن ما يهمنا في هذا الموضع هو تلك المعلومات فائقة القيمة التي دونت من قبل أعضاء الإرسالية الأمريكية عن يهود المنطقة، وهي المعلومات التي أتت عرضاً نتيجة لما

جرى من احتكاك بين الطرفين وما صاحب هذا التعايش من حوارات ونقاشات حول الأمور الخاصة بعقائد كل منهما.

ولقد واصلنا التدرج في الدراسة منذ بداية القرن العشرين حتى عام 1948م، وهو العام الذي اندلعت فيه الحرب العربية الإسرائيلية الأولى والتي كان لها من غير شك انعكاسات لا يستهان بها على اليهود المقيمين في منطقة الخليج العربي حينذاك.

والواقع أن هناك أسباباً عديدة دفعتنا لخوض غمار هذه الدراسة، أبرزها ندرة الدراسات التي تناولت هذا الشأن بالعمق المطلوب، وخصوصاً في النصف الأول من القرن العشرين. فغالبية الدراسات ركزت على دراسة الدين اليهودي، دون ما التفات لجوانب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهذه الطائفة.

كما أغفلت تقديم معلومات شافية عن كيفية نشوء الطوائف اليهودية في منطقة الخليج العربي، وما اضطلعت به من أدوار على شتى الصعد، وتجاوز التطرق إلى الحديث عن طرق التعامل على المستوى الإنساني بين سكان المناطق التي تواجدت فيها تلك الطوائف، وبين أفراد الطوائف أنفسهم.

وتأتي أهمية هذا الموضوع من خلال تتبع جذور الوجود اليهودي بالمنطقة، وما ترتب عليه من آثار أو تأثيرات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية، سيما بعد قيام دولة إسرائيل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتطرح هذه الدراسة تساؤلات عديدة، أهمها : هل كان لليهود وجود فعلي وملموس في كافة مناطق الخليج العربي؟ ما هي التأثيرات السياسية والاقتصادية والدينية لهذه الطائفة؟ وما هي طبيعة الأعمال التي مارسوها؟ هل كان للأوضاع السائدة في فلسطين تأثير مباشر على الطوائف اليهودية في منطقة الخليج العربي؟

وترتيباً على ما سلف، لا يسعنا سوى الإقرار بالصعوبات الجمة التي واجهتنا بسبب النقص الحاد في المادة العلمية التي أتيحت أمامنا أثناء إعداد الدراسة، ومن ثم انصب جل اهتمامنا على تفحص المصادر القليلة التي تيسرت لنا رغم ما حفلت به من شح ظاهر. فغالبية الرحالة الذين توافدوا على منطقة الخليج العربي لم يلاحظوا وجوداً كبيراً للطوائف اليهودية في المنطقة، واعتبروها فئات محدودة العدد تمارس نشاط تجارياً محدوداً أيضاً.

ومن هنا، عمدنا في بعض الأحيان إلى الاعتماد على المراجع الحديثة والتي لم

تسلم من القصور ذاته، حيث افتقدت إلى العمق في التناول والإحاطة بجوانب الموضوع، ومن ثم كان اللجوء اضطراريا لبعض الشخصيات التي عاصرت الوجود اليهودي وخاصة في الكويت، وبالتالي كان في مقدورها تقديم بعض المعلومات ذات القيمة التاريخية من خلال المراجع التي نشرت عبر الثلاثين عاماً الماضية.

وختاماً، نأمل أن تقدم هذه الدراسة إضافة جديدة في الموضوع، من شأنها أن تعبد الطريق وتيسر السبيل أمام دراسات أخرى في المستقبل تعمل على سد النقص وتكمل ما بدأناه.

خلفية تاريخية:

أشارت المصادر التاريخية إلى أن التواجد اليهودي في منطقة الخليج العربي يعود إلي عصور قديمة تمتد إلى ما قبل الرسالة المحمدية، أما في العصر الحديث فليس لنا إلا بعض النزر القليل من المعلومات عن الجماعات اليهودية التي استقرت في بعض مناطق الخليج العربي كعُمان والبحرين والكويت. أما فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية فعلى الرغم من أن سكان المراكز العمرانية في الحجاز «مكة والمدينة المنورة»، كانوا خليطاً من البشر يجتمع فيه العرب وأفراد من الأتراك والبربر واليونانيين القادمين من جزر الأرخبيل بغرض التجارة، إلا أن المعلومات المتوفرة لا تشير إلى وجود يهودي مؤثر في أي من المدينتين في العصر الحديث. فيما أشارت مصادر أخرى إلى تواجدهم كتجار وسماسرة في مكة المكرمة في القرن الثامن عشر في عهد «الشريف غالب» ولكنهم ما لبثوا أن تعرضوا للطرد منها على يد «الشريف سرور» في الربع الأخير من القرن الثامن عشر(عطا الله، س. 1999 : 27).

أما عن تواجدهم في البحرين، فقد تبين أن لهم وجوداً فيها منذ مستهل الدعوة الإسلامية، حيث أرسل لهم رسول الله الصحابي العلاء بن الحضرمي، يدعوهم للدخول في الإسلام، كما كان اليهود يدفعون الجزية التي كانت تبلغ ديناراً واحد عن كل بالغ(البلاذري، أ. 1987 : 107- 108).

وعند هذا الحد نواجه صمتاً وشحة في مصادر المعلومات التي تتناول أوضاع يهود البحرين حتى بداية القرن العشرين، إلى أن بدأ توافد بعض العائلات اليهودية إلى البحرين، وهذا ما سوف نتطرق إليه لاحقاً.

وفيما يتعلق بـ «عُمان» تحدثت المصادر عن تواجد للجالية اليهودية فيها اعتبارا

من القرن السابع عشر الميلادي. ففي عام 1617م زار مسقط، المبعوث الأسباني جاريثا دي سلفا Garcia De Silva، الذي قدر تعداد اليهود آنذاك بما مجموعة من 15 - 20 عائلة مذكراً بمعاناتهم من أوضاع معيشية سيئة(صراي، ح. 2002-2001: 39). أما الرحالة الدانماركي كريستين نيبور K. Niebuhr، فقد زار المنطقة العربية في الفترة من عام 1762م - 1765م، وتحدث عن اليهود، فذكر بأنهم يلقون معاملة طيبة في عُمان(Niebuhir, K. 1863: 1991).

ويذكر الرحالة الإيطالي فينزنزو Vinzino الملقب بالشيخ منصور وقد زار عُمان في عام 1809م، أن الانتعاش التجاري كان سمة من سمات مدينة مسقط في عهد السيد سعيد بن سلطان ولهذا فقد وفدت إليها أجناس متعددة ضمت من ضمن ما ضمت حوالي 4000 من الهنود البانيان، وعدداً قليلاً من اليهود(فينزنرو، م. 1988:80). إلا أن أعدادهم أخذت في التزايد بعد عام 1828م، نتيجة لهجرة أعداد من يهود العراق إليها في عهد داود باشا والي العراق العثماني الذي قام بالتضييق عليهم وإبعادهم، وتشير بعض المصادر إلى وجود ما يقرب من عشرين عائلة يهودية في منطقة صحار عام 1830م، حيث عرفوا بأولاد سارة، وكان لديهم معبداً صغيراً يقيمون فيه شعائرهم وطقوسهم الدينية(صراي، ح. 2001- 2000: 39).

لقد شهدت منطقة الخليج العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين نشاطاً ملحوظاً للإرساليات الأمريكية التي انتشرت في المنطقة بغرض التبشير بالدين المسيحي، وقد أدى نشاطها إلى نشوء علاقات واحتكاكات بين أعضائها وبين سكان المنطقة، ومن خلال هذه وتلك تبين وجود عدد من اليهود في عمان.

وبالعودة إلى بحث الوجود اليهودي الذي هو مناط هذه الدراسة، نشير إلى زيارة قام بها الأمريكي جيمس كانتين Cantain إلى عمان 1899م، تجول خلالها في بعض مناطقها كمسقط وصحار بمساعدة من إلياس باكوس الذي كان يعمل بائعاً في مكتبة الإرسالية الأمريكية بالبحرين. وقد تجول جيمس كانتين في المناطق المشار إليها، وأسواقها، واكتشف أثناء تجواله وجود عدد قليل من العائلات اليهودية المقيمة بها وبصفة خاصة في منطقة صحار، ويتحدث جيمس كانتين عن انطباعاته وما أحاط به، مذكراً بنقاش حاد دار بينه وبين أحد اليهود من المقيمين

بالمدينة حول الأوضاع في بيت المقدس، ثم تطرق الحوار إلى الدين المسيحي، فابتدر جيمس اليهودي بالقول «أن اليهود يتحدثون عن اقتراب قدوم المسيح» فأثارت هذه المقولة غضب اليهودي، وكان من الطبيعي أن يرد اليهودي الصاع صاعين، فأثار جيمس بقوله: لماذا لم تختن؟، فرد جيمس على استفزاز اليهودي قائلاً «تعلمنا من المسيح أن نطهر قلوبنا من شيطان الأرض، وما هي جدوى الختان إذا كانت قلوبنا تملؤها قذارة الأرض»(البسام، خ. 1998 :124- 126).

ويواصل جيمس كانتين إبداء ملاحظاته فيشير إلى عدم قبول عام من قبل السكان لليهود والمسيحيين مؤشرة شراء الناس لكتبهم ثم تمزيقها أمامهم، على الرغم من أنه حاول مراراً أن يوضح للناس في المقهى أن اليهود هم الأعداء الحقيقيون مستنداً في ذلك على ما ذكر عنهم في القرآن الكريم، وقد نجح بذلك في إقناع بعض الناس ولكن اليهودي - كالعادة - عاد إلى ممارسة لعبته القذرة على حد وصف جيمس محدثاً نوعاً من الفتنة بين المسيحيين والمسلمين(البسام، خ. 1998 : 124- 126).

أما عن وجود اليهود في الكويت، فيمكن القول أن الكويت ومنذ فجر النشأة تمتعت بمسحة تسامح ديني لا تنكر وانطلاقا من هذه الحقيقة احتضنت العديد من الجاليات التي تنتمي إلى مختلف الأعراق والأجناس والأصول واشتملت ضمن ما اشتملت على بعض اليهود المحدودين العدد قياساً بالعدد الكلي للسكان، ولم تحدد المصادر موطنهم الأصلي.

ومما لاشك فيه أن التسامح الديني فضلاً عن الانتعاش التجاري الذي شهدته الكويت إبان نشأتها وحتى منتصف القرن العشرين كان بمثابة دافع مؤثر في حركة هجرة بعض اليهود إلى الكويت والاستقرار فيها باعتبارها ولأسباب كثيرة بيئة ملائمة لتحقيق طموحاتهم التجارية.

ويبدو أن وجود طائفة يهودية في الكويت، كان مثار اهتمام للمراقبين والزائرين، فهذا الكولونيل لويس بيلي Lewis Pelly المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج العربي يذكر في تقرير كتبه عن انطباعاته خلال زيارته للكويت عام 1863م، الكثير من المعلومات عن أحوال التجارة فيها، خاصة التجارة البرية.

كما وصف مظاهر الحياة الشائعة في ذلك الوقت، فتحدث عن جلوس الحاكم

ARCHIVE

والقضاة معاً لسماع الأخبار وتبادل الآراء وإصدار الأحكام في القضايا المتعلقة بشئون الأهالي، وعرج على الأحوال التجارية وحركة الأسواق والعملات المتداولة آنذاك مثل الدولار، وكران فارس، والقروش النحاسية التركية، ثم أتى على ذكر اليهود، فأشار إلى وجود جالية منهم تقيم وتعمل في الكويت في ظل تسامح ديني يشمل الجميع(Lewis, P. 1865: 10). ويعد تقرير الكولونيل لويس بيلي، أول إشارة تنبئ عن وجود يهود في الكويت.

التواجد اليهودي في منطقة الخليج العربي في النصف الأول من القرن العشرين:

الكويت:

لم تعين المصادر التاريخية المعنية بتاريخ الكويت، تاريخاً محدداً لبدء الوجود اليهودي على أرضها، وإن كان البعض قد أرخ لهذا التواجد بتطور التجارة وازدهار الأسواق ولكن دون ما تأصيل لتاريخ معروف، أو بمعنى آخر ربط وجود اليهود بحركة التجارة ولهذا ذكرت أنهم - أي اليهود - عملوا في العديد من المهن فبرز منهم التاجر، والصراف، والصائغ، والصانع، كما اشتملت تجارتهم أيضاً على الأقمشة والحبوب والخضروات(النوري، ع. 1985: 165).

ARCHIVE

والواقع أن الكويت شهدت نشاطاً تجارياً وازدهارا كبيرين بفضل الاهتمام الذي أبداه حكامها، وكان من شأنه تيسير أمور التجارة وكل الشؤون المتعلقة بها، كما أن التسامح الديني الذي كان سائداً كان عاملاً رئيسياً وراء قرار السماح للإرسالية التبشيرية الأمريكية بالعمل في الكويت إبان عهد الشيخ مبارك الصباح (1896م- 1915م)(الشملان، س. 1986: 142)، حيث قامت الإرسالية بإنشاء المستشفى الأمريكي عام 1912م بالإضافة إلى افتتاح مكتبة تبشيرية. أما اليهود فقد سمح لهم أيضاً بإقامة «كنيس» بوسط مدينة الكويت لاستخدامه في ممارسة طقوسهم الدينية على الرغم من محدودية عددهم في ذلك الوقت(الغانم، خ. 2000: 12).

أما من حيث أعداد اليهود في الكويت، فإن المصادر اختلفت في التقدير، فبعض المصادر قدرت أعدادهم بنحو مائة عائلة في أواخر القرن التاسع عشر وهي التي قامت ببناء الكنيس وتعود في أصولها إلى العراق(كيوان، م. 1996: 64).

فيما أشارت مصادر أخرى إلى أن عدد الأسر اليهودية التي عاشت في الكويت

لفترة طويلة ناهز ثلاث وثمانين أسرة، ويرى البعض الآخر أنها تصل إلى مائتي أسرة(القبس، ك. 2003: 32).

ويذكر عبد العزيز الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» الصادر عام 1926م، أن عدد السكان بالكويت يصل إلى «ثمانين ألف نسمة يدينون بالدين الإسلامي ماعدا نفر قليل من اليهود يبلغ عددهم مائة وخمسون، وأقل من هذا العدد مسيحيين»(الرشيد، ع. 1926 : 68)، في حين تذكر آراء أخرى أن البعض منهم جاءوا من العراق وعاشوا فيها لفترة من الزمن وأن الكويتيين لم يتعمقوا كثيراً في تعاملهم مع اليهود مما اضطرهم مرغمين إلى مغادرة الكويت الواحد تلو الآخر، إلى أن صفيت الكويت من هذه الجراثيم التي طالما نفثت سمومها في ربوع الكويت»(الرشيد، ي. 1978 : 91).

أما الشيخ عبد الله النوري فيشير في كتابه «حكايات من الكويت» إلى أن عدد دور «منازل» اليهود في الكويت بلغ مائة دار في عام 1927م(النوري، ع. 1985 : 166)، وتقع مقبرة اليهود في مكان مقابل مطافئ الهلالي حالياً، وعدد القبور فيها قليل(القبس، ك. 2003 : 32).

النشاط الاقتصادي والاجتماعي لليهود:

حرص اليهود كما هي عاداتهم المتوارثة على «السكن مجتمعين في أزقة ضيقة، وكان لهم معبدهم الذي يجتمعون فيه لممارسة شعائرهم في يوم عطلتهم الذي يوافق يوم السبت(النوري، ع. 1985: 165)، وعرف فريجهم «حيهم» باسم فريج اليهود(القبس، ك. 2003 : 32).

ومن المعلوم أن يوم السبت هو يوم عطلة اليهود الأسبوعية، وفي هذا اليوم يتوقف أو يقل نشاطهم إلى حد بعيد(الشيباني، م. 2000 : 25)، في حين تزداد حركتهم في يوم الجمعة الذي يسبق يوم عطلتهم(النوري، ع. 1985 : 166).

وقد أتى على ذكر يهود الكويت، المبشر الأمريكي صموئيل زويمر Zoomer في معرض وصف رحلته إلى الكويت قادماً من البحرين التي غادرها في 14 فبراير 1903م فقال إن أول من استقبله لدى وصوله إليها كان المدعو سلوم عنتون المسيحي الذي كان يعمل في بيع الكتب التبشيرية، ويضيف زويمر «شعرت براحة كبيرة ولم أتعرض لأي مضايقات رغم كوني مسيحياً يقيم بالقرب من عائلات مسلمة،

وفي كثير من الأوقات نستقبل زواراً كثيرين، منهم حاخام يهودي أشاد بعظمة يسوع المسيح»، واختتم حديثه بالاعتراف صراحة بوجود تسامح ديني في الكويت، ذلك التسامح الذي أتاح لسلوم عنتون فتح مكتبة تبشيرية يباع فيها الإنجيل وسواه من كتب العقيدة المسيحية(البسام، خ. 1998: 136- 139).

وعاش اليهود في ظل هذا التسامح حتى أنه تم السماح لهم بدخول المدارس في عهد الشيخ مبارك، حينما افتتحت الإرسالية الأمريكية في الكويت مدرسة صغيرة تركز على تعليم اللغة الإنجليزية وبعض العلوم، وكان عدد طلبتها يتراوح مابين تسعة وعشرة تلاميذ مسلمون بالإضافة إلى ثلاثة من اليهود ولكن المدرسة توقفت عن أداء دورها في ديسمبر 1912م(البسام، خ. 1998: 137).

هذا وكان للجمعية الخيرية التي افتتحت في الكويت عام 1913م بفضل بعض رجالها الخيرين دوراً في تحول بعض اليهود المقيمين في الكويت إلى دين الإسلام، واضطلعت بدور هام في التعليم وإرسال الطلاب إلى الجامعات العربية في مصر ودمشق وبيروت، كما جلبت إلى الكويت طبيباً وصيدلياً لمعالجة الفقراء والمحتاجين، وفي حفلة خاصة أقامتها الجمعية في 1913هـ أقدم بعض الرجال من اليهود والنصارى على إشهار إسلامهم، وعلى الأثر قامت الجمعية بتوفير سبل إيوائهم وأعاشتهم والشد من عزيمتهم على خير ما يرام(الرشيد، ع. 1926: 143-142).

من المصادر الأخرى التي تناولت شأن اليهود في الكويت، ما ذكره المبشر الأمريكي الدكتور ستانلي ماليري Mylrea عن أوضاع التبشير في الكويت، فقد لاحظ أن كتاب «العهد الجديد» هو أكثر الكتب مبيعاً في مكتبة «حنا» التبشيرية وأفاد بأن العمل التبشيري لم يقتصر على المسلمين فقط، وإنما تعداهم إلى اليهود أيضاً، وفي هذا الصدد تحدث عن ما كان يدور نقاش وحوار بين بائع الكتب في المكتبة «ميشيل» واليهود، ومنها ذلك السؤال الذي سأله ميشيل لليهود «لماذا لا تعترفون بالمسيح، فأجابوا بأنه «لم يأت بعد»(البسام، خ. 1998: 136-139).

وفي معرض حديثه عن المدرسة التبشيرية خلص إلى أنها في غاية الأهمية للعمل التبشيري في الكويت، وقال إن عدد تلاميذها قد وصل إلى 34 تلميذاً عام 1916م،

عدد منهم ستة يهود وثلاثة مسيحيين ومعدل أعمار الطلبة فيها لا يتجاوز 12 عاماً، والدراسة فيها مجانية بلا أية رسوم((البسام، خ. 1998: 37).

أما بالنسبة للعائلات اليهودية التي أقامت في الكويت فهي: محلب وساسون وصما ئويل وساؤول وحصفير وعزرا ويعقوب والياهو وجماعة صالح، فضلاً عن عائلة يهودية غنية كانت مولعة بآلة القانون الموسيقية، عرف من أفرادها المدعو صالح الذي اشتهر باسم «صالح الكويتي»، وشقيقه داود وهما اللذين كونا فرقة موسيقية اتخذت من منطقة المرقاب «الرميلة» مكاناً للغناء(عبد المغني، ع. 2000: 71/1)، كما اشترك الأخوان صالح وداود في الفرق الموسيقية في إذاعة بغداد عند قيامها 1936م(غنيمة، ي. 1997: 302).

مهن اليهود:

عمل اليهود في العديد من المهن في الكويت، إلا أن تركيز نشاطهم كان في العديد من الأعمال التجارية التي اختصوا بها، كما كانت لهم أسواق خاصة بهم عرفت باسم «سوق اليهود»، ومعظم يهود الكويت من «رجال الأعمال الذين عملوا بالكويت»(كيوان، م. 1996: 64)، ولعل أول الوثائق التي تشير إلى نشاطهم الاقتصادي، تلك الوثيقة التي تعود إلى سنة 1901م، وتتضمن عملية بيع وشراء لدكان (محل) قريب من مسجد السوق تعود ملكيته لأحد اليهود ويدعى «داود ابن إبراهيم» ومما جاء في تلك الوثيقة:

«ثبت كما ذكر لدى وأنا العبد الفلاني محمد ابن عبد الله العدساني السبب الداعي إلى تحرير هذه الأحرف الشرعية هو أنه قد باع داود إبراهيم اليهودي (من حاملة هذا الكتاب) شريفة بنت أحمود الشايع، وهي أيضاً قد اشترت منه ماهو ملكه إلى حين حدود هذا البيع منه وهو الدكان الكائن قريب من مسجد السوق المحدود قبلتا وشمالاً دكان عبد الخضر أبو عباس وشرقاً دكان محمد ابن أحمد آل موسى جنوباً الطريق وهو السوق العام بثمن قدره وعدده مائتي ريال وأربعين ريال وسلمت الثمن بتمامة وكفالة المشتري شريفة المذكورة بيد البايع داود والمزبور بيعاً صحيحاً شرعياً فبموجب ما ذكر من البيع وتسليم الثمن وقبضه صار الدك ان المبيع المذكور مالاً وملكاً للمشترية شريفة المذكورة تتصرف فيه كيفما تشاء وتختار حتى لايعض حيرا وحرر من 13 ربيع الأول 1323هـ وشهد بذلك محمد ابن

فهد المخشوم(العدساني، م. 1901: 1).

ومن المهن التي مارسها اليهود ، صناعة الثلج، وقد امتهن هذه المهنة أحد اليهود المقيمين بالكويت ويدعى صالح محلب، فقام في عام 1912م بإنشاء أول معمل لصناعة الثلج في الكويت قرب مسجد آل خليفة على ساحل البحر، وبدأ العمل في المشروع الجديد في نفس العام، حيث كان يتم توزيع الثلج على الباعة في بداية الصيف، وبطبيعة الحال نجح المشروع وشهد إقبالاً كثيفاً من الأهالي نظراً لطبيعة الطقس الحار في الكويت، وقد واجه المشروع رغم أهميته عراقيل شتى أبرزها معارضة الطائفة الشيعية في الكويت التي حرمت على أبنائها شراء الثلج من اليهودي ومن ثم وجد «صالح محلب» صعوبة في استمرار نشاطه الصناعي فاضطر لإغلاق المصنع لفترة طويلة ريثما تهدأ الأحوال، وبعد أن اشتد يأسه من إعادة افتتاح مصنعه وبدء نشاطه اتخذ قراراً بإغلاقه إلى أن اشتراه منه السيد محمد حسين معرفي(الحاتم، ع. 1982: 160).

وقد استفاد اليهود من أجواء التسامح التي سادت الكويت على يد حكامها مما أسهم بقدر كبير في امتهانهم العمل في الكويت، ففي عهد الشيخ أحمد الجابر(أبوحاكمة، أ. 1984: 351) قدم إلى الكويت تاجر يهودي من منطقة عبادان في إيران يدعى «عزرا علفي»، حيث قام بعقد اتفاق مع الملا صالح سكرتير الحاكم يقوم بموجبه بشراء مصارين الذبائح إثر زيادة الإقبال عليها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى باعتبارها من الأغذية المفضلة في الغرب، على أن يتعهد التاجر اليهودي بدفع ما قيمته خمسة آلاف روبية للحاكم سنوياً، ولكن المشروع لم يستمر طويلاً وتعرض التاجر لخسائر بلغت خمسين ألف روبية(الحاتم، ع. 1982: 161).

وفي مجال آخر، عمل اليهود في تجارة بيع اللحوم متبعين أساليبهم المعتادة، في التضييق على الكويتيين أصحاب الأرض، ومثال ذلك ما حدث لمحمد بوشهري بعد حصوله على امتياز من الشيخ مبارك عام 1910م لشراء المصارين من محلات بيع اللحوم ولكن توقف معمله بسبب الحرب العالمية الأولى، وبعد عودة محمد بوشهري للعمل في معمله عام 1934، دخل في منافسته تاجر يهودي عرف باسم «داود» وهو الذي شارك التاجر عبد الله ملا صالح من قبل، حيث اتفق مع بائعي اللحوم

المعروفين بـ «القصابين» على تزويد اليهودي داود بالمصارين بنفس السعر الذي يمنحهم إياه محمد بوشهري الذي كان متفقاً معهم في وقت سابق على سعر «آنتين» لمصران الخروف، و«آنه» واحدة مصران الماعز، وقد نجح اليهودي في خطته مستغلاً معمله الجاهز، حيث كان ينظف المصارين ويغلفها، وقد صدر أول شحنة تجارية إلى الولايات المتحدة. أما محمد بوشهري فقد تقدم بشكوى للشيخ أحمد الجابر متضرراً من مرافسة اليهودي والتضييق الذي مارسه عليه.

بيد أن اليهودي لم يلبث أن واجه مشكلة مع الشركة الأمريكية المستوردة التي أعادت شحنته المصدرة إليها مرة ثانية إلى الكويت لأنها كانت متعفنة، وإثر ذلك التطور هرب اليهودي داود خوفاً من المسائلة بينما اتفقت نفس الشركة مع محمد بوشهري على تزويدها بالمصارين تعويضاً عن المصارين التالفة التي أرسلها اليهودي إليها من قبل، وقد استمر العمل لفترة إلى أن تم إغلاق المعمل في بداية الخمسينات من القرن الماضي(جمال، م. 2003: 329). واستمرت الأعمال التجارية لليهود في الكويت، فقاموا بإنشاء مصانع أخرى منها مصنع للبلح(القبس، ك. 2003: 32).

ومن أشهر المهن التي امتهنها اليهود، كانت تجارة الأقمشة وكان لها سوق خاص بها عرف باسم سوق اليهود، ففي عهد الشيخ مبارك الصباح ازدهرت التجارة وساد الأمن والآمان بفضل اهتمام ورعاية الحاكم كما سبق أن ذكرنا لأن التجارة تعد في الحقيقة شريان الإمارة الحيوي، وحدث أن قام بعض قطاع الطرق بين الكويت والزبير بسرقة القوافل التي تحمل الأقمشة (الخام) الخاص ببعض يهود الكويت، فكان الحاكم الشيخ مبارك حريصاً على إرجاع الحق لأصحابه، ونجح في تحقيق ذلك على الرغم من أن أصحاب الحق من غير المسلمين(الرشيد، ع. 1926: 218).

أما عن موقع هذا السوق فكان يقع في مقابل سوق الصفافير حالياً(القبس، ك. 2003: 18)، يبيعون فيه أصناف الأقمشة «مخمل وشال»، ومن أشهر تجارهم المعروفين في الكويت «عزرا» الذي عرف عنه بيع الأقمشة على المنازل عن طريق وضعها فوق رأسه(الوطن، ك. 2003: 18).

هذا وكان سوق اليهود الذي سمى فيما بعد بـ «سوق القطان» من الأماكن

الرئيسية لبيع الأقمشة في الكويت، واستمر في احتضان هذا النشاط حتى منتصف العشرينات من القرن العشرين، وفي الثلاثينات من نفس القرن تحول البازون «أي بائعو الأقمشة» إلى سوق بن رشدان، ومن المعروف أن لتجارة الأقمشة أهمية كبيرة، وكان التجار يستوردونها معبأة في صناديق خشبية كبيرة، تنقل من السفن الراسية في الميناء والقادمة أصلاً من موانئ الهند وأوروبا بدءاً من أربعينات القرن الماضي(جمال، م. 2003: 329).

ومعظم الأقمشة كانت تسورد من الهند وبريطانيا، وهي أنواع كثيرة منها: الجيت والشاش وخشم البلبول وازقرنات وجين وابريسم «الحرير» واللاف (النايلون) والنبسور والأمريكن. هذه الأنواع وغيرها كانت تباع إما في المحلات الخاصة بها أو عن طريق الباعة الجائلين بين البيوت(عبد المغني، ع. 2001: 1/71).

وكان السيد خليل القطان، قد اشترى العمارة القديمة والبيوت المحيطة بها من السيد إبراهيم جمال عام 1895م، ثم هدمها وأقام مكانها سوقاً تجارياً «قيصرية» تحوى عدداً من المحلات، كان لليهود نصيباً منها، حيث استأجروا المحلات وعملوا فيها ببيع الأقمشة، وعرف هذا السوق باسمهم، واستمر هذا السوق نشطاً على مدى ثلاثين عاماً إلى أن جرى إغلاقه في العقد الثاني من القرن العشرين، وبعد ذلك بنيت قيصرية «مجمع» بن رشدان القريبة من السوق، ولما كانت القيمة الإيجازية فيها أرخص، لذا انتقل إليها التجار اليهود وغيرهم وعرفت أيضاً بسوق اليهود(جمال، م. 2001: 159- 160).

وفي هذا السياق كان التعامل قائماً بين التجار الكويتيين وبين التجار اليهود ولم يكن ذلك قاصراً على الداخل، ولكنه امتد ليشمل مناطق أخرى في الخارج مثل البصرة، ومثال هذا هو قيام التاجر الكويتي المعروف هلال فجحان المطيري بشراء قطعتي أرض مزروعة نخيلاً في منطقة البصرة من أحد تجار اليهود(الوطن، ك. 2003: 18)، كما كانت السفن الكويتية تتعامل معهم وتعينهم في تجارتهم، فكانت تحمل بضائع من الهند وكراتشي مثل «الكركم، السبال المقشر» لواحد من تجار البصرة، وحملت أيضاً شحنة فحم لتاجر يهودي آخر في البصرة(مقابلة شخصية، 2003)، وكما كانت البواخر الكويتية تنقل شحنات من الأقمشة وصناديق الشاي لصالح واحد من تجار اليهود المقيمين في البصرة(الوطن، ك.

.(18 : 2004

ويذكر السيد لافي اللافي الذي عمل بالتهريب بين السعودية والعراق أنه توقف عن عمليات التهريب التي كان يمارسها مع بضائع مثل الشاي والقهوة والأقمشة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام 1945م، وأنه كما قال «كنت أحتفظ بأموالي في العراق لدى تاجر يهودي اسمه شفيق عدس، وأستلم منه إيصالاً بالمبلغ، ثم أستلم الأموال في الكويت من شخص يقال له ربيعه بسبب الخوف من قطاع الطرق»(مقابلة شخصية، 2004).

ومن الغريب أن التاجر اليهودي شفيق السالف الإشارة إليه، ما لبث أن عاقبته الحكومة العراقية بعقوبة الإعدام بعد أن اتهمته بالقيام بنشاطات موالية للصهيونية(أتيجنر، ص. 1995 : 36).

ونخلص من كل ما تقدم إلى أن التعاون ظل قائماً بين بعض من الكويتيين واليهود في النواحي التجارية.

إبعاد اليهود عن الكويت:

تضافرت عدة عوامل واعتبارات منفرة، كان من شأنها إحداث تذمر شاب نفوس أهالي الكويت من الجالية اليهودية المقيمة على أرض الكويت، وأدت في نهاية المطاف إلى المطالبة بإبعاد هذه الفئة عن الكويت، خاصة بعد شيوع أخبار المجازر التي ارتكبها اليهود في فلسطين، وكان أن استجابت الدولة لمطلب أهالي الكويت وقررت ترحيل هؤلاء اليهود إلى مواطنهم الأصلية(الشيباني، م. 2000 : 25).

وصحيح أن الأفعال الإجرامية اليهودية في فلسطين كانت ذا أثر فعال في شحن مشاعر الكويتيين ضد اليهود، ولكنها لم تكن السبب الوحيد، ذلك لأن اليهود المقيمين في الكويت لم يتورعوا عن ارتكاب بعض الأفعال المنافية للآداب العامة كتصنيع الخمور سراً، وبيعها للشباب المنحرف الذي أصبح من خاصة زبائن اليهود(النوري، ع. 1985 : 165). وقد عرف عن أحد اليهود ويدعى «جرجيس» وكان مقيماً في منزل السيد «حسن باشا»، أنه يقوم بصنع الخمور وبيعها، ومن أن أحد الأفراد اليهود، كان يتناول الخمر بشكل يومي، حتى إذا وصل إلى حافة الثمالة، خرج إلى الشارع مترنحاً وحال مروره على جمع من الناس، كانوا يسخرون منه

قائلين «كيجه» ومعناها «دايخ» أو«ثمل»(القبس، ك. 2003 : 32).

والحقيقة أن كراهية أهالي الكويت لليهود تجذرت تماماً من جراء الأعمال الإجرامية الرهيبة التي مارسها اليهود ضد الشعب الفلسطيني إبتداء من أعوام 1921م، 1926م، 1927م، لاسيما مذبحة الخليل، ولهذا كان من الطبيعي أن تجد تلك الأحداث الدامية صدى واسعاً في نفوس الكويتيين فازدادت بالتالي مشاعر الحنق والغضب على الوجود اليهودي، وقد عبر الكويتيون عن ذلك بوسائل شتى، منها ما ذكره السيد عادل عبد المغني في كتابه «سور الكويت»، حيث تناول واقعة طريفة تعرض لها أحد المقيمين اليهود، عندما مر في طريقة على جمع من الأهالي وألقى عليهم التحية، فلم يتجاوب مع تحيته أحد باستثناء عجوز أعمى، فأثار ذلك دهشة الآخرين، وعاتبوه على رده على اليهودي قائلين: ألا تعلم أن من أفشى التحية يهودي، فإذا بالأعمى يتنبه للموقف وقام من فوره باللحاق باليهودي قائلاً له «رد سلامي»(عبد المغني، ع. 2001: 71/1). ومن الطريف أيضاً أن بغض اليهود كان فاعلاً حتى في صدور الشباب حديث السن اللذين كثيراً ما قذفوا اليهود بالحجارة وهم يغنون «اليهودي ما يصلي، الدجاجة أحسن منه»(الوطن، ك. 2004 : 18).

هذا بالنسبة لجموع الشعب، ولا ريب أن الحكام كانوا أيضاً يحملون ذات المشاعر، فالشيخ عبد الله بن جابر «ابن عم الحاكم الشيخ أحمد الجابر» الذي كان يتولى مسؤولية الشئون الأمنية عام 1927م، كان يحمل قدراً من النفور والتذمر تجاه اليهود، فإذا أهان يهودياً على فعل مؤثم اشتد في إهانته وإذا حاكمه عن اتهام ما أغلظ له العقوبة، وقد أثمرت ك ل تلك التداعيات في التعجيل بخروج اليهود من الكويت، وكان أن أُبعد أول يهودي عن الكويت في عام 1930م، ومن ثم توالى خروجهم بعد أن شعروا بنبذ الجميع لهم، فباعوا منازلهم وعقاراتهم بأرخص الأسعار بغية الفرار من أرض الكويت، ومثلما اختلفت المصادر في تعيين تاريخ محدد لوصول اليهود إلى الكويت، فقد اختلفت أيضاً في تحديد تاريخ لإبعادهم عنها، وطبقاً لما ورد في كتاب عبد الله النوري «حكايات من الكويت» فإن «آخر يهودي أبعد عن الكويت كان في عام 1936م، وبهذا استراحت الكويت من اليهود وفسادهم وإفسادهم»(النوري، ع. 1985 : 166- 167).

ويبدو هنا أن التاريخ الذي حدده عبد الله النوري، كان مرتبطاً بالأوضاع السائدة في فلسطين وما شهدته من مجازر يهودية بحق الشعب الفلسطيني وربما كان ترجيح عبد الله النوري للتاريخ المشار إليه عائداً إلى ثورة أمين الحسيني في فلسطين عام 1936م.

بينما ترجح مصادر أخرى طرد اليهود في عام 1947م بعد أن أصدر الشيخ أحمد الجابر مرسوماً يقضي بإبعادهم من الكويت بعد أن أدرك خطورة استمرار وجودهم في الأرض العربية (العذبي، م. 2000: 390).

هذا على الرغم من أن مصادر ثالثة ترجع بتاريخ إبعادهم إلى فترة متأخرة استنادا على مغادرة البعض منهم إلى العراق، والبعض الآخر إلى إسرائيل ومنهم الموسيقي المشهور داوود وصالح الكويتي(كيوان، م. 1996: 64).

وبعد ما استعرضنا آنفاً بشأن الطائفة اليهودية المحدودة العدد في الكويت ومدى ما كان يكنه شعب الكويت تجاهها من مشاعر ومظاهر البغض والنفور والرفض القاطع والمستمر لتواجدهم على أرض الكويت نتيجة لممارساتهم الغير سوية، يمكننا أن نقطع بضآلة وضحالة وجود تأثير لهم سياسياً كان أو اقتصاديا.

البحرين:

أشارت المصادر التاريخية في العصر الحديث إلى وجود يهودي ممثل في طائفة يهودية مقيمة في البحرين منذ نهاية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر(كيوان، م. 1996: 63) دون إعطاء تفاصيل أو إحصاءات عن حجم هذا الوجود والنشاط الاقتصادي المصاحب له.

أما في فترة العشرينات من القرن العشرين، فقد تأكد وجود جالية يهودية قدر عددها ما بين 300 - 400 فرد، قدموا إليها من الهند وإيران والعراق، امتهن أفرادها التجارة والصرافة وتجارة العقارات وعرفت بثرائها، وفي نهاية النصف الأول من القرن العشرين تكونت جالية يهودية قدرت بحوالي 250 يهودياً يمثلون الطبقة المتعلمة والتجارية في البحرين(صراي، ح. 2000- 2001: 38).

وتعد الجالية اليهودية في البحرين من أقل الجاليات الموجودة فيها عدداً بالمقارنة بالجاليات اليهودية الأخرى في الوطن العربي بما في ذلك دول الخليج العربية، وجدير بالذكر أن عمل ونشاط هذه الطائفة تركز على نحو خاص في القطاعات التجارية

والمالية ذات العلاقة بأعمال الصيرفة قبل اشتعال ثورة الشعب الفلسطيني عام 1948م ضد اليهود في فلسطين المحتلة(شهاب، ص. 1984 : 515).

هذا عن النشاط الاقتصادي، أما على الصعيد الاجتماعي فكان نشاط الجالية اليهودية محدوداً، ومن ذلك على سبيل المثال قيام اليهودي ناجي زلوف، رئيس قسم العلاقات العامة بشركة «بابكو» العاملة في البحرين في الخامس من ابريل عام 1941م بتشكيل فريق تمثيلي لأداء مسرحية اجتماعية في مقابل بعض الإغراءات المالية بالاشتراك مع بعض الكويتيين الزائرين للبحرين، ومنهم شيخان أحمد الفارسي، وبدر أحمد الحداد، وصالح جاسم شهاب، وكان من المقرر تخصيص ريع المسرحية لصالح صندوق المحاربين الإنجليز "Fighters Fund" وقد أثار اشتراك الكويتيون في تمثيل المسرحية استياء عميد الكويتيين في البحرين السيد عبد الله بودي على اعتبار أن المعنيين طلبة علم وليسوا طلبة تمثيل، ولأن ريع الحفلة سوف يخصص لصالح المحاربين الإنجليز الذي هم في واقع الأمر معادون للعرب ويعملون بكل قواهم من أجل إقامة وطن لليهود في فلسطين(شهاب، ص. 1984 : 528-529).

ولكن التحفظ الكويتي لم يردع ناجي زلوف، فازداد إصراراً على اشتراك الطلبة الكويتيين وإلا فرض عليهم غرامة مقدارها 100 روبية طبقاً للعقد المبرم، وأمام هذا التضاد تدخل في الأخر عبد الله بودي وهو من المجيدين للغة الإنجليزية للمساعدة في حل المشكل القائم بين الكويتيين واليهودي ناجي زلوف عبر اتصاله بالمعتمد البريطاني «ألنبي»، وكان مستشار القنصلية البريطانية في البحرين بلجريف قد أشار في رسالته إلى المعتمد البريطاني بعدم السماح للطلبة الكويتيين بدخول المدرسة ما لم يشتركوا في المسرحية(R/15/2/841, 1941:1). ولكن بفضل المساعي الحميدة لـ عبد الله بودي، رد المعتمد السياسي البريطاني على رسالة المستشار بلجريف المؤرخة في 19 مايو 1941م، طالباً منه مراعاة صغر سن هؤلاء الطلبة، ومناشدة المسئولين عن المدرسة السماح لهم بالعودة إلى مقاعد الدراسة(R/15/2/841, 1941:1).

واستطرادا، لم تكن المشكلة السالف بيانها هي نهاية المطاف، إذ وقعت بعد ذلك بعض المشاحنات بين الطلبة البحرينيين المسلمين من جهة وبين أفراد الجالية

اليهودية في المدرسة، ومنها تلك التي حدثت أثناء قيام أحد أفراد البعثة التعليمية الفلسطينية ويدعى محمد رفيق اللبابيدي بتدريس مادتي التربية الإسلامية واللغة العربية، أن أتى على ذكر الرسالة المحمدية مذكراً بما تعرض له الرسول محمد بن عبد الله من إيذاء الكفار، فضلاً عن اليهود الذين كانوا من مثيري الفتن في المدينة المنورة.

وقد أثار هذا الدرس أحد الطلبة البحرينيين، فصاح بأعلى صوته قائلاً: «لعنهم الله» فما كان من الطالب اليهودي المناظر سوى الرد بقوله «لعنكم الله أنتم» وعلى أثر هذه الملاسنة المتبادلة بين الطالبين، حدث اشتباك بينهما تبودلت فيه الشتائم، بينما لم يستطع المدرس فض الاشتباك والسيطرة على الموقف، بيد أن الطالب اليهودي لم يقنع بتدخل بعض الأطراف فتقدم بشكوى لـ أدريان فالانس «Falance» وهو أحد المسئولين البريطانيين العاملين في البحرين، حيث قام الأخير بدخول الفصل عنوة وعاقب الطالب البحريني بالضرب وأخرجه من صفه بالكلية، في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع محتقنة والنفوس متذمرة من الأحداث التي تجري في فلسطين الموضوعة تحت الانتداب البريطاني، وجاءت واقعة الضرب لتزيد الطين بله، وهذا ما دفع بالأهالي إلى تقديم احتجاج إلى مدير المعارف الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة، وبطبيعة الحال تجاوب الشيخ مع مطلب الأهالي وفصل المسؤول البريطاني من عمله(شهاب، ص. 1984: 528- 529).

هذا وكانت الإحصاءات قد أشارت إلى أن عدد اليهود في البحرين وصل إلى 422 يهودياً في خريف عام 1948م معظمهم من أصول فارسية وهندية وعراقية، وأتى قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ليزيد النفوس توتراً وتذمراً واشتعالا خاصة بعد المذابح التي تعرض لها الشعب الفلسطيني، فخرجت المظاهرات المنددة تدين هذه الجرائم اليهودية المؤلمة بحق الفلسطينيين(كيوان، م. 1996: 63)، وكانت هذه المظاهرات دليلاً لا يقربه الشك على انعكاس الأوضاع في فلسطين على أوضاع اليهود داخل البحرين.

عُمان:

على الرغم من تقديم الإرسالية الأمريكية بعض المعلومات عن اليهود في عُمان، إلا أن العديد من المصادر الأخرى لم تؤكد وجودهم في عُمان في النصف الأول من

القرن العشرين، ومن ذلك ج.ج لوريمر Loremer الذي زار منطقة الخليج العربي في بداية القرن العشرين ودون ملاحظاته في كتابه دليل الخليج، حيث لم يشر إلى أي وجود يهودي في عُمان في الفترة ما قبل عام 1905م(Loremer, J. 1984:2/1838/1840).

في حين ناقضت بعض الدراسات لوريمر وأكدت عدم وجود معابد يهودية أو نقوش تدل عليهم في عُمان باستثناء منطقة صحار، حيث وجدت آثار صغيرة محدودة فضلاً عن مقبرة يهودية خارج المنطقة تقع على مسافة كيلو ونصف كيلو متر من سور المدينة في مكان يسمى «جمبيدا»، هذه المقبرة احتوت على حوالي 200 قبر طبقاً لإحصاء تم في عام 1958م(صراي، ح. 2000- 2001: 40).

والواقع أن محدودية المعلومات تؤكد على عدم وجود دور سياسي واقتصادي لهذه الطائفة المحدودة العدد جداً، التي أقامت في الغالب بمنطقة صحار البحرية المنفتحة طوعاً على الحضارات الأخرى، ومن ثم فمن المرجح أنهم وفدوا واستقروا في هذه المنطقة منذ فترات سابقة.

باقي مناطق الخليج العربي :

بداية لم تؤكد المصادر العديدة عدم وجود يهود في المملكة العربية السعودية في العصر الحديث باستثناء تواجد أعداد محدودة جداً من التجار اليهود في عهد الشريف غالب في القرن الثامن عشر، كما سبق وأشرنا إليه في مستهل هذه الدراسة، وهذا التواجد المحدود ربما كان مرتبطاً بخصوصية المنطقة، ولظهور الوهابيين (السلفيين) اللذين أقاموا دولة الموحدين في الدرعية في نجد، ثم جاء من بعدهم الإخوان وهم امتداد لهم حيث ظهروا في بداية القرن العشرين وعرف عنهم الشدة والتعصب ضد المذاهب والطوائف الأخرى.

هذا فيما يتعلق بمنطقة نجد، أما منطقة الحجاز فذات شأن أخص، فهي تضمن أقدس أقداس المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ونظراً لكون هذه المناطق تحمل صبغة دينية باعتبارها قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لذا كان من الصعوبة بمكان إن لم يكن من المستحيل تواجد يهود في تلك المناطق المقدسة.

أما مناطق قطر والشارقة وأبوظبي، فقد كانت تحت تأثير تعصب ديني إسلامي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شديد لم يتح على الإطلاق فرصة لتواجد اليهود فيها، بل واجه المسيحيون ظرفاً مماثلاً وإن كان أقل حدة، حيث تعرضوا لمضايقات كثيرة عبرت عن الرغبة السائدة في عدم القبول بتواجدهم. وفيما يختص بالشارقة، لم تشر المصادر إلى وجود للدين اليهودي فيها، ناهيك عن معارضة أهالي تلك المنطقة لنشاط الإرسالية التبشيرية الأمريكية وقراءة الإنجيل وعلى هذا يتضح أن التعصب للدين الإسلامي الحنيف وقف حجر عثرة في وجه التواجد اليهودي، وكان هذا أمراً طبيعياً في ظل تمسك بالعقيدة وتشدد في تطبيقها لدرجة تحريم التدخين أحياناً وبغضه دائماً(البسام، خ. 1998 : 72- 73).

وفي هذا السياق نذكر زيارة المبشر الأمريكي «ج. بنينجش Benjensen» لقطر عام 1918م وما أشار إليه من تعصب ديني ملحوظ في مدينة الدوحة، وإلى ذلك أشار أيضاً المبشر الأمريكي «الدكتور هاريسون Harson» الذي لاحظ الانغلاق الواضح الذي يلف المدينة وعزلها عن بقية العالم(البسام، خ. 1998 : 168).

أما أبو ظبي، فلم تكن بعيدة عن نفس الأجواء وذات الظروف، ودليل ذلك يتمثل في رحلة الإنجليزي «ولفريد تيسيغر» Taserker إلى أبوظبي عام 1948م قادماً من منطقة حضرموت اليمنية. حيث تشرف بمقابلة حاكم أبو ظبي الشيخ شخبوط، وقدم وصفاً لجوانب شخصية الشيخ ومجلسه، وتناول ما دار بين الحضور من مناقشات تناولت العديد من الأمور المتعلقة بشؤون البلاد، وأشار إلى حديث الشيخ شخبوط عن الحرب في فلسطين، وما وجهه من انتقادات بالغة العنف لممارسات اليهود في فلسطين(عطا الله، س. 1999 : 127).

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث يمكن لنا استخلاص بعض الملاحظات التي توصلنا إليها في دراستنا والتي نجملها في النقاط التالية:-

تضاؤل أهمية التجمعات اليهودية بمنطقة الخليج العربي في الفترة الزمنية التي استقصتها الدراسة المذكورة، إذا ما قورنت بالتجمعات اليهودية الأخرى في الوطن العربي، ونخص بالذكر منها العراق واليمن والمغرب العربي ومصر.

- انتفاء أي دور سياسي لليهود في تلك الفترة، إذ اقتصر نشاطهم على الجانب الاقتصادي وتحديداً التجاري منه، فقد اختصوا بتجارة الأقمشة.

- عرفت بعض مناطق الخليج العربي، كالكويت والبحرين في بعض الفترات بتسامحها الديني، وهذا أتاح لليهود إنشاء كنيس لهم يمارسون فيه شعائرهم وطقوسهم الدينية خاصة في عهد الشيخ مبارك الصباح 1896- 1915م، فضلاً عن السماح لأبنائهم بدخول المدارس، والقيام بالأنشطة الاجتماعية الخاصة بهم.

- كان للاستقرار السياسي والانتعاش التجاري الذي عرفته منطقة الخليج العربي أثر كبير وعامل جذب ساهم في قدوم اليهود إلى المنطقة والاستقرار على أرضها مع العلم أننا لا نملك إحصائيات دقيقة ومعلومات مفصلة عنهم.

- عرف عن بعض اليهود ارتكابهم الموبقات والأفعال المنافية للآداب، ولم يتورعوا عن الغش التجاري والانغلاق الديني وممارسة بعض العادات الغريبة المستهجنة، وجميع ذلك في واقع الأمر لا يتلاءم مطلقاً مع المجتمعات الإسلامية التي احتضنتهم ووفرت لهم سبل العيش والإستقرار، مما أدى إلى توتر العلاقة مع جماعات اليهود، ورفض المجتمعات الإسلامية لهم. فإذا أضفنا لما تقدم ما آلت إليه الأحوال في فلسطين وما أقدم عليه اليهود من أعمال عدائية وحشية انتهت إلى تقسيمها لدولتين إحداهما يهودية والأخرى فلسطينية، يتبين لنا حجم البغضاء التي ترسبت في النفوس من جراء أفعال هؤلاء اليهود، ولهذه الأسباب وغيرها، لم يعد لليهود وجوداً في المنطقة حتى أنه مع نهاية النصف الأول من القرن العشرين انتفى الوجود اليهودي تقريباً في منطقة الخليج العربي.

ARCHIVE

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر والمراجع العربية:

1- المصادر العربية:

- البلاذري، أحمد (1987). فتوح البلدان، بيروت.
- الرشيد، عبدالعزيز ( ). تاريخ الكويت، الجزء الأول (القسم الأول)، بغداد: المطبعة العصرية.

2 - الوثائق الكويتية:

وثيقة عدسانية 1323هـ- 1901م (بيع اليهودي داود ابن إبراهيم لدكانه إلى شريفة بنت أحمود الشايع)، الكويت.

3 - المراجع العربية:

1 - أبو حاكمة، أحمد (1984). تاريخ الكويت الحديث 1163- 1385هـ/ 1750- 1965م،

الكويت: ذات السلاسل.

2 - البسام، خالد (1998). صدمة الاحتكاك.. حكايات الإرسالية الأميركية في الخليج والجزيرة العربية 1892- 1925م، بيروت: دار الساقي.

3 - البسام، خالد (2000). القوافل رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج والجزيرة العربية 1901- 1928م، الكويت: دار قرطاس.

4 - عطا الله، سمير (1999). قافلة الحبر.. الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج 1762- 1950م، بيروت: دار الساقي.

5- الشملان، سيف مرزوق (1986). من تاريخ الكويت، الكويت: ذات السلاسل.

6 - شهاب، صالح جاسم (1984). تاريخ التعليم في الكويت والخليج أيام زمان، الجزء الأول، الكويت: وزارة الإعلام الكويتية.

7 – عبد المغني، عادل (2001). سور الكويت، الجزء الأول (ثوابت كويتية)، الكويت.

8 - الحاتم، عبد الله (1982). من هنا بدأت الكويت، الكويت.

9 - النوري، عبد الله (1985). حكايات من الكويت، الكويت: ذات السلاسل.

10 - الغانم، غانم (2000). آثار الرعيل، الكويت.

11 - فينزنزو، الملقب الشيخ منصور (1988). تاريخ السيد سعيد بن سلطان، عمان ومعه تاريخ الشعوب والأقطار على سواحل الخليج العربي، ترجمة: محمود فاضل، بيروت: الدار العربية للموسوعات.

12 - كيوان، مأمون (1996). اليهود في الشرق الأوسط الخروج الأخير من الجيتو الجديد، عمان: الدار الاهلية للنشر.

13 - الشيباني، محمد (2000). الأسواق القديمة في الكويت، الكويت: مركز المخطوطات والتراث والوثائق.

14 - جمال، محمد عبد الهادي (2001). أسواق الكويت القديمة، الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية.

15 - محمد عبد الهادي جمال (2003م). الحرف والمهن والأنشطة القديمة في الكويت، الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية.

16 - العذبي، ميمونة (2000). الكويت في ظل الحماية البريطانية، الكويت.

17 - الرشيد، يعقوب عبدالعزيز (1978). تاريخ الكويت، بيروت: دار مكتبة الحياة.

18 - غنيمة، يوسف رزق الله (1997). نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، لندن: دار الوراق.

4 - الدوريات العربية:

1 - صراي، حمد محمد بن. (2000/2001). اليهود والخليج العربي رؤية تاريخية نقدية. الكويت: حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية، الرسالة 164، الحولية الحادية والعشرون.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2 - أتينجر، صموئيل. (مايو 1995). اليهود في البلدان الإسلامية، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

5 - المقابلات الشخصية:

1 - مقابلة مع السيد لافي اللافي بتاريخ 10/5/2004.

2 - مقابلة مع السيد عبدالقادر الزايد بتاريخ 26/12/2003.

6 - الصحف الكويتية:

- جريدة القبس الكويتية:

1 - 2003/5/30

2 - 2003/11/24

- جريدة الوطن الكويتية:

1 - 2002/11/15.

2 - 2003/8/29

3 - 2004/1/30

4 - 2004/11/12

ثانياً - المصادر الأجنبية:

- 1 Lewis, Pelly. (1865). Report on Journey to Riyadh, Uk, Orleander Press.

- 2 Loremer : Gazetee of the Persian Gulf, vol. 2

- 3 Niebuhr, K: Travels Through Arabia, Public.

ثالثاً - الوثائق البريطانية:

Record Office 1 - R/15/2/841: 17 May 1941.2 - R/15/2/841: 19 may 1941.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هجرة الأندلسيين السياسية إلى المغرب الأوسط بين الانسجام والاصطدام
من القرن 7هـ - 13 م إلى القرن 8 هـ - 14 م

نصيرة عزرودي،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،

قسنطينة.

اتسمت الشخصية الأندلسية منذ البدايات الأولى للتواجد الإسلامي على الأرض الإسبانية وإلى ما بعد سقوط الأندلس بسمة هامة وهي الميل إلى التنقل والهجرة، فطبيعة الحياة التي عاشها الأندلسيون في بلادهم سواء في ظل الإسلام، أوبعد نجاح حركة الاسترداد La Reconquista جعلتهم ينزعون دائما إلى الرحيل أفواجا إلى مختلف بلاد حوض البحر المتوسط، ولا سيما إلى بلاد المغرب الإسلامي ومصر.

ولئن كانت الهجرة شاملة لكل الفئات الاجتماعية، إلا أننا سوف نقتصر بالذكر على ذوي المراتب السياسية ممن تولوا الخطط العليا جاعلين نصب أعيننا مجموعة من التساؤلات الملحة منها :

إلى أي مدى أثرت أوضاع ما بعد انقراض الخلافة الأموية على طبيعة الأندلسي الجانحة للثورة والاستقلال على ممارساته الواقعية في بلاطات المجتمع المغربي.؟

وهل أن تزايد احتواء النخب الأندلسية في بلاطات الحكام والأمراء المغاربة خاصة الحفصيين منهم والزيانيين مؤشر سريع على مدى تماسك الجالية الأندلسية وتنظيمها، أم راجع إلى إدراك الحكام للطبيعة النفسية والتكوين العقائدي والاجتماعي للأندلسيين، فكان الاحتواء والاحتضان؟

اتضحت معالم الهجرات الأندلسية نتيجة توالي سقوط الحواضر الأندلسية في يد ملوك المسيحية في اسبانيا في عصري الطوائف والمرابطين (كسقوط طليطلة سنة 487 هـ - 1085 م)، وسرقسطة سنة 512 هـ - 1118 م)، إلا أن هذا لم يؤد إلى حدوث هجرات أندلسية كبيرة وجماعية ملحوظة إلى أقطار حوض البحر المتوسط، وتفسير ذلك يرجع إلى أنه وحتى نهاية عصر المرابطين، بل وحتى نهاية الشطر الأول من العصر الموحدي في سنة 609 هـ - 1212 م كانت الكفة الإسلامية لا تزال الكفة الأرجح فيما يتعلق بميزان القوى في الصراع الإسلامي الإسباني في شبه

الجزيرة الأيبرية، ولهذا فقد كان أهالي المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الإسبان إذا ما قرروا الرحيل عن مدنهم بسبب رفضهم الخضوع للسادة الإسبان الجدد، فإنهم غالبا ما كانوا يتوجهون للاستقرار في المدن الأندلسية المجاورة لاطمئنانهم إلى سيادة الإسلام في اسبانيا وأملا منهم في العودة إلى مدنهم يوما ما. (سحر،س، 2006 : 251 - 252).

الظروف التاريخية للهجرات:

لكن الأحوال تبدلت بعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة 609 هـ - 1212 م، إذ كانت هذه الهزيمة نذيرا ببداية النهاية فسرعان ما دب الضعف في كيان الدولة الموحدية، ونشبت الصراعات بين أبناء البيت الموحدي الحاكم، وتفتتت الوحدة السياسية لبلاد المغرب، وبدأت حركة الاسترداد المسيحي في إحراز تقدم ملحوظ، فأخذت الحواضر الأندلسية تتساقط الواحدة بعد الأخرى، واستولى الملك فرناندوالثالث ملك قشتالة وليون الملقب بالقديس على مدينتي بياسة وأبدة سنة 633 هـ - 1236 م، وعلى قرطبة سنة 636 هـ - 1238 م، واشبيلية حاضر ة الموحدين نفسها في سنة 646 هـ - 1238 م، ثم جاء سقوط مدن شرق الأندلس في يد خايمي الأول، فاستولى على ميورقة والجزائر الشرقية فيما بين عامي 627 هـ - 635 هـ، واستسلمت له مدينة بلنسية في سنة 636 هـ - 1239 م، ودانية في سنة 642 هـ - 1255 م، وقلعتها الكبيرة في سنة 644 هـ - 1247 م.(المرجع نفسه : 251 - 252)

وتعد الهجرة الجبرية التي تعرض لها أهل شاطبة سنة 645 هـ - 1248 م وما تبعها من مدن وقرى في شرق الأندلس إحدى أكبر الهجرات الأندلسية في التاريخ الوسيط، فقد خرج الأهالي في عدة آلاف لم تحددها المصادر الأندلسية بدقة وتفرقوا، فمنهم من نزح إلى القواعد الأندلسية الباقية خاصة غرناطة، ومنهم من عبر البحر إلى المغرب وهناك تفرقوا في بلاد المغرب الأقصى، ومنهم من توجه إلى تونس وبجاية والإسكندرية.(ابن الآبار، أ / 2 :303 - سحر، س)شاطبة (،1995 : 320 وما بعدها)

وفي هذا يقول المقري :« اعلم جعلني الله تعالى وإياك من له المذاهب الحق انتحال أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال ». (المقري، أ / 2 :5)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومما شجعهم على الهجرة والجلاء شعورهم أيضا بالخطر والتهديد بالزوال، وهذا ما يفهم من وصية بن الخطيب لأبنائه ،وهويحذرهم من مغبة اتخاذ الأرض مصدرا للثروة ناصحا إياهم بقوله : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار وساعيا لنفسه أن يتغلب العدوعلى بلده في الا فتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى.» (ابن الخطيب، ل، ج7 : 404)

إن هذا الشعور باليأس وازاه عند من اختار الهجرة ضعف الشعور بالانتماء إلى الوطن، أوعلى الأقل عند فئة من المهاجرين، فكا نت الدعوة إلى تبديل " المقام" أقرب الحلول عندهم، إذ زال لديهم " التشبث بالأرض " وزالت معه القدرة على التضحية من أجلها ،بل حتى فكرة الجهاد من أجل الإسلام لم تعد عاملا قويا لتحريك الهمم وتوحيد الصف.(بعيزق، ص، 1999: 370)

الحواضر التي استقرت بها الجاليات الأندلسية وأدوارهم السياسية:

لقد شكلت حواضر المغرب الإسلامي عموما والأوسط خصوصا بديلا للمهاجرين وملجأ لهم، فهوبمنزلة الجسر الرئيسي الذي تعبر عليه التيارات الفكرية المختلفة في فروعها والموجودة في أصولها ، ولعل اسمه يدل على مكانته فهوالوسط ولا يمكن لأي تيار يمر من الم شرق إلى المغرب أوالعكس دون أن يترك صداه بالوسط.(أبوالقاسم،د ،1994 : 168)

من ذلك تقاطرهم على الحاضرة الزيانية تلمسان، فهي من أوائل من احتوى هذه الهجرات، خاصة وأنها شهدت نهضة علمية وعمرانية وسياسية ملحوظة منذ القرن الخامس لموقعها المتميز، كونه حلقة وصل بين مسالك التجارة الصحراوية والأندلسية من جهة، وحلقة وصل أخرى بين إفريقية والمغرب الأقصى من جهة ثانية، مما انعكس إيجابا على حياة المجتمع برفاهيته، وعلى المدينة باتساعها، والملك باستحكام الأبهة والترف فيه، مما ولد حركية وديناميكية متميزة داخليا وخارجيا، وكان ا لأندلسيون أكثر المترددين على تلمسان للتجارة وطلب العلم والتعبد، فاستقروا في المدينة وأرباضها لما لاقوه من تشجيع ولاة الموحدين ومن

بعدهم ملوك بني عبد الواد لهم على ذلك، للاستفادة من كفاءات وخبرات هؤلاء الأندلسيين.(خليفي، ر، 2008 : 138)

فاشتهر من حكامهم السلطان يغمراسن بن زيان " 633 هـ - 681 هـ " 1235 م - 1282 م " الذي اهتم بنشر الثقافة العلمية والأدبية، وكانت فترة حكمه التي دامت سبعا وأربعين سنة من أحفل عصور تاريخ المغرب الأوسط، وإنه ليبدومن الغريب أن تجد الحياة الفكرية مزدهرة في عهده حتى في مرحلة الحروب التي خاضها مع جيرانه المرينيين في الغرب والحفصيينفي الشرق، وهذا راجع إلى النزعة العلمية الثقافية التي تميز بها يغمراسن، الذي جرى على سياسة حرية البحث والتفكير التي كانت سائدة خلال العصر الموحدي.(فيلالي، ع/2، 2002، :321)

كل هذه العوامل وغيرها ساعدت على تدفق أعداد هائلة من الأندلسيين خاصة بعد أن أصدر يغمراسن بن زيان ظهيرا سلطانيا لأهل بلنسية وشرق الأندلس، بتسهيل توطينهم في تلمسان والعناية بهم تهدئة لنفوسهم المصابة من ظلم خصومهم وأعدائهم،وطمأنتهم على حاضرهم ومستقبلهم.(المرسي، أ،مخ :ورقة رقم 41 - 42 - فيلالي، المرجع نفسه : 1/ 175 - 176)

كذلك نجد السلطان أبوحموموسى الثاني " 760 هـ - 791 هـ " 1358 م - 1388 م " يدعوولده أبا تاشفين الثاني " 791 هـ - 795 هـ" 1388 م - 1392 م " إلى توفير سبل الراحة لقاصديه من الأندلسيين، وفي ذلك يقول : « ولتحمل أهلها القاصدين إلى بلادك على البر والإكرام، والرعي والاحترام. » (الزياني، ا، 1962 : 167).

فاشتهر منهم أعلام البيت الآبلي بالجندية فهم « بيت نباهة في الجند .» (ابن خلدون، ي : 1/ 120)، برز منهم إبراهيم الذي عمل قائدا لحامية مرفأ هنين شمال مدينة تلمسان، وابنه محمد الذي شغل في صباه منصب القهرمان، أي خدمة قصر السلطان وداره والإشراف على احتياجاته .(ابن خلدون، ع (التعريف)، 1951، 33 - ابن مريم، أ، د ت :214 - 215)

كذلك سطع نجم أسرة بني الملاح القرطبية الذين تولوا مقاليد الحجابة والوزارة، وسك النقود والفلاحة منذ عهد السلطان يغمراسن وخلفه س عيد عثمان (681 هـ - 703 هـ)، واستمروا إلى غاية تولي السلطان أبي حموموسى الأول " 707 هـ

- 718 هـ " الحكم نظرا لاشتهارهم بالأمانة والثقة، فعرف منهم محمد بن ميمون بن الملاح ثم ولده محمد الأشقر ثم ولده إبراهيم وعمه علي عبد الله .(ابن خلدون)العبر(: ج7 / 1981 -) المقدمة (، د ت:267)

أما في عهد الدولة الحفصية " 624 هـ - 982 هـ " 1227 م - 1574 م "فقد انتقلت أعداد كبيرة من الأندلسيين خاصة إلى الحاضرة تونس وبجاية - التي كانت تتبع السيادة الحفصية - بعد سقوط بلنسية سنة 635 هـ - 1238م، وفشل الحفصيين في فك الحصار عنها .(ابن خلدون /6، 388 – الزركشي، أ، 1966 ، :205.)

وهذا ما نلمسه من جهود السلطان المستنصر " 647 هـ - 675 هـ" " 1249 م – 1277 م" تجاه أفراد الجاليات الأندلسية وفي ذلك يقول بن خلدون : " كان شأن المستنصر في ملوك آل حفص عظيماً، طائر الذكر بما انفسح من أمر سلطانه، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به، وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على ابنه وخصوصاً الأندلس، من شاعر مفلق، وكاتب بليغ، وعالم نحرير وملك أروع، وشجاع أهيش متفيئين ظل ملكه، متناغين في اللياذ به، لطموس معالم الخلافة شرقاً وغرباً على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه ."(ابن خلدون، نفسه : 432).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابتدأ سياسته بتقريب الأندلسيين إليه، وتنصيب البارزين منهم في الوزارة مع أنها اختصت بمشيخة الموحدين قبلا، مما دفع بالمتضررين منهم إلى تدبير عملية انقلاب ضدهم، آلت في النهاية إلى الفشل، وإلى تدعيم نفوذ الأندلسيين عن طريق تنصيب " ابن أبي الحسين " على سدة الوزارة ليكون له النصيب الأوفر في تسيير شؤون الدولة الحفصية.(ابن خلدون،ع، / 6 :402 – 403 - الطالبي،م، 1975 : 57).

هذه الأخيرة صارت مقصدهم وملاذهم، خاصة بعد أن زاد تقربهم من السلطان، الذي جعلهم من أهل شورته، فاشتهر منهم بلا منازع الكاتب "ابن الآبار " الذي تشفع له في عهد أبيه بسبب تماديه في استخدام الخطوط المغربية في كتابة العلامة والإنشاء الأمر الذي كان يمقته الأمير " أبوزكريا " بسبب ميله للخطوط المشرقية، وبالرغم من ذلك فقد تساهل معه وعفا عنه عندما قدم له كتاب إعتاب الكتاب ووساطة ابنه " المستنصر "، فأعاده إلى منصبه، لكن سرعان ما أخذت السعايات

تحاك ضده من قبل أبي عبد الله محمد بن أبي الحسين نتيجة الاستخفاف الذي لحق به من قبل بن الآبار، فاستدعاه المستنصر من بجاية إلى بلاطه بتونس، وبعد أن تأكد له ممارسته لل سحر، وتحت إلحاح خصومه من مشيخة الموحدين، وحتى الأندلسيين، طبق فيه الأمير الحفصي حكمه بالقتل قصعا بالرماح، وذلك سنة " 658هـ – 1260م" وأحرق شلوه والعديد من مصنفاته وتآليفه في محرقة واحدة . (ابن خلدون، المصدر نفسه : 419 – ابن قنفد : 126 – 127 - المقري / 3 :206 – 207).

ثم خلف السلطان " المستنصر " ابنه الواثق " 675 هـ - 678 هـ - 1277 م - 1279 م " فسار على نهج والده في تقريبه للأندلسيين، متخذا لنفسه الكاتب الأندلسي علي بن عبد الملك الغافقي ويكنى بأبي الحسن ويعرف بابن الخبير، وأوكل إليه كتاب علامته، واختصه بالشورى دون سواه، (ابن خلدون، المصدر نفسه : 733 - الزركشي، المصدر نفسه : 41)، فبلغ مبلغا كبيرا في البلاط الحفصي مكنه من التحكم في الواثق، فأصبح في يديه كالمحجور في يد الوصي وانفرد بتدبير المملكة . (ابن قنفد، نفسه : 134 – 135- الزركشي : 41)، واستبد على الدولة والسلطان.(ابن خلدون / 6 : 434)، وأذل الموحدين بوقوفهم على بابه، والتوسل إليه بحجابه.(ابن قنفد : 135.)

وكان كثير الإعجاب بنفسه مفرطا في التعسف والكبر مشتغلا بالبناء والملاهي، واقتناء الأثاث ولا يحسن شيئا من تدبير الملك وسياسة الرعية، فأفضى استبداده إلى فساد الحال وتغير القلوب عليه، وكان قد قلد أخاه " أبا العلاء إدريس " ولاية الأشغال ببجاية فصدر منه بها من الاستبداد والتعسف ما صدر من ابن الخبير " بتونس "، مما أسخط الرعية عليه، وتآمروا على قتله، وتم لهم ذلك واستخلص منه المال الكثير، وذلك سنة 677 هـ - 1278 م.(ابن خلدون / ج 6 :434 – الزركشي : 41.)

وبمجيء الأمير " أبي إسحاق " 678 هـ - 682 هـ" 1279 م - 1283 م " إلى العرش عمل على توزيع أعلى المناصب في الدولة بين الموحدين والأندلسيين لكنه عدل عن ذلك فهوالقادم من الأندلس، فكان يميل في قرارة نفسه إلى بعض الأندلسيين (برونشفيك، ر / 2، 1988 : 111)، وأسند إليهم منصب الحجابة الذي

استحدثه فكان أول من تقلدها الحاجب الأندلسي أبوالقاسم أحمد بن الشيخ سعيد الذي جمع بين خطة الحجابة وكتابة العلامة. (ابن قنفد : 146 - 147).

كما أسند خطة الأشغال إلى الأندلسي " أبوبكر بن الحسين بن خ لدون "، ولم يكن يليها إلا الموحدين عادة (المصدر نفسه :436 – 437)، ونشأ بنوه " أحمد " وأبوالحسين " في جوالدولة، للاختصاص الذي كان لأبيهم بها، وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا، وتشوفوا إلى المراتب السلطانية، واتصلوا بأبناء السلطان" أبي إسحاق "وخالطوهم، وعملوا لديهم، ولما استولى السلطان " أبوإسحاق " على الإمارة، رشح " أحمد " لحجابته واختصه بها، مما أثار غيرة أخيه " أبوالحسين" فناهضه، وأوعز إلى السلطان بأنه يبغض دولته، ويتمنى زوالها، وليتأكد " أبوإسحاق " من ذلك استدعى حاجبه " أحمد " وعند وصوله إلى باب القصر، خرج عليه جنود السلطان وقتلوه، وذلك سنة " 669 هـ – 1271 م ".(ابن خلدون، المصدر نفسه : 438 - الزركشي :44.)

وما إن بلغ خبر مقتله إلى ولي نعمته الأمير " أبي فارس " 681هـ - 682 هـ " 1282 م - 1283 م " حتى سارع إلى طلب الثأر من قاتليه، وألح في الطلب على والد ه " أبي إسحاق " هذا الأخير تبرأ من دمه، لأن المتسبب في قتله تلك الوشاية التي رفعها إليه " أبا الحسين "، وليثبت له حسن صنيعه معه، اعتقله في جماعة من رجال القصر، بعد أن توارى أياما إلى أن أطلق من محبسه.(ابن خلدون /6 :438)

وقد كان لأبي محمد عبد الوهاب ال كلاعي صاحب العلامة اليد الطولى في قتل " أحمد " فحقد عليه الأمير " أبوفارس " صاحب بجاية فقبض عليه وأخذ ماله، وبقي مثقفا في السجن إلى أن أرسل من قتله، وذلك في العشر الأواخر من شوال سنة "681 هـ - 1282 م "(ابن قنفد، المصدر نفسه : 138 - الزركشي، المصدر نفسه : 44.)، واستخلص منه المال الكثير، بعد أن بلغ المرتبة العليا .(ابن قنفد، نفسه :138 - الزركشي، نفسه : 44.)

وبمجيء الدعي ابن أبي عمارة " 681 هـ - 683 هـ " " 1283 م - 1284 م"، وسيطرته على بجاية، تقبض على صاحب الأشغال " أبا الحسين " ابن خلدون "، فاستصفاه وصادره عل ى مال امتحنه عليه، ثم قتله خنقا، وذلك سنة " 681 هـ - 1282 م" وقدم لعلامته صاحب الدولة أبا القاسم أحمد بن يحي بن الشيخ،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فكتبها له إلى أن انقرضت دولته .(ابن خلدون /6 : 444 - الزركشي، نفسه : 47).

وبمجرد انتقال الإمارة إلى أبي زكريا بن أبي إسحاق " 683 هـ - 700 هـ" "1284 م - 1292 م" نزل بجاية وضاهى بها تونس وذلك سنة 684 هـ- 1285 م، وقرب إليه الأندلسي " أبا الحسين بن سيد الناس " وجعله على حجابته، وفوّض إليه كل أمور المدينة، فاستغلّ هذا الأخير مكانته لدى الأمير، وخلوبجاية من شيوخ الموحدين، إذ لم يكن أحد ينافسه في مركزه، فسيطر على كافة شؤون بجاية، وصار إليه الحل والعقد واستمر على هذه المكانة حتى وفاته سنة " 690هـ - 1291 م ".(ابن خلدون / 6 : 449.)

ليخلفه أندلسي آخر، هوأبوالقاسم بن أبي جبي وهومن جالية الأندلس، ورد على الدولة وتصرف في أعمالها، واتصل بأبي الحسين ابن سيد ا لناس، فاستكتبه ثم رقاه واستخلصه لنفسه، فأثبت كفاءة عالية رشحته لنيل منصب الحجابة خلفا لأبي الحسين وذلك في عهد السلطان أبوزكريا فقام بها طيلة أيامه، وصدرا من أيام ابنه " أبي البقاء خالد " 700 هـ - 709 هـ" 1301 م - 1309 م ". (ابن خلدون /6 :452 – 453)، قال عنه بن خلدون" كان مستبدا على الدولة في حجابته ." (المصدر نفسه :452)

ولم يستثن " الأمير " " أبي البقاء " من سياسة السلاطين قبله في تقريبهم للأندلسيين، فاشتهر منهم محمد بن يوسف الهمداني الأندلسي، الذي صاهر في ابتداء أمره أبي القاسم بن أبي جبي، فخدم في ألقاب الجباية، ثم ترقى إلى قيادة قسنطينة، فأقام بها شكلا زائدا على معتاد القيادة كتركيب الدروب على شوارع حارته، واتخاذ متجره بإزاء دار الأمير " أبوالبقاء "، ولم يكتف بذلك بل كتب اسمه فيما يصنع من العدة وغير ذلك.(ابن قنفد : 157.)

كذلك اشتهر من الأندلسيين في عهده أبوعبد الرحمن يعقوب بن أبي بكر بن غمر السلمي، كان جده قاضيا بشاطبة، وخرج مع الجالية إلى تونس، وانتقل ابناه أبوبكر ومحمد إلى قسنطينة، وولي أبوبكر الديوان بالقل،وهووالد يعقوب الذي تزوج إحدى ربيبات القصر، وتمكن يعقوب بسبب نباهته من نيل حظوة عالية عند السلطان " أبي البقاء خالد " فقلده الجباية، ثم أعمال الأشغال، تعرض للنفي إلى

الأندلس، ولما رجع إلى بجاية أوغر صدر سلطانها على حاجبه " ابن أبي جبي"، حتى أبعده عن الحجابة، وتقدم " ابن غمر " لها في جومليء بالسعايات، أجّ ج نارها من كان يتقلدها قبله، لكنه استطاع بفضل حنكته وبراعته أن يستقل بالحجابة دونهم. (ابن خلدون : 6 / 463 – 47 9)

هذا من جهة ومن جهة أخرى استطاع " يعقوب " التصدي لكل الدسائس، مزاحما خصومه من الأندلسيين كأبي عبد الله محمد بن الدباغ الأندلسي، الذي رُقي إلى كتابة العلامة في أول الأمر سنة 695 هـ - 1295 م، ثم تقلّد الحجابة سنة 697 هـ - 1297 م، فأوغر صدر السلطان عليه وأزاحه.(ابن قنفد : 154 – 157 - الزركشي : 58 - 60)

وفي هذا يقول عنه ابن قنفذ " كان ابن غمر رئيسا في نفسه، حريصا على طلب المال، صاحب مكر وحيل."(ابن قنفذ :156)

وبعد أن استقل الأمير " أبوبكر " " 718 هـ - 747 هـ" " 1318 م - 1306 م " بعرش تونس، استبدّ عليه هذا الأخير،واحتكر السلطة بيده وبأيدي أفراد آخرين من عائلته مثل أخيه وابن عمه، ومثل قوة الحجابة حتى أصبح بدون منازع الشخصية الثانية بعد الأمير. (ابن خلدون / 6 :478 – 483 - بعيزق :413)، مقتصرا على ذكر اسم السلطان في الخطبة واسمه في السكة، إلى أن توفي على فراشه في شوال سنة 719هـ - 1319 م. (المصدر نفسه : 484- 485.)

ولما كان الطموح الأندلسي جارفا ومهيمنا في آن واحد، رغم كل أنواع الملاحقات والمصادرات التي آلمت بهم، لم يمنعهم ذلك من البروز في ميدان الحجابة، فنجد منهم " محمد بن أبي الحسين ابن سيد الناس " الذي استبد هوالآخر بشؤون الدولة . (ابن قنفد : 164)،وبأمور الحجابة، مما أثار غيرة الحساد والواشون، فأوغروا صدر السلطان " أبي بكر " عليه فهوالمعروف بترتيب الأمور وصرف كل مهمة إلى أربابها، وكان لا يولي قاضيا حتى يشهد فيه بالخير من يوثق بدينه، وكان لا يكتب لأحد كتابا إلا بعد استقرار حظوته.(المصدر نفسه : 165.)

لهذا ألقى القبض عليه في ربيع سنة 733 هـ - 1332 م، ممتحنا إياه بأنواع من العذاب لاستخراج المال منه فلم ينبس بكلمة، ولما اشتد عليه العذاب أفحش في

القول ونال من السلطان وأقدح، فقتل شذخا بالعصي، ثم أحرقوه خارج الحضرة .(ابن خلدون / 6 : 501.)

ويؤكد " ابن قنفد " على هذه النهاية المأساوية لمحمد بن أبي الحسين بقوله : " وهوالذي قتل بسبب ما اجترم، وأساء بلسانه وأحرقته العامة بالنار ."(ابن قنفد :165.)

وبالرغم من توالي النكبات بأصحاب الرتب العليا من الأندلسيين، إلا أن هذا لم يمنع من تقاطرهم على الحاضرة بجاية، ففي عهد " أبي عبد الله الحفصي (20)" 765هـ – 769 هـ " 1363 م – 1366م " برز المؤرخ " يحي بن خلدون " " ت 780 هـ – 1378 م" صاحب كتاب بغية الرواد في تاريخ الملوك من بني عبد الواد"، فقربه إليه، وجعله على منصب الحجابة، وذلك سنة 765 هـ – 1364 م "، ثم نقلها إلى أخيه " عبد الرحمن بن خلدون " " ت 808 هـ – 1405 م"، بعد أن استدعاه من الأندلس، وقلّده حجابة الدولة، وذلك سنة 766هـ - 1365 م. (ابن خلدون) التعريف برحلته غربا وشرقا (: 97 – 98.)

تقييم التجربة السياسية الأندلسية:

خلاصة القول إنّ للنخب الأندلسية دورا كبيرا في تغيير التركيبة البشرية لمجتمع المغرب الأوسط، خاصة وأنهم شكلوا أحد مكوناتها الأساسية سواء في البلاط الزياني أوالحفصي، فكانا ميدانا التحم فيه الأندلسيون مع شيوخ الموحدين والأفارق ة، مما ساعد على تشابك خيوط المنافسة والازدراء والخيانة والحقد، فسالت فيه دماء كثيرة بريئة وغير بريئة، دماء الشيوخ والكهول والصبيان، وساد فيه جوالاحتراز والاتهام والظنون، وانطلقت منه الأوامر بالمصادرات وأفانين التعذيب، ولم يرتوهذا البلاط بدماء الأندلسيين أقل مما ارتوى بغيرها (الطالبي، م : 61)، ومن ثم فلا عجب أن يكون لهؤلاء الأندلسيين ذوي الميول السياسية دورا بارزا في توجيه الأحداث سواء داخل القصر أوخارجه، خاصة وأنهم حملوا معهم ليس ذكاء الحضري ودهائه فحسب، بل الخبرة والاحتراف السياسي أيضا، الشيء الذي مكنهم من القيام بدور الموجه ولومن وراء ستار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن دخول هؤلاء الأرستقراطيين من علماء وسياسيين في بلاط الأمراء والسلاطين، جعل منهم حاشية أرستقراطية جرفت معها إلى أسلوب حياتها المعتمد

على البذخ والترف أولئك الحكام أنفسهم، مما فصلهم عن ذويهم وعشائرهم الذين تنكروا لهم بعد أن شكلوا أول الأمر دعائم ملكهم، وكانت النتيجة ضعف سلطة الحكام وفتح الباب للمغامرات والمؤامرات.(الجابري، م، 1994 : 28).

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية نحوالأمة والدولة، وفقدان مفهوم الإخلاص ما عدا الإخلاص لشخص أوعائلة وهوعندها مهما يكن الأمر لا يحول دون الاختلاس، وإيداع دفائن الذهب في بطن الأرض احتياطا للطوارئ، ولا يثبت بحال أمام الدسائس والسعايات، وربما هذا راجع في أساسه إلى شعور قوي بعدم الأمن تولدت عنه عقلية انتهازية قصيرة الرؤية . (الطالبي، م : 63)

ولقد تمكنت هذه العقلية الانتهازية من طبيعة أهل الأندلس الجانحة دائما إلى الثورة والاستقلال، ففي أولى مراحل استقراره بالمغرب عموما، يبدأ بدراسة البيئة التي يعيش فيها، وبالتالي دراسة الطرق والوسائل التي تمكنه من البروز على الساحة الاجتماعية، وعندما ي نتهي من هذه الدراسة يبدأ في العمل انطلاقا من محيطه الذي يعيش فيه، ولكنه يجد مواجهة عنيفة تضطره إلى البحث عن طريقة تمكنه من الوصول إلى السلطات العليا، وعادة ما كان أبناء الجالية الأندلسية يصلون بفضل ملكاتهم العلمية والأدبية، ولكن الأندلسي سرعان ما يجد أن الرغبة تعتريه من جديد للاستحواذ على ما هوأكثر من ذلك وتحركه رغبته في البحث عن ذاتيته وطبيعته المائلة دائما نحوالاستقلال، ومن هنا يبدأ الصدام مع الآخر، وتكثر الوشايات وتبدأ معها النكبات . (سحر، س،) الهجرات الأندلسية والموريسكية(: 257 – 258)

وهذا ما حصل مع الكثيرين من أفراد البيوتات الأندلسية في دولة بني زيان، منهم بيت بني الملاح الذين كان وجودهم بتلمسان لفترة قصيرة نسبيا لم تتجاوز85 سنة، فقد استبيحت أرواحهم ومنازلهم بسبب طموح جامح واستعجال أبي تاشفين للسلطة والملك، منصاعا لبطانة السوء من الأعلاج القطلانيين.(ابن خلدون،ي، 1/ 241 – 251 – ابن خلدون،ع، 7/ 140 – 141 – خليفي،ر : 187)

وما يؤكد لنا أيضا ميل الأندلسيين للانعزال والتكتل في وحدات منفصلين بذلك عن الطرف الآخر، ما جاء على لسان الغبيريني عندما تحدث عن العالم

الأندلسي ابن محرز "ت 655 هـ - 1257 م" فوصفه بأنه ر أس الجماعة الأندلسية ببجاية.(الغبريني، أ، 1969 : 478).

ونفهم من هذه العبارة أن الجماعات الأندلسية انعزلت لحد ما، وكوّنت لنفسها جماعة مستقلة تنسب إليها، وبالطبع فالانعزال لا يعني التفرقة دائما، فإلى حد ما يعني التنظيم والتحام الشمل.

أما الباحث التونسي"محمد حسن" فيعلل لنا أسباب هذا ا الانعزال "بأنه راجع إلى الشعور بالغربة وما يقترن به من احساس بالأنفة والعلووشرف الانتماء، وهوما أودى بحياة الكثرين من أفراد البيوتات الأندلسية."(حسن، م، 1999 : 586)

ولهذا تعالت صيحات العديد من الباحثين المعاصرين لشجب واستنكار السلوكا ت الانتهازية التي حملها الأندلسيون معهم إلى بلاد المغرب الإسلامي، بعدما أضاعوا بلادهم، وخروجهم منكوبين من وطنهم ومشاهدتهم لانتصار المسيحيين عليهم، كل هذا كان من شأنه أن يوقظ فيهم الضمائر، ويدعوهم إلى التفكير، إلى حفز الهمم، ويجعل منهم حزب يقظة وإصلا ح، ولكن كان كلما فكرت فيه الجاليات الأندلسية ولا سيما أصحاب الأقلام منهم هوأن يحتلبوا من بلاطي تونس وبجابة ما تعودوا احتلابه من بلاطات الأندلس، وبهذا فقد حمل الأندلسيون في حقائبهم المرض الذي منه ماتت الأندلس فزادوا بلاط المغرب الإسلامي في المستوي السياسي م رضا على مرضها، كل ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انفجارا عظيما، ومدا اقتصاديا عارما، ونهضة عمت جميع الميادين وفي الوقت الذي كان فيه ملوك إسبانيا يضعون الخطط لإعادة المغرب الإسلامي إلى حضيرة النصرانية منتهجين سياسة واعية وإن لم تحقق كل أهدافها المعلنة وا لخفية، وبهذا يمكن القول بأن الأندلسيين لم يكن دورهم آنذاك دورا إيجابيا.(الطالبي، المرجع السابق : 64 - رزوق، م، 1986 : 138)

إنّا لوتقبلنا هذا الحكم على الأندلسيين من قبل الباحثين، فإننا بالضرورة لن نعمم هذه النظرية السلبية عليهم، فلوانطبقت إلى حد كبير على فئة العسكريين والسياسيين لا يعني تعميمها على كل الفئات التي قصدت المغرب من صناع وعلماء ومتصوفة، فبالنسبة لفئة العلماء كان دورهم كبيرا في إبراز العلم الأندلسي، ونشر إشعاعه على الساحة الفكرية بالمغرب الإسلامي، فكان منهم فئة حاولت

الارتزاق بهذا العلم عن طريق الدخول إلى بلاطات المغرب أوعن طريق التعليم في المساجد والزوايا وفئة أخرى عزفت عن ذلك واتجهت كلية إلى التفرغ للتعليم، وقد تطور ذلك إلى زهد وتصوف، وذلك نتيجة التجربة المريرة التي اجتازوها في الأندلس، والتي خلفت في أنفسهم اليأس والتشاؤم، كما خلفت أيضا قناعة مطلقة بعقم المقاومة.(رزوق، المرجع نفسه : 183 – 184.)

وأمّ ا فئة الصناع والحرفيين فلم يطمحوا إلى مناصب سامية بقدر ما كان هدفهم ضمان موارد عيشهم، لكن هذه الفئة وجدت نفسها وجها إلى وجه مع صناع وحرفين تقليديين منافسين لهم، مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي، غير أن حدّته كانت تتضاءل باستمرار مع مرور الزمن (رزوق، م : 184)

وهذا يتفق مع ما وصل إليه الباحث "بعيزق " قائلا " كان الصراع أساسا لكسب النفوذ السياسي والاجتماعي، لكنه صراع يحتد في الأعلى، ويتقلص تدريجيا نحوالأسفل، وقد يغيب داخل فئات العامة لا سيما الدنيا منها."(بعيزق:453)

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الآبار، أبوعبد الله بكر القضاعي،1985، الحلة السيراء،ج2، تح حسين مؤنس، ط 2، دار المعارف، القاهرة.
- برونشفيك، روبار،تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، 1988،2 ج، ط 1، تح حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- بعيزق، صالح، بجاية في العهد الحفصي، دراسة اجتماعية واقتصادية، تونس، منشورات كلية الآداب، تونس، 1999.
- التنسي أبوعبد الله، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، 1985، د ط، تح محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- الجابري، محمد، العصبية، والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، 1994، ط 6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- حسن، محمد، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، 1999، منشورات جامعة تونس الأولى.
- أبوحموموسى، بن يوسف بن عبد الرحمن العبد الوادي،واسطة السلوك في سياسة الملوك، 1962، مطبعة الدولة التونسية، تونس.
- ابن خطاب،أبوبكر محمد بن عبد الله الغافقي المرسي، فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم 4605.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ابن الخطيب، لسان الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الله السلماني، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1977، ط 1، ج 7، تح عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، د ت، دار الجيل، بيروت.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 1981، ج6، مراجعة سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- التعريف برحلته غربا وشرقا، 1951، تح ابن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.
- ابن خلدون، أبوزكريا يحي بن أبي بكر، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، 1980، ج 1، تح عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر.
- خليفي رفيق، البيوتات الأندلسية بتلمسان، 2007 – 2008، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
- درارجة، أبوالقاسم، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، 1994، مجلة بحوث، جامعة الجزائر، العدد 2. ص ص 167 -188.
- رزوق، محمد، الجالية الأندلسية بالمغرب تونس والجزائر أنموذجا، 1986، مجلة المناهل، المغرب، العدد 34، سنة 13. ص ص170-190
- الزركشي، أبوعبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
- سحر السيد عبد العزيز سالم، أوراق بحر متوسطة من العصر الإسلامي، 2006، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.
- شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي، 1995، د ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- الغبريني، أبوالعباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، 1969، ط 1، تح عادل نويهض، منشورات التأليف والترجمة، بيروت.
- الطالبي، محمد، الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، 1975، العدد 24. ص ص46 -83.
- فيلالي، عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، 2002، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.
- ابن قنفد، أبوالعباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، 1968، تح الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس.
- ابن الكردبوس، أبومروان عبد الملك التوزري، تاريخ الأندلس وهوقطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، 1971، تح أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.
- المقري، أبوالعباس أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، 1939، ج2، تح مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المهاجرون والمهجّرون إلى الجزائر العثمانية
بين الانعزال والاندماج الاجتماعي

د/ بن عتو بلبروات،
جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني نوعين من الهجرات البشرية؛ هجرات داخلية أبرزها تلك التي كانت منبعثة من المناطق الريفية صوب المدن، مثل هجرة الجيجليين، زواوة، بني ميزاب، البساكرة، الأغواطيين وغيرهم إلى المدن الساحلية وعلى رأسها مدينة الجزائر ومدينة وهران بعد تحريرها من الاحتلال الاسباني بصورة نهائية سنة 1792م، وهجرات خارجية التي بدورها تنشطر إلى هجرات من الجزائر إلى بلدان خارجية، وهجرات من أقطار خارجية إ لى الجزائر. وإذا كنا قد اخترنا هذا الصنف الأخير المتمثل في الهجرة من بلدان خارجية إلى بلاد الجزائر خلال الفترة العثمانية الممتدة من سنة 1520م إلى سنة 1830م والتركيز على وضعيتهم ومكانتهم في المجتمع، فلأننا رأينا أن هؤلاء المهاجرين والمهجَرين إلى الجزائر في فترات متعاقبة خلال العصر الحديث، صاروا جزءا من مجتمع الجزائر العثمانية، وتعايشوا مع سكان البلاد الأصليين من العرب والأمازيغ، بل وصل بالعدد الكثير منهم وعلى رأسهم الأتراك - باعتبار أن هجرتهم كانت هجرة رجال فقط- إلى مصاهرة عائلات محلية، وما الكراغلة إلا دليلا على هذا الاندماج الاجتماعي.

أولا- الأتراك العثمانيون بالجزائر العثمانية

انتشر الأتراك العثمانيون في المدن الجزائرية التلية والهضابية، بأعداد متفاوتة، وقدر بوتانBoutin عددهم سنة 1808 بعشرة آلاف نسمة.(Esquer, G.1927 :72) أما أبو القاسم سعد الله، فقدر العدد باثني عشر ألف نسمة.(سعد الله، أ. 1981 : 180.) ثلاثة آلاف منهم يتمركزون بمدينة الجزائر .(سعد الله، أ . 1981 : 222) وبالتالي شكلوا على مدار الفترة العثمانية أقلية اجتماعية لكنها هي الحاكمة بدون منازع، لأنها سيطرت على الإدارة والتسليح . وتختلف أصولهم فمنهم الكر يتلي والألباني والأناضولي إلا أنهم يشتركون في النسب السياسي أو الانتماء إلى سياسة عائلة آل عثمان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ورغم المكوث الطويل للأتراك العثمانيين بالجزائر واختلاطهم واندماجه م في المجتمع الجزائري، فقد حافظوا على انتمائهم العرقي وتمسكوا بانتسابهم إلى الوطن الأم، وشددوا ارتباطهم بالمهنة العسكرية سواء صاهروا عائلة جزائرية أم لم يصاهروا.(معاشي، ج. 2001: 204- 205.)

كان التجنيد الدوري هو الوسيلة الوحيدة لتجديد الدم التركي في الجزائر العثمانية كل خمس أو ست سنوات، وتتفق الكتابات التاريخية على أن هؤلاء المجندين الأتراك العثمانيين كانوا من المهمشين في بلدانهم، ولم يكن المجندون من الأناضول وأزمير واسطنبول فقط بل من غالبية أوربا الشرقية ومن جزر، كريت، قبرص ورودس.

وبمجرد وصول المجندين الجدد إلى الجزائر، يسجلون في سجلات الانكشارية ثم يلحقون بإحدى الوحدات العسكرية البالغ عددها أربعم ائة وأربعة وعشرون وحدة، متوسط عدد جنود كل وحدة ثمانية وعشرون جنديا، ويعيش المجندون طوال خدمتهم العسكرية في غرف واسعة، تسع لتسع وأربعين شخصا .(أمين، م.2002: 24- 26)

ويعطى للجندي عند انخراطه في السلك العسكري، بذلة عادية وبندقية ويطغان وقليل من البارود وقطعة م ن الرصاص، وتصير الثكنة هي مأواه . (غطاس، ع.2000- 2001: 08.) ومن هؤلاء المجندين كان يتم اختيار الحكام من مختلف الرتب والألقاب، ومن بينهم كان يختار الوزراء والكتاب والموظفون من مختلف الأصناف.

هذا النمط من الحياة، جعلهم يقضون معظم أوقاتهم في عزلة شبه تامة عن بقية المجتمع، وكان ممنوعا عليهم من الناحية المبدئية الزواج، وفي حالة حصوله، يفقدون العديد من الامتيازات خاصة الإعفاء من الضرائب والتسهيلات المتعلقة بالتخفيضات في الأثمان، ويصبحون مضطرين لتحمل نفقات أسرهم، اعتمادا على رواتبهم الضعيفة، كما أن أبناءهم الكراغلة لا يعتبرون أتراكا كاملي الانتماء للجماعة الحاكمة. (أمين، م.2002: 24- 26)

لقد لوحظ أن عدد الأناضوليين انخفض بحكم تراجع وتيرة التجنيد من بلاد الأناضول في مطلع القرن التاسع عشر، مما سمح للمجموعة الألبانية والمجموعة الكريتلية من سد الفراغ الذي تركته المجموعة الأناضولية، حيث تزايدت أهمية الألبان، ضمن الجيش البحري، والأمر نفسه استغله الداي علي خوجة 1817-

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1818 عندما حاول إصلاح الجيش الانكشاري وإحلال محله جيشا محليا حيث شكل فرقتين الأولى من الكراغلة والحضر والثانية من الزنوج .(غطاس، ع.2000- 2001 :7- 10)

كتب حمدان خوجة أن الأتراك العثمانيين، يظهرون في مظهر حماة الدين، ويمتنعون عن القيام بكل ما هو مناف للقوانين، ولا يعملون إلا بالقانون ولفائدة القانون، ويقيمون الصلاة بانتظام مما جعل العرب والبربر يتصورون أنهم مرابطون وصالحون . (حمدان خوجة، ب . 1982 : 111) وأشار كذلك إلى أخلا ق الطائفة التركية بالمدينة الجزائرية؛ فوصفهم بالقناعة والشرف والكرم، ونادرا ما تجد السارق في صفوفهم وقد كانوا شديدي الحرص على احترام عادات البلاد ومن كانت له بعض المساوئ كان يعمل على إصلاحها أو إخفائها . (حمدان خوجة، ب . 1982 : 119) وذكر أبو القاسم سعد الله أن للأتراك علاقة وطيدة بالطريقة الصوفية البكداشية خصوصا أتراك مدينة الجزائر، وهم مشبعون بعقائد وتقاليد، دراويش أناضوليا وروميليا ، ويعتقدون أن المرابطين يزودونهم بالبركات والدعوات في أعمالهم الجهادية.(سعد الله، أ .1981 : 182) أما سبنسر وليم w.Spencer فقد أشار إلى أن الأتراك العثمانيين بالجزائر " شديدو التعلق بتدينهم ..والتركي يرتبط بكلمته حينما يقسم برأسه واضعا يده على جبهته ..." (سبنسر، و .1980 : 105) وبالتالي نتساءل عن حقيقة هذا التدين إذا كان التركي يقسم برأسه عوض ربه؟ وفي نفس المضمار كتب شالر Shaler ما يلي: " والأتراك شعب بسيط، حذر، ...ولهم نفس الفضائل والرذائل التي نجدها في دولتهم نصف المتحضرة...كما أنهم يتصفون بالأدب واللياقة والإنسانية في معاملاتهم اليومية، ولكنهم حين يجدون أنفسهم في الحياة السياسية يكتشفون في أنفسهم وحشية نادرة ." (شالر، و .1982 : 54.) ثم ك تب في موضع آخر من مذكراته عن الجنس التركي في الجزائر العثمانية قائلا : " الأتراك شعب أصيل متميز عن غيره من الشعوب ...اختلطوا بالسكان الأهالي، ولولا روافد المجندين الجدد من تركيا الذين يصلون إلى البلد باستمرار، لاندمج الأتراك في السكان الجزائريين. والأتراك يح افظون بدقة على الشريعة الإسلامية ولكنهم يتحدثون اللغة التركية التي هي اللغة المستعملة في الإدارة الحكومية ."(شالر، و .1982: 17) وأشار لوجي دي تاسي Laugier De Tassy إلى طباع سيئة للأتراك العثمانيين اختصرها في شيوع الفاحشة بينهم، وهي جريمة لا يعاقب عليها من قبل السلطة التركية العثمانية في الجزائر، وأورد الكاتب قصة عبد مسيحي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحرش به سيده جنسيا، فقتله . (De Tassy,L. 1992 :58). وذكر حمدان خوجة أسفار هؤلاء الأتراك العثمانيين، ودورها في عملية التجنيد قائلا: " فيأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر بمظهر الرخاء والترف أمام بني وطنه وليعجبهم ...وعندما يعود إلى الجزائر حيث عائلته، يصطحب معه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر ...ثم يتولى بنفسه تدريبهم على الجندية وتعليمهم واجباتهم الجديدة ...". (حمدان خوجة، ب.1982: 119)

وعُرف عن الانكشاريين الأتراك في الجزائر أن الكثير منهم فضل حياة العزوبية رغم أن الدولة أصبحت تسمح لهم بالزواج لأن الجندي الإنكشاري يعيش على حساب الدولة، وتدفع له زيادة عن الأجرة، كل المواد الضرورية لتغذيته من الحبوب والزيوت واللحوم ... إلا أن النظام الانكشاري في الجزائر يقضي صراحة بأن الجندي الذي يتزوج، يفقد الكثير من الامتيازات، فيضطر إلى الإقامة في مسكن عائلي، وقد يكون مكلفا ولا يمكن له الإقامة في ثكنات الانكشاريين وبالتالي لا يبقى له من الامتيازات سوى الأجرة، وقد يجد الانكشاري نفسه بين أمرين أحلاهما مر، فإن تزوج فقد الكثير من الامتيازات، وإن لم يتزوج فإن الدولة وعن طريق بيت المالجي تستولي على ثروته عند وفاته، بحكم أنها الوريث، لكل من لا عائلة له. (سي يوسف، م. 2002: 73)

وبخصوص نشاطهم الاقتصادي، ذكر روزيت Rozet عند حديثة عن فئة الأتراك العثمانيين أن قسما كبيرا منهم يعيشون من أجورهم كموظفين في أجهزة الدولة، إلى أن تـوافيهم المنية، أما الأقلية منهم، تمارس نشاطا تجاريا، حيث يملكون الحوانيت، يبيعون فيها مواد نبيلة مثل الحلي .(Rozet, M. 1833 : 276-277) أما محمد أمين فقد ذكر أن الأتراك العثمانيين المتزوجين من جزائريات، قد مارسوا أنشطة تجارية وحرفية متعددة قصد تحسين وضعيتهم الاجتماعية التي تراجعت **بفعل زواجهم من جزائريات، عربيات أو أمازيغيات** ، حيث حرموا من امتيازاتهم المادية السابقة في عهد عزوبيتهم.(أمين، م. 2002: 27).

وما يتعلق بعلاقاتهم مع السكان الأصليين وكذا المهجرين، فقد ورد أن الأتراك العثمانيين رفضوا أية فكرة للمساواة بينهم وبين هؤلاء، وحرصوا أشد الحرص على إخفاء عيوبهم الاجتماعية وحرموا على أنفسهم العراك والتخاصم فيما بينهم، أمام مرأى من هو خارج عن نسبهم، وسمحت لهم الحكومة في الفترة الأخيرة بتناول الخمر والكحول بدون قيد، شريطة ألا تقع فضائح مشينة أمام الجماهير، وكل

تجاوز لهذا الشرط، يعرض صاحبه لأقسى العقوبات . وكتب لوجي دي تاسي في هذا الصدد أن السكان الأصليين بكل مدينة جزائرية ينظرون إلى الأتراك باحترام وخوف، فحادث واحد من قبل الأتراك قد يثير غالبية سكان المدينة من العرب والأمازيغ، وتساءل الكاتب عن سر تحمل السكان الأصليين بالمدن لسيطرة الترك وهم قلة إذ يقابل كل شخص تركي مائتا عربي أو أمازيغي في المدينة الواحدة (De Tassy, L.1992 :57) ويرى شالر أن للتركي الأسبقية في كل شأن على الحضري، الذي يتنحى بكل خنوع أمام التركي، متى لقيه في الطريق العمومي . (شالر، و. 1982: 55).

وهذا لا يعني أن الأتراك العثمانيين، ظلوا جميعا وعلى مدار الفترة العثمانية في قطيعة اجتماعية ونفسية، بل اختلط الأتراك بالحضر الجزائريين ثم انتقلوا إلى الاندماج التدريجي، ففي حالة الاختلاط كان ممثلا في البيع والشراء وغيره من المعاملات الحياتية بين التركي والجزائري، أما الاندماج فجسده الزواج بين الأتراك والجزائريين، حيث أن أعدادا كبيرة من الانكشاريين تزوجوا بنساء حضريات عربيات أو أمازيغيات من عائلات ذات مكانة، وقد تزايدت عقود زواج التركي بالجزائرية في أواخر العهد العثماني، مما حقق في نظر العديد من المؤرخين والباحثين ما يسمى باندماج الأتراك العثمانيين في المجتمع العربي – الأمازيغي، وما بروز فئة اجتماعية متميزة وهي فئة الكراغلة في كل مدينة جزائرية إلا دليلا على صحة هذا الاندماج الاجتماعي .(معاشي، ج .2001: 204- 205)، ونجد بعض الباحثين مثل الدكتور محمد سي يوسف يرى أن الزواج التر كي الجزائري كان قليلا، والكراغلة لا يرقون إلى فئة الأتراك العثمانيين، (سي يوسف، م.2002: 67) لكن لعل الكاتب يحصر الزواج التركي بالجزائرية في نطاق المصاهرة السياسية فقط دون الالتفات إلى زواج الجندي الانكشاري البسيط بالمرأة الجزائرية البسيطة.

ثانيا- الأندلسيون الموريسكيون بالجزائر العثمانية

في ظل تأخر عمليات الإنقاذ والنجدة من لدن القوى الإسلامية سواء من المغرب أو المشرق، حدد الأندلسيون المضطهدون لأنفسهم ثلاثة خيارات، إما الموت، أو التنصير، أو الهجرة إلى ديار الإسلام (يحياوي، ج. 2004: 130- 131.) ويظهر أن الأندلسيين قد اختار بعضهم الموت وهو ما تترجمه أعمال الإبادة الجماعية، والبعض الآخر اختار الهجرة المفروضة عليه إلى سواحل المغرب الإسلامي خاصة سواحل المغرب الأقصى، الجزائر وتونس، ولعل ما يثبت ذلك هو تناقص عدد الموريسكيين

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في كبريات المدن الأندلسية فمثلا انتقل عدد سكان مدينة غرناطة، آخر معقل للأندلسيين، من أربعمائة ألف - سبعمائة ألف نسمة، في أوائل القرن السادس عشر، إلى خمسين ألف نسمة مع منتصف القرن السادس عشر، ناهيك عن قلة الشبان.(يحياوي ج. 2004: 140.) ورغم تكاثر المجتمع الأندلسي الذي تحكمه قيم دينية تشجع الزواج والإنجاب والعزوف عن حياة العنوسة، فإن الاسبان استمروا في فرض أدواتهم الفظيعة كالقتل والتهجير والإبادة ، حتى أنه لم يبق في الأندلس كلها مع نهاية القرن السادس عشر، إلا حوالي ستمائة ألف نسمة

بدأت الهجرة منذ سقوط غرناطة سنة 1492م وحتى قبلها بسنوات في المدن الأخرى مثل: بلد الوليد، سلامنكا، سيقوفيا، بورقوس، زمورة، مالقة، بلنسية، وأخذت طريق البحر نحو سواحل المغرب الإسلامي، خاصة المغرب الأقصى لكن هناك عدد كبير استقر بالجزائر خلال القرن السادس عشر حيث تذكر الدراسات التاريخية أن مدينة تلمسان قد وصل إليها سكان مالقة من الأندلسيين، كما شهدت مدينة شرشال ومدينة الجزائر هجرات أندلسية . وقد اقترنت الهجرة إلى سواحل المغرب الإسلامي بالانتصارات العثمانية، وضمن هذا الإطار لا يمكننا أن نتجاهل الدور الكبير الذي قام به خير الدين لإنقاذ الآلاف من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى السواحل المغربية بعدما أجاز لهم العلماء الهجرة والخروج من الأندلس مثل الونشريسي في كتابه المعيار.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد شهد القرن السادس عشر عدة رحلات وهجرات منتظمة نحو سواحل شمال إفريقيا، ففي سنة 1570م حملت السفن العثمانية جميع الموريسكيين في بالميرا. وفي عام 1548م حمل أسطول الج زائر حوالي ألفين وثلاثمائة موريسكي . وفي عام 1585م رحل العدد نفسه. وبين سنتي 1528- 1584 تم إحصاء حوالي ثلاث وثلاثين غارة بحرية، وإذا كان عدد المهجرين في كل غارة ألفي شخص فإننا نحصل على أكثر من ستين ألف في المجموع . هذا دون ذكر الغارات التي كانت تقوم بها السفن الصغيرة لحمل الموريسكيين.(يحياوي، ج. 2004: 144- 148).

ونلاحظ أن الكتابات التاريخية ترتب الأندلسيين الموريسكيين ضمن فئة الحضر بمدن الجزائر العثمانية إلى جانب العناصر الأصلية بالبلاد، فمثلا يذكر الرحالة الألماني "هاينريش فون مالتسان" في منتصف القرن التاسع ع شر أن الحضر بالجزائر هم خليط من عناصر عربية أصلية وعناصر بربرية مستعربة وعناصر أندلسية ذات أصل بربري، عُرفت بذوقها الرفيع في الفن المعماري التي قد تكون

ورثته من أسلافها طيلة القرون الثمانية التي قضتها في اسبانيا، وكان لهجرتهم أثرها المباشر في أسلوب العيش و الفنون بالجزائر. (ابن حموش، م . 1999:197)

وذكر مولود قايد أن مسلمي الأندلس، يتجمعون في مدينة الجزائر على سبيل المثال حسب انتماءاتهم الجغرافية السابقة في اسبانيا فمثلا هناك حي لأندلسيي فانسيا، أراغون، الأندلس وغرناطة، وهم يحافظون على احترامهم وانزوائهم تجا ه الأتراك العثمانيين، وبقية السكان، وهم متحالفون فيما بينهم، ولهم مساجدهم وزواياهم ومقابرهم وأوقافهم الخاصة بهم. (Gaid, M.1974 :21.)

وقد أنصف وليم شالر الحضر الأندلسيين بمدينة الجزائر حيث وصف سلوكهم باللياقة والمجاملة، ووجدهم في معاملاتهم اليومية دائما مه ذبين ومتمدنين وإنسانيين، ولم يكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني أو الكره للأشخاص الذين لا يدينون بدين آخر غير دينهم . (شالر، و . 1982 : 80). وتتفق الكتابات التاريخية أن الأندلسيين بالجزائر العثمانية مارسوا أعمالا تجارية وحرفية وفلاحية واشتهروا في مجال البناء والري، ولم تكن لهم ثروة كبيرة في العهد العثماني والدليل على ذلك أن القليل منهم من كان يملك العبيد المسيحيين . (هاينريش، ف. م.1976: 65- 66) وأشار محمد أمين في كتاباته أن الأنشطة التجارية للتجار الحضريين بالجزائر العثمانية قد أصابها التقهقر بفعل سياسة اقتصادية انتهجها الدايات تقوم على دعم أغنياء اليهود الليفورنيين، والأوربيين الأجانب خاصة الفرنسيين المرسيليين، وبالتالي لم يكن التجار الحضريين المسلمين من بينهم الأندلسيين، يستندون إلى قوة تحمي مصالحهم، فكان موقعهم ثانويا في تجارة المدن. (سبنسر، و. 1980 : 92). وكانت أعمالهم الاقتصادية حافزا لهم على البقاء في حالة هدوء، إذ لم يطمحوا لارتقاء مناصب سامية تؤهلهم لقيادة البلاد، بل بقوا قانعين بما يملكونه من دكاكين وبساتين وثروات (سعيدوني، ن. 1979 : 226).

ثالثا- الأعلاج بالجزائر العثمانية

الأعلاج، لقب يطلق على المسيحيين ال ذين يرتدون عن مسيحيتهم واعتنقوا الإسلام بعد النطق بالشهادتين ثلاث مرات خلال أربع وعشرين ساعة، وقد يسجل العلج في قنصلية بلاده بالجزائر، ويصير العلج منذئذ يتمتع بحقوق الرجل الحر لا الأسير أو العبد لكن يمكن لسيده ألاّ يعتقه إلا إذا وصلته الفدية من بلده الأم . (Arnoulet, F. 2000 :11.) وإذا كان الحافز الديني ثانويا للعلج فإن الطموح والرغبة في الثراء يشكلان أهم الدوافع لذلك، ونؤكد أن الأعلاج أصبحوا سادة

الغزو البحري والتجارة البحرية، وفيهم قال وليم سبنسر أنه بمجرد ارتداد أحدهم، فإنه يستطيع الدخول في خدمة الحكومة (العثمانية) ويصبح له الأمل في التأهل لكل المناصب العالية جدا . وأن الوضعية القانونية لكل المرتدين المسيحيين تبدو وكأنها كانت أحسن من السكان المسلمين من غير الأتراك . (سبنسر، و.1980: 82).

لقد حافظ الأعلاج على روابطهم مع عائلاتهم الأصلية بأوربا، رغم أنهم أصبحوا مسلمين، وقد عرفوا كيف يتأقلمون مع وسطهم الجديد وأن ينصهروا في المجتمع دون أن يماثلوه تماما، وقد حافظ أبناؤهم على روح المبادرة والقتال اللتين جعلتهم متميزين في النسيج الاجتماعي، وكثيرا ما تمكننا ألقابهم من التعرف على المكان الذي ينحدرون منه .(15: Arnoulet, F.2000) ويمكن القول أن الأعلاج، خدموا السياسة العثمانية في الجزائر، فهم عثمانيون وليسوا أتراكا، وحظوا بنفس المكانة والامتيازات الاجتماعية التي يتمتع بها الأتراك العثمانيون، شريطة أن لا يتزوجوا بنساء عربيات أو أمازيغيات.(57: De Tassy, L.1992)

لقد شكل الأعلاج في عهد البايلربايات قوة ضاغطة، ويتجلى ذلك في عدد الحكام الذين تولوا سدة الحكم ، إلا أنه في القرن الثامن عشر، طرأ تحول حسب ما كتبه فونتور دي بارادي venture de paradis عند مقارنته بين الأعلاج والكراغلة، ذاكرا أن الأعلاج لهم أمل الوصول إلى مناصب سامية مثل الكاهية، آغا القمرين، وكيل الحرج والقايد، لكن لم يفسح لهم مجال الوصول إلى سدة الحكم واعتلاء منصب الخزناجي أو الداي . وقد وفدوا إلى الجزائر من ايطاليا وكورسيكا مثل حسن قورصو، ومراد قورصو، ومن البندقية مثل حسن فنزيانو.

وفي أواخر العهد العثماني، لم ي عد الأعلاج، يشكلون عنصرا هاما، في التركيبة السكانية، إذ انخفض عددهم انخفاضا ملموسا . ففي الفترة الممتدة بين 1807- 1826 كان من جملة سبع وثلاثين ضابطا بحريا متوفيا، واحد فقط من الأعلاج، وهو الرايس علي انجليز . وأعتقد أن تراجع عدد الأعلاج بالجزائر شأنه شأن العنصر التركي، وكلا العنصرين تأثرا بتراجع التجنيد سواء في صفوف الأوجاق أو البحرية . وامتهن الأعلاج نشاطات وحرفا متنوعة سيما النجارة والبناء وفقدوا نفوذهم على مستوى الإدارة المركزية.(غطاس، ع.2000- 2001: 17- 19).

رابعا- الزنوج بالجزائر العثمانية:

تعود أصول الزنوج بالجزائر العثمانية في غالبيتهم إلى بلاد السودان وقليلهم من طرابلس الغرب، وقبل أن يكون العدد الكبير منهم أحرارا في الفترة الأخيرة من حكم الدايات بالجزائر كانوا عبيدا سودا، إذ كان التجار التوارق البدويون يقومون بشرائهم مقابل بعض الحاجات الحرفية كالشواشي والأحذية والأقمشة الحريرية، وبالتالي كان العبيد وقتذاك عبارة عن بضاعة للمقايضة .(غطاس، ع.2002 : 170).

كانوا يجلبون سنويا من تمبكتو وطرابلس الغرب بواسطة قوافل التجارة، كعبيد، وجميعهم أحرار بعد اعتناقهم الإسلام إلا أن بقايا وثنيتهم السابقة لا تزال عالقة في أذهانهم، من خلال الشعائر والطقوس التي كانوا يمارسونها ومعتقداتهم الروحانية اتجاه عالم الجن . ولما كان الجهل يخيم على أغلب سكان المدن من المسلمين واليهود رجالا ونساء، فقد تمكنوا من التأثير على عقول هؤلاء الصنف من العامة، وما حفلات النذور إلا دليل على ذلك . وأشار شالر إلى أن فئة الزنوج أو المولدين بمدينة الجزائر، محدودة العدد مقارنة بالفئات الاجتماعية الأخرى والتمييز العنصري ضدهم موجود في المدن الجزائرية مثله مثل مدن الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بسبب انحدار السود من أصل العبيد.(شالر، و. 1982 : 93).

وتفيدنا وثائق المحاكم الشرعية بالمركز الوطني للأرشيف بالجزائر العاصمة بقائمة من العلب الأرشيفية، في كل علبة بيانات عتق لعبيد وإماء سود، بمدينة الجزائر، بعضها وقعها ووثقها قاضي المدينة، والبعض الآخر وثقتها المحكمة الحنيفية، والمحكمة المالكية، والآخر تحت إشراف وكيل سبل الخيرات، ودار الإمارة العالية، بالمدينة المذكورة . كما نلفت الانتباه أن العتق الذي يبرهن على وجود العبودية في صف الزنوج رغم محدوديتها كان عتقا فرديا أمام القاضي، وعتقا جماعيا يقوم به جماعة من الأسياد في حالة وفاة سيد العبد أو الأمة. كما قد يكون العتق في شكل وصية يتركها السيد ليتم تنفيذها من قبل القاضي أو غيره بعد وفاته،وأحيانا يستفيد العبد أو الأمة بعد العتق بجزء من الميراث .(المركز الوطني للأرشيف. العلبة 59، السجل 117، 17ف، سنة 1246هـ) وذكرت الباحثة غطاس عائشة أنه كان للعبيد الزنوج قائد يدعى تارة قائد العبيد، وشيخ العبيد أو قائد الوصفان تارة أخرى، وقد انضوى تحت سلطته، العبيد المعتقين .(غطاس، ع.2002 : 172.)

وتمكن "بربروجرBerbrugger" من إفادتنا بمعلومات عن السود في أقاليم الجزائر، فذكر لنا أن عددهم كان كبيرا ببايليك الغرب الجزائري مقارنة بالبايليكات الأخرى، وكان تركيزهم بضواحي مليانة، وقد وظفتهم السلطة التركية العثمانية في سياستها حيث سخرتهم لدعم العربي المخزني ضد الأمازيغي المناوئ، وكمثال على ذلك، نذكر أن قائد برج بوغني، جمع عددا من السود ومنحهم الخيل والسلاح والأرض، وكانوا من أهم معاونيه في أصعب المهام القيادية، حتىصاروا يؤلفون قبيلة مخزنية مغامرة قائمة بذاتها تسمى " زمول أو زمالة العبيد ". وللإشارة وُجد ببايليك الغرب تجمعات بشرية زراعية لعبيد هاربين من أسيادهم، وقد استقروا بقبيلة "بني مناصر". (Berbrugger, A.1859 :74).كما احتضنت قبائل زواوة—القبايل- عائلات زراعية زنج ية، تركزت بمجانة، إلا أن عدد الزنوج قليل مقارنة بعدد الأمازيغ بجرجرة، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجبلية للمنطقة، وغلاء سعر العبد الأسود في المدن القريبة من جرجرة بحيث يتراوح بين مائتي وثلاثمائة دورو، ويظهر أن جلب العبيد إلى جرجرة قل في أواخر العهد العثماني، لأن الدايات قد انشغلوا بمراقبة الأسواق وتقييد تحركات القبائل البربرية المناوئة للحكم العثماني

على أية حال كان سكان الريف بجرجرة يعانون الفقر وهم بأنفسهم بحاجة إلى عمل في أرجاء البلاد ولا حاجة لهم بالعبيد، باستثناء الأعيان المالكين للعقارات بجرجرة. ولما أدرك الباي محمد الذباح أهمية زمالة العبيد، نقل عددا من العبيد السود إلى برج سيباو أو واد سيباو بجرجرة، الذي تسيطر عليه قبيلة عمراوة، لتتكون هناك زمالة أو زمول الشملال، ويروى أن قائد السود المهاجرين لسيباو، تزوج من عربية من قبيلة بني جعاد، وأخذت زمول شملال بسيب او تُجند العبيد الهاربين الباحثين عن حريتهم وأرض يزرعونها، وبعد مدة تكونت "زمالة تالة عثمان" ما وراء واد عمراوة بسيباو.(Berbrugger, A. 1859 :73-75.)

وبشأن الزنوج ببايليك الشرق فقد اشتهرت بعض مراكزها الحضرية مثل بسكرة، بوسعادة والمسيلة بسوق النخاسة، التي يج لب منها العثمانيون العبيد السود إلى التل، وذكرت الدراسات التاريخية الفرنسية أنه وجد عدد كبير من السود بين القبائل المنتشرة ببايليك الشرق ولدى أعيانها (Berbrugger, A.1859 :76)

خامسا- اليهود بالجزائر العثمانية

سكن يهود الجزائر، مدن وأرياف الجزائر قبل مجيء العثمانيين، ولم ير العثمانيون مانعا من استمرار توطنهم بالجزائر، وتحتضن مدينة الجزائر أكبر عدد من اليهود، بين ستة وسبعة آلاف شخص، وأصولهم أوربية، طردوا من ايطاليا سنة 1342، والبلاد المنخفضة سنة 1350، وفرنسا سنة 1403، وانجلترا سنة 1422، واسبانيا سنة 1462.(De Tassy, L.1992 :125) و قدرت بعض الكتابات التاريخية عددهم سنة 1830 بمدينة الجزائر وحدها بحوالي خمسة آلاف يهودي، تلتف أغلب ملكياتهم حول قصر الداي، ومركز المدينة، وهذا التموقع الاستراتيجي لليهود يتكرر في مدن أخرى من البلاد الجزائرية، وقد لعب المال والدهاء دورا في ذلك.(ابن حموش، م.1999 : 16- 161).

وأشارت الكتابات التاريخية إلى وجود طائفتين يهوديتين بالجزائر العثمانية، طائفة اليهود المحليين أو اليهود المور حسب لوجي دي تاسي، الذين مارسوا أنشطة تجارية وحرفية ثانوية وغير مربحة كثيرا. فكثيرا من هؤلاء كانوا تجارا متجولين، أو حدادين، أو خياطين، وما شابه ذلك، وبالرغم من حصول هؤلاء منذ عهد حكم خير الدين بربروس، على حق ممارسة أنشطتهم بكل حرية، فإنهم كانوا أكثر فئات المجتمع رزحا تحت وطأة الضرائب المتنوعة، كما كان مفروضا عليهم التزام طريقة معينة في اللباس تميزهم عن بقية السكان.

وقد كان على رأس هذه الفئة مسؤول رسمي يدعى مقدم الطائفة، يعينه الداي وينسق مع المحكمة اليهودية في تطبيق أحكامها، المتعلقة بالشؤون الداخلية للطائفة، وكثيرا ما كان هذا المقدم يظفر بالمنصب وموافقة الداي، بالرشوة والتآمر، وهو يمارس وظيفته بقمع واضطهاد يساوي ما ينفقه من المال والجهد للاحتفاظ به .(شالر، وليم . ص 91). و ينحصر دوره في تمثيل أبناء قومه، لدى السلطات والتوسط في كل شؤونها سواء المتصلة بالإدارة أو لحل المشاكل الطارئة بين أفراد الطائفة أو بينهم وبين السكان الآخ رين. (أمين، م. 2002 : 37). والطائفة الثانية هي طائفة اليهود الليفورنيين، أو الأوربيين، الذين كان من بينهم بعض كبار التجار . وتشير الدراسات التاريخية، إلى وجود ثلاثة أحياء يهودية بمدينة الجزائر، هي :

- حي في أعلى طريق باب عزون باتجاه الباب الجديد.
- حي في أسفل طريق باب عزون باتجاه باب الجزيرة.
- حي بقرب باب الواد.

ومن هذه الأحياء الثلاثة، هناك حيان يسكنهما يهود إفريقيا ويهود الأندلس وفرنسا وايطاليا، وذلك بعد أن كان كل هؤلاء اليهود يسكنون حيا واحدا في عهد البايلربايات 1520- 1587. وخلال القرن السابع عشر، كان العديد من اليهود يسكنون أزقة مختلفة، وكانوا يشغلون مائة وثمانون مسكنا.

على أية حال صارت أحياء اليهود بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، حيين، مع التوزع عبر أزقة عديدة ، ويقع الحيان ضمن منطقة ذات نشاط تجاري، إلا أن التركز اليهودي موجود بزنقة القورنية، حيث يهو د ليفورن الايطالية، وبها مكاتب اليهود المخصصة للتصدير، وحمام الجالية اليهودية، وأيضا يتركزون بطريق باب عزون التي بها دار اللحم بزنقة اليهود التي شهدت مجزرة بحقهم سنة 1805 في عهد الداي مصطفى باشا . وبنفس المنطقة سكن اليهود رفقة البساكرة بزنقة البوزا Boza، وذكرت الكتابات أن اليهود الأثرياء سكنوا بأحياء الحضر، مما يفسر تلاشي النزعة الدينية الطائفية بمدينة الجزائر وأن الذي كان سائدا هو التجمع لمصلحة اقتصادية.(Missoum, S.2003 :87-88)

وتساءل الباحثون عن علاقة اليهود بالمجتمع الجزائري بمختلف فئاته، أي ما هو موقعه بين الانعزالية والانفتاح؟ والجواب على ذلك يكمن في أن الخصومات التي قد تنتج عن معاملات بين اليهود والمسلمين، وعمليات البيع والشراء المنصوص عليها في الوثائق الشرعية، زيادة على تداخل الممتلكات بين الطرفين لدليل واضح على تفتح الجالية اليهودية على المسلمين داخل المدينة. لكن هذا التفتح لا يعني تعايشا بين المسلم واليهودي على الدوام بل ذكرت الكتابات التاريخية أن الأتراك العثمانيين والجزائريين هاجموا ممتلكات اليهود سنة 1804 بمدينة الجزائر وانتهت بتدخل السلطة التي عاقبت الجناة المسلمين.(ابن حموش، م.1999: 163).

وإذا كان شالر قد كتب أن اليهود وبصفتهم رعايا الدولة الجزائرية العثمانية، قد تمتعوا بحرية المعتقد وممارسة الطقوس اليهودية وحرية التنقل والإقامة حي ث يرغبون، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع أنحاء البلاد الجزائرية، ومحرم عليهم الاسترقاق، والسماح له م باحتكار السمسرة وأعمال المصارف وتبديل العملة، حتى أنهم حضروا بقوة في دار السكة، (شالر، و.1982 : 89) فإنه في المقابل لم يهمل ذكر الحقوق التي حرموا منها، فمثلا لا يسمح لهم بمقاومة أي نوع من العنف يصدر عن مسلم ضدهم، كما هم مجبرون على ارتداء لباس أبيض أو أسود ، ويمنعون من ركوب الخيل، وحمل أي نوع من السلاح، بما

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في ذلك العصا، ولا يخرجون من المدينة إلا يومي الأربعاء والسبت من كل أسبوع، ويستدعون من قبل السلطة التركية للمشاركة في الأشغال الشاقة عند الضرورة . أضف إلى ذلك أنه في عدة مناسبات قامت فرق الانكشارية بالمدينة بنهب ممتلكاتهم دون تمييز، وحتى الأطفال كانوا يطاردون اليهود في الطرقات .(شالر، و.1982: 90) ونلاحظ أن هاينريش في عهد الاحتلا ل الفرنسي، وافق شالر فيما ذهب إليه بخصوص الحقوق التي لم يحظ بها اليهود في ظل نظام الدايات، فقد كتب هو الآخر أن اليهود في أيام الدايات ، "كانوا يحيون حياة الذل والخنوع والاضطهاد، مجبرين على إخفاء أموالهم وثرواتهم، وعلى ارتداء لباس أسود معتم على الدوام، وكان المسلمون يهينونهم دون أن يكون لهم الحق في رد الإهانة أبدا."(هاينريش، ف.م.1976: 81).

وبناء على ما ذكرته الكتابات التاريخية بصدد هذا ا لموضوع نعتقد أن اليهود المحليين تفتحوا على الطبقة الاجتماعية المحكومة التي ينتمون إليها وفي مقدمتهم الحضر والبرانية، فسكنوا مثلا مع البساكرة في زنقة واحدة، ومع الحضر كما أسلفنا. أما يهود ليفورن الايطالية الذين كانوا أنشط يهود الجزائر في المجال المالي والاقتصادي، (Noushi, A.1980 :52) وسيطروا على تجارة الجزائر العثمانية في مجال البضائع والعبيد، فقد تفتحوا على الطبقة الاجتماعية الحاكمة، وانعزلوا عن الطبقة المحكومة، وهذا ما نستشفه من كتابات وليم سبنسر حيث ذكر أن يهود ليفورن قد حظوا بمكانة اجتماعية محترمة خلال ع هد الدايات، بحكم معرفتهم بقضايا العملة والتجارة الدولية، وقد وظف زعماء يهود ليفورن في الأعمال التجارية للدولة والقيام بالمفاوضات مع التجار الأوربيين، وهو ما كان يتطلب معرفة باللغات والمعاملات التجارية للبحر المتوسط التي كانت تفوق إمكانيات حكام الجزائر العثمانية، وقاد ذلك إلى احتكار عائلتي بوجناح وباكري للتجارة الخارجية الجزائرية الأمر الذي تسبب في سقوط الدولة سنة 1830.

وكان هؤلاء اليهود المتنفذون نادرا ما تلاحقهم السلطة التركية العثمانية، وإذا لوحقوا فإنهم يتجاوزون ذلك بتقديم مساعدات مالية ضخمة لبيت المال .(سبنسر، و.1980: 84) وعنهم فيما يبدو، كتب شالر أن هؤلاء الأغنياء من اليهود هم الوحيدون الذين لم تثبط عزائمهم لأنهم يتراسلون مع يهود آخرين يقيمون في الخارج، وبواسطة ذلك أصبحت لهم معرفة صحيحة بالشؤون الخارجية، وهم ينغمسون في مختلف أنواع المؤامرات التي يقامر ون فيها أحيانا، بحياتهم .(شالر،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و.1982 : 90) وقد لعب هؤلاء دورا مؤثرا في الميدان المالي للجزائر العثمانية، فكثير من هؤلاء الأغنياء قاموا بدور الوساطة التجارية، وتقديم القروض المالية بفوائد مرتفعة عند الحاجة، كما أنهم كانوا لا يتورعون عن عرض خدماتهم على رجا ل الدولة الجزائرية في المهام الاقتصادية والقضايا المالية.

وقد تعرض هؤلاء اليهود الليفورنيون للاحتقار من السكان المسلمين كرد فعل على الأموال التي جمعوها، والنفوذ الذي كان لهم على الأجهزة المالية للبلاد، وهذا ما دفع أغنياء اليهود إلى التقرب أكثر من الحكام، بتوفير الحاجات المادية لهم، حتى لا يتعرضوا للتضييق والقمع، ويتمكنوا من اكتساب الامتيازات التجارية والتهرب من الضرائب. وفي السنوات الأخيرة من عمر الدولة الجزائرية العثمانية أشار شالر أن عددا من الأثرياء اليهود قد تدهورت أحوالهم وأصابهم الإفلاس، أو وجدوا طريقا للهجرة، بسبب ما حل بهم من اضطهاد.(شالر، و.1982 : 91) وعاشت الجالية اليهودية الأوربية في عزلة عن بقية المجتمع لا يهمها سوى مكاسبها المادية وأرباحها التجارية، كون اليهود في ظل نظام الاحتكار، برجوازية اجتماعية، سيطرت على الأسواق التجارية وأخذت تمارس ضغطا ما ليا على الجهاز الحكومي، كان له فيما بعد أثر على مستقبل الجزائر نفسها، ويتجلى ذلك في إبعاد بقية السكان عن كل مساهمة جدية قادرة على التأثير في المجالات الاقتصادية الحيوية . (سعيدوني، ن. 1979 : 227، 233).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي الختام، نلاحظ أن النظام التركي العثماني الذي ثبت أقد امه بالجزائر منذ عهد خير الدين بربروس في الربع الأول من القرن السادس عشر، قد وجد أن البلاد الجزائرية هي ملاذ لهجرات بشرية من اسبانيا يمثلها الأندلسيون الموريسكيون واليهود، وعمليات جلب للزنوج من بلاد السودان وطرابلس، فراح يشجع مثل هذه الهجرات بل وعزز ذلك به جرة تركية وأوربية دورية على مدار ثلاثة قرون، فنتج عن ذلك تعايشا بين الجنس الأسيوي، الأوربي والإفريقي في بلاد الجزائر، وتجاورت الأديان والمذاهب والأعراق واللغات واللهجات في بلد واحد تحت الإمرة التركية والسياسة العثمانية التي كانت لها الخبرة في تسيير شؤون الشعوب بمختلف مشاربها الحضارية، إلا أن كل فئة من فئات المهاجرين والمهجرين القادمين من بلدان خارجية قد انقسمت إلى قسمين : فمثلا اكتفى عدد من الأتراك والأعلاج بمخالطة السكان الأصليين وحتى المهاجرين الآخرين بما تفرضه ضرورات المعاملات اليومية من بيع وشراء، أما ب قيتهم فقد انتقلوا من مخالطة السكان الأصليين إلى

مصاهرتهم ومن هنا بدأ الاندماج الاجتماعي التدريجي . وفيما يتعلق باليهود، فالمحليون منهم تفتحوا على السكان العرب والأمازيغ أما اليهود الأوربيون فقد عاشوا في عزلة عن بقية المجتمع ولم يتفتحوا إلا على الفئة الحاكمة من الأتراك والأعلاج والكراغلة . وفيما يتعلق بالأندلسيين فقد عاشوا مع أمل العودة إلى الأندلس لذلك اكتفوا بمخالطة السكان الأصليين والمهاجرين الأتراك والتزموا الهدوء والحذر طيلة الحكم العثماني . وعندئذ يجدر بنا القول أن الثلاثة قرون كانت فترة غير كافية لصهر مج تمع الجزائر العثمانية في بوتقة واحدة في ظل التعدد اللغوي والعرقي والديني، وأن الاحتلال الفرنسي قد وضع هذا النسيج الاجتماعي من السكان الأصليين والمهاجرين على المحك

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1- المصادر باللغة العربية

- حمدان خوجة، بن عثمان .(1982). **المرآة** ، تقديم وتعريب وتحقيق : محمد العربي الزبيري، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- شالر، وليام.(1982). **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر1816- 1824**. تعريب وتعليق وتقديم: اسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- المركز الوطني للأرشيف. سجلات المحاكم الشرعية، العلبة 59، السجل 117، 17ف، سنة 1246هـ.
- هاينريش، فون مالتسان . (1976). **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا** . الجزء 1، ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

2- المراجع باللغة العربية

- أمين، محمد. (2002) "ملاحظات حول سياسة التهميش ووضع المهمشين بولاية الجزائر العثمانية ". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية،** مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 25، ص ص. 17- 42.
- ابن حموش، مصطفى. (1999). المدينة والسلطة في الإسلام –نموذج الجزائر في ا لعهد العثماني- ط1، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع.
- سعد الله، أبو القاسم. (1981). **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16- 20)،** ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سبنسر، وليم.(1980). **الجزائر في عهد رياس البحر،** تعريب وتقديم: زبادية عبد القادر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعيدوني، ناصر الدين . (1979). **النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800- 1830**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- سي يوسف، محمد . (2002). "المرأة والسلطة في الجزائر خلال ال عهد العثماني". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 25، ص ص.65- 88.

- غطاس، عائشة.(2000- 2001). **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر1700- 1830. مقاربة اجتماعية واقتصادية**.ج1 ، أطروحة دكتوراه دولة ، في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر العاصمة، الجمهورية الجزائرية. 2000- 2001.

- غطاس، عائشة. (2002). "الوافدون –البرانية- على مدينة الجزائر 1787- 1830 بين التهميش والاندماج". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 25، ص ص.167- 180.

- معاشي، جميلة. (2001)." اندماج الانكشارية في المجتمع القسنطيني من خلال سجلات الزواج والطلاق بأرشيف ولاية قسنطينة ". **أعمال الملتقى الدولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جام عة منتوري بقسنطينةص ص

- يحياوي، جمال . (2004). سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492- 1610م، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر.

3- المصادر باللغة الأجنبية

In Revue AfricaineHistoire du Royaume d'Alger

Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger par le chef de bataillon Boutin 1808, suivie des mémoires sur Alger par le consul De Kercy 1791, et Dubois Thainville 1809.

Voyage dans la régence d'Alger

4- المراجع باللغة الأجنبية

In Arab Historical Review For Ottoman Studies). L'Algérie sous les turcsAlger à l'époque ottomane –la médina et la maison traditionnelle-.Travaux du séminaire international de Hammamet

اتجاهات الهجرة في عمالة وهران
من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى بداية الثورة التحريرية 1945- 1954)

أ. بلحاج محمد ،
كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس.

تعرف الهجرة على أنها ظاهرة عالمية وأنها عملية لازمت الأفراد والجماعات منذ الحقب البعيدة من تاريخ البشرية، وهي الظاهرة التي لا تزال إلى اليوم في الاستمرار بشتى الأشكال والاتجاهات مشكلة موضوع حديث الساسة والمؤرخين و علماء الاجتماع والاقتصاد، ورجال الدين وغيرهم.

وتندرج الهجرة ضمن العامل الاجتماعي الذي يعتبر من المؤشرات الهامة التي تساعد على تفسير الظواهر التاريخية، بحيث يكون للتغيرات الناجمة - في هذا المجال - والتي مست الإنسان في شروط عيشه وقيمه وثقافته، من أهم الجوانب التي يجب تدارسها وفحصها، ومن هذا الباب يمكن أن يكون العامل الديمغرافي من أهم مجالات الاهتمام، من خلال دراسة نمو السكان وتوزيعهم الجغرافي والوظيفي، وكذا حركتهم وتركيبهم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

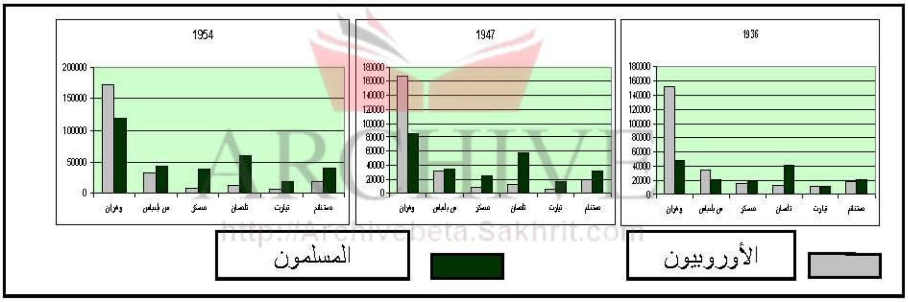
إن الأمر يستدعي أن تدرس في هذا الإطار حركة الهجرة بمختلف اتجاهاتها، وأسبابها وتأثيرها على الاستعمار كأداة من أدوات المقاومة، وكوسيلة من وسائل البحث عن مصادر الرزق والعلم، وكمؤثر هام على الوجود الاستعماري، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية في عمالة وهران وسائر القطر الجزائري.

ومن هذا المنطلق، وفي إطار التاريخ المحلي للغرب الجزائري، وفي المدة الممتدة بين سنتي ، أحاول الوقوف على اتجاهات الهجرة وتحديده أسبابها وتبعاتها في دراسة مقارنة بين العنصرين الأوروبي والمسلم في هذه الرقعة من الجزائر، ذلك أن الفترة المعنية بالدراسة عرفت المرحلة النهائية لتبلور المجتمعين المستعمَر والمستعمِر(زوزو، ع، :).

I/الهجرة الداخلية:

تعتبر الهجرة الداخلية التي عرفتها عمالة وهران من أهم اتجاهات الهجرة في الفترة الموالية للحرب العالمية الثانية، حيث تزايدت في هذه الفترة بشكل كبير، نظرا لما توفره المدن من خدمات ونشاط، يعجز الريف عن تقديمها (، إلا أن النزوح الريفي لدى الج زائريين وصل في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلى أرقام قياسية حتى في المدن التي كانت حكرا على الأوروبيين مثل وهران التي لم تتعد نسبة السكان الجزائريين بالنسبة للأوروبيين فيها من إجمالي السكان في بداية القرن ، لتصل نسبتها سنة إلى (، كما انتقلت نفس نسبة الجزائريين في مدينة سيدي بلعباس من سنة إلى سنة للأوروبيين (، وتعد مناطق تلمسان وتيارت من أهم الجهات التي وفد سكانها نحو المدن، وهو ما يمكن أن توضحه البيانات التالية:

رسم بياني لتطور عدد الأوروبيين والمسلمين في بعض مدن عمالة وهران



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1/أسباب الهجرة الداخلية:

أ/ بالنسبة للمسلمين:

يمكن تفسير هذه الظاهرة بالظرو ف القاسية التي كان يعيشها الجزائريون، في المناطق الوعرة التي أجبروا على شغلها، من طرف المستعمر في المساحات الجانبية الفقيرة للسهول والمناطق الجبلية والسهبية والتي لم تسمح إلا بتحقيق مداخي ل جد ضعيفة لنشاط مضني

وبهذا من غير الممكن أن تنطبق –تطابقا مطلقا- ظاهرة تزايد سكان المدن، التي عرفها العالم المصنع بسبب الانقلاب الصناعي، وما ترتب عنه من احتياجات، تستقطب اليد العاملة، ولكن الظاهرة تعود بالدرجة الأولى إلى سياسة التفكيك الذي تعرض له العالم الريفي

وقد يكون للحرب العالمية الثانية، دور في تفاقم ظاهرة الهجرة الداخلية، ولكن لا يمكن إغفال دور السياسة الاستعمارية المبنية على التجويع والتفقير مثلما أشار إليه ألبير كامي وهو يصف حالة الجزائريين في الأرياف سنة :

"إن من السكان يتغذون من الحشائش والجذور، ينتظرون الصدقة الإدارية على شكل توزيع الحبوب"

ورغم ادعاء فرنسا مباشرتها لإصلاحات في فائدة الجزائريين مع نهاية الحرب العالمية الثانية فإن الأوضاع بقيت كما هي في الأرياف، فيكفي – كما يقول رشيد بن شنب – أن تقيم بعض الوقت من سنة في المناطق المعزولة في الونشريس والظهرة وجبال تيارت وسعيدة ليتجلى لك البؤس أكثر من تجلي الشمس، حيث تتكاثر الأكواخ مثل الفطريات، إنه سفر خارج الزمان ...." وللدلالة أكثر، على البؤس في الريف ومحاولة، مواجهة النزوح الريفي أوصت تقا رير الإدارة المحلية لبلدية المكرة بسيدي بلعباس سنة، بضرورة إبقاء الفلاحين في أراضيهم واستصلاحها ورفع الأجور، لكن رغم ذلك كان فتح خط نقل بالحافلة كافيا لاستنزاف لسكان الأريا ف نحو المدن بحيث اقتصرت الهجرة في البداية على الذكور لتلتحق باقي العائلة فيما بعد.

ب/بالنسبة للأوروبيين:

لم تقتصر الهجرة الريفية على الجزائريين فقط، بل امتدت كذلك إلى العنصر الأوروبي، حيث تراجعت نسبة الأوروبيين الريفيين من سنة إلى سنة ، كما شهدت مدينة مغنية مثلا 332 أوروبيا سنة مقابل مسلم، وترجع أسباب هذه الهجرة الريفية الأوروبية إلى تغيير النشاط الاقتصاد ي نحو التجارة والصناعة وإذا كان الأمر يستدعي المقارنة بين الجزائريين من جهة والأوروبيين من جهة أخرى، فإن عمالة وهران سجلت زيادة معتبرة للعنصر الجزائري، رغم قوة التمركز الأوروبي، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث كان المستوطنون يشعر ون بأمان أكثر جراء حوادث ماي، هذا في الوقت الذي سجلت فيه الإحصائيات فقدان العنصر الأوروبي لحوالي نسمة في عمالة وهران، وذلك رغم قيام الإدارة الاستعمارية بمحاولات وضع سياسة تهدف إلى تخفيض نسبة المواليد بشمال إفريقيا سنة

لقد أرجع الفرنسيون هذا التراجع الأوروبي، إلى مخلفات الأزمة الاقتصادية لسنة وفق نظرية مالتوس، لكن الحقيقة كما يراها آجيرون، مخالفة لهذا الطرح، حيث

أرجعها إلى فشل السياسة الاستيطانية الفرنسية الرسمية التي بوشرت منذ السنوات الأولى للاحتلال، وهذا ما جعل بعض الأصوات تنادي بتعويض هذا الخلل بتغر يب لجزء من العنصر الجزائري، أو إعادة بعث السياسة الاستيطانية بخلق جو من الثقة لتوطين فرنسيي الوطن الأم بتقديم مزايا مادية وعقارية لهم مثلما أشارت إليه تقارير السلطات المحلية لبلدية إينكارمان (وادي رهيو) سنة، لكن عوض التغريب وقعت تلك البلديات التي طالما افتخر أوروبيوها بطابعها الكولونيالي إلى التعريب.

2/انعكاسات الهجرة الداخلية(الريفية) في عمالة وهران:

التزايد المستمر للجزائريين على حساب الأوروبيين في كل المدن ما عدا مدينة وهران.

فقدان العنصر الأوروبي لعدد كبير من سكانه في هذه المدن ولعل أهم مثال على ذلك هو مدينة سيدي بلعباس التي عرفت انقلابا ديمغرافيا حقيقيا لصالح الجزائريين.

كلما اتجهنا جنوبا كلما لاحظنا قلة تركيز ال عنصر الأوروبي (مدينة تيارت مثلا).

إن تطور عدد السكان الجزائريين في المدن، لم يكن بسبب الزيادة الطبيعية فقط، بل كذلك بسبب الزيادة غير الطبيعية الناجمة عن النزوح الريفي أو الهجرة.

- تكوين مدن الصفيح، أو أحزمة المدن التي تسمى كذلك بأحزمة الفقر، التي تشكلت بطريقة تلقائية حول المدن، لتستقطب الوافدين من الأرياف والصحراء

- تشكيل طبقة بروليتارية جزائرية، نظرت إليها الأوساط الكولونيالية، بعين الحذر وا لتخوف مثلما تشير إليه تقارير السلطات المحلية لبلدية المكرة المختلطة بسيدي بلعباس:

" يجب مواجهة مشكل تزايد نمو السكان وتوقيف تشكيل بروليتارية مدنية بائسة، صعب التحكم فيها، سهل إقحامها في الفوضىأثر هذا النزوح على عدة جوانب، مثل الحركة النقابية، خاصة إذا وضعنا في الحسبان أن الحركة النقابية ظاهرة مدنية بالدرجة الأولى ولم تكن هذه الهجرة التي دخلت في إطار التحضر القسري حلا وحيدا أمام الجزائريين، بحيث لجأ الكثير منهم إلى الهجرة نحو الخارج.

II/الهجرة نحو الخارج:

إن الهجرة الجزائرية نحو الخارج ليست وليدة المرحلة المعنية بالدراسة، بل عادت إلى فترات وظروف سابقة، لا يتسع الأمر لسردها، ولكن تكمن أهميتها في كونها ظاهرة تدل على التدهور الاجتماعي المتواصل

وقد عرفت الهجرة نحو فرنسا على الخصوص تزايدا ملحوظا في هذه المرحلة، مثلما تشير إليه الإحصائيات المحصورة في هذا الجدول:

الجدول رقم: 1.حركة ذهاب وإياب الجزائريين من عمالة وهران من وإلى فرنسا عن طريق الخطوط البحرية

السنوات	1945	1946	1948	1949	1950	1952	1953	1954
الذهاب	77804	73714	16625	14578	42401	24414	19772	21957
الإياب	15112	63784	67910	9253	9502	21506	15639	19287
الحاصل	+62692	+9930	+5946	+5325	+4738	+2908	+4133	+6670

المصدر: Annuaire statistique de l'Algérie, 1947, p :52 /1954, p :51

1/أسباب هجرة الجزائريين نحو الخارج:

وبالإضافة إلى العوامل السالفة الذكر، ارتبطت الهجرة الجزائرية نحو الخارج في هذه الحرب بظروف الحرب والتطورات السياسية التي حصلت في الجزائر في الفترة المعنية بالدراسة، وهي كالآتي:

- ظروف ما بعد الحرب في فرنسا، التي استدعت طلب اليد العاملة لإعادة بناء ما خربته هذه الحرب، وكان هذا الطلب على يد وزير العمل. تسهيل حركة تنقل الأشخاص بين الجزائر وفرنسا، الذي أ قره دستور الجزائر لسنة ، والذي سمح بالهجرة الكبرى ، حيث أصبح التنقل يتم عن طريق البطاقة الشخصية فقط (مريبعي، س، ، ص:).

- الانتقال من الهجرة الفردية إلى الهجرة الجماعية والأسرية

2/ المصادر الجغرافية لهجرة الجزائريين:

وللتعرف أكثر مصادر هجرة الجزائريين نحو فرنسا، من عمالة وهران استعنا بهذا الجدول:

الجدول رقم: 2.عدد المهاجرين الجزائريين نحو فرنسا من العمالات الثلاث س1950

العمالة	الدائرة	العدد الإجمالي للبلديات	عدد البلديات المعنية بالهجرة	عدد المهاجرين
الجزائر	الإجمالي	-	-	33378
قسنطينة	الإجمالي	-	-	40157
وهران	وهران	46	1	81
	معسكر	17	0	-
	مستغانم	27	5	1688
	س. بلعباس	23	0	-
	تيارت	11	0	-
	تلمسان	13	6	7854
إجمالي مهاجري عمالة وهران				9623

المصدر: **Institut national d'études démographiques, 1955, p:93.**

يتضح من خلال هذا الجدول، أن نصيب عمالة وهران من عدد المهاجرين لا يمثل من خلال هذه العينة سوى من عدد المهاجرين الجزائريين نحو فرنسا ، وأن أهم المناطق التي كانت مصدرا للهجرة ، هي تلك الواقعة في أقصى الشمال الغربي والجنوب الشرقي لعمالة وهران وهي مناطق متميزة بطابعها المورفولوجي الوعر قلما تجود بالمناطق المنبسطة والخصبة ، بحيث نجد ندرومة، ومغنية وطرارة في الغرب، ووادي رهيو وعمي موسى في شرق العمالة، في وقت لم تكن المدن مصدرا لهذه الهجرة ورغم صعوبة العمل الشاق - الذي كان يزاوله مهاجرو عمالة وهران كغيرهم من الجزائريين - من خلال العمل في التعدين والبناء والأشغا ل العمومية - سمحت هذه الهجرة للكثير منهم، بتحسين الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لذويهم في الجزائر، كتحسين ظروف السكن وتعليم الأبناء كما سمحت لهم بتوسيع المداخيل بفضل الأجور المرتفعة، مما أدى ببعضهم إلى تكوين تجارة، أو شراء العقارات

ومع ذلك لم يبلغ عدد المهاجرين الجزائريين، من عمالة وهران سنة 1954، سوى عُشر المهاجرين الجزائريين من الجزائر كاملة3 /أسباب أخرى:

ولم تكن هذه الهجرة الخارجية من أجل الاسترزاق، بل امتدت أسبابها إلى أهداف أخرى مثل الدراسة في ظل سياسة الإقصاء الذي كان يتعرض له الجزائريون من قبل السلط ة الاستعمارية، بحيث أشارت بعض الوثائق مثل تقرير

مصلحة العلاقات في شمال إفريقيا في حيث أحصي عدد طالب جزائري بجامع القرويين منهم من عمالة وهران يضاف إليهم 51 طالب جزائري في مركز مكناس وهو ملحقة بجامع القرويين منهم من عمالة وهران(، يضاف إليهم طالبا أحصرتهم نفس المصلحة في المشرق العربي سنة 1954 يتوزعون على هذا النحو :

الجدول رقم: 3.عدد طلبة القطاع الوهراني الجزائريين في بعض جامعات ومعاهد المشرق العربي

البلد	العدد	البلد	العدد
مصر	25	العراق	02
سوريا	10	السعودية	01

المصدر: A.W.O, Boite 6987

من خلال هذا الجدول نتوصل إلى تنوع وجهات الجزائريين، بحثا عن العلم، رغم المخاطرة بالسفر السري بدون الحصول على جوازات السفر مثلما أشارت إليه التقارير.

أغلبية الطلبة المهاجرين لدائرة تلمسان مثلا، توجهوا إلى الأزهر بالقاهرة مثل المنصوري عبد الرزاق وصباغ محمد وبن يلس مراد، في حين كانت توجه أغلب طلبة دائرة معسكر، إلى أنطاكية ودمشق بسوريا مثل الصم المنور وإيقاش مرتاضة والأخوين ولد عوالي محمد وبن عبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبالإضافة إلى ذلك حصر الشيخ الزموشي مفتش مدارس جمعية العلماء المسلمين بعمالة وهران في أوت عند زيارته لمستغانم أن لجمعية العلماء عدد من الطلبة يصل إلى في مصر في باكستان في العراق على نفقة الدول المستضيفة

وفي المقابل عملت السلطات الاستعمارية بكل ما أوتيت من قوة على عرقلة التعليم الأهلي والمبادرات الساعية إلى تعليم الفرد الجزائري، وتوعيته مثلما أوصى به التقرير الخاص والمتم حور حول وضعية الطلبة الجزائريين، في جامع القرويين، حيث رأت أن من بين وسائل محاربة هذا التعليم، مساعدة الجزائريين الراغبين في مغادرة الدراسة ومراقبة الطلبة المتبقين عن كثب ، بل تعدت ذلك حين وصلت إلى درجة السعي إلى مضايقة الطلبة في بعض البلدان المجاورة مثل تونس، حيث تم طرد بعض الطلبة المزاولين للدراسة في جامع الزيتونة بتونس، مثل غلام الله بوعبد الله من تيارت وحشماوي دحو بن مصطفى من معسكر في مارس ورغم الصعوبات التي

كان يلاقيها الطلبة الجزائريون كما أشار إليه التقرير من الناحية المادية، فقد تمكن الكثير منهم من التفوق في التحصيل العلمي

وبالإضافة إلى ذلك، هناك هجرة خارجية أخرى ولكن في الاتجاه المعاكس، بتوافد المغاربة والإسبان على وجه الخصوص، مشكلين مع باقي السكان تركيبة إثنية متنوعة الانتماء والنشاط.

III / الهجرة المعاكسة (نحو عمالة وهران):

من خلال ما سبق يمكن أن تفسر عمالة وهران - وبعض المناطق منها - كانت بمثابة منطقة طرد للسكان، بالنظر إلى الظروف الطبيعية والاقتصادية وتراكمات السياسة الاستعمارية، لكن من جانب آخر كانت عمالة وهران إلى غاية الفترة السابقة للثورة التحريرية الكبرى منطقة لجلب السكان الأجانب مثل الإ سبان والمغاربة على الخصوص.

1 /الإسبان:

حسب الإحصائيات، فإن أغلبية الأوروبيين القاطنين بعمالة وهران في هذه الفترة، كانوا من الإسبان وبنسبة من الأوروبيين، في حين ذكر آجيرون، أنهم وصلوا إلى من الأوروبيين ويعود هذا التواجد القوي للإسبان في عمالة وهران، إلى عدة ظروف وأسباب نلخصها فيما يلي :

- حرص السلطات الفرنسية على إعادة بعث الهجرة الاسبانية، بعد توقفها حين حررت وهران من الإسبان سنة - قرب عمالة وهران من اسبانيا، بحيث لا يتعدى وقت الإبحار إليها بضع ساعات.

- فقر وضيق السواحل الجنوبية الشرقية لإسبانيا، واكتظاظ ها السكاني، حيث توافد معظمهم من فالنسيا واليكانت وجزر البليار وألميريا ومورسيا (حليمي، ع،)

- النجاحات التي حققها الوافدون الأوائل من الإسبان، بفضل صبرهم على الظروف الصعبة، حيث حل المستوطنون الإسبان بعد فشل مشاريع توطين الفرنسيين وتمكنوا من الحصول على الملك يات بفضل التسهيلات التي كانت تمنحها إياهم الإدارة الفرنسية مثل القروض

- ظروف الحرب الأهلية من ، والتي زادت من هجرة الإسبان إلى عمالة وهران من إسبانيا ومنطقة الريف المغربي المحتل من طرف الإسبان (هلايلي، ح، :).

ويفتخر الفرنسيون، بمدى النجاح الذي حققوه من خلا ل الإدماج الكامل لغير الفرنسيين وفرنستهم ويؤكد هذا الطرح آجيرون، الذي برره بفقدان الإسبان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

للكثير من العادات والتقاليد، مثل مبارزة الثيران . حيث لم يعد الملعب المخصص لذلك في حي الكميل بوهران سوى أطلالا، على الرغم من أنه بمجرد أن انهزمت فرنسا أمام الألمان في الحرب العالمية الثانية، ردد الفرونكيو ن في عمالة وهران عبارة شهيرة:

" من أوروبيي عمالة وهران إسبان"

وهذا ما يفسر عمليات الطرد التي باشرتها السلطات الفرنسية، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في حق العديد منهم مثلما تشير إليه وثائق الأرشيف لولاية وهران.

ويضاف إلى المتجنسين الإسبان بالجنسية الفرنسية، عدد كبير من الإسبان الذين اعتبروا أجانبا، حيث أحصيت في سنة عدد إسبانيا بها وسنة عدد بعدما كان العدد سنة بالضبط ولقد زاد وجود الإسبان في عمالة وهران، من معاناة الجزائريين حسب تنتوان، بسبب الكره الذي كانوا يك نونه للعرب الواصفين إياهم بالمورو، رغم أن الكثير منهم كانوا يعيشون نفس ظروف الجزائريين، كالعمل البسيط لدى المعمرين وأرباب العمل، والعيش في الأحياء الشعبية

2/المغاربة :

شكل السكان المسلمون أغلبية سكان عمالة وهران، رغم التواجد الأوروبي الكثيف، مقارنة بالمناطق الأخرى من الجزائر، وكان المسلمون يعيشون في مستوى معيشي ضعيف جدا بالمقارنة مع الأوروبيين)، ولقد كوّن المغاربة أقلية في النسيج السكاني المسلم في العمالة، وامتد تواجد المغاربة في عمالة وهران إلى القرن، حيث توافدوا من مناطق عديدة من المغرب الأقصى وخاصة م ن منطقة الريف متأثرين بالظروف الصعبة التي عاشتها المنطقة الجبلية، التي قدموا منها، وكذا الأزمة الزراعية التي ضربت منطقتهم في وسط القرن . ولم يعرف توافد المغاربة توقفا بعد هذا التاريخ، متأثرا ببعض الظروف مثل حرب الريف المغربي ضد المحتل الاسباني، وكذا الحرب ا لأهلية الاسبانية التي امتدت إلى المغرب وهو ما تشير إليه الإحصائيات التالية :

الجدول رقم: 4.تطور عدد المغاربة في عمالة وهران

السنوات	1936	1948	1954
العدد	40214	67301	77706

المصدر: Ahmed Abid, (1966), Résultat statistiques du dénombrement de la population 1954, p : 123.

وقد توافد هؤلاء المغاربة الريفيون على الخصوص بصفة انفرادية للعمل المؤقت والموسمي، لتلتحق باقي الأسرة بمجرد الحصول على عمل مستقر، حيث تمركزوا في الطنف الوهراني ومنطقة تموشنت وبني صاف . وكانوا يشتغلون بالزراعة والبستنة والبناء وبيع المواد ا لغذائية والتوابل، وكثيرا ما لجأت السلطات الاستعمارية والمعمرين إلى توظيفهم من أجل كسر الإضرابا ت التي كان يقوم بها العمال الزراعيون الجزائريون

وحسب إحصاء سنة فقد تتمركز هؤلاء المغاربة على عدد من الجهات دون غيرها، مثل: مدينة وهران، وعين الترك، وبوتليليس، وا لمرسى الكبير، والمالح، وسيدي بلعباس، وبني صاف، والرمشي، وحمام بوحجر وهو ما يوضحه الجدول التالي:

الجدول رقم: 5.تعداد السكان المغاربة في بعض مدن عمالة وهران سنة

الدائرة الإدارية	البلدة أو الحي	العدد
وهران	رأس العين الزارعون	5874
	دوار المروك (عين الترك)	2042
	بريدعة (بوتليليس)	1042
	الميناء القديم(المرسى الكبير)	1484
	العين البيضاء (السانيا)	1222
تلمسان	بني صاف	1413
سيدي بلعباس	Séneclauze ،Point du jour	1009

المصدر: Résultat statistiques du dénombrement de la population, 1954, pp. 86-91-94-123

ومجمل القول فإن هذه المرحلة سجلت تحولات مهمة في المجال الديمغرافي الذي كانت الهجرة أحد أهم مشاهده ومظاهره، والتي أثرت فيها الظروف المحلية والخارجية للقطاع الوهراني خصوصا، والجزائر عموما، وأهمها التزايد الكبير للجزائريين على حساب الأوروبيين ليس في الأريا ف فقط بل حتى المدن" الأوروبية"، والذي خلق قلقا كبيرا في أوساط الاستعماريين حيث جعلهم يرون في ذلك تهديدا لوجودهم

وعوض أن تصب جهود السلطات الاستعمارية في تحسين أوضاع الجزائريين، وتمحو مظاهر البؤس التي تسببت في بروزها ، ومن خلال خلق نوع من التوازن بين المعمرين والجز ائريين، توجهت نحو دراسة السبل الكفيلة بالتخفيض الجاد لنمو السكان المسلمين ، بدعوى أن النمو السكاني السريع للجزائريين هو السبب الحقيقي للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية، مثلما عبر عنه قرارًا رئيس مجلس عمالة وهران في أكتوبر

وفي هذا الإطار أصبح النزوح الريفي و"التحضر الفوضوي و"بَلتَرَة" السكان الجزائريين، بمثابة أدوات حاسمة في تاريخ الجزائر، حيث أن توطين وتوطُّن الجزائريين في المراكز الاستيطانية، والمدن ولو في القصدير والصفيح، أدى إلى اكتشاف المجتمع الكولونيالي والانتقال من الجوار إلى المواجهة المعبَّر عنها من خلال العنف والحركات المطلبية كرد على الاحتقار والوضع المزري والتمييز العنصري، وهي مؤشرات ومقدمات للعمل المسلح المعبر عنه في ثورة نوفمبر

البيبليوغرافيا:

I/الأرشيف:

A.W.O, Boite 6987, *Liste des étudiants originaires du département d'Oran comme séjournants dans les pays arabes.* Le 3/4/1956.
A.W.O, Boite 6988, *Note sur les "Tolba" Algériens au Maroc (Caraouyine-centre d'étude de Meknes),* le 12/06/1952.
A.W.O, Boite 6988, *Rapport de police sur l'expulsion d'étudiants Français musulmans de la Tunisie* juin 1954.

II/الوثائق الرسمية المنشورة

GGA, 1948 , *Annuaire statistique de l'Algérie 1947*, Alger, Imprimerie V.Heintz
GGA, 1955 , *Annuaire statistique de l'Algérie 1954*, Alger, Imprimerie V.Heintz.
GGA, 1954, Résultat *statistiques du dénombrement de la population effectué le 31Octobre 1954*, Alger, imprimerie V.Heintz.
Inspection régionale d'Oran, 1959, *La région d'Oran, Oran*, Imprimerie V.Henitz..
-Service pour l'étude et le développement de l'industrie en Algérie (SEDIA),1959, *Etude du développement économique de l'ouest Algérien*, Alger, G.Courmontagne.

III/المراجع:

أ/باللغة العربية:

حليمي عبد القادر، 1968 ، جغرافية الجزائر، دمشق، مطبعة الإنشاء.
زوزو عبد الحميد، 2004، محطات في تاريخ الجزائر، الجزائر، دار هومة.
مريبعي السعيد، 1984، التغيرات السكانية في الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

ب/باللغة الأجنبية:

Ageron Charles Robert, 1979, *Histoire de l'Algérie contemporaine*, tome II, Paris, PUF.
Aron Robert, 1962, *Les origines de la guerre d'Algérie*, Paris, Fayard.
Belloula Tayeb,1965, *Les Algériens en France, Alger*, Edition nationale Algérienne.
Bordas Jeanine, 1958, *Le peuplement Algérien*, Oran, Edition L.Fouque
Chentouf Tayeb, 2006, *L'Algérie en 1954*, Alger, OPU.
Institut national d'études démographiques, 1955, *Les Algériens en France*, Paris, PUF.
Kaddache Mahfoud, 1993, *Histoire du nationalisme algérien*, Alger, ENAL.

Lefeuvre Daniel, 2005, *Chère Algérie* , Paris, Flammarion.
Stora Benjamin, 2006, *L'Algérie histoire contemporaine 1830-1988*, Alger Casbah.
10.Tinthoin Robert, 1947, *Colonisation et évolution des genres de vie dans la région ouest d'Oran*, Oran, L Fouque.
11.Yacono Xavier, 1993, *L'histoire de L'Algérie*, Paris, édition Atlanthrope.

IV/ الأطروحات والمذكرات:

1.Abid Ahmed, 1986, *Syndicalisme et luttes sociales en Oranie* (1942/1951), Thèse Doctorat 3eme cycle (en histoire), Université de Paris, France.
2.Taleb Mohamed, 1987, *Les Classes sociales et mobilité en Algérie* (1962-1976), Synthèse, Institut de sociologie, Université de Strasbourg, Strasbourg.

V/ المقالات والملتقيات:

أ/ باللغة العربية:

هلايلي حنيفي ، " امتداد الحرب الأهلية الاسبانية في الج زائر" ، ورقة عمل مقدمة إلى الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس 1830/1962 ، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، يومي 12- 13 نوفمبر 2001 ، طبع في الجزء الأول من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2005، الجزائر، مكتبة الرشاد للنشر والطبع والتوزيع، ص ص : 109- 121.
ولد النبية كريم ، بلدية المكرة المختلطة 1874/1956 ، ورقة عمل مقدمة إلى الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس 1830/1962 ، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، يومي 12- 13 نوفمبر 2001 ، طبع في الجزء الأول من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (بدون سنة) ، الجزائر، مكتبة الرشاد للنشر والطبع والتوزيع، ص ص: 76- 89.

ب/ باللغة الأجنبية:

Bencheneb Rachid, 1986, "L'Algérie à la veille du soulèvement de 1954", In Ageron Charles Rober (Sous la coordination de), *Les chemins de la décolonisation de l'empire Français*, Paris, CNRS, pp : 415-430.
Taleb Ben Diab Abderrahim, 1986, "Le mouvement syndical", In Table ronde, *Mouvement syndical et état du Maghreb*, Université de Paris VII, Mars 1986, Gremano, Paris, 1986. pp: 01-06.
Tinthoin Robert, 1955, "le département d'Oran", In *Encyclopédie mensuelle d'outre- mer*, N°35 Mars 1955, pp :1-25.
Vilar Juan Batista, 1983, "Los origines de la inmigración laboral marroquí en Argelia los refinenos en la Oranie 1855-1863", In Actes *du III congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb*, *Tome* I, Laboratoire d'histoire, Université d'Oran, 1983, pp:389-391.
Vuillemot G, 1952, "Un potier Guelaya A Mers –El-Kebir", In *Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran*, Tome 75, 1952, Oran, L. Fouque, pp:43-48.

VI/ الصحافة:

-*Oran républicain,* N° 5880, le 07/10/1954, p:6.

VII/ المعاجم:

Mourre dictionnaire encyclopédique d'histoire, 1989, Nancy, Bordas.

دوافع الهجرة البربرية إلى الأندلس خلال القرن الرابع الهجري

(العاشر الميلادي)

أ.د عبد القادر بوباية

قسم التاريخ وعلم الآثار،

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

تمهيد:

إن المتتبع لتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط يلاحظ ظاهرة هامة تتمثل في التبادل السكاني بين ضفتيه، الشمالية المتمثلة في جنوب أوربا، والجنوبية المتمثلة في بلاد المغرب، وهو الأمر الذي شهدته بوضوح منطقة حوض المتوسط الغربي مع وصول الطلائع الأولى للفتح الإسلامي إلى بلاد الأندلس، حيث ازدادت الهجرة بشكل ملفت للانتباه من الجنوب إلى الشمال

أعقب الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس سنة 92هـ- 711م انطلاق هجرة كثيفة من بلاد المغرب، وتتكون في أغلبيتها الساحقة من البر بر، واستمرت هذه الظاهرة طيلة الوجود الإسلامي بهذه المنطقة، ويؤكد ذلك جلّ المؤرخين الذين تطرقوا إلى دراسة وتأريخ الأحداث التي عاشتها العدوة الأندلسية في ظل التواجد الإسلامي

ومن هؤلاء ليفي بروفنسال الذي يقول: "استمرّ تيار الهجرة من المغرب نحو إسبانيا بشكل م نتظم" (Provençal, L.1932 : 10)، ويؤيده في ذلك حسين مؤنس حين يقول: "أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلا"، (مؤنس،ح. 1985 : 379)، وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه خالد الصوفي الذي يقول : " كانت الهجرات البربرية من إفريقيا الشمالية نحو الأندلس في تجدد دائم، لا تنقطع أبدا." (الصوفي، خ. 1959م:33).

إن هذه الآراء وغيرها تتفق حول ظاهرة الهجرة البربرية المستمرة نحو بلاد الأندلس على الرغم من أنها لا تمدنا بالتفاصيل الدقيقة عن أهم الهجرات، ولا عن تاريخ حدوثها، والأسباب الكامنة وراءها، لأن أصحابها لم يفردوا هذه القضية بدراسة خاصة، وإنما اكتفوا بالحديث عنها في سياق دراسات عامة أنجزوها حول التاريخ الأندلسي بصفة عامة، ومرحلة الفتح على وجه الخصوص، إلاّ أننا وبالاعتماد على المصادر التاريخية والكتب الجغرافية وكتب الأنساب والتراجم

يمكننا التعرف على أهم الهجرات التي قام بها المغاربة إلى بلاد الأندلس، وتاريخ قيامهم بها، وأهميتها من حيث عدد المشاركين فيها.

إن الباحث في مسألة الهجرة البربرية إلى الأندلس يواجه الكثير من الصعوبات نظرا لعدم وجود مؤلفات خاصة بهذا الموضوع سواء منها تلك التي أنجزت في العصور الوسطى، أو تلك التي دونت في العصور اللاحقة لها، ومع ذلك فإن استمرار الهجرات البربرية يسمح لنا بالتعرف على الفترات البارزة لهذه الظاهرة، والدوافع الكامنة وراءها والنتائج المترتبة عنها، ومن خلال هذه المقالة سأعمل على إبراز الدوافع الرئيسة الكامنة وراء الهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو القرن الذي ميزه ثلاثة حكام تناوبوا على سدة الحكم، وهم عبد الرحمن الناصر، والحكم المستنصر بالله، وأفراد الأسرة العامرية وعلى رأسهم المنصور محمد بن أبي عامر.

دوافع الهجرة البربرية إلى الأندلس خلال القرن الرابع الهجري(10م):

تميزت الهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالاستمرارية والكثافة مقارنة بالقرن السابق الذي شهد ركودا نسبيا في هذا المجال تسببت فيه الأحداث التاريخية التي شهدتها بلاد الأندلس وبخاصة في المجال السياسي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد واجهت الإمارة الأموية العديد من الثورات التي قامت بها مختلف عناصر المجتمع الأندلسي، ونجحوا من خلالها في إقامة دويلات مستقلة عن قرطبة؛ فالمولودون كونوا عدة ممالك، ومنهم بنو قسي الذين استقلّوا بمنطقة الثغر الأعلى(ابن حيان،خ، ت. إسماعيل العربي. 1990 : 35/ أبو ضيف،أ. 1983: 207)، وبنو مروان الجليقي الذين انفصلوا بولاية بطليوس الواقعة في الغرب (ابن حيان،خ.1990 : 32- 33/ابن عذاري،م، ج .2 1980 : 135/ابن الخطيب،ل.1956 : 21)، وبنو حفصون الذين بدأت ثورتهم سنة 267هـ، وتمكنوا من بسط سيطرتهم على المرتفعات الجنوبية الممتدة بين مدينتي رندة غربا ومالقة شرقا، واتخذوا من قلعة ببشتر قاعدة لهم (ابن عذاري،م، ج 2. 1980 : 106/ ابن حيان،خ. 1990 : 72- 73).

أما زعماء العرب فقد كثرت ثوراتهم وأنشأوا بدورهم دويلات مستقلة، من ذلك قيام قبائل بكر بن وائل في إلبيرة والجزيرة الخضراء وجيان بالثورة، وتأسيس دويلة لهم بهذه المناطق (أبو ضيف ،أ. 1983: 245)، كما قام بنو حجاج المنتسبين إلى قبيلة لخم اليمنية (ابن حيان ،خ:**27- 28**/ابن عذاري، م،ج2. 1980 : 125-126) بتكوين دولة مستقلة في إشبيلية، وأقام بنو خلدون إمارة خاصة بهم في نواحي إشبيلية(ابن حيان ،خ،ج 2: 91)، ونفس الأمر قام به بنو المهاجر التجيبيون بالثغر الأعلى(ابن حيان ،خ،ج2 108- 109/ أبو ضيف ، أ. 1983: 245)، ومحمد بن أضحى الهمداني في كورة إلبيرة(ابن عذاري،م، ج2. 1980 :137/ ابن الخطيب،ل. 1965: 27).

ولم يشذّ عنهم البربر حيث انتزى بنو ذي النون بمنطقة الثغر الأدنى و قاعدته مدينة طليطلة(ابن حيان، خ. 1990: 36- 37/ العبادي،أ: 368)، ومحمد بن عبد الكريم بن إلياس وأبنائه الذين استقلوا بقلعة ورد من كورة شذّونة (ابن عذاري،م،ج2. 1980: 136)، وبنو المهلب الذين ثاروا بكورة إلبيرة، وملكوا حصن قرذيرة وحصن إشبرغرة (ابن عذاري،م،ج 2. 1980 :137).

نتيجة لذلك كله كثرت الحروب بين هذه الدويلات وحكومة قرطبة من جهة، وفيما بينها من جهة أخرى، واستغلّ النصارى ذلك من أجل شنّ هجمات على أراضي المسلمين، خاصة وأن المستعربين- وهم الإسبان الذين تعرّبوا واحتفظوا بديانتهم المسيحية- قد تحالفوا معهم وسهّلوا مهمتهم في تحقيق أهدافهم (ابن حيان، خ. 1983: 73).

إضافة إلى ما سبق ذكره، شهدت العاصمة الأندلسية قيام ثورة الربض أو شقندة الواقعة قبالة قرطبة سنة 202هـ- 817م، وشارك فيها عامة هذا الربض وفقهائه، وعملت على الإطاحة بالأمير الحكم بن هشام، ولكن هذا الأخير قمعها بقسوة وعنف، وأمر عقب ذلك بإجلاء جميع سكان الربض، ونتيجة لذلك غادر العديد منهم بلاد الأندلس، وتوجه قسم منهم إلى العدوة المغربية حيث استقرّ أربعة آلاف منهم بمدينة فاس، بينما توجه القسم الآخر نحو مصر، وقُدّر عدد أفراده بعشرين ألف شخص (ابن الخطيب، ل . 1956: 15- 16/ ابن سعيد الأندلسي، 1997م، ج1 : 15- 16/ابن عذاري،م، ج 2. 1980 : 75- 77).

إن هذه الظروف المتسمة بكثرة الثورات والاضطرابات لا تشجع المغاربة على الهجرة، ولذلك ركدت هذه الظاهرة خلال معظم القرن الثالث الهجري، وبخاصة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (238- 273هـ/852- 886م) والأمير عبد الله بن محمد (275- 300هـ/888- 912م) الذي "أفضت الخلافة إليه وقد تحيفها النكث ومزقها الشقاق، وحلّ عراها النفاق، والفتنة مستولية ..وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جرّدوا سيوفهم على أهل الإسلام؛ فصار هؤلاء بين قت يل ومحروب، ومحصور يعيش مجهودا ويموت هزلا، قد انقطع الحرث وكاد ينقطع النسل"(ابن عذاري ،م، ج 2. 1980 : 121)، ولم تعد هجرة البربر إلى الأندلس لسابق عهدها إلا خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة بعد تمكن عبد الرحمن الناصر من إخماد الثورات، وإخضاع المنتزين، وإعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع العدوة الأندلسية.

ومن خلال تتبع أبرز الهجرات يمكننا التعرف على الأسباب التي دفعت سكان المغرب إلى مغادرة بلادهم، وبأعداد كبيرة كما أكدّ ذلك المؤرخون الذين تطرقوا إلى تأريخ الأحداث التي مرّت بها بلاد الأندلس وبلاد المغرب خلال هذا ا لقرن، ويمكن تقسيم هذه الدوافع إلى دوافع سياسية ودينية وعلمية واقتصادية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أ- **الدوافع السياسية**: يمكن اعتبار الدوافع السياسية من الأسباب الرئيسة الكامنة وراء الهجرات البربرية المكثفة خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، والحاجب محمد بن أبي عامر، وتتمثل هذه الدوافع فيما يلي:

1) **الغزو الفاطمي لبلاد المغرب وبداية الصراع مع الأمويين** : بعد قيام الدولة الفاطمية في إفريقية سنة 297هـ- 910م، سعى حكامها إلى فرض هيمنتهم على بلاد المغرب كلها، ومن أجل تحقيق ذلك جرّدوا حملات عسكرية قادها مصالة بن حبّوس المكناسي ثم جوهر الصقلي من بعده، ونظرًا لقوة الجيش العبيدي أجفلت القبائل البربرية الموالية للأمويين في الأندلس أو الرافضة للوجود الفاطمي ببلاد المغرب أمامه، واضطرّ كثير من أفراد هذه القبائل إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العدوة الأندلسية طلبا للأمن، ومن ذلك هجرة بني صالح من نكور بعد استيلاء الفاطميين عليها سنة 305هـ، وهجرة الكتاميين بقيادة حميد بن يصلتين عقب

انتقاضه على الفاطميين، وتخوفه من انتقامهم منه، وذلك سنة 343هـ، وهجرة بني برزال مع زعيمهم جعفر بن علي بن حمدون خوفا من الفاطميين سنة360هـ.

وأثناء محاولتها فرض هيمنتها على بلاد المغرب، اصطدمت الدولة الشيعية بالأمويين في الأندلس الذين سعوا بدورهم إلى إيجاد منطقة نفوذ لهم في بلاد المغرب يقفون بواسطتها في وجه أعدائهم العبيديين، وذلك بداية من سنة 319هـ- 931م، وتمكنوا من بسط نفوذهم على بعض الثغور المغربية ،حيث نجح عبد الرحمن الناصر في احتلال سبتة سنة 319هـ، وأصيلا سنة 322هـ- 934م (ابن حيان ،خ، ج5. 1979 : 288- 289، 347) ومليلية ونكور سنة 324هـ- 936م، بينما عجز عن احتلال ثغر طنجة رغم حصاره له بسبب حلول فصل الشتاء (ابن حيان، خ، ج5. 1979 : 382)، وبواسطتها وضعوا أقدامهم في العدوة المغربية، ولم يكتف حكام الأندلس بالسيطرة على أصحاب هذه الثغور، بل "تخطاهم عبد الرحمن إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر، يستألفهم ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، ممدا لمن عجز برجالة، مقويا لمن ضعف بماله، متفقدا لهم في سائر الحالات بألطافه، متعهدا بوجوه رسله وخواصه إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه، وارتسموا بطاعته، ولا سيما عند امتياز أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها، ووقائع يبعد تقصيها، هلك ب اختلافها من ملوك الدعوتين وزعماء الطائفتين جماعة"(مجهول، مفاخر البربر. 1996 : 123).

كان الصراع الفاطمي الأموي سببا مباشرا في قيام نزاع مرير بين القبائل البربرية، ذلك أن هناك قبائل انضوت تحت لواء العبيديين، ونخصّ بالذكر منها قبيلتي كتامة وصنهاجة، بينما انضمّت قبائل أخرى إلى الجانب الأموي، ومن أبرزها قبيلة زناتة، وبخاصة بعض بطونها كبني يفرن ومغراوة (ابن خلدون ،ع، ج 11. 1983 : 50).

كان انضواء القبائل تحت لواء طرف دون الآخر على أساس سياسي في غالب الأحيان، ويرتبط ذلك بقوة الطرف الظرفية، وبحكم موقعه الجغرافي بالنسبةإليه؛ فقبيلتي كتامة وصنهاجة والت العبيديين لقربهما منهم من جهة، ولقوة الدولة الفاطمية من جهة أخرى، والعكس حدث مع قبائل زناتة وغيرها المنتشرة في

المغربين الأوسط والأقصى، والتي انضوت تحت لواء الأمويين، كما أن الجانب المادي قد لعب دورا هاما في ذلك باعتباره المحفز على الولاء إذ أن الطرفين المتصارعين على السيادة بالغرب الإسلامي، وأعني بهما الأمويين والفاطميين، قد بذلوا لأتباعهم الأموال والهبات والهدايا بهدف جلبهم إليهم، وإخضاعهم لسلطانهم، ومقابل ذلك أعطت القبائل البربرية ولاءها لطرف أو لآخر.

نتيجة لذلك وقعت الحروب بين القبائل البربرية، ومنها الحرب التي دارت بين بني زيري الصنهاجيين، وبخاصة في عهد زيري بن مناد وابنه بلقين، وبني خزر الزناتيين- إحدى شعوب مغراوة- (ابن خلدون، ي. 1980: 84/ ابن خلدون، ع، ج13. 1983: 77)، والتي انتهت بهجرة الزناتيين إلى بلاد الأندلس بداية من سنة 360هـ عقب انهزامهم أمام أعدائهم، وتلك التي دارت بين قبيلتي مكناسة الموالية للعبيديين وأزداجة التابعة للأمويين، وأسفرت عن انهزام القبيلة الثانية، وهجرة كثير من أفرادها إلى العدوة الأندلسية.

2) **النزاعات داخل القبائل البربرية** : إضافة إلى الصراع الذي دار بين القبائل البربرية المختلفة بحكم ولائها لطرف أو لآخر، دار نزاع آخر داخل القبيلة البربرية الواحدة، وكان في غالب الأحيان بين أفراد الأسرة الحاكمة الذين كانوا يرغبون في الزعامة بين إخوانهم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث بين زاوي بن زيري وابن أخيه حماد بن بلقين الصنهاجيين، والذي نتج عنه اقتتال بين أفراد الأسرة الواحدة، وهجرة المنهزمين منها إلى الأندلس التي انتقل إليها زاوي بن زيري بن مناد وبنيه وبني أخيه ماكسن وحاشيته سنة 391هـ.

دار نزاع مماثل بين أفراد الأسرة الحاكمة في بني يفرن الزناتية، وجاء عقب قيام أبي يداس بن دوناس بقتل حبوس بن زيري الذي خلف ابن أخيه يدو بن يعلى اليفرني على رأس بني يفرن سنة 381هـ(ابن خلدون، ع، ج13. 1983: 43- 44/ مجهول، مفاخر البربر. 1996: 154)، وذلك من أجل الوصول إلى السلطة، ولكن أفراد القبيلة رفضوا الاعتراف به زعيما عليهم، واضطرّه ذلك إلى أن يهاجر إلى الأندلس سنة 382هـ- 992م رفقة إخوته ونفر من قومه.

3) الحرب بين الأدارسة والأمويين : كان الحسن بن قنون (جنون)، زعيم الأدارسة والقبائل البربرية الخاضعة لسلطته مواليا لبني أمية، ولكنه انقلب عليهم

سنة 361هـ- 971م مستغلا في ذلك الحملة الكبيرة ا لتي قام بها بلقين بن زيري الصنهاجي ، والتي بدأت سنة 361هـ- 971م (مجهول ،مفاخر البربر . 1996: 129) ، وتمكن خلالها من اكتساح المغربين الأوسط والأقصى، وإخضاع من كان بهما من البربر.

استغلّ الحسن تلك الحملة، وبخاصة بعد عودة خليفة الفاطميين إلى إفريقية، ليعلن الثورة على حكام الأندلس، ونجح من خلال ذلك في استرجاع معظم الثغور التي احتلت في عهد عبد الرحمن الناصر، ونتيجة لذلك قامت الحرب بين الأمويين والأدارسة، ومن أجل القضاء على الإدريسي، جَنَّد الخليفة الأموي الحكم المستنصر كل إمكانات الدولة البشرية والمادية بداية من سنة 362هـ- 972م، حيث "أنفذ إليه وزيره محمد بن القاسم بن طملس في جيش عظيم وعدة كاملة "، ولكنه هزم وقتل معه من الجند الأندلسيين خلقا عظيما"، ولذلك استدعى الحكم مولاه غالب من مدينة سالم فيمن معه من رجال الثغر، وضمّ إليه جيشا عظيما، وحمل معه أموالا جسيمة وعدة وا سعة عريضة "(مجهول، مفاخر البربر : 130-131).

لقد جرّد الخليفة الأموي إمكانات ضخمة، بشرية ومادية، من أجل القضاء على ثورة الحسن بن قنون (جنون)، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يقول : إن الحكم المستنصر "قاد خيول الأندلس إليهم، وربط أكابر قواده بثغرهم، وغطّى البحر بينه وبينهم بأساطيل الأموال والأسلحة والعدد والأطعمة "(ابن حيان،خ، تح عبد الرحمن علي الحجي. 1983: 191)، ورغم مبالغة المؤلف إلا أن ذلك يدلّ بوضوح على أهمية العدوة المغربية بالنسبة لحكام قرطبة لأنها تمثل بالنسبة إليهم صمّام الأمان الذي يبعد عنهم العدو الشيعي المقيم بإفريقية، والممثل في هذا الوقت من طرف بني زيري الصنهاجيين.

إن الإمكانات الضخمة التي استعملها الخليفة الأموي في حربه ضد الأدارسة تؤكد على تصميم الحكم على استعادة سلطانه على ثغور المغرب الأقصى من جهة، كما تدل على ضراوة الحرب التي دارت بين الطرفين من جهة أخرى، ونتيجة لذلك اضطرّ عدد كبير من البربر إلى هجرة بلادهم، والتوجه إلى العدوة المقابلة نظرا لانعدام الأمن ببلادهم أو رغبة في الدخول في طاعة الأمويين طمعا في المغانم،

كما أن عددا آخر من المغاربة قد حملوا إلى قرطبة عقب انهزام زعيم الأدارسة سنة 364هـ- 974م.

من خلال كل ما سبق ذكره يتبين لنا جليا أن الأوضاع السياسية التي عاشها المغرب خلال القرن الرابع الهجري، والتي ميزها الصراع الأموي الفاطمي من أجل فرض الهيمنة على بلاد المغرب، وبخاصة المغربين الأوسط والأقصى كانت السبب الرئيس في ازدياد الهجرة البربرية إلى العدوة الأن دلسية، إذ نتج عنه انعدام الأمن والاستقرار، وتدهور الأوضاع الاقتصادية بفعل الحروب المستمرة بين الطرفين، وانتشار أعمال القتل بين المتحاربين، ولم ينجو من ذلك حتى المسالمين منهم، كما أن ذلك من شأنه أن يدفع المزارعين إلى هجرة أراضيهم، ومن ثم إلى إهمال النشاط الزراعي، وكنتيجة لذلك يقل الإنتاج وترتفع الأسعار، ويؤدي ذلك إلى ركود التجارة نظرا لضعف القدرة الشرائية للسكان بفعل قلة المداخيل من جهة، وانعدام الأمن عبر الطرق التجارية من جهة أخرى.

إن هذه الأوضاع المتردية من شأنها أن تدفع بالمجتمعات إلى البحث عن مناطق بديلة توفر لها ما افتقدته في بلادها الأصلية، وهو ما سعى المغاربة إلى تحقيقه من خلال هجرتهم إلى بلاد الأندلس.

4) **سياسة حكام الأندلس تجاه المغاربة** : نظرا لكثرة الثورات التي قام بها مختلف عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة منهم المولدين والعرب، لجأ حكام الأندلس خلال القرن الرابع الهجري إلى الاعتماد على البربر والصقالبة في مواجهة أعدائهم، ولعلّ العامل الرئيس الذي دفعهم إلى الاعتماد على المغاربة هو ما تميزوا به من صفات الشجاعة والبأس والفروسية والنجدة، وقد تأكدوا من ذلك عقب حروبهم معهم، وبخاصة خلال المواجهة بين الأدارسة والأمويين.

واجه عبد الرحمن الناصر في بداية حكمه العديد من الثورات وحركات العصيان التي قام بها المولدون والعرب خاصة، كما استغلّ النصارى تلك الظروف؛ فقاموا بعدة هجمات على بلاد المسلمين، وبخاصة ضدّ حدود الدولة الإسلامية المتاخمة لهم، لذا كان الخليفة الأموى في حاجة إلى قوة يعتمد عليها في إخماد الثورات التي كانت منتشرة في أنحاء كثيرة من دولته، ويستطيع بواسطتها إيقاف المدّ الإسباني، ومن أجل تحقيق ذلك سعى إلى جلب عدد كبير من فرسان البربر إلى

الحضرة، والاستعانة بهم في تحقيق أهدافه(ابن حيان ،خ، ج5. 1979: 257)، وذلك بداية من سنة 317هـ- 929م.

وإذا كان اعتماد الناصر على البربر محدودا في المجال العسكري مقارنة بابنه الحكم وحاجب حفيده هشام؛ فإن هذا الأخير سيجعل منهم حجر الزاوية في تشكيل جيشه الجديد.

لقد عمد المنصور بن أبي عامر إلى تكوين جيش يدين له بالولاء والطاعة التامتين، وتتوفر فيه المواصفات التي تجعله قادرا على تمكين قائده من فرض سلطته على الجميع، ومن أجل إنشاء هذه القوة، "أنفذ المنصور كتبه إلى العدوة " يستدعى من خلالها فرسان البربر وأنجادهم، "ويتضمن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم حتى كثروا بالأندلس، وقد صار بها منهم القبائل بأسرها"(ابن عذاري،م،ج2. 1980: 294)، ويؤكد ذلك أحد أحفاد البربر الذين شملهم هذا الاستدعاء حين يتكلم عن جواز أجداده إلى العدوة الأندلسية سنة 391هـ- 1001م حيث يقول : " فاستجلب المنصور من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته"(ابن بلقين ،ع. 1995: 57).

ك ان الهدف من وراء استدعاء البربر وجلبهم إلى بلاد الأندلس، وبخاصة منهم الفرسان والأنجاد واضحا؛ فقد استدعى المنصور بن أبي عامر أهل العدوة من رجال القبائل البربرية من أجل غاية واحدة؛ "فقد رتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم"، وبواسطة هذا الجيش الذي شكله الحاجب الأموي "تغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة"(ابن خلدون،ع، ج7. 1983: 319)، وكانت تلك غايته القصوى من تكوين هذا الجيش الجديد.

من خلال ما سبق يتأكد لنا فعلا أن الظروف السياسية كانت السبب الرئيس في انتقال البربر بأعداد كبيرة إلى العدوة الأندلسية، ذلك أن الحروب التي كانت تعيشها بلادهم بسبب الأطماع الفاطمية والأموية من جهة، والصراع القبلي من جهة أخرى، جعلت الكثير منهم يبحث عن مناطق آمنة يعيشون في كنفها، كما أن اعتماد حكام الأندلس، وبخاصة المنصور محمد ب ن أبي عامر عليهم في المجال العسكري جعل أعدادا كبيرة من المغاربة يهاجرون إلى العدوة الأندلسية، وشجّعهم

على ذلك الإغراءات المادية التي حباهم الحكام بها حيث "أحسنوا إليهم وتوسعوا عليهم"(ابن عذاري،خ، ج2. 1980 : 294).

ب- **الدوافع العلمية**: يجمع المؤرخون والدارسون (ابن الخطيب، ل.1965 : 38 / الحجي، ع :299/ العبادي، أ : 414/ مؤنس ح :382/ سالم، س.1985: 379 Provençal , L T2 :163) على أن الأندلس بلغت في عهد الخلافة ذروة التقدم والازدهار في جميع المجالات، وبخاصة في المجال العلمي والفكري حيث اجتمع في حواضرها الكبرى عدد كبير من ا لكفاءات من العلماء والدارسين والراغبين في العلم، وقصدها العلماء وطلّاب العلم من المشرق الذي ضاق بأهل العلم والمعرفة، ومن المغرب نظرا للظروف التي كان يمر بها خلال القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي- ، ولم يتردد حكام قرطبة من جانبهم في مباركة هذا النشاط الع لمي، حيث سعوا إلى توفير الأمن والاستقرار لهؤلاء الوافدين؛ فأحاطوهم برعايتهم وغمروهم بعطاياهم.

كان حكام قرطبة مستنيرين يقدرون العلم والمشتغلين به (القاسمي،ج. 1999م: 101)، من ذلك أن الحكم المستنصر بالله كان "جامعا للعلوم، محبا لها، مكرما لأهلها"، ولم يكتف بذ لك بل "جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان"(الحميدي.1997م: 19).

ولم يخرج المنصور بن أبي عامر عن هذه القاعدة؛ فكان هو الآخر كما يقول عنه الضبّي "محبا للعلم، مؤثرا للأدب ، مفرطا في إكرام من ينسب إليهما، ويفد عليه متوسلا بهما "، وبالإضافة إلى هذا كله، كان له "مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته ما كان مقيما بقرطبة "(الحميدي.1997م: 70).

بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها حكام قرطبة، والمتمثلة في إكرام العلماء وإحاطتهم برعايتهم، تقدمت العلوم تقدما ملموسا، وبخاصة في عهد الخلافة، واشتغل كثير من الأندلسيين في مجالات علمية وفكرية متنوعة، ونبغوا في الكثير من هذه العلوم (سالم،الس. : 283- 284)، وهو الأمر الذي انعكس

إيجابا على مركز الأندلس العلمي، حيث أصبحت هذه البلاد قبلة للعلماء وطلاّب العلم.

ونظرا للظروف التي كان يمر بها المغرب، والتي ميزها الصراع الفاطمي الأموي من جهة، والصراع بين القبائل البربرية من جهة أخرى، اضطرّ الكثير من العلماء وطلاب العلم إلى اجتياز المضيق والاستقرار بالعدوة الأندلسية، فمن الذين هاجرو ا من المغرب بهدف التعليم:

- ❖ أبو الحسن علي بن سعيد بن أحمد الهواري الذي قدم إلى طليطلة سنة 399هـ/1009م، وحدّث بها، وسمع عنه العديد من الأندلسيين (ابن بشكوال ،1994،مج2 : 406).
- ❖ أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي، من أهل القيروان، وقدم إلى الأندلس حيث حدّث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه ومن حديثه (ابن الفرضي، 1983م، ج 1 : 457).
- ❖ أبو هارون موسى بن يحيى الصديني، من أهل فاس، كان فقيها حافظا للمسائل عالما بالرأي، وقد دخل الأندلس وتردد في الثغر، وكتب عنه هناك (ابن الفرضي، 1984م، ج2 :855).
- ❖ أبو محمد سرواس بن حمود الصنهاجي الذي سكن طليطلة، وحدّث بها عن أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل الذي كان من أصحابه، وكان معلما للقرآن (ابن بشكوال،1994، ج1 : 227).
- ❖ أبو سعيد خلف بن مسعود الجراوي الذي قال ابن حيان عنه : إنه قدم قرطبة سنة 393هـ- 1003م؛ فحمل عنه بها علم كثير (ابن بشكوال ،ج1، 1994 :175).

أما الذين هاجروا إلى الأندلس طلبا للعلم فمنهم:

- ❖ أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التيهرتي البزّاز الذي دخل قرطبة، وهو ابن ثمان سنين مع أبيه، وسمع من علماء الأندلس، واختصّ بالقاضي منذر بن سعيد ، وسمع منه تواليفه كلها- ولد سنة 309هـ- 921م، ودخل الأندلس سنة 317هـ- 929م (الضبي،أ. 1997: 171-172/ابن بشكوال، ج 1. 1994 : 86).

◆ أبو علي الحسين بن علي الفاسي الذي ذكره الحميدي، وقال : إنه كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة، وقال عنه أيضا : لم يزل يطلب ويختلف إلى العلماء محتسبا حتى مات (الحميدي.1997 : 169/ابن بشكوال، 1994، ج1 :138/الضبي، أ. 1997 :228).

◆ أبو عبد الرحمن يصلتين بن داود الأغماتي، ويقول ابن الفرضي: إنه قدم علينا قرطبة طالبا؛ فسمع معنا، وجمع كتبا عظيمة، وخرج منصرفا إلى بلده سنة 371هـ أو 372هـ- 981 أو 982م (ابن الفرضي1984، ج 2 : 948- 949).

◆ أبو عمران بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي الذي قدم الأندلس طالبا للعلم؛ فسمع العديد من علمائها، ثم توجه إلى بغداد سنة 399هـ- 1009م (ابن بشكوال1994، ج 2 : 577- 578).

◆ أبو يحيى زكرياء بن بكر بن أحمد الغسّ اني، وهو من أهل تيهرت، دخل الأندلس مع أبيه وأخيه سنة 326هـ- 937م، وسمع بقرطبة من علمائها، ثم رحل إلى المشرق طلبا للعلم، وبعدها عاد إلى قرطبة؛ فاستقرّ بها حتى وفاته (الحميدي،1997: 275- 276).

◆ أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي، من أهل أصيلا، ويقول عنه ابن الفرضي: "سمعته يقول: قدمت قرطبة سنة 342هـ- 953م؛ فسمعت بها من أحمد بن مطرف وأحمد بن سعيد ومحمد بن معاوية القرشي وأبي بكر اللؤلئي وأبي إبراهيم، ورحلت إلى وادي الحجارة، إلى وهب بن مسرّة؛ فسمعت منه، وأقمت عنده سبعة أشهر، وكانت رحلتي إلى المشرق في المحر م سنة 351هـ- 962م (ابن الفرضي.1984، ج2 : 426- 427/ ياقوت الحموي، ج1. 1984: 213).

◆ أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل المالكي الفاسي الذي "دخل الأندلس، وتكرّر بها طالبا، كما سمع منه غير واحد لأنه كان فقيها حافظا (الضبي،أ.1997: 251).

ج- **الدوافع الدينية**وتتمثل في رغبة الكثير من أهل العدوة المغربية مشاركة إخوانهم الأندلسيين في الجهاد، ومحاربة النصارى المتواجدين بالتخوم الشمالية والشمالية الشرقية لبلاد المسلمين، وبخاصة مع وجود حكام أبلوا البلاء الحسن في هذا المجال؛ فمن ذلك أن

ARCHIVE http://Archive.sakhrit.com

المنصور بن أبي عامر لوحده جرّد "نيفا وخمسين غزوة، وفتح فتوحا كثيرة"(الضبي، أ. 1997: 100).

ومن البربر الذين انتقلوا إلى العدوة الأندلسية من أجل الجهاد بشكل فردي نذكر كلا من:

- ❖ موسى بن يحيى الصديني الذي دخل الأندلس، وتردد في الثغر (ابن الفرضي، 1984، ج2 : 855).
- ❖ دراس بن إسماعيل أبو ميمونة الذي دخل الأندلس، وتكرر بها طالبا ومجاهدا(ابن بشكوال، 1994، ج 1 : 139).
- ❖ أبو علي الحسين بن أبي العافية الذي قدم طليطلة مرابطا(ابن أبي زرع الفاسي 1973: 88).
- ❖ محمد بن الخير بن محمد اليفرني الذي تنازل عن رئاسة قومه لصالح ابن عمه، وارتحل إلى الأندلس يرسم جهاد الروم سنة344هـ- 955م (ابن الفرضي، ج 1. 1983 : 129).
- ❖ أبو جعفر أحمد بن خلوف المسيلي المعروف بالخياط الذي سكن الثغر أعواما كثيرة مجاهدا حتى شهر فيه، وعلا ذكره هنا(ابن الفرضي، ج 2. 1984: 926).
- ❖ أبو زكرياء يحيى بن خلف الصدفي السبتي، وأصله من بصرة المغرب، الذي دخل الأندلس غير مرّة مرابطا في ثغرها ومجاهدا(ابن عذاري، ج3، 1980 : 5).

مما لا شكّ فيه أن البربر المتحمسين للذود عن دينهم قد ساهموا بشكل كبير في مواجهة اعتداءات النصارى على المسلمين، وصدّوا حملاتهم المتعددة، وذلك بالتطوع في الجيوش التي كان يقودها الخلفاء أو من ينوب عنهم، وكانت أعدادهم كبيرة رغم إغفال المصادر لذكرها، وقد أوردنا فيما سبق نصا لابن عذاري عند حديثه عن أولى غزوات عبد الملك المظفر إلى بلاد جليقية(ابن عذاري، ج 3 : 4)، ويؤيده في ذلك أي في كثرة المتطوعين المغاربة في صفوف الجيش الأندلسي لسان الدين بن الخطيب حيث يقول: إن الحاجب العامري "كان يفيض العطاء في المطوعة التي تعبر البحر للجهاد معه من أرض العدوة وجبال البرابر"(ابن الخطيب، 1956: 87).

إن هذين النصين يثبتان فعلا أن البربر كان لهم دور كبير في مواجهة النصارى، ولو ذكرت المصادر التاريخية كل المعلومات المتعلقة بالمشاركين في الغزوات التي جردها

الخلفاء الأمويين وحكام الدولة العامرية لأمكننا العثور على معلومات أوفى تؤكد الدور الجهادي الذي قام به المغاربة

د- **الدوافع الاقتصادية** كانت بدورها وراء هجرة العديد من سكان المغرب إلى العدوة الأندلسية التي تميزت في هذه الفترة أي القرن الرابع الهجري-العاشر الميلادي- ببلوغها ذروة التقدم والازدهار في المجال الاقتصادي

لقد شهدت الأندلس خلال هذا القرن تطورات هامة مسّت الأساليب التقنية للفلاحة مما أدى إلى اتساع المساحات المزروعة وضخامة الإنتاج الزراعي (المنوني وآخرون 1991 : 40 / - : - Gustave , L.1969 : 208)، كما احتضنت الحواضر الأندلسية من الدروب الحرفية والأسواق التجارية، والفنادق والحمامات، ومختلف أنواع الخدمات ما يفصح عن حدوث نهضة تجارية وصناعية نموذجية (المنوني، م 1991 : 41)، ولم تتوقف دور الضرب طوال عصر الخلافة عن إصدار الدرام الفضية والدنانير الذهبية التي اشتهرت بجودتها وحسن عيارها حتى غدت نموذجا للسك لدى العديد من الممالك الإسلامية والمسيحية على حد سواء (المنوني، م 1991 : 41)، وقام الضرب فيها من خالص الذهب والفضة (ابن حيان ، ج5 .1979: 243- 244).

وبلغت مداخيل بيت المال في عهد الحكم الثاني ثلاثمائة مليون دينار (Gustave, L 1969: 209)، "مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزانته وأمواله وكانت سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضمانها في كل سنة مائتا ألف دينار، ويكون عند صرفه سبعة عشر بدينار، ثلاثة آلاف وأربعمائة ألف درهم (ابن حوقل: 104).

ويدل على هذا الرخاء ما أقدم عليه عبد الرحمن الناصر عند بنائه لمدينة الزهراء، حيث عرض أربعمائة درهم على كل من يرغب في بناء دار إلى جواره، وكانت الاستجابة واسعة حيث تسارع الناس إلى العمارة، وتكاثفت الأبنية وتزايدت (ابن حوقل: 107)، وهو الأمر الذي يثبت أن الخليفة الأموي قد أنفق مبالغ مالية ضخمة في بناء هذه المدينة، وفي تشجيع الناس على البناء فيها

استغلّ حكام قرطبة هذا الرخاء الاقتصادي والثراء المادي من أجل كسب المزيد من الأنصار والأتباع، من ذلك أنهم قاموا بتوزيع مبالغ مالية ضخمة بهدف جلب فرسان البربر إلى الحضرة، أو كسب القبائل البربرية إلى صفهم، ويؤكد ذلك ما تضمنته وصية الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله لقائده غالب، مولى الناصر عند تكليفه بحرب الأدارسة الثائرين على الحكم الأموي، حيث قال له "وابسط يدك في الإنفاق،

فإن أردت نظمت الطريق بيننا قطر مال" (مجهول ، مفاخر البربر : 131)، ومن ذلك أيضا أن الحكم دفع إلى جعفر ويحيى ابني علي ولاة المغرب الأقصى باسمه سنة 365هـ- 975م "مالا وكسي واسعة للخلع على ملوك العدوة" (مجهول، مفاخر البربر 1996 : 136).

في الوقت الذي كانت فيه بلاد الأندلس تنعم بالرخاء الاقتصادي، كان المغرب يعاني من حالة اقتصادية متدهورة، وبخاصة الأجزاء الخاضعة للحكم الفاطمي حيث كانت سياسة الفاطميين تقوم على جشع مالي بالغ؛ فقد كانوا يجبون من المال مبالغ ضخمة إلى درجة أنهم فرضوا على الحجاج جميعا المرور بالمهدية من أجل دفع ضريبة الحج، ومع ذلك كله لم يشقوا طريقا، ولا أنشأوا سوقا، ولا نفعوا قبيلة من القبائل التي خدمتهم، أما التي لم تخضع لسلطتهم مثل زناتة فقد حاربها العبيديون، وأثقلوا كاهل أفرادها بالجبايات حتى يظلوا في فقر، ولا يفكروا في الثورة عليهم

نتيجة لهذه السياسة ثارت القبائل المعادية لحكام إفريقية، وأكبر ثورة واجهها هؤلاء تلك التي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، ودامت أربع عشرة سنة، وكاد من خلالها أن يقض على الوجود الفاطمي ببلاد المغرب لولا تحالف الصنهاجيين مع العبيديين، وتدعيمهم في حربهم ضد الثائرين عليهم، وبفضل مساعدتهم نجح الفاطميون في القضاء على ثورة أبي يزيد سنة 336هـ- 948م (سالم ال،ج2، 1981: 605/ مؤنس،ح. 1985: 152- 155).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تسببت هذه الثورات في أعمال القتل والتخريب والتدمير، وهي العوامل التي لا تشجع الناس على الاستقرار والعمل، وبالعكس فهي تحفزهم على مغادرة البلاد، والبحث عن موطن جديد يضمن لهم ولأهلهم الأمن والاستقرار ووسائل العيش

لقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب جرّاء الأحداث السياسة التي عاشتها خلال القرن الرابع الهجري؛ ففي بدايته دارت حروب طاحنة بين الفاطميين الراغبين في بسط سلطانهم على كامل تراب المغرب، وإخضاع القبائل البربرية التي رفضت الانضواء تحت لوائهم على غرار ما فعلته قبائل كتامة وصنهاجة الموالية لهم، ومن القبائل التي رفضت الخضوع لهم زناتة(بنو يفرن، بنو خزر..) ومكناسة، ومن أجل الوقوف في وجه العبيديين، استجاشوا بالأمويين الذين لم يدخروا جهدا ولا مالا من أجل مواجهة حكام إفريقية، والعمل على إبعادهم عن المناطق المغربية القريبة منهم، ونتيجة لذلك دار صراع مرير بين الطرفين، ومن خلاله بين القبائل البربرية الموالية لأحدهما، وكانت النتيجة أن

انعدم الأمن والاستقرار، وهجر الفلاحون أراضيهم وقلّ الإنتاج، وساءت الأحوال الاجتماعية لأهل المغرب، وعلى العكس من ذلك لاحظ هؤلاء الإمكانات الضخمة التي سخرها بنو أمية، والأموال الطائلة التي أنفقوها من أجل تحقيق أهدافهم، وهو الأمر الذي أثار في نفوسهم الرغبة في الهجرة إلى العدوة الأندلسية على أمل تحسين ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية

المصادر والمراجع

ابن بشكوال - كتاب الصلة- تحقيق السيد عزت العطّار الحسيني- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط14142هـ- 1994م.

ابن الفرضي- تاريخ علماء الأندلس- - مكتبة المدرسة - دار الكتاب اللبناني- ط1 1403هـ- 1983م.

ابن الفرضي- تاريخ علماء الأندلس- تحقيق إبراهيم الأبياري- دار الكتب الإسلامية- ط1- 1404 هـ- 1984م.

جاسم بن محمد القاسمي- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس-مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية- 1999م.

الحميدي- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس- تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي دار الكتب العلمية- بيروت- ط14171هـ- 1997م.

ابن حوقل- صورة الأرض- دار الكتاب الإسلامي القاهرة- بدون تاريخ

السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير- ج 2: العصر الإسلامي- دار النهضة العربية - بيروت1981م.

أحمد مختار العبادي- في التاريخ العباسي والأندلسي-دار النهضة العربية- بيروت- بدون تاريخ

السيد عبد العزيز سالم- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس- مؤسسة شباب الجامعة- إسكندرية- 1985م.

ابن سعيد الأندلسي- المغرب في حلى المغرب- تحقيق خليل المنصور- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1417هـ- 1997م.

حسين مؤنس - فجر الأندلس- الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدّة- الطبعة الثانية- 1405هـ- 1985م- ص379.

خالد الصوفي- تاريخ العرب في إسبانيا- المطبعة التعاونية- دمشق- 1959م- ص33.

1- Levy Provençal-*l'Espagne Musulmane au 10eme siècle*- Ed. la rose - Paris- 1932.

2- Gustave Lebon- *La civilisation des arabes*-SNED-Alger -1969

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني(1520- 1830)

د. بوشناقي محمد.

قسم التاريخ، جامعة الجيلالي ليابس (سيدي بلعباس)

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني (1520- 1830) هجرة واسعة لعدد هام من علمائها نحو مناطق عديدة من العالم الإسلامي، و خاصة نحو المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي، مما شكل نزيفا خطيرا وأثر تأثيرا سلبيا على الحركة العلمية في الجزائر آنذاك. وقد تعددت الأسباب والدوافع التي دفعت بهؤلاء العلماء إلى المغادرة، ومن بينها تراجع الحركة العلمية وتدهور التعليم في تلك المرحلة حسب ما تؤكده بعض المصادر، وهي الظاهرة التي مست معظم العالم الإسلامي، فلا نكاد نصادف خلال هذه المرحلة إلا عددا قليلا من العلماء الذين ذاع صيتهم

ولم يكن هذا غريبا على تلك الفترة، خاصة وأن الأتراك العثمانيين ركزوا كل اهتمامهم على حركة الجهاد البحري وصد هجمات الأوربيين (الكفار) المتتالية على سواحل الجزائر، ولهذا لم يولوا الثقافة الاهتمام الذي تستحقه، فغلب على عهدهم الجمود الفكري والثقافي، وربما كذلك لأنهم كانوا أعاجم لا يتقنون لغة أهل البلد. غير أن هذا لا ينفي أبدا و جود حركة ثقافية ورثتها بعض الحواضر كتلمسان وبجاية ومازونة وقسنطينة عن الفترة السابقة للعهد العثماني، فكان نتاج ذلك أن نبغ عدد هام من العلماء تركوا لنا رصيدا علميا وأدبيا معتبرا، ويضاف إلى ذلك أن بعض الحكام، خاصة الدايا ت، شجعوا العلم والعلماء، ومن هؤلاء محم د بكداش (1707- 1710)، الذي كان له نصيب وافر من العلم، فقرب إليه العلماء والأدباء الذين أصبحوا من جلسائه، مما أثر إيجابيا على تطور الحركة الأدبية، وأخذ الأدباء يقرضون الشعر ويكتبون النثر في شتى المجالات (الطمار، م. 1980: 310) ومنهم محمد بن ميمون الجزائري ال ذي سجل أحداث فتح وهران الأول عام 1708م في قصيدة طويلة سماها " التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية".

ARCHIVE

ولا ننسى الدافع الديني ودوره في تنشيط حركة الهجرة خاصة إلى بلاد المشرق العربي، فكانت الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي- صلى الله علية وسلم- من أكبر الأماكن التي يتمناها كل جزائري، فكانوا يحرصون على أدائها ولو لمرة واحدة في العمر، وكان الكثير منهم لايكتفي بزيارة واحدة بل يكررها لمرات عديدة، ومن هؤلاء نذكر الورتلاني الذي حج ثلاث مرات متتالية (سعد الله، أ. 1985، ج2: 409)، أما عبد الكريم بن الفكون القسنطيني فكان يتولى إمارة ركب الحج، أي أنه كان يحج سنويا (سعد الله، أ.1985، ج1: 528). وإذا كان بعض هؤلاء يفضل العودة إلى بلاده بمجرد إتمامه لمناسك الحج، فإن بعضهم الآخر كان يقرر الاستقرار هناك ومجاورة قبر النبي- صلى الله عليه وسلم- حتى وفاته، ومن هؤلاء على سبيل المثال، علي والي بن حمزة الذي توفي بمكة المكرمة، ومحمد بن عبد الرحمن البوني الذي توفي بدوره في بلاد الحجاز كما سيأتي ذكره

وكان طلب العلم من الأسباب التي تؤدي للهجرة إلى خارج الجزائر، فتراجع حركة التعليم كما ذكرنا سابقا، وانعدام مراكز علمية معروفة كالأزهر الشريف، القرويين، الحرمين الشريفين والزيتونة، جعلت الجزائريين يتحملون عناء السفر والترحال من أجل الجلوس إلى أهل العلم والأخذ عنهم، وبالتالي الحصول على الإجازات العلمية. غير أن هذا لا يعني أبدا أن كل مهاجر من الجزائر كان هدفه طلب العلم، بل هناك من سافر إلى الخارج رغبة في تدريس العلم وتلقينه، ومن هؤلاء أحمد المقري التلمساني (ت. 1631) ويحي الشاوي (ت. 1685).

وهناك صنف من العلماء الجزائريين الذين جمعوا بين الهجرة من أجل العلم والحج وبين الجهاد في سبيل الله ومشاركة إخوانهم في صد هجمات الصليبيين، ومن هؤلاء عالم يدعى ابن الترجمان علي بن محمد (ت. 1771)؛ الذي تعلم بمدينة الجزائر، ثم شد الرحال إلى مدينة القاهرة. وبعد اندلاع الحرب العثمانية- الروسية عام 1771م اشترك في الجهاد، ولكن انهزام الجيش العثماني جعله يقع في الأسر، فتم نقله إلى موسكو حيث بقي يعاني في السجن حتى وفاته . (نويهض، ع. 1983: 62).

الهجرة العلمية إلى المغرب الأقصى:

كان المغرب الأقصى منطقة جذب لعلماء الجزائر خلال العهد العثماني، وخاصة علماء الجهة الغربية، وقد ارتبطت هذه الهجرة بالعلاقات الجزائرية- السعدية، خ صوصا وأن السعديين كانوا يسعون دائما إلى التوسع على حساب غرب الإيالة الجزائرية، وخاصة تلمسان. ومن ذلك، أنه بعد فشل السلطان السعدي في احتلال تلمسان عام 1560م، رافقه عند عودته إلى المغرب الأقصى عدد كبير من العلماء، واستقر الكثير منهم نهائيا في المغرب، فأصبحوا من كبار المدرسين وتولوا الكثير من الوظائف الشرعية كالقضاء والإفتاء.

ومن علماء تلمسان الذين رافقوا السلطان السعدي، عالم يدعى أبو عبد الله عبد الرحمن بن جلال المغراوي الذي كان قد ولد بتلمسان عام 908هـ/1502م، جمع بين علوم الدين والأدب، وكان من المساندين للسل طان السعدي معارضا للعثمانيين، ولهذا اختار الرحيل إلى فاس عام 958هـ/1551م، حيث قربه السعديون وولوه الوظائف الدينية كالإفتاء والتدريس والإمامة والخطابة بجامع القرويين، كما كانوا يستدعونه مع كبار العلماء إلى مراكش، ويرافقهم في أسفارهم. ومن ذلك؛ أنه صاحب السلطان عبد الغالب إلى سوس عام 980هـ/ 1572م، وبقي هناك لمدة عام يدرس بالجامع الكبير بتارودنت (نويهض، ع. 1983: 87- 88). وقد توافد على مجلسه عدد لا يحصى من طلاب العلم، خاصة وأنه كان يتقن الكثير من العلوم كالمنطق والعقائد والفقه والحديث والتفسير، وبقي يدرس بفاس حتى وافته المنية في الثامن من رمضان عام 981هـ/ 1573م، وكان صاحب أخلاق فاضلة حيث عرف عنه الكرم والسكون. (الحفناوي، م.1985، ق2: 423).

وكان محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزان ي التلمساني (908- 981هـ/ 1502- 1573م)، قد ولد بتلمسان وتعلم بها، فبرع في شتى العلوم كالف قه والحديث والأدب، ثم غادر إلى فاس حيث تولى وظيفة الإفتاء والخطابة، وبقي هناك حتى وافته المنية عام 981هـ/1573م. (ابن مريم 6ت. 1986: 260- 261).

غير أنه من أشهر العلماء الذين غادروا تلمسان باتجاه المغرب الأقصى، نذكر محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي التجيني ال تلمساني (908- 983هـ/1502- 1575)، ولد ونشأ وتعلم بتلمسان، وبرع في عدة علوم كالمنطق والفرائض والبيان

والحساب، تولى الفتوى المالكية بتلمسان، ثم رحل إلى فاس عام 967هـ/1560م، فقربه إليه السلطان السعدي الغالب بالله، كما تولى الفتوى على مذهب الإمام مالك بفاس ومراكش، وبرع في ذلك حتى أطلق عليه " مالك الصغير" (نويهض، ع. 1983 : 188). وقد أخذ عنه كثير من العلماء والطلبة حتى وافته المنية عام 983هـ/ 1575م بعدما عاش أكثر من خمسة وسبعين عاما (كفالة، غ. 1960، ج10، 71).

أما من عائلة العقباني، وهي عائلة علم بتلمسان حيث أنجبت عددا لا يحصى من العلماء، فقد هاجر عدد كبير م ن أفرادها إلى المغرب الأقصى، ومنهم أحمد بن محمد بن قاسم أبو العباس العقباني (ت980هـ/1572م) الذي استقر به المقام بفاس، فاشتغل بالفتوى المالكية والتدريس وبقي هناك حتى وفاته . (نويهض، ع .1983 : 263).

ومن علماء تلمسان الذين شدوا الرحال إلى المغرب الأقصى أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني المعروف بابن الوقاد، وكان قد نشأ وتعلم بتلمسان، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى واستقر بتارودن ت، أين تولى وظيفة الإفتاء، غير أنه اضطر إلى مغادرة المنطقة بعد ستة أشهر لأنه كان يجهل اللهجة البربوية التي هي لهجة أهلها، فاستقر بسجلماسة أين تولى وظيفة الإفتاء والقضاء، ثم تولى نفس الوظيفتين بمكناس، ثم أصبح خطيبا بجامع الأندلس بفاس. وأخيرا عاد إلى تارودنت أين تولى الفتوى والخطابة، وكان له فضل كبير في تعريب المنطقة. وبسبب علمه ووقاره نال حظوة لدى سلاطين المغرب، فأغدقوا عليه العطاء وقربوه إليهم، رغم أنه كان من الزهاد محذرا من مخالطة الملوك، فكثيرا ماكان ينشد قائلا : **كل التراب ولا تعمل لهم عملا ◆◆◆ فالشر كله فيذلك العمل** (الحفناوي،م. 1985، ق2 359-360).

وبعد وفاته عام 1001هـ/ 1592م، خلفه ابنه عبد الرحمن بن مح مد التلمساني، الذي برع في شتى فروع العلوم كالشعر واللغة والخطابة والتدريس، وتوفي في عام (1057هـ/ 1647م) بتارودنت. (نويهض،ع. 1983 : 343).

ومن علماء تلمسان البارزين الذين استقروا بفاس بصفة مؤقتة قبل الانتقال إلى بلاد المشرق العربي، نذكر المقري شهاب الدين أ بو العباس أحمد بن محمد " المغربي المالكي الأشعري ، التلمساني المولد والمنشأ والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم

مصر القاهرة" (المقري، أ. 1998: 13). وقد ولد بتلمسان عام 986هـ/1578م، حيث درس هناك على عمه عثمان سعيد مفتي تلمسان آنذاك، ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره انتقل إلى فاس التي دخلها في شهر صفر عام 1009هـ/1600، ومنها توجه إلى مراكش ليتصل بالسلطان السعدي أبو العباس أحمد منصور الذهبي، ثم عاد إلى تلمسان عام1010 هـ/ 1601م، لينتقل مرة أخرى إلى المغرب الأقصى في عام 1013هـ/1604م، حيث تولى الخطابة والإمامة والفتوى بجامع القرويين في فاس سنة 1022هـ/ 1613م، غير أنه اضطر إلى مغادرة المغرب نهائيا متوجها إلى بلاد الحجاز في سنة 1027هـ/ 1613م، ويقال أن السبب الذي دفعه إلى ذلك كان الصراع السياسي الذي وقع بين أبناء المنصور.(الحفناوي، م.1985، ق 1 : 49).

لم تقتصر الهجرة نحو المغرب الأقصى على علماء تلمسان فحسب، فمصادر التراجم تذكر علماء من وهران وقسنطينة وغيرها من الحواضر استقروا في تلك البلاد. فكان أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن يحي المدعو ابن جيدة المديوني الوهراني قد غادر وهران بعدما أخذ العلم عن علمائها وعلماء تلمسان كالشيخ أبو عبد الله السنوسي وأبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الوهراني، كما أخذ التصوف عن أبي إسحاق إبراهيم التازي . (الحفناوي، م.1985، ق2 : 24).وكان قد استقر بفاس حيث اشتغل بالتدريس حتى وفاته عام 951هـ/1544م، وممن تتلمذوا على يده الشيخ المنجور الذي ذكر أستاذه في فهرسته. (ابن مريم، ت. 1986: 52- 53).

وهناك عالم آخر هاجر من قسنطينة إلى فاس، إنه ابن الكماد محمد بن أحمد القسنطيني، الذي ولد وتعلم بقسنطينة، فأتقن علوم المنطق والحديث وعلوم الكلام والفقه ، وقد ذاع صيته في بلاد المغرب الأقصى حيث توافد عليه طلبة العلم من كل الأصقاع ينهلون من علمه حتى وفاته هناك في عام 1116هـ/ 1672م (نويهض، ع.1983: 247). وكان أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الجزائري قد تلقى العلم على أكثر من سبعين عالما من المشرق والمغرب، ثم استقر بفاس سنة1083هـ/1672م، وكان من المقربين للسلطان السعدي حتى وفاته عام 1102هـ/1690م. (الحفناوي، م. 1985، ق2: 428- 429).

وعموما فإن المغرب الأقصى، وخصوصا فاس، كانت محطة استقطاب لعدد لا يحصى من علماء الجزائر آنذاك، ويرجع ذلك أساسا إلى النشاط العلمي

الذي كانت تشهده تلك الحاضرة وكثرة علمائها، وهذا ما يطلعنا عليه المقري حين يقول: " حللت الحضرة الفاسية –حاطها الله- حيث المجالس غاصة، بالعامة والخاصة، والمساجد آهلة معمورة، والمشاهد بالزوار مغمورة، وحلل المعارف فضفاضة، والعوارف الجليلة مفاضة، حضرة ديباجها ربيعي، وامتزاجها بالنفوس طبيعي، ولم لا، وقد نظمت المفاخر ونسقتها، وجمعت المآثر ووسقتها جادتها غر السحب وسقتها" (المقري، أ. ب.ت، ج1: 4).

الهجرة العلمية إلى المشرق العربي

كان الجزائريون ولايزالون يتطلعون إلى زيارة المشرق العربي، وخاصة الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج . وخلال العهد العثماني كان العلماء الجزائريون يكثرون من الترحال إلى هناك لأغراض دينية وعلمية، وفضل الكثير منهم الاستقرار هناك وعدم الرجوع إلى الجزائر.

فمن العلماء الجزائريين الذين استقروا بالمشرق نذكر أحمد بن عثمان بن علي بن محمد أبو العباس التلمساني، الذي ولد وتعلم بتلمسان، ثم رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، كما درس على علماء من مصر والشام والحرمين الشريفين، وأخذ عنه عدد من علماء المنطقة وطلبتها، وتوفي بالقاهرة (نويهض، ع. 1983: 66- 67).

أما علي بن والي بن حمزة الجزائري الذي كان حيا في عام 999هـ/1590م، فيعتبر من أكبر علماء الرياضيات، وكان قد استقر في اسطنبول لمدة من الزمن، ثم عاد إلى الجزائر ليغادرها إلى البقاع المقدسة، فاستقر هناك حتى وفاته، من أهم مؤلفاته " تحفة الأعداد لذوي الرشد والسواد " ويعتبر من أهم المؤلفات في علوم الحساب كما ذكرت المصادر (نويهض، ع. 1983: 124).

وهناك عالم آخر استقر بمكة المكرمة، إنه محمد بن عبد الرحمن البوني، وكانت عائلته تقطن عنابه، ومن هناك رحل جده إلى بلاد الحجاز، حيث ولد محمد في مكة، وبها نشأ وتعلم، كما برز في الأدب والشعر، وتوفي في عام 1018هـ/ 1606م (الحفناوي، م. 1985، ق2: 423).

وكنا قد ذكرنا أن المقري كان قد اضطر إلى الخروج من فاس متوجها نحو بلاد المشرق عام 1027هـ/ 1618م لأسباب سياسية، فامتطى سفينة من تيطوان حطت به الرحال في الإسكندرية، ومنها توجه إلى القاهرة التي دخلها في شهر رجب

1028هـ/ 1619م، وفي ذي القعدة من نفس العام توجه إلى بلاد الحجاز فأدى العمرة وبقي هناك حتى أداء فريضة الحج، ثم توجه إلى المدينة المنورة، ثم عاد إلى مصر في سنة 1029هـ/ 1620م. ولم يتوقف المقري عن الترحال والتنقل بين بلدان المشرق، فحج خمس مرات، وزار المدينة المنورة سبع مرات، وبيت المقدس ثلاث مرات، ودمشق مرتين، ولما قرر زيارتها للمرة الثالثة ليستقربها نهائيا وافاه الأجل في ع ام 1041هـ/ 1632م، وحسب الحفناوي فإنه قتل مسموما ببلاد الشام (الحفناوي، م. 1985، ق1: 61)، (سعد الله، أ. 1985، ج2:221- 223).

أما يحي الشاوي النائلي الملياني، فولد بمدينة الجزائر، وتعلم بها وبمليانة، وقد برع في الفقه المالكي واللغة والنحو والتفسير . توجه إلى ا لمشرق في عام 1074هـ/ 1663م بنية أداء فريضة الحج ثم عاد إلى القاهرة ليمارس التدريس بالأزهر الشريف، وكان من المقربين للحكام هناك، ثم رحل إلى بلاد الأناضول، وفي طريقه دخل إلى دمشق حيث عقد مجلسا علميا بجامع الأمويين ، وعند وصوله إلى اسطنبول أكرمه شيخ الإسلام يح ي المنقاري والصدر الأعظم، كما حضر إلى جانب السلطان مجلسا علميا . وبعد مدة من الزمن قفل راجعا إلى مصر ليعود مرة أخرى إلى اسطنبول ثم إلى مصر . وبعد طول تنقل توفي الشاوي في شهر ربيع الأول 1096هـ/1684م بينما كان يهم إلى الذهاب لأداء فريضة الحج بحرا، فمات على ظهر السفينة، ويقال أن البحارة دفنوه في مكان يقال له رأس أبي محمد، ثم قام ولده الشيخ عيسى بنقل رفاته إلى القاهرة حيث دفن بالقرافة الكبرى (نويهض، ع. 1983: 186)، (الحفناوي، م. 1985، ق1: 190- 194).

وكان عيسى الثعالبي قد ولد ونشأ وتعلم بمدينة الجزائر وتونس، ثم ارتح ل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، كما زار مصر والتقى بالكثير من علمائها، ثم عاد مرة أخرى إلى مكة المكرمة حيث وافته المنية هناك (هلال، ع. 1995: 302). أما محمد بن عبد الله بن أيوب عبد الله التلمساني المدعو بالمنور، فكان قد ولد بتلمسان، واشتهر بعلم الحديث والأدب والفقه، جاب العالم الإسلامي طلبا للعلم حتى وافاه الأجل بمصر (نويهض، ع. 1983: 79).

ومن العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى مصر، حسين بن عبد الله الجزائري، وكان اسمه الحقيقي دلاور، برع في فن الخطوط، ويقال بأنه غادر قسنطينة إلى

مدينة الجزائر هروبا من سيده در ويش علي الكاتب القسنطيني، ربما لأنه أصبح أكثر شهرة منه، ثم سافر إلى القاهرة، واشتهرت خطوطه بين الناس فأخذ عنه الكثير من المهتمين بهذا العلم، مات بالقاهرة في عام 1125هـ/1713م (الحفناوي، م. 1985، ق2 : 137).

وكان الشيخ علي بن محمد الجزائري المدعو ابن الترجمان ق د ولد في مدينة الجزائر عام 1136هـ/1723م، وبها نشأ وتعلم علوما شتى، ثم رحل إلى بلاد المشرق وزار إسطنبول عدة مرات فنال رضى واحترام مسؤوليها، حتى استقر به المقام بالقاهرة قرب الأزهر الشريف، وبعدها انتقل إلى إسطنبول مرة أخرى في وقت كانت الدولة العثمانية تستعد للحرب ضد روسيا، وكان ابن الترجمان قد كتب إلى السلطان العثماني مصطفى الثالث أن من يقرأ استغاثة أبي مدين شعيب عند التقاء الجيشين ينصره الله، فكلفه السلطان بالتوجه إلى ساحة الوغى وقراءتها بنفسه، وهكذا شارك في القتال مرغما، غير أن المعركة لم تكن في صالح العثمانيين، فانهزموا وأسر العديد منهم، فكان من بينهم ابن الترجمان الذي اقتيد أسيرا إلى موسكو، وبقي هناك سجينا حتى وفاته بعيدا عن الوطن والأهل عام 1771م (الحفناوي، م. 1985، ق2 : 279)، (نويهض، ع.1983 : 62).

أما محمد حسن الجزائري فولد بمكة المكرمة بعدما كان أبوه قد ها جر إلى بلاد الحجاز وامتهن التجارة، ثم جاء به أبوه إلى مصر، فلزم الشيخ حسن المقدسي مفتي الحنفية وأخذ عنه العلم، فنبغ في علوم شتى وامتهن الإفتاء وتدريس الحديث . (نويهض، ع.1983 : 108). وبالقاهرة تزوج بامرأة غنية بالأزبكية، لكن يقال أنه مات شابا عام 1187هـ/1773م بعدما قامت زوجته بتسميمه (الحفناوي، م. 1985، ق2 : 368).

ومن علماء الصحراء الجزائرية الذين هاجروا إلى بلاد المشرق العربي، نذكر أبو العباس الجزائري، الذي هاجر إلى مصر وهو لا يزال صغيرا في السن، فجالس علمائها ومنهم علي الصعيدي، مما جعله يبرع في العديد من العلوم، كما عرف عنه فصاحة اللسان وقوة الحفظ، فاجتمع حوله طلبة العلم. وفي عام 1182هـ/ 1768م حج إلى بيت الله الحرام حيث قضى هناك عاما كاملا، فالتقى بعلمائها مثل أبو الحسن السندي، ثم قفل راجعا إلى مصر . وكان محل احترام وتقدير من العلماء

لفضله وسلاطة لسانه، وتوفي لي لة الأربعاء الحادي عشر من شعبان عام 1202هـ/1786م (الحفناوي، م. 1985، ق2: 30- 31).

وخلاصة القول، أن الهجرة العلمية للجزائريين عرفت نشاطا ملحوظا خلال العهد العثماني، تحكمت في ذلك مجموعة مختلفة من العوامل، فلا نجد بلدا إسلاميا يخلوا من اسم عالم جزائري استقر ب ه للدراسة أو التدريس، كما أن كثيرا من علمائنا آنذاك كانوا محل احترام وتقدير أينما حلوا، سواء من طرف رجال السياسة أو العلماء والطلبة، وهذا ينفي ما كان يشاع من انعدام طبقة من العلماء الجزائريين آنذاك. كما لا يمكننا أن نذكر بأن الجزائر العثمانية بدورها كانت محطة جذب لكثير من العلماء الذين توافدوا عليها من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، ومن هؤلاء عالم يدعى فتح الله الذي ولد بالشام ثم رحل مع عائلته إلى مصر، ومن هناك قدم إلى الجزائر حيث استقر بقسنطينة ليمارس وظيفة التدريس والخطابة والحنفية. وكذلك عائلة ابن العنابي التي قدمت من إسطنبول فاستقرت في بداية الأمربعنابة، ثم انتقلت إلى مدينة الجزائر أين تولى عدد من أفرادها وظيفتي الإفتاء والقضاء، ومن أبرزهم المفتي محمد بن محمود العنابي، هذا إلى جانب عائلة ابن المفتي التي استقرت نهائيا بمدينة الجزائر . وهكذا فإن كانت الجزائر قد هجرها العديد من علمائها، فإنها استقبلت أعدادا منهم رغم أن معظم هؤلاء الوافدين جاؤوا من أجل نشر المذهب الحنفي وتولي وظائف التدريس والقضاء والإفتاء على هذا المذهب.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن مريم، المليتي المديوني التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد . (1986).**البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان** (تقديم طالب عبد الرحمن). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- هلال، عمار.(1995). **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية خلال القرنين التاسع والعشرين الميلاديين(3- 14هـ)**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الحفناو ي، أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول .(1985).**تعريف الخلف برجال السلف** ، الطبعة الثانية . بيروت :مؤسسة الرسالة، تونس:المكتبة العنيفة.
- الطمار، محمد.(1981). **تاريخ الأدب الجزائري**.الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- كحالة، عمر رضا.(1960). **معجم المؤلفين** (تراجم مصنفي الكتب العربية) دمشق : مطبعة الترقي.
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني(بدون تاريخ). **أزهار الرياض في أخبار عياض** (تحقيق السقا مصطفى الأبياري إبراهيم، شلبي عبد الحافظ)، الجزء الأول. المحمدية (المغرب): مطبعة فضالة.
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني .(1998). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** (تحقيق إحسان عباس)، المجلد الأول. بيروت: دار صادر.
- نويهض، عادل.(1983). **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، الطبعة الثالثة لبنان: مطبعة دار الكتب.
- سعد الله، أبو القاسم .(1985). **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري** (16- 20م)، الجزء الأول، الطبعة الثانية. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرحلات بين المغرب والمشرق
وقيمتها التاريخية

أ. د..عبد القادر خليفي

قسم التاريخ، جامعة وهران.

تعريف الرحلة:

الرحلة من رحل عن المكان: تركه، ورحل إلى المكان: انتقل إليه. ورحل البلاد: طافها وتنقل فيها. وهذا هو المقصود من عملنا هذا.

فالرحلة حركة ومخالطة للناس والأقوام، وتَعَرّف على المناطق ووصف الثقافات الإنسانية ورصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع ما في زمن معين .

وبواسطتها يحصل الرحالة على مادة ثرية من المعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن أحوال البلدان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كطبائع الناس ومعالم حضارتهم وخصوصياتهم. وهي "تمثل مظهرا من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور الإسلامية ."(ذنون طه ،ع . 2005 : 73.)

ويراها أحدهم مُتعة وراحة في قوله : "السفر والترحال متعة وترويح عن النفس برغم ما يعتري المسافر من المتاعب والمصاعب، وما يتطلب من وقت وجهد ومال .." (أرسلان، ش. 2004 : 11.)

أما صاحب التصدير لكتاب شكيب أرسلان عن الارتسامات اللطاف، فيذكر أن الرحالة يخرجون مدفوعين بشغف البحث عن الجديد والرغبة العميقة الجارفة، لا في الاستكشاف فقط من باب الفضول المعرفي، وإنما أساسا من باب طلب العلم واستلهام التجارب.(أرسلان، ش. 2004: 8.) وقد تمت هذه الرحلات بكتابات كثيرة كتبها الرحالة أثناء رحلتهم أو بعد نهايتها فشكلت أدبا سمي بأدب الرحلات، يتضمن معارف وأفكار تختلف باختلاف المستوى العلمي للرحالة

ويؤكد صاحب تصدير الكتاب السابق الذكر قائلا إن أدب الرحلات يشكل ثروة معرفية كبيرة ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار، فضلا عن كونه مادة سردية تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجول وأنفس

تنفعل بما ترى، ووعي يلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكر فيها .(نفسه: 9.)

ومن هذين التعريفين نجد أن الرحلة مُتعة وعلم في الوقت نفسه، ألا ترى أننا اليوم في عصرنا نزور بلدا ما أو جامعة ما بغرض علمي كتقديم محاضرة أو المشاركة في ندوة علمية أو بغرض تربص محدود الزمان، نرغب في معرفة المكان واستغلال أي وقت من أجل الإطلاع على مالا يمكن رؤيته في وقت آخر قد لا تسمح به الظروف؟ إذن فللغرضان متماشيان جنبا إلى جنب، ويكمل أحدهما الآخر.

سماها العرب "أدب الرحلات"، وهم يقصدون بذلك، الكتابات التي يصف فيها الرحالةُ البلدانَ والأقوامَ التي يمرون بها، كما يذكرون الأحداث التي وقعت أثناء جولاتهم تلك. وهي تشمل عناصر أدبية ومعلومات إثنوغرافية وتاريخ ية. وتسميتها بكلمة "أدب" لا يعني اقتصارها على علم الأدب، بل تشمل علوما مختلفة، وإنما سميت بكلمة "أدب" لما تتميز بها كتاباتها من احتوائها "على الكثير من الملامح الأدبية والنواحي الجمالية التي برزت في اختيار الألفاظ وحسن الأسلوب وجمال التعبير."(فهمي م. 1989 : 9.)

والرحلة قيِّمة وتعليمية، تقوم بدور التثقيف وإثراء الفكر عن الآخرين

وقد أدت الرحلات إلى اكتشاف الكوكب الأرضي كله شيئا فشيئا حسب تطور الإنسان وتطور وسائل المواصلات تبعا لذلك . وكانت الرحلات منذ بَدْء التفكير الإنساني من أهم وسائل المعرفة الجغرافية حتى القرن التاسع عشر . فالجغرافيون اليونانيون والرومانيون أمثال اراتوستيني وسترابو وبليني وبطليموس استعانوا بالرحلات استعانة كبيرة في جمع معلوماتهم الجغرافية، وكذلك فعل الجغرافيون المسلمون أمثال اليعقوبي والإصطخري والمقدسي وابن حوقل والمسعودي والإدريسي. وقد اع تمد رواد الجغرافيا العلمية الحديثة على الرحلات الشخصية اعتمادا كبيرا، من أمثال: همبولت وريتر وراتزل وفيدال دو لابلاش.

إن أهمية الحركة في الرحلة "تكمن في كونها تجد تسميتها في الرحلة الجغرافية، فتشكل بذلك حقلا متميزا ."(بوسماحة، ع. دكتوراه، 2004/2005: 9.) فقد كان الجغرافيون العرب مثلا رحالة قبل كل شيء، وهم في ذلك نوعان:

1 - رحالة يطوفون البلدان لأهداف علمية فيقومون بتسجيل المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، فهم إذن جغرافيون علميون، وتحمل أعمالهم بذور البحث العلمي بما تنطوي عليه من استقصاء وبحث دائمين، وملاحظاتهم تشمل كل ناحية من نواحي البلاد التي يحل بها الرحالة، طبيعية كانت أم برية أم اقتصادية.

2 - رحالة يَجُولون البلدان لأغراض سياسية أو تجارية أو دينية، فيها يتم تدوين الملاحظات والمشاهدات في كتاب، وهؤلاء هم حالة الأدباء. وتتميز كتاباتهم بأفق ضيق محدود، و هي تكتفي بتسجيل مشاهد عابرة وملاحظات شاردة .(خصباك، ش. 1988: 181- 182)

خصوصيات عامة للرحلات:

- اتصفت الرحلات بصفة عامة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات بأمانة وصدق.
- تختلف فيما بينها، بين الرحلة المعتمدة على المشاهدة وبين الرواية عند تسجيل المعلومات وهما قاعدتان أساسيتان من منهجية البحث الميداني في الدراسات الإنثربولوجية.
- الاتصال بالشعوب الأخرى ومعرفة الآخر: لغة، عادات وتقاليد..

أنواع الرحالين:

اختلف الرحالة من حيث انتمائهم كما اختلفت أهدافهم من الرحلة

❖فمنهم رجال الدين الذين كان هدفهم نشر ا لديانة التي يؤمنون بها أو المذهب الذي يتبنونه، والذين رأوا في تلك الرحلات عملا يؤجرون عليه ويفيدون به غيرهم بإخراجهم من حياة الظلام والضلال إلى حياة النور والهداية . وأهم هؤلاء رجال الصوفية من القادريين والتجانيين في إفريقيا، والمبشرين الأوربيين في المرحلة الاستعمارية.

❖ومنهم رجال علم أرادوا من رحلاتهم التطلع على هذه البسيطة واكتشاف عوالم جديدة يفيدون بها عالم الإنسان، ويحسنون استغلال الطبيعة. ويمكن إدخال رحلة ماجلان، التي أراد بها إثبات كروية الأرض بدورانه حولها، ضمن هذا النوع من الرحلات.

❖ومنهم مغامرون خرجوا من عالم معلوم إلى عالم غريب مجهول، أرادوا الخروج من الضيق إلى السعة ومن المحدود إلى الممدود، هم من هواة السفر والترحال، لا يستقر لهم بال إلا إذا تحركوا وسافروا واكتشفوا.

والرحلات في العالم القديم نوعان: رحلات بين الشرق والغرب، ورحلات بين الشمال والجنوب.

1- **الرحلات بين الشرق والغرب** : وهي إما متجهة من الغرب إلى الشرق أو العكس أي متجهة من الشرق إلى الغرب. وتختص بالتنقل بين قارات إفريقيا وأوربا غربا والقارة الأسيوية شرقا.

2- **الرحلات بين الشمال والجنوب** وهي رحلات تمت بين أوربا من جهة الجنوب والبلاد العربية الإسلامية من جهة الشمال، وكلها تجري حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

أهداف الرحلات:

وبناء على ذلك يمكن تقسيم الرحلات حسب أهدافها إلى ما يلي:

1- **المغامرة والاكتشاف:**

اتصف بعض الأفراد بالرغبة في معرفة المجهول وبذل كل شيء من أجل تحقيق ذلك عن طريق المغامرة. فخرج هؤلاء يجوبون العالم شرقا وغربا جنوبا وشمالا، لمعرفة المزيد من المعلومات واكتشاف مزيد من العوالم والخلائق البرية والبحرية من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك. وتكبدوا الأتعاب والمحن وتعرضوا لمختلف أنواع المصائب، طبيعية كانت أم بشرية، فقد جالوا عوالم لا يعرفون عنها شيئا وربما عرفوا أشياء قليلة. ورغم أهداف بعضهم النبيلة فقد لاقوا الأمرين بسبب انغلاق بعض المجتمعات وكثرة شكوكهم في كل أجنبي عنهم. ويحدثنا العديد من الرحالة عما لاقوا من مِحَنٍ ومَآسٍ، وكيف فقد البعض منهم تقييداته التي كان سينشرها بعد عودته، فاضطر إلى إعادة كتابتها.

2- **التوسع والاستعمار:** خرج البعض من هؤلاء بغرض كسب أراضي ومساحات جديدة أو بغرض الحصول على المال، وبذلوا من أجل ذلك كل ما استطاعوا، وقد برز هذا النوع بصفة أخص خلال مطلع العصور الحديثة على إثر ظهور الحركة الاستعمارية الأوربية، فكانوا لها نعم المعين بكتابتهم لتقارير عن رحلاتهم وعن

الأقوام التي رأوها ومروا بها: عن صفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وعن حياتهم اليومية بصفة عامة. ويدخل ضمن هؤلاء المستكشفان بيير سافورينيان دي برازا الذي خدم الفرنسيين، والمستكشف هنري مورتُن ستانلي الذي خدم البلجيكيين لـلا ستيلاء على الكونغو (زاهر، ر. 1965: 123- 125.)

3- أهداف علمية:

هناك طائفة من الأفراد ذووا ثقافة عالية، خرجوا إلى ميدان الرحلة لتحقيق أغراض علمية، كالكشف الجغرافي لمعرفة العالم إقليميا، أو الحصول على نباتات أو مواد لأغراض علمية أو لدراسة الإنسان من خلال ا لتعرف على المجتمعات ودراسة ثقافاتها المختلفة.

وتنقسم الدواعي العلمية عموما إلى قسمين:

أ- الاستفادة العلمية: وهي ما ذكرناه سابقا من حاجة الرحالة إلى البحث عن أغراض علمية يريدها بعد أن لم يجدها في بلده

ب- الإفادة العلمية: وتعني خروج العالم لتقديم ما عنده من ع لم لإفادة الآخرين فبعض علماء المغرب رحلوا إلى المشرق ليفيدوا غيرهم بعد أن بلغوا حدا معينا من الثقافة العالية بين أقرانهم ومعاصريهم. فقد آنس بعض المغاربة في أنفسهم الكفاءة والقدرة على العطاء بالمشرق وإفادة المشارقة فرحلوا إلى هناك لهذا الغرض، كأبي العباس المقري.

وهناك علماء زاوجوا بين الإفادة والاستفادة بالمشرق أو المغرب

لقد حث الإسلام على طلب العلم وجعله أمرا من الشرع، وهناك أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية وتوجيهات السلف في الحث على هذا الأمر. والإسلام عندما يشجع أتباعه على الاغتراب والبعد عن الأوطان كان غرضه أن تحتك الفعاليات العلمية في مختلف الأقطار، أملا في بناء الشخصية العلمية المنشودة . ومن الآيات الداعية إلى ذلك قول الله سبحانه وتعالى : "**فلولا نَفَرَ من كل فِرْقَةٍ مِنهُمْ طائفةٌ ليَتَفَقهُوا في الدِّينِ وليُنْذِرُوا قوْمَهُم إذا رَجَعوا إليهِمْ ل علَهُمْ يَحْذَرُونَ**"(التوبة: 122.) وأعطى الله سبحانه العلم قدرا كبيرا، فقد جعل العلماء في المرتبة الثالثة حين قال سبحانه: "**شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلَهَ إلا هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولُوا العِلْمِ قائِماً بالقِسْطِ** ." (آل عمران: 18)، وبهذه المرتبة شرف الله أه ل العلم وأعطاهم فضلا كبيرا بهذه المنزلة.

فطلبُه إذن هو جهاد وهو من الأعمال الصالحة . أما الأحاديث النبوية فقد حثت المسلم للسعي في طلب العلم حتى يكتسب الأجر الجزيل . منها : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فيهِ عِلْماً سَلَكَ اللّه بِهِ طَرِيقاً إلَى الجَنّة ."(الغزالي، أ. 1347هـ 8.) ومنها : "إنَّ المَلائكَةَ لتَضَعُ أجْنِحَتَها لِطالِبِ العِلْمِ رضا بِمَا يَصْنَعُ." (الغزالي أ. 8.) ومنها : "أطلبُوا العِلْمَ ولوْ بالصِّين." وغير ذلك من الأحاديث المشهورة في هذا المجال

"ومن هنا حظي الجانب العلمي من حياة العلماء الراحلين بالتغطية أكثر من الجوانب الأخرى من قبل كتب التراجم والطبقات ."(لمين م. 2001- 2002: 63) وتعكس مدة إقامة المغاربة عامة بالمشرق الأهمية العلمية التي يكتسيها الشطر الشرقي من بلاد العرب لدى العديد منهم، إذ أن الجانب الديني لا يتطلب مدة طويلة، فأداء مناسك الحج أو العمرة محدودة الزمن.

4- رحلات دينية:

تمثل الرحلة الدينية أو رحلة العبادة نمطا حركيا قديما، يرجع سبب ظهوره في المقام الأول إلى الحاجة التي شعر بها الإنسان للتقرب من القوة الخارقة الضرورية لمعالجة مصاعب الحياة، وذلك من خلال مبنى يكون على هيئة خاصة أو رمز معين يزوره في موسم محدد من السنة . وتؤدي رحلة العبادة بهذا المعنى غرضا شعائريا يمارسه الأفراد في خشوع كبير.(بوسماحة، ع. 2004/2005. 9.)

كان التدين وبخاصة لدى العلماء والفقهاء عاملا للرحلة العلمية في الإسلام وجدت صداها لدى المغاربة نظريا وعمليا.

ورحالة المسلمين المتجهين من المغرب إلى المشرق نادرا ما تتم دون أن يعرج الرحالة على مكة لأداء فريضة الحج. وبذلك كانت هذه الأخيرة عونا للمغاربة للرحلة نحو المشرق، "ولم يسع بعض العاجزين عن الرحلة لأداء الفريضة إلا بعث رسائل مفعمة بالأشواق إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ."(لمين م. 2001- 2002: 53.)

وتتمحور الدواعي الدينية لرحلات المغاربة نحو المشرق فيما يلي:

- تأدية فريضة الحج.
- مجاورة الحرم.
- زيارة بعض المآثر المقدسة.
- الفائدة العلمية.

وقد كتبت أشعار عديدة في مدح الأراضي الإسلامية المقدسة بعامة وبعض المعالم البارزة منها بخاصة، "ولبعضهم مرغبا في زيارة الحرم المكي لما يفوز به مرتادُهُ من السعادة والاطمئنان والتجاوز عن الذنب وزيادة الإيمان:

هنيئا لمن زار بيت التقى وحط عن النفس أوزارها

فإن السعادةَ مضمونةٌ لمن جاء مكةَ أو زارها . (بن المحبوب م. 1428هـ/2007م. ص: 345- 385)

5- أغراض اجتماعية:

تتمثل الأغراض الاجتماعية في رغبة بعض العلماء الذين بلغوا شأوا بعيدا في بلدهم وأرادوا أن يكسبوا مزيدا من الحظوة والجاه في بلاد المشرق، أو أن بعضهم لم يجد التفهم في بلده نتيجة انتشار الجهل والأمية أو نتيجة الحقد والحسد من قبل بعض النافذين سواء كانوا سياسيين أو علماء منافسين لهم محليا، فخرجوا يبحثون لهم عن مكان في المشرق يقدر مكانتهم ويعلي من شأنهم

6- أغراض سياسية:

هي أقرب إلى الهجرة منها إلى الرحلة، ومع ذلك سندخلها ضمن الرحلات . وهي تشمل ثلاثة أغراض هي:

أ- الحروب والفتن: وتشمل الحروب بين المسلمين والصليبيين من جهة والحروب الأهلية بين أبناء الوطن الواحد من جهة ثانية. فقد كان يَعْقُبُ ظهور أية دولة جريان سيل من الدماء لا ينجو منه إلا من وجد السبيل إلى الهجرة والفرار بجلده، ومثال سقوط الثغور الإسلامية بيد المسيحيين في الأندلس أو بلاد المغرب عامة دليل يؤكد هذا القول.

ب- الفرار من الاستبداد: شهدت البلاد المغاربية العديد من الحكام المستبدين على مر العصور، كما شهد المشرق مثل ذلك، فلم يكن أمام البعض من المثقفين سوى الهجرة والرحلة إلى العُدْوَة الثانية : من المشرق إلى المغرب أو من المغرب إلى المشرق.

ج- غياب عراقيل سياسية في وجه التنقل: إن عدم تدخل السلطات الحاكمة في مسألة التنقل تشجع كل من كانت له رغبة في الارتحال إلى تنفيذ رغبته بكل سهولة، لأن وضع العراقيل في وجه التنقل تعدم الفائدة المرجوة.

د- دواعي اقتصادية : هناك البعض ممن تعرض للفقر في بلده فحاول أن يحسن من حالته المعيشية بالرحلة إلى بلاد المشرق أو المغرب عله يخرج من محنته الاقتصادية، وينطبق هذا الأمر على سكان الأندلس بخاصة

نماذج من الرحلات:

أ- الرحَلات القديمة:

لم تخل العصور القديمة من ظاهرة الرحلات، بل كانت قائمة، وقد أفادت معاصريها أولا ثم من جاء بعدهم، بل هي تفيدنا في الحاضر أكثر مما أفادت القدماء. وهيرودوت أول من دَوّن مشاهداته لشعوب إفريقيا في العصور القديمة

أما في المغرب فمنذ الألف الأول قبل الميلاد بدأ الفينيقيون التوسع في الحوض الغربي للبحر المتوسط بحثا عن المعادن الثمينة . وقد سيطروا على التجارة البحرية مدة طويلة، واستفاد المغرب من الحضارة الشرقية نتيجة هذا اللقاء بين الطرفين : الفينيقيون الوافدون من جهة والبربر سكان البلاد الأصليين من جهة ثانية، والمتمثلة في التواجد الفينيقي في القرون القديمة . وهكذا انتقلت عادات وتقاليد شرقية كما انتقلت المعتقدات الدينية، وبخاصة وأن تنقل الفينيقيين إلى غربي المتوسط جاء سلميا.

وكانت قرطاجة عاصمتهم هي حاملة تلك الحضارة وذلك المد المشرقي إلى البلاد المغربية . وقد وصلتنا شواهد في هذا المجال عبر الكتابات الإغريقية واللاتينية. أما داخليا فقد عمل الرومان على تخريب كل تلك المخلفات من نقوش على المسلات وعلى شواهد القبور وعلى الخزف . ومن تلك المخلفات الموسوعة الفلاحية التي دونها القرطاجي ماكون في ثمانية وعشرين كتابا، والتي ترجمت إلى اللغة اللاتينية في العهد الروماني.(العزيفي، م. 2006 : 183.)

ومما يذكر أن هناك رحلة حنون التي كتبت ما بين القرنين الأول والخامس قبل الميلاد وهي عبارة عن تقرير، دُوّن بإحدى معابد قرطاجة باللغة البونيقية، ثم ترجم للغة الإغريقية. ورحلة حنون هذه تعتبر "امتدادا غربيا للآداب الشرقية على العموم ولآداب الرحلات على الخصوص ." (العزيفي، م. 2006 : 184) وهي أقدم وثيقة مصدرية، إلى جانب نص التجارة الصامتة لهيرودوت، حول المغرب القديم

وقد حدثتنا رحلة حنون هذه عن توافد مجموعة بشرية من الرحالة أو الرعاة، "وأن هذه المجموعة لها من المعرفة الملاحية واللغوية والإثنوغرافية الكافية بالساحل الأطلنطي المغربي."(..(العزيفي، م. 2006 : 201.) وهي كما يبدو جماعة فينيقية . "ومن المظاهر الحضارية الشرقية التي يمكن أن تستشفها كذلك من نص رحلة حنون، نذكر عادة تعليق تقارير الإنجازات الكبرى على المعابد، وهي عادة سامية معروفة.."(..(العزيفي، م. 2006: 209) حيث قام حنون بعد عودته بنشر رحلته بمعبد بعل حمون وليس بمبنى مجلس الشيوخ أو بالقصر الملكي بقرطاجة

ويذكر العزيفي أن النص يتضمن العديد من المظاهر الثقافية للحضارة الفينيقية التي ورثتها قرطاجة وأشاعتها في الشمال الإفريقيوإذا كان هذا النص يدخل في خانات أدب الرحلات القرطاجية، فهو لا ينعزل ملكذ عن مصنفات آداب الشرق القديم

ب- الرحّالة الجغرافيون المسلمون

مثلت الرحلات الهدف المركزي والعدة الأساسية للجغرافي العربي، ولا نكاد نجد أي جغرافي عربي مرموق لم يكن قد اعتمد في كتاباته اعتمادا أساسيا على رحلاته الشخصية عدا بعض جغرافيي العصور المتأخرة . فالجغرافيون العرب والمسلمون عموما هم رحالة أصلا.

وقد ظهر أدب الرحلات الجغرافي كحقل متميز ذي سمات خاصة في القرن السادس الهجري. ويعتبر البعض أن كتاب الفقيه الأندلسي أبو بكر محمد بن العربي (المتوفى في 543هـ/1076م) المسمى ترتيب الرحلة أول المصنفات، وأن مؤلفه هو واضع أصول هذا الفن، غير أن المتفق عليه أن ابن جبير هو الأب الشرعي لهذا النمط من الفنون الأدبية الجغرافية.

ج- الرحَلات الحجازية:

لو تتبعنا تاريخ البشرية جمعاء وبحثنا عن المواقع الجغرافية المختلفة التي يحج إليها الناس لما وجدنا مكانا يفوق بلاد الحجاز الإسلامي ة في هذا الجانب . فهي تحتل المكان الأول في ذلك . وهو يستقطب خمس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها الروحية. وهي الوطن الروحي لكل مسلم مؤمن . فموطن الرسول صلى الله عليه وسلم هو رمز الرحمة والمثالية وإشعاع الروح وإيماض الوجدان، فلذلك "لم تعرف ولن تعرف مواقع السياحة الدولية مسارا أكثر استرواحا وأشد استمراجا من

هذه الأرض الطاهرة التي ظلت كعبة الرواد منذ انطلقت دعوة إبراهيم الخليل، الأب الثاني للبشرية تذكي الأفئدة والمشاعر خلال أربعة آلاف من السنين."(بنعبدالله ع. 2001: 45.)

وقد أنتجت هذه الرحلات آلاف الكتابات والفهارس دَوَّنَها المسلمون طوال أزيد من ألف عام في مختلف بقاع الأرض ليسجلوا انطباعاتهم وارتساماتهم في طريقهم إلى الحرمين.

د- بين المشرق والمغرب:

تفَوَّقَ المغاربة على المشارقة في هذا النوع من الكتابة، ما عدا نفر محدود جدا من المشارقة الذين اشتهرت رحلاتهم في العهود التالية كالسائح الهروي، بينما تضم قائمة الرحالة المغاربة المشهورين أسماء عديدة منها ابن جبير وابن بطوطة وابن سعيد والعبدري والتجاني والعياشي وغيرهم. ويمكننا أن ندرك سبب تفوق المغاربة في هذا الفن فيما لو بحثنا عن المحرك الرئيس لتلك الرحلات.

فقد ذكر جميع أولئك الرحالة هدفهم الأساس وهو الحج إلى بيت الله الحرام والدراسة على أيدي علماء الفقه المشهورين . وكانت مراكز العلوم الرئيسة مبثوثة في جهات المشرق العربي ولاسيما في بغداد ودمشق والقاهرة، كما أن الوصول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة كان يتطلب اجتياز بلدان عربية وإسلامية عديدة.

وكان الحاج كثيرا ما يتخلف في تلك المراكز يغترف فيها من مناهل العلوم الشرعية والأدبية على أيدي علماء عصره، وأثناء ذلك كان الرحالة يحاول أن يقيد مقابلاته مع العلماء في مختلف تلك البلدان التي مر بها، بالإضافة إلى أنه كان يحاول أن يسجل مشاهداته فيها أو التي عاش فيها بعض الوقت.

وقد حفلت تلك الرحلات بأنباء الفقهاء المشهورين والأولياء وأصحاب الكرامات، لأن الغرض كان دينيا، وكثر ذكر أسماء المزارات والمساجد والمشاهد الدينية المشهورة. وقد لقيت كتاباتهم إقبالا كبيرا من قبل القراء لتغلب الروح الدينية عليها بالإضافة إلى ما كانت تتميز به كتاباتهم من إثارة وتسلية

ولهذا أيضا ركز الكتاب على الجوانب الدينية وأهملوا بقية المظاهر الأخرى في المجتمعات التي مروا بها، كالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والمعالم الطبيعية في كثير من الأحيان. وقد ركز العديد من هؤلاء الكتاب على كل ما يثير القراء من

عجائب وغرائب، وبخاصة كل ما تعلق منها بالدين لجلب إعجاب جمهور القراء وتماشيا مع التفكير الديني السطحي السائد آنذاك.

أما الرحلة من أجل العلم والتعلم فكانت أحد أهم أهداف الرحالة المغاربة في توجههم إلى المشرق، "فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال."(ابن خلدون ،ع. د.ت.: 541.)

يذكر أحد الكتاب الموريتانيين ما كانت تمثله الرحلة لديهم منذ العصور الأولى لظهور الإسلام على أنها مثلت لدى الشناقطة "مشغلا رئيسا وحاجة ملحاحة استدعتها حياة البدو والارتحال وموقع البعدة والإنتباذ، وزادت من رواجها قساوة الطبيعة والتشبث بالعلم والتمسك بالدين، فخرج القوم من أوطانهم يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، آمّين البيت الحرام، ملتمسين الإجازات والأسانيد، فرجعوا إلى أهليهم بموفور المال ونفيس الكتاب وعالي السند، مدونين تجاربهم العلمية في رحلات حجازية قاربت العشرين."(بن المجدوب، م. 2007: 374.)

وبناء على محتويات أغلب الرحلات، يمكن حصر محتوياتها في موضوعين اثنين رئيسيين أو حقلين معرفيين هما:

- أولهما الأدب والشعر.
- ثانيهما الفقه والتصوف والتاريخ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتختلف قيمة الملاحظات التي تحتويها الرحلة تبعا لاهتمام صاحب الرحلة . وهذه الملاحظات عبارة عن رواية من شاهد عيان حقيقي . منهم من يسجل المعلومات الجغرافية عن المناطق التي زارها، ومنهم من يكتفي بتدوين ما يتعلق بالأماكن المقدسة وتعريف الناس بالمسالك التي يقطعها الحاج و ما ينبغي الحذر منه في الطريق.

وهناك من يسجل كل مشاهداته المختلفة الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية إلى جانب النواحي الدينية.

القيمة التاريخية للرحلات

تعطي الرحلة مهما كانت، نوعا من التاريخ يمكن استغلاله حين الحاجة . فالرحالة عندما يذكرون الملوك و رجال السلطة، ويتحدثون عن طريقة حكمهم، ويعالجون بعض الأحداث التي شاهدوها أو أُخبروا بها، ويذكرون العلماء الذين

التقوا بهم أو سمعوا عنهم وعن إنتاجهم ومدارسهم، وعن المدن وبناياتها والعمران وهندسته، ويتعرضون للأحداث كالثورات والمجاعات والحروب، فهم إنما يكتبون تاريخا بشكل من الأشكال.

وهم لا يكتفون بالتاريخ الرسمي، بل يتحدثون عن المجتمع وعاداته وتقاليده ومعيشة أفراده، وهم بهذا يغطون جانبا مهما من حياة الشعوب وهو الحياة الاجتماعية والثقافية التي تتحاشاها الكتابات التاريخية القديمة إلى حد كبير.

والرحّالة عندما يح دثنا عن الرجال الذين التقى بهم، ينتقل بعد ذلك إلى استعراض تاريخهم وتاريخ بلدانهم، وبهذا يتم التطرق للتاريخ وللأحداث المختلفة

فالرحالة ليسوا وسطاء، بل هم شهود عيان؛ وبالتالي فهم أحد المصادر التي تُعتمد في الدراسات والبحوث المعاصرة.

يذكر أحد الدارسين لرحلة الورتلاني رأيه في الدور التاريخي لهذه الرحلة، وهو ينطبق على مجمل الرحلات العربية بين المشرق والمغرب، ويقول : "مهما يكن من عيوب في الرحلة من حيث الخلط والتكرار وكثرة الاقتباس غير المنظم من طرف المؤلف، والفراغات والتحريفات الكثيرة من طرف الناسخين لها؛ فإن الرحلة تحتوي على معلومات تاريخية ذات أهمية غير قليلة، خلف لنا صاحبها شهادة تامة عن الحالة الثقافية والاجتماعية، وحتى الاقتصادية والسياسية والدينية، ليس فقط في المغرب العربي بل وحتى في المشرق العربي؛ فأعطى صورة حية عن الكيفية التي كان الناس يعيشون عليها، وعن أحوال البلاد الداخلية في كل من الجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز لفترة زمنية معتبرة."(فيلالي، م. 1978 : 77.)

وهكذا فرحلة ابن **جبير** مثلا التي وُضِعت سنة 581هـ/1185م، بعد عودة صاحبها إلى الأندلس، تُحدثنا عن العديد مما رآه ابن جبير في الحجاز والعراق والشام، فقد حدثنا عن الموصل وجوانب الحياة فيها، ولاسيما خطط المدينة ومحلاتها ومساجدها ومجالسها العلمية . وتم التركيز على إبراز أهم الملامح الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.(ذنون طه ،ع. 2005 : 86.)

أما الرحالة ابن **بطوطة** المتوفى سنة 779هـ/1378م، فقد جال عددا من أقطار العالم القديم، وكتب عن مشاهداته، فأفاد الجغرافيا والتاريخ والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمران وغير ذلك من العلوم المختلفة. ومن أجل الاستفادة من

رحلته "قام بعض المستشرقين بنشر أجزاء منها وترجمتها إلى اللغات الأوربية، ونشروا أبحاثا مستفيضة عنها. ولم يُقَصِّر الباحثون العرب الذين تناولوا هذه الرحلة من جوانب مختلفة ... كذلك جرت دراسة عدد كبير من الأقاليم التي تمت الرحلة إليها من خلال معطيات هذه الرحلة، وما قدمه ابن بطوطة في هذا المجال ."(ذنون طه، ع: 189.)

يقول المحقق محمد أبو الأجفان عن رحلة **القلصادي** المتوفى سنة 891هـ/1486م، بعد أن يذكر اعتماد المترجمين لِعُلماء القرن التاسع الهجري على ما ورد فيها عن الأعلام الذين اتصل بهم القلصادي، يضيف أن هذه الرحلة "تعد وثيقة من الوثائق التي تصور نشاط العلماء وطرقهم في التدريس والتعليم وكتبهم التي يتداولونها، وفنون المعرفة التي يطرقونها، وآدابهم عند التلقي، وتفاوت مراتبهم في درجات العلم... ومكانتهم في مجتمعاتهم"(القلصادي، ع. 1985: 73.)

وأحمد **المَقّري** المتوفى سنة 1041هـ/1631م صاحب كتاب "نفح الطيب.." كتب هو أيضا رحلة عنوانها: "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق "، تتضمن معلومات هامة "تتعلق بحياة المقري الشخصية في تلمسان والمغرب الأقصى ومصر والشام والحجاز، ويعالج الحياة الثقافية والأدبية في عصر المؤلف، وهو يتضمن في نفس الوقت معلومات تاريخية عن بلاد المغرب وأرض الحجاز واليمن، وبعض القضايا الفقهية والعقّدية وغير ذلك."(المقري ،أ. 2004: 9)

أما **الورتلاني** المتوفى سنة 1194هـ/1780م، صاحب كتاب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "، فتحتوي رحلته على مادة تاريخية هامة تمس البلدان التي زارها في المغرب والمشرق على السواء وبخاصة ما يتعلق بحياة الناس اليومية. من ذلك حديثه عن الظلم الذي كان يلاقيه سكان البلاد العربية كلها من الحكم العثماني التركي مغربا ومشرقا، وهي فترة تقل فيها الوثائق التاريخية خلال القرن الثامن عشر، ومنها الأوضاع المختلفة التي كانت تعيشها البلدان التي زارها في طريقه إلى الحج.(الورتلاني ح. 1908.) وبما أن الحسين الورتلاني كان صوفيا فقد أظهر تعلقه بهذا المذهب، وأسهب في الحديث عن ظاهرة الطرق الصوفية وذكر الأولياء الصالحين في البلاد التي زارها وبخاصة مصر . وهذا ما يدلنا على انتشار الظاهرة في زمن الورتلاني وشدة اعتقاد الكثير من العلماء فيها في ذلك العصر .

يقول عنه أبو القاسم الحفناوي في هذا المجال : "هو العلامة العالم العامل، العلامة الكامل الأستاذ الهُمام شيخ مشايخ الإسلام، الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق وكنز الدقائق.."(الحفناوي، م. 1985 : 139).

وعن أهمية هذه الرحلة تاريخيا ، يذكر المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله أن رحلة الورتلاني "تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي؛ فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال. وقد كان تكرار حجه وإتقانه للعربية ومعرفته بعادات الشرق والغرب قد جعلت الورتلاني حَكَما مُنصِفا على العصر وأهله في كثير من المناسبات، وقد يكون من المفيد للتاريخ أن نعثر على كناشاته التي كان يسجل فيها ملاحظاته أو على النسخة الأصلية المملاة من الرحلة."(سعد الله أ. 1985. 412.)

كما نجد مذكرات الأوربي **تيدني** التي كتبها سنة 1785م في عهد محمد بن عثمان باشا الملقب بمحمد الكبير باي معسكر، والذي بقي في خدمته في القصر مدة ثلاثة أعوام وسبعة أشهر، "وكان تيدنا يرافق سيده الباي في كل تنقلاته . وعلى هذا الأساس تعتبر مذكراته مصدرا هاما وفريدا من نوعه، لأنه عَرَّفَ نا بسلوك هذا الباي محمد الكبير وبنظام حكمه.(حميدة، ع. 2003 : 34.)

وهي تعتبر بالتالي وثيقة لمؤرخ فترة الحكم العثماني خلال القرن الثامن عشر . وقد كانت مذكراته دقيقة الوصف . "فقد عَرَّفنا تيدنا بمهمة الخزندار، وأعطانا صورَةً كاملةً عن المحلة وطريقة تنظيم الخ يام عند الإنزال والانطلاق . كما أنه أعطانا صورة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية وألوانها ."(حميدة، ع . 2003: 138- 139.) وتكاد تكون مذكراته الوحيدة التي تعطينا معلومات عن المنطقة الغربية من الجزائر في القرن الثامن عشر.

ورحلة ابن **حمادوش** من الرحلات المفيدة تاريخيا وفي غير ذلك من العلوم وبخاصة منها العلوم الطبية بصفته تحدث عن علوم الطب . يذكر أبو القاسم سعد الله المحقق فائدة الرحلة بقوله : " وإذا كان علماء المسلمين قد اهتموا برحلة ابن حمادوش لما فيها من أخبار سياسية أو دينية أو اجتماعية، فإن العلماء الأوربيين قد اه تموا بآثاره العلمية على الخصوص."(ابن حمادوش، ع. 1983 : 11.) لقد جال ابن

حمادوش مدنا عديدة في بلاد الجزائر والمغرب، وكتب عنها وعن العلماء الذين التقى بهم، كما تحدث عن العديد من حكام الجزائر والمغرب وتونس، وبخاصة منهم الباشوات في الجزائر. كما تعرض لجزء من تا ريخ الدولة الأموية والعباسية، وذكر بعضا من خلفاء بني العباس. وتحدث عن بعض الثورات التي وقعت في عهده. منها ثورة زواوة التي جرت في ربيع الأول من سنة 1158هـ على القايد محمد قايد سباو، مما أدى إلى القضاء على ثورتهم وتشتيت شملهم بواسطة عدد من الصبايحية ونحو مائتين من اليولداش.(ابن حمادوش، ع. 1983: 163)، ومنها حديثه عن ثورة الباشا أحمد بن علي الريفي قايد تطوان، على مولاي عبد الله في فاس المتوفى سنة 1156، وقد شهد بنفسه هته الحرب الأهلية بالمغرب الأقصى حتى كاد يذهب هو ضحية لها .(نفسه، 75.) والمعروف أن ابن حمادوش عا ش في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي

أما **محمد السنوسي** صاحب الرحلة الحجازية بأجزائها الثلاثة، فيحدثنا عن الأقطار التي زارها في طريق ذهابه ثم عودته من البلاد المقدسة، وعن العلماء ورجال السلطة الذين التقى بهم. من ذلك أنه التقى بالأمير عبد القادر الجزائري وهو آنذاك في دمشق- 1300هـ/1883م- واستعرض المؤلف بعض الأحداث التي عاشها الأمير أثناء تواجده في الجزائر ومقاومته للاستعمار الفرنسي اعتمادا على ما سمعه من الأمير حينا ومن أبنائه حينا آخر.(السنوسي م. 1978: ج: 3. 114- 149. كما تحدث عن البلدان التي زارها كإيطاليا وبعض مدنها وبعض شخصياتها المشهورة وعن العديد من البلدان العربية المشرقية وأعلامها.

وتهتم بعض الدول في عصرنا بتاريخها المسجل في الرحلات، وتبذل جهودا كبيرة من أجل الوصول إلى ذلك الكنز الثمين الذي لم يسجله أهله . وها هي دولة العربية السعودية تقيم سنويا ندوة علمية لخدمة تاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية . تقوم بذلك مؤسسة مستقلة تدعى "الدارة"، والتي تأسست بموجب مرسوم ملكي سنة 1392هـ/1972م. جاء في أحد بيانات هذه المؤسسة أن "كتابات الرحالة عن شبه الج زيرة العربية، تعد، مصدرا من المصادر التاريخية المهمة، وتمثل سجلا شاملا ومادة علمية تساعد الباحثين في التعرف على جوانب كثيرة من تاريخها ." باعتبار المنطقة مصدر جذب للرحالة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمبعوثين قصد الدراسة أو تقديم تقارير عن أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية...

وفي الإمارات العربية أعلن المثقف محمد السويدي عن مشروع ارتياد الآفاق، الهادف إلى رفع راية الإرث الأدبي والثقافي للرحالة العرب والمسلمين، ومن أبو ظبي انطلق المشروع مطلع سنة 2001 نحو كل أقطار العالم للبحث عن كل مخطوطة تروي رحلة حاج وتاجر ومغامر ومستشرق. والهدف الأساس هو نفض الغبار عن تراث عربي عريق أهمل لزمن طويل.

من هذين المثالين تتضح أهمية الرحلة وقيمتها في التاريخ وعن مدى الاستفادة منها لإضاءة جزء من تاريخ بلد من البلدان، وبخاصة في بعض فترات التاريخ التي تندر فيها الكتابات المدونة.

إن الرحلات ليست تاريخا بحد ذاتها، ولكنها تمس التاريخ وتكتب فيه، وقد تعطي تفاصيل لا يعطيها المؤرخ، وإذا كانت تفاصيل بعضها تغطي الجوانب الاجتماعية للأمم والشعوب أكثر من بقية الجوانب؛ فإن هذا لا ينفي تعرضها للجوانب السياسية والاقتصادية وغيرها.

وتشترك الرحلات فيما بينها في مواضيع م عينة، وهي ذكر الأعلام الذين التقى بهم صاحب الرحلة. والرحالة كلهم من رجال العلم والثقافة، فلابد أن يكتبوا عن أمثالهم، فهم الأعرف بكل ما يحيط حياتهم، لأنهم ينتمون إلى الفئة نفسها . وبما أن جُل الرحالة انتقلوا من المغرب إلى المشرق بغرض أداء فريضة الحج وزيارة ا لمواقع المقدسة، فإنهم يشتركون في الحديث عن التاريخ الإسلامي وبخاصة منه العهد الأول.

وتشترك الرحلات أيضا في ذكر المدن التي مر بها الرحالة وذكر حياة سكانها وعاداتهم وتقاليدهم والأحداث المشاهَدَة.

أما الاختلاف الأساس فهو تماشي محتويات الرحلة وتوجهات صاحبها، و تأثير العصر والأفكار السائدة، لذلك نجد العديد من هؤلاء الذين يركزون على ظاهرة التصوف والحديث عن المتصوفة هم أنفسهم من مريدي الطرق الصوفية في أغلب الأحوال.

لقد بدأت الرحلة كعمل تلقائي لا يخضع لأية شروط علمية معينة، الهدف من تسجيلها ذاتي، يتعلق بصاحبها؛ حيث يذكر مشاهداته ويعبر عن شعوره مما لقيه ورآه، وقد يستغل ذلك ليعبر عن آرائه ومذهبه؛ لتصبح اليوم من أهم المصادر المعتمدة للكتابة عن شعب من الشعوب أو شخص من الأشخاص في فترة معينة وفي مكان معين.

المراجع المعتمدة:

- **القرآن الكريم**
- **ابن حمادوش الجزائري عبد الرزاق** (1983)، الرحلة، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- **ابن خلدون عبد الرحمن**(بدون تاريخ)، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- **أرسلان شكيب** (2004)، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- **بروكلمان كارل** (1968)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط: 5، بيروت.
- **بنعبدالله عبد العزيز** (2001)، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار ن شر المعرفة، الرباط.
- **الحفناوي أبو القاسم محمد**(1985)، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة، بيروت.
- **خصباك شاكر**(1988)، في الجغرافيا العربية، دار الحداثة، بيروت.
- **دنون طه عبد الواحد** (2005)، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلا مي والمشرق، دار المدار الإسلامي، بيروت.
- **رياض زاهر**(1965)، استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- **سعد الله أبو القاسم** ،(1985) تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- **سعد الله أبو القاسم**، (1992.) الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- **السنوسي محمد**(1978)، الرحلة الحجازية، تحقيق علي شنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس. - **علي مبارك**، الخطط الجديدة لمصر القاهرة، الجزء الرابع.
- **العياشي عبد الله** (1316)هـ في رحلته ماء الموائد، الج زء الثاني، تصحيح وتنقيح خليل بن صالح الحسيني الخالدي، المطبعة الحجرية.

- **الغزالي أبو حامد محمد** ،(1347هـ) إحياء علوم الدين، الجزء الأول، مطبعة الحلبي وأولاده بمصر.
- **المقري أحمد أبو العباس**(2004)، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن معمر، نشر مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع بسيدي بلباس الجزائر.
- **الورتلاني الحسين،** (1908) نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح محمد بن أبي شنب، مطبعة بير فونتانا، الجزائر.

مقالات:

- **بن المحبوب محمذن بن أحمد** (1428هـ/2007م) ، الحضور المكي في الذاكرة الشنقيطية، مجلة التاريخ العربي، العدد: 39، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط المملكة المغربية.
- **العزيفي محمد رضوان**(2006)، المغرب القديم في الآداب الفينيقية —قراءة جديدة في رحلة حنون، منشورات كلية الآداب وال علوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص ص: (183- 218.)
- **فيلالي مختار بن الطاهر**)1978)، رحلة الورتلاني- عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة الجزائر.
- **محمد مرزاق**(1999)، صور من الرحلة العياشية عن مظاهر التأثر والتأثير بين المغرب والمشرق العربيين في المجال الثقافي، أعمال ندوتي مارس 1994 ونوفمبر 1997، حول : " المغرب والمشرق: العلاقات والصور " ، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص ص: (297- 312.)

رسائل جامعية:

- **بوسماحة عبد الحميد** (2005/2004.)، المسير في تغريبة بني هلال، أطروحة دكتوراه دولة مخطوطة، قسم اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر.
- **لمين مبارك**(2001- 2002.)، الرحلة العلمية الأندلسية إلى المشرق، دكتوراه دولة مخطوطة بكلية الآداب بتطوان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجالية المغاربية في العالم من خلال رحلة ابن بطوطة

الدكتور محمد الشريف،

كلية الآداب، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان/ المغرب.

اتجهت أنظار المؤرخين مؤخرا للبحث عن الأعلام المغربية في البلاد المشرقية ، مستغلين ما تزخر به كتب التراجم المشرقية من معلومات بخصوص هذا الموضوع ، واعتبر الأستاذ محمد بن شريفة أن "تجريد التراجم المغربية واستخراجها من كتب الطبقات المشرقية عمل مطلوب ، لأن من شأنه أن يقربها إلى الباحثين ويبرزها أمام أنظارهم .(بن شريفة ، م. 1966 : 3 ، الصادقي ، ح. 1989 ، : 292 - 316 ، المقري، ب.1966.)

_ ونود في هذه الدراسة البحث في موضوع "الجالية المغاربية " المنبثة في المشرق الإسلامي وفي بقية المناطق التي زارها ابن بطوطة ، آملين أن تسهم في إلقاء بعض الضوء على جانب من جوانب التواصل الحضاري بين أقطار العالم الإسلامي زمن الرحالة ابن بطوطة اللواتي الطنجي. وقبل ذلك لا بد من إبداء ملاحظتين :

إننا نستعمل كلمة "مغاربة" للدلالة على أعلام الغرب الإسلامي برمته، أي منطقة بلاد المغرب (المغرب وتونس والجزائر) والأندلس. وهذا الاستعمال الواسع لكلمة "مغربي" يجد تبريره في كونه يتمشى وما كان يقصده الرحالة والمؤرخون العرب الذين ترجموا أو كتبوا عن الأعلام الأندلسية والمغربية في بلاد المشرق . فالمصادر لا تقيم تمييزا واضحا بين الأندلسيين والمغاربة (مغاربة المغرب الأقصى) ولا بين هؤلاء وسكان المغربين الأوسط والأدنى، ويبدو أن جميع الذين جاؤوا من الأندلس أو من أقطار المغرب قد عرفوا بـ "المغاربة" بشكل عام بالنسبة للمشارقة على مختلف فئاتهم .(أحمد ، ع . 1989 : 131.) وهذا الخلط نجده على لسان ابن بطوطة نفسه في هذه الفقرة المعبرة التي جمع فيها ثلاثة نعوت من الغرب الإسلامي لأحد مرافقيه في رحلته : "كان معي الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربي الغرناطي البجائي المولد".(ابن بطوطة، 1963 : 463).

رغم قوة ذاكرته لا يتذكر ابن بطوطة أسماء كثير من الأعلام المغاربة ، بما في ذلك من تولى وظائف مهمة ، مثل "قاضي قضاة المالكية "(ابن بطوطة، 1963 :

73- 74). وبطبيعة الحال لا نتوخى ملء فراغات الرحلة، لأن "حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال" حسب شهادة المقرى (المقري، أ،ج2. 1988 : 5) ، ولا نروم تفصيل ترجمة الشخصيات التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته، أو البحث عن وجودها التاريخي وتوثيقه، وإنما نهدف إبراز دور "الجالية المغربية " وبعض وظائفها في المجتمعات التي زارها ابن بطوطة، متبعين تقسيما جغرافيا على منوا ل سير خط الرحلة نفسها.

المغاربة في البلاد المصرية

لقد جلبت مصر المغاربة والأندلسيين منذ فترة طويلة لوقوعها على الطريق الرئيسي للحج، ولوفرة خيراتها ولكونها أصبحت من أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث العشر الميلادي مستقر السلطان والخليفة والحـ اشية من الحكام ورجال الدولة، فـ آوى إليها الأندلسيون والمغاربة بشكل مميز وملحوظ . (أحمد، ع. 1989 : 92). ولا غرابة أن وجدنا كثيرا من المغاربة يتخذونها مستقرا لهم، يزاولون بها مختلف الوظائف والأنشطة . من ذلك مثلا وظيفة القضاء التي تولاها بالإسكندرية وجيه الدين الصنهاجي "المشتهر بالعلم والفضل"(ابن بطوطة، 1963 : 24). كما استقر بها كثير من المتصوفة المغاربة ، أو دفنوا بترابها . فأبو الحسن الشاذلي الذي "كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر"(ابن بطوطة، 1963 : 25- 26.) قد ترك تلاميذ كثيرين له بالبلاد المصرية . ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي الذي كان تلميذا لأبي العباس المرسي، "وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي"(ابن بطوطة، 1963 : 25.). بل إن تأثيره كان عميقا في الحياة الروحية للمصريين . فقد أورد لنا ابن بطوطة "حزب البحر المنسوب إليه" كاملا. ويذكر أن هذا الحزب وأوراد المتصوف المغربي كانت تقرأ بمدرسة تقي الدين بن السراج بمدينة هو بساحل النيل. (ابن بطوطة، 1963 : 51). أما الشيخ أبو عبد الله الفاسي فكان من الصالحين بالأسكندرية و "من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته ". (ابن بطوطة، 1963 : 24).

ومن المتصوفة المغاربة من أسسوا لهم زوايا بمصر ، وخاصة بمدينة قوص التي اعتبرها ابن جبير "ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل

ARCHIVE

بهم(ابن جبير، 1980: 40- 41) ، منهم الشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي الذي كان "صاحب زاوية بقوص" (ابن جبير، 1980: 52) في فترة مرور ابن بطوطة بمدينة أسنا. والفقيه برهان الدين الأندلسي الذي كانت له "زاوية عالية" هناك (ابن جبير، 1980: 52).

كما استوطن مصر علماء مغاربة واعتبروا من أعيانها ، أمثال برهان الدين الصفاقسي ، وركن الدين بن القويع التونسي - (هو رك ن الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل القرشي الجعفري التونسي المالكي المعروف بابن القويع، ولد بتونس في 7 رمضان 664 وتوفي بالقاهرة في ليلة الاثنين 17 من ذي الحجة سنة 738 كان "مشهورا بالعلم، مذكورا بالفضيلة التام ة، قوي الذهن مناظرا " انظر : السالمي ، أبو المعالي ، 1982 ، ج1: 234 – 235، ذكره المقري، ب ، : 182)- الذي كان "من الأئمة في المعقولات"(ابن بطوطة، 1963: 46) ، وأثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي " (العلامة الأستاذ .. عني بالطلب والرواية، وبرع في علم العربية، وصنف فيها التصانيف.. قرأ عليه أكابر أهل العلم، وطال عمره وبعد صيته، ودرس التفسير بالجامع الطولوني، وقبة المنصور ودرس فيها للمحدثين أيضا ، وانتفع به جماعة، وجمع في التفسير كتابا كبيرا، مولده سنة 654، ووفاته سنة 745، انظر : السالمي ، أبو المعالي . 1982، ج1: 282 – 284 ذكره بدر المقري .) ،"وهو أعلمهم بالنحو".

ولقي ابن بطوطة بمدينة عيذاب سنة 726هـ / 1325 شيخا مغربيا مسنا يدعى محمد المراكشي، كان يزعم "أنه ابن المرتضى، ملك مراكش ، وأن سنه خمس وتسعون سنة".(ابن بطوطة، 1963: 53). تتبع ابن عذاري في صفحات مؤثرة نهاية الخليفة المرتضى ومقتله ومصير أبنائه، فقد كان أبو دبوس "ثقفهم طول مدته إلى أن أخرجهم الأمير يوسف من ثقافهم في عام 668.. ولما أخرجهم أبو يوسف من السجن توجهوا إلى الأندلس وحصلوا عند الفنش باشبيلية أعواما عديدة ثم انتقلوا منها إلى غرناطة وحصلوا تحت طاعة أميرها، وهم الآن بها في عافية بمرتبات شهرية يقبضونها في كل شهر.. أما أخوهم أبو زيد فوصل من الأندلس إلى السوس على حمارة قسمته العوام أبو حمارة وذلك في عام أربعة وثمانين وستمائة، وهو الآن

بقيد الحياة في جبل سكساوة يعيش من النسخ، وأخوهم محمد بغرناطة في وقتنا هذا وهو عام اثني عشر وسبعمائة"، (ابن عذاري، 1985 : 447)

إن الرحلة التي تزودنا بإشارات عديدة عن أفراد متفرقين لا تلقي الأضواء بما فيه الكفاية على "الجالية المغربية" بمصر، باستثناء تحدث ابن بطوطة عن "المغاربة" بصيغة الجمع في آخر رحلته، عندما وصل تونس في طريق عودته إلى المغرب، فقد استقبله السلطان المريني أبو الحسن الذي كان قد فشل في حملته بإفريقية، وسأله عن ابن تيفراجين(هو الوزير الحفصي الشهير، انضم إلى صفوف بني مرين بعد وفاة السلطان أبي يحيى الحفصي سنة 747هـ 1346م ومقتل الأمير أبي العباس الوارث الشرعي للعرش على يد أخيه أبي حفص عمر، حيث مكث الوزير المذكور في خدمة أبي الحسن إلى أن ثار العرب على هذا الأخير وحاربوه بنواحي القيروان، آنذاك ترك المرينيين وانظم من جديد إلى صف القبائل العربية، انظر : الفاسي، أ. 1996 : 145 - 155) ، "فأخبرته - يقول ابن بطوطة- بما فعله المغاربة معه وإرادتهم قتله بالإسكندرية، وما لقي من إذايتهم انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن"(ابن بطوطة. 1963 : 656).

المغاربة بمنطقة الحجاز

استقطب الحجاز بفضل مكانته الدينية الكبيرة أفواجا كبيرة من المغاربة الذين حركتهم الدوافع الدينية والروحية، قبل غيرها من ال دوافع، لزيارة المناطق المقدسة أو الاستقرار بها نهائيا. وتقدم كتب التراجم معلومات إضافية عن المغاربة الذين حجوا أو رحلوا إلى المشرق للدراسة أو التجارة، ونجد برحلة ابن بطوطة معلومات قيمة عن هذا الموضوع . فهو يورد لنا أسماء مجموعة من الأعلام الذين التقاهم بالح ج، مثل "وزير غرناطة وكبيرها ، أبو القاسم محمد ابن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي". (ابن بطوطة. 1963 : 122)

ويقدم لنا صاحب الرحلة لائحة بأسماء جماعة من شمال المغرب، من طنجة والقصر الكبير والقصر الصغير، وصلوا من مصر في منتصف دي القعدة 428هـ / 1327م مع الأمير سيف الدين يلملك للحج، ذكر منهم : الفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله، والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضري ، والفقيه أبو عبد الله المرسي ، وأبو العباس ابن الفقيه أبي علي البلنسي ، وأبو محمد ابن القابلة ، وأبو الحسن

البياري، وأبو العباس بن نافوت، وأبو الصبر أيوب الفخار، وأحمد بن حكامة. ومن أهل القصر المجاز : الفقيه أبو زيد عبد الرحمان ابن القاضي أبي العباس ابن مخلوف. ومن أهل القصر الكبير : الفقيه أبو محمد بن مسلم، وأبو اسحاق إبراهيم بن يحيى وولده"(ابن بطوطة. 1963 : 241).

وفي معرض حديثه عن المجاورين بالمدينة الشريفة سنة 728هـ يورد أسماء عدة مغاربة منهم : الشيخ الصالح العابد سعد المراكشي الكفيف، وأبو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي، أبو محمد الشروي، الذي كان "من القراء المحسنين [...] وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر، وأم في التراويح".

كما جاور بها "أح د الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلي بن حجر الأموي "، قبل أن يرحل إلى مدينة دلهي ، قاعدة بلاد الهند في سنة 743هـ / 1342م(ابن بطوطة . 1963 : 127). أما الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الغرناطي المعروف بالتراس، فقد كان قديم المجاورة، ومن خدام المسجد الشريف وله حكاية طريفة تدل على مدى ورعه وتقواه ، مفادها أنه "جب نفسه [أي خصى نفسه] خوفا من الفتنة" بعد أن راودته زوجة أحد شيوخه ، وخشي الوقوع في الفتنة، وبعد علاجه "صار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به، ورأس الطائفتين، وهو باق بقيد الحياة إلى هذا العهد"(ابن بطوطة. 1963 : 121- 122).

أما المجاورون بمكة من المغاربة فنذكر منهم "الفقيه الصالح الزاهد " أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري ، من أهل ثغر طنجة، وكانت بينه وبين والد رحالتنا "صحبة قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة - يقول ابن بطوطة- نزل عندنا "، وكان "من كبار الصالحين، جاور بمك ة أعواما وبها وفاته "، وكان "له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع "(ابن بطوطة . 1963 : 153- 154). وبنفس الرباط سكن المجاور المغربي الآخر أبو العباس الغماري، من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله، وقد وصفه ابن بطوطة بـ "الصالح المبارك". كما جاور بها "الصالح" أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة، وكان خديما للشيخين المذكورين. فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما . ومنهم "الصالح السائح السالك" أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني(ابن بطوطة . 1963 : 154) ، وأبو محمد عبد الله بن فرحان الإفريقي التوزري، وحسن ابن عم هذا الأخير، وأبو

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

العباس أحمد الأندلسي الواد آشي (ابن بطوطة . 1963 : 146). وآخر مجاور بمكة يورده ابن بطوطة هو حسن المغربي، أصله من مدينة آسفي، وقد جن وأصبح "أمره غريب وشأنه عجيب"، وكان قبل ذلك صحيح العقل خديما لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته(ابن بطوطة. 1963 : 157- 158).

ومن لم يجاور رابطَ بالرباطات المنتشرة هناك، مثل رباط الموفق، بمقربة من باب إبراهيم، أحد أبواب المسجد الحرام، "وهو من أحسن الرباطات، سكنته –يقول ابن بطوطة- أيام مجاورتي بمكة المعظمة". وكان به ذلك العهد "الشيخ الصالح" أبو عبد الله الزواوي المغربي، وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي "من كبار الصالحين". دخلت عليه يوما فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير، فقلت له في ذلك، فقال لي : استر علي ما رأيت"(ابن بطوطة. 1963 : 140).

لكن نشاط المغاربة الذين وجدوا بالحجاز لم يقتصر على المجاورة والمرابطة والحج، وإنما لعبوا أدوارا أخرى ، مثل القضاء والتدريس والإمامة والتجارة "ولما انقضى الحج توجهت إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند، فلم يقض لي ذلك ولا تأتي لي رفيق، وأقمت بجدة نحو أربعين يوما، وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي يروم السفر إلى القصير من عمالة قوص .." (ابن بطوطة.1963 : 281).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فمن القضاة نذكر الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون التونسي الذي كان ينوب عن سراج الدين عمر المصري قاضي المدينة الشريفة طيبة، والذي "أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ". ويؤكد ابن بطوطة أن أبناء الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون كانت لهم مكانة مرموقة بالمدينة الشريفة بعد وفاة أبيهم، أبو محمد عبد الله الذي كان "مدرس المالكية، ونائب الحكم"، وأبو عبد الله محمد.(ابن بطوطة.1963 : 120- 121).

كما امتهن بعض المغاربة الإمامة ووصلوا إلى مراتب في التراتبية الإدارية بالحجاز، مثال ذلك "إمام الموسم وإمام المالكية " بالحرم الشريف الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمان، وهو المشتهر بخليل، ويوضح لنا ابن بطوطة أن "أهله من بلاد الجريد من أفريقية، ويعرفون بها ببني حيون، وهم من كبارها، ومولده ومولد أبيه

بمكة [...] وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدها وقطبها بإجماع الطوائف على ذلك"(ابن بطوطة.1963 : 150)..

ويبدو أن بعض المغاربة لم يتورع عن الانخراط في الصراعات الإيديولوجية هناك، مما له عواقب وخيمة عليهم، مثال ذلك ما يورده ابن بطوطة عن أبي العباس الفاسي "مدرس المالكية " بالمدينة الشريفة، و "المتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي "، فقد "تكلم يوما مع بعض الناس، فانتهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها، بسبب جهله بعلم الأنساب وعدم حف ظه للسانه، مركبا صعبا [...] فبلغ كلامه إلى أمير المدينة [...] فأنكر كلامه [...] فنفاه عن المدينة [...] ويذكر أنه بعث من اغتاله، وإلى الآن لم يظهر له أثر "(ابن بطوطة .1963 : 123-124).

المغاربة في العراق وفي بلاد الشام

شكل العراق ، حيث مدينة بغداد والموصل وغيرهم ا من الحواضر الإسلامية العريقة، إحدى المحطات الرئيسية للمغاربة في المشرق العربي، وذلك قبل تخريب بغداد على أيدي المغول سنة 656هـ / 1258م. وباستثناء إشارات قليلة لا نجد في الرحلة ما يدل على حضور مغربي متميز في هذه المنطقة. إن الوصف الذي يقدمه ابن بطوطة عن العراق يفيد أنها لم تكن قد بر أت بعد من تخريب المغول لها، ومن المعطيات القليلة التي يوردها ابن بطوطة عن المغاربة هناك ما يذكره عن أبي عبد الله محمد بن جابر الأندلسي المروي الكفيف، الذي قصد سلطان ماردين مادحا ، فأعطاه عشرين ألف درهم، وحسب ابن بطوطة لم يكن "بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه"(ابن بطوطة.1963 : 238). وليس مستبعدا أن يكون قد قصده شعراء مغاربة آخرون، وفي طريق عودته من الشرق الأقصى مارا ببغداد ، يخبرنا أنه وصلها في شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ولقي بها بعض المغاربة الذين أخبروه بكائنة طريف، واستيلاء الروم على الخضراء (ابن بطوطة.1963 : 649). وفي معرض حديثه عن نقيب الأشراف أبو غرة بن سالم الحسيني المدني ومنزلته لدى ملك العراق، يذكرنا ابن بطوطة أن لهذا النقيب أخا اسمه "قاسم، سكن غرناطة مدة، وبها تزوج بنت الشريف أبي عبد الله بن إبراهيم الشهير بالمكي، ثم انتقل إلى جبل

طارق، فسكنه إلى أن استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء [...] وترك ولدين هما في كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي، الشهير ببلاد المغرب وبالعراق، وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما، وهو محسن لهما"(ابن بطوطة.1963 : 128).

وباستثناء هذه الإشارات المقتضبة عن الوجود المغربي في العراق، فإن الرحلة تمدنا بمعلومات لا بأس بها عن وجودهم بأرض الشام.

استهوت مدينة بيت المقدس وغيرها من حواضر فلسطين قلوب كثيرة من المغاربة انطلاقا من المكانة الدينية والإرث الحضاري والديني لبيت المقدس، "ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرجه إلى السماء"(ابن بطوطة.1963 : 57)..

ولقد أثبتت بعض الدراسات المختصة عمق التأثير المغربي في الحياة العامة لبلاد الشام خلال العصر الوسيط : "إن الأندلسيين المغاربة كونوا جالية كبيرة العدد، متنوعة الاختصاصات، توزع أفرادها بحسبها، وشاركوا في جميع شؤون الحياة العامة ووجوهها، بحيث لم يخل مكان ولا مجال منهم . وقد عبروا في كثير من الأحيان عن عمق صدقهم وتفانيهم في الأعمال التي أوكلت إليهم، وغدوا في أحيان كثيرة أيضا معلمين وروادا في ميادين اختصاصاتهم، وترك بعضهم آثارا علمية خالدة في عدد من العلوم . كما عبرت مجموعة منهم عن حس عربي إسلامي، ترجموه إلى حقيقة وفعل، عندما وقفوا مدافعين عن العروبة والإسلام مضحين بأنفسهم أحيانا، وبأموالهم أحيانا أخرى"(أحمد، ع. 1989 : 281).

وعلا صيت المغاربة بالشام بفضل الخدمات الجليلة والتضحيات التي كانوا يقدمونها، حتى أن عموم الشاميين لم يبقوا غير مبالين بهم، خاصة لحاجتهم لخبرتهم العسكرية وشجاعتهم وروح التضحية التي تميزوا بها (انظر مثلا: ابن جبير ،1980 : 35 يتحدث عن "أنجاد من المغاربة البحريين" وكذلك، علي ، أ. 1989 : 302 – 309

Pouzet, L.1977). ومن المؤكد أن اشتراك المغاربة بالحرب ضد الصليبيين هناك قد عمق من اعتناء حكام المنطقة وسكانها بشأنهم، فقد كان المغاربة "في مقدمة المتحمسين للدفاع عن أرض الشام وكرامة العرب والمسلمين فيها ضد

الصليبيين وغيرهم" بل إنهم "كانوا في أحيان كثيرة أشد اندفاعا وحرصا من أهل البلاد الأصليين " حسب شهادة مختص (أحمد، ع.1989:307- 309). ويروي ابن جبير بهذا الصدد أن "من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها يعينها في افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل. فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل"(ابن جبير، 1980 : 280).

ومن المؤكد أن هذا الاهتمام بأمر المغاربة لم يقتصر على الأوساط الشعبية والميسورة من المجتمع الشامي، وإنما شاركت فيه بنصيب وافر السلطات العليا للبلاد. فقد بلغ اهتمام نور الدين زنكي بأمر المغاربة القادمين إلى الشام حدا وصل إلى أنه فضلهم على أهل البلاد المحليين . إذ يروي ابن جبير عنه ، أنه اهتم بفك الأسرى منهم قبل أسرى الشام بقوله : "وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه، أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم".(ابن جبير، 1980 : 280)

وهذا الاهتمام الكبير بالمغاربة كانت توازي ه سياسة تقوم على توفير السبل المادية الكفيلة بجلبهم وتشجيعهم على الاستقرار . فمن مناقب نور الدين زنكي التي يوردها ابن جبير كذلك "أنه كان عين للمغاربة الغرباء . الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين . وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، وهو أبو الحسن علي بن سردال الجياني المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربي يغل، إذا كان النظر فيه جيدا، خمس مئة دينار في العام"(ابن جبير، 1980 : 257).

ويبدو أن المغاربة لقوا عناية مميزة إلى حد كبير من جميع حكام بلاد الشام في مختلف الفترات والأوقات، إذ انتقلت عادة مساعدة المغاربة والاهتمام بشؤونهم

العامة إلى الأيوبيين . ولم يتوقف الاهتمام بهم أو يقل على عهد المماليك بدليل ما سجله ابن بطوطة بهذا الخصوص : "وأهل دمشق [...] يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد (ابن بطوطة، 1963 : 104) ، وقد جاء على لسان ابن بطوطة أنه "كان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر (دينكز) يسمى عماد الدين القيصراني من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه، وأضافه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته، وكان يلازمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره"(ابن بطوطة، 1963 : 105- 106).

ولابن بطوطة علاقة عائلية بدمشق يحكيها لنا في معرض حديثه عن عودته من جولاته بالشرق الأقصى بهذه العبارات:

"ثم سافرنا ... إلى مدينة دمشق الشام، وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة، وكنت تركت بها زوجة حاملا، وتعرفت وأنا ببلاد الهند، أنها ولدت ولدا ذكرا، فبعثت حينئذ إلى جده للأم، وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينارا ذهبيا هنديا، فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي، فدخلت المسجد فوفق لي نور الدين السخاوي إمام المالكية وكبيرهم [...] وسألته عن الولد، فقال: مات منذ اثنتي عشرة سنة، وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية، فسرت إليه لأسأله عن والدي وأهلي، ..." (ابن بطوطة، 1963 : 650).

ومن المؤكد أن عدد المغاربة ببلاد الشام كان كبيرا ومن المحتمل أنهم انتظموا في هيئة ما بدليل أن ابن بطوطة يشير إلى "شيخ المغاربة بالقدس " الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي ابن بطوطة، 1963 : 653).

إن ظروف الاستقرار بهذه المنطقة وعلى رأسها فرص الشغل كانت متوفرة نسبيا كما يستدل من فقرة أوردها ابن بطوطة مباشرة بعد كلامه عن اعتناء أهل دمشق بالمغاربة الوافدين عليهم :

"وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه، فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية

بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة، فله أسباب أخر من حراسة بستان، أو أمانة طاحونة، أو كفالة صبي ان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك " (ابن بطوطة، 1963 : 105).

ومن الصعوبة إثبات أن المغاربة هم المعنيون بهذه الشهادة البطوطية، فشهادة مشابهة لها وصلتنا على لسان الرحالة ابن جبير، وربما يكون ابن بطوطة قد استحضرها في هذا المقام، يقول ابن جبير عن أحد الأعيان المرابطين الفارين من المغرب الموحدي والمستقرين بالربوة من منطقة الشام :

"والأمين فيها [أي الربوة] الآن من بقية المرابطين المسوفيين ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك [...] وهو م تسم بالخير ومرتسم به، وهو متعلق بسبب من أسباب البر في إيواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعايش من إمامة مسجد أو سكن بمدرسة، تجري عليه فيه النفقة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع، يجبي إليه فيها رزقه، أو حضور في قراءة سبع، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه، ويجري عليه بما يقوم به من أوقافه، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه، فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه"(ابن جبير. 1980 : 250).

واشتغل المغاربة بالنشاط التجاري ببلاد الشام وربطوا علاقات تجارية مع مختلف المناطق مثل يوسف بن يحيى بن اسحاق السبتي المغربي الطبيب الذي اشتغل بالتجارة لدى وصوله إلى الشام في أوائل القرن السابع الهجري، ووصل تجارته إلى العراق وفارس والهند، وحصل على ثروة كبيرة، صرف قسما منها على شراء أرض بمدينة حلب، ابتنى عليها دارا لتعليم الطب ومداواة الناس (أحمد، ع . 1989 : 247). ومنحت السلطات الشامية امتيازات تجارية خاصة للجالية المغربية. يخبرنا ابن بطوطة بخصوص مدينة قطيا أن "بها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود [...] ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر ببراءة من الشام، احتياطا

على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين [...] وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين أستاذ الدار اقماري من خيار الأمراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي، وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف، وهو يعرف المغاربة وبلادهم، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد لئلا يلبس عليهم، فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا"(ابن بطوطة. 1963 : 54).

ومن المرجح أن يكون تخفيض المكو س على المغاربة بشكل مميز عن بقية التجار الشاميين والمصريين، هو إجراء استهدف من ورائه حكام المماليك تحقيق رواح تجارتهم بعد طردهم للصليبيين من الشام، ومنع البابوية تجار أوربا من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع دول المماليك ابن بطوطة، 1963 : 54).

ومهما تكن الأهمية التي لعبها المغاربة في الحياة الاقتصادية والعسكرية لبلاد الشام، فإن ميدان التدريس والقضاء جلب بدوره عددا كبيرا منهم، فقد كان من نتائج التخريب التتاري لبغداد في النص الثاني من القرن السابع أن تركزت الحركة العلمية في دمشق التي أضحت مركزا علميا للشرق كل ه. وتكاثرت المدارس في بلاد الشام وأدى ذلك إلى زيادة الطلب على المدرسين والعلماء، فكان نصيب المغاربة كبيرا إلى حد ما، خصوصا وأن التدريس بالمدارس كان مقابل رواتب كبيرة، فقد كان بدمشق لوحدها ثلاث مدارس للمالكية حسب شهادة ابن بطوطة "وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصمصامية. وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للأحكام، والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي، والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر" ابن بطوطة، 1963 : 97).

ومن المعلوم أن إحدى الوظائف الرئيسية للمدارس في الشرق الإسلام ي كما في غربه تتمثل في تهيؤ المرشحين لتولي المناصب والوظائف المدنية والدينية والقضائية، وإحياء السنة ومحاربة التأثيرات الدينية المتطرفة (الشيعية بالخصوص) أو المضادة للمذهب الرسمي للدولة. وقد كان المغاربة يؤيدون إلى حد بعيد مثل هذا التوجه في السياسة التعليمية.

وتمدنا كتب التراجم المشرقية بلائحة كبيرة للمدرسين المغاربة ببلاد الشام، ومن مدرسي المالكية الذين ذكرهم ابن بطوطة "شيخ الخانقاه [الزاوية] الكريمة

أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس " ابن بطوطة، 1963 : 59). وصدر الدين الغماري ابن بطوطة، 1963 : 110).

ومن بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ابن بطوطة بدمشق وأجازوه سنة 726هـ يذكر "الشيخ المعمر" شهاب الدين أحمد الصالحي الحجازي الذي سمع منه جميع صحيح الإمام البخاري بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزلي الإشبيلي الأص ل، الدمشقي ابن بطوطة، 1963 : 108).

وعلم الدين البرزلي هذا يعتبر "محدث الشام في القرن الثامن الهجري بلا منازع"(أحمد ،ع. 1989:285- 286) ، وقد عمل خلال فترة وجوده الطويلة بمدينة دمشق بالتدريس في عدة مدارس وتخرج عليه كثيرون، كما تولى إفتاء دار العدل وناب في القضاء عن البلقاني . ومن تلامذته الذين أخذوا عنه وأتموا عمله، كان الذهبي المعاصر له المحدث المؤرخ وابن كثير.

ومن بين المعالم التاريخية التي أثارت انتباه الرحالة المغربي ببلاد الشام نجد الجامع الأموي الذي ابتناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك . فوصفه بشكل مستفيض، ووقف عند أسماء المدرسين والمعلمين به وعلى لائحة أئمته حسب مذهبهم، ومنهم إمام المالكية "أبو عمر بن الوليد ابن الحاج التجيبي القرطبي الأصل الغرناطي المولد نزيل دمشق" وهو الذي كان "يتناوب الإمامة مع أخيه " ابن بطوطة، 1963 : 93).

ومن المعلوم "أن الزاوية المالكية بالجامع الأموي الكبير كانت إمامتها مقتصرة على الأندلسيين المغاربة "(أحمد ، ع . 1989:157). ومن المرجح أن تكون أسرة التجيبي قد احتكرت هذا المنصب لفترة طويلة. ففي سنة 684هـ - 1285م تسلم منصب الإمامة بالزاوية المالكية بالجامع الأموي، محمد بن أحمد بن الحاج التجيبي القرطبي ثم الغرناطي المالكي. ويبدو أن منصب الإمامة في الزاوية المالكية بجامع دمشق الكبير، كان باستطاعته أن يورث . فالإمام التجيبي خلفه ولده عبد الله المدعو أبو محمد والملقب بفخر الدين المولود في غرناطة سنة 675هـ / 1276م، وظل إماما للمالكية بدمشق فترة لا بأس بها من الزمن انتهت بوفاته سنة 743هـ / 1323م. ويظهر أن أبا عمر بن الوليد ابن الحاج التجيبي القرطبي الذي كان يشغل

هذا المنصب في عهد دخول ابن بطوطة لدمشق سنة 726هـ / 1325م. ينحدر من هذه الأسرة. إن لم يكن هو نفسه الذي تشير إليه كتب التراجم المشرقية باسم أبي محمد والملقب بفخر الدين.

كما اشتغل المغاربة بالميدان القضائي وخاصة القضاء حسب المذهب المالكي، فقد استحدث منصب قاضي قضاة المالكية بمدينة دمشق لأول مرة سنة 664هـ / 1266م(أحمد، ع. 1989: 298). كما أن استحداثه في كثير من المدن الشامية الأخرى كبيت المقدس وحلب وحماة وغيرها، يدل على وجود جالية مغربية أندلسية تستحق استحداث منصب كهذا. ويشير ابن بطوطة في رحلته لشرف الدين خطيب الفيوم وقاضي المالكية بدمشق مؤكدا أن "النائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي، ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية" (ابن بطوطة. 1963: 94).

واستقطبت الزوايا والخوانق كثيرا من المغاربة ذوي الميولات الصوفية والزهدية أو الميالين للمرابطة. ولقد شجعت السلطات المملوكية إقبال المغاربة على الزوايا والخوانق بفضل ما كانت تنفقه من أموال على تسيير هذه المراكز القائمين عليها. وأصبح بعض المغاربة من بين أقطاب الحركة الصوفية الشامية المشهورين. مثال ذلك الشيخان الصالحان سعيدا البجائي ويحيى السلاوي . وهما من أصحاب الولي الصالح عبد المحسن الإسكندراني بمدينة اللاذقية. فقد كانا بمسجد علاء الدين بن البهاء "أحد فضلاء الشام وكبرائها، صاحب الصدقات والمكارم"، وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر (ابن بطوطة. 1963: 80- 81).

ومن الأمور الطريفة التي يوردها ابن بطوطة ولها ارتباط بالمتصوفة المغاربة ببلاد الشام، أسطورة الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي وسياحته ببلاد الشام وكيف اشتغل بحراسة البساتين أو نسج الحصر والاقتيات بثمنها : "وقصدنا منها [بيروت] زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر، ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف، وقيل السلطان نور الدين ".(ابن بطوطة. 1963: 63).

المغاربة في بلاد الأرمن والأتراك

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تقل الإشارات للمغاربة في رحلة ابن بطوطة بعد مغادرته لبلاد الشام ودخوله بلاد الترك والأرمن، فالمعلومات المتعلقة بالوجود المغربي هناك لا تتعدى الإشارتين، إحداهما متعلقة بيهودي من الأندلس التقاه ابن بطوطة بمدينة المتجر. يقول:

"ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي، فسألته عن بلاده، فذكر أنه من الأندلس، وأنه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا، وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس، وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر، وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله "(ابن بطوطة، 1963: 329)، والثانية متعلقة بـ "رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر" سافر مع ابن بطوطة في البحر الأسود إلى مدينة القرم (ابن بطوطة، 1963: 321).

المغاربة في الشرق الأقصى

يبدأ الحضور المغربي يتكثف مع الاقتراب من بلاد الهند، ويشير ابن بطوطة إلى الحضور المغربي ضمن الحضور العربي عامة بالشرق الأقصى، ففي معرض وصفه لموكب خروج سلطان الهند والسند محمد شاه تغلق للعيدين يتطرق صاحب الرحلة لركوب قاضي القضاة "وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخرسانين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فيل، وجميع الغرباء عندهم يسمون الخرسانيين" (ابن بطوطة، 1963: 446).

ومن المؤكد أن أخبار مغرب الموحدين كانت قد وصلت إلى الهند والسند منذ فترة طويلة كما يستنتج من وصف ابن بطوطة للقائه بسلطان الهند والسند محمد شاه تغلق وما جرى بينهما من حديث ("ثم سألني عن بلادي، فقلت له : بلاد المغرب، فقال لي، بلاد عبد المؤمن؟، فقلت له : نعم" ابن بطوطة، 1963: 509).

ويفيدنا ابن بطوطة ببعض أوجه العلاقات بين المغاربة أنفسهم ببلاد الهند وارتباطهم ببعضهم البعض من خلال نموذج علي بن حجر الأموي، من أه ل غرناطة، الذي جاور بالمدينة قبل أن يرحل إلى مدينة دلهي قاعدة بلاد الهند في سنة 743هـ / 1342م، فنزل في جواري، وقدمه ابن بطوطة لملك الهند، الذي "أمر بإنزاله، وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب، [...] وأعطاه فرسا محلى السرج واللجام، وخلعة، وعين له مرتبا في كل يوم. وكان هناك فقيه طبيب من أهل غرناطة. ومولده ببجاية، يعرف

هنالك بجمال الدين المغربي، فصحبه علي بن حجر المذكور، وواعده أن يزوجه بنته، وأنزله بدويرة خارج داره" (ابن بطوطة، 1963:127- 128.)

ومع ذلك تبقى الأعلام المغربية التي التقاها ابن بطوطة في الشرق الأقصى قليلة، نذكر على سبيل المثال محمد المصمودي المغربي، وكان من الصالحين، سكن بنجالة من خر اسان قديما ومات بدلهي (ابن بطوطة، 1963:610). أبو الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربي الغرناطي البجائي المولد مستوطن بلاد الهند، "قدمها مع أبيه وله بها أولاد" (ابن بطوطة، 1963:463)، وسكن كذلك مدينة أجين بالصين(ابن بطوطة، 1963:57)، أو أبو محمد بن فرحان، رفيق ابن بطوطة في السفر، وكذا "رجل يسمى الحاج عليا " بجزيرة سيلان .(ابن بطوطة، 1963:586).

إلا أن تأثير بعض الشخصيات المغربية كان حاسما في تاريخ المنطقة، فمنهم من كان دوره كبيرا في التوجه الديني والمذهبي لبعض دولها، ومنهم من عظم مركزه وأصبح من كبار التجار والأغنياء بفضل حنكته وحسن تدبيره وسيرته والعلاقات الطيبة التي نسجها مع المجتمع المستقبل له، خاصة مع الفئات العليا منه، يمثل النموذج الأول أبو البركات البربري، ويمثل مولانا قوام الدين السبتي النموذج الثاني.

فأبو البركات البربري الذي "كان حافظا للقرآن العظيم، قد لعب دورا حاسما في اعتناق أهل جزر المديف للدين الإسلامي وللمذهب المالكي، فبغض النظر عن الطابع الأسطوري لرواية تخليص أهل الجزيرة من خطر ظل جاثما عليهم لفترة طويلة، فإن شهادة ابن بطوطة ثمينة بهذا الصدد :

"عرض المغربي [أبو البركات البربري] عليه [ملك جزر المالديف] الإسلام ورغبه فيه، فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر [...] فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للإسلام، فأسلم قبل تمام الشهر، وأسلم أهله وأولاده دولته [...] وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها، وأقام المغربي عندهم معظما، وتمذهبوا بمذهبه مذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه، وبنى مسجدا هو معروف باسمه، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب : أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي، وجعل ذلك السلطان

ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل، إذ كان إسلامه بسببهم ".(ابن بطوطة 578:1963).

إن ابن بطوطة الذي لم يكن على علم بهذا الأمر ولا انتهى إلى سمعه شيء منه قبل دخوله جزر المالديف، يورد خبره ويسنده إلى "الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم".

أما قوام الدين السبتي فيحدثنا ابن بطوطة عنه قائلا :

"وبينما أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني [شيخهم] إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم، فاستؤذن له علي، وقالوا : مولانا قوام الدين السبتي، فعجبت من اسمه، ودخل إلي، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لي أن أعرفه، فأطلت النظر إليه، فقال : أراك تنظر إلي نظر من يعرفني؟، فقلت له : من أي البلاد أنت؟ فقال : من سبتة. فقلت له : هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي : نعم!. دخلت حضرة دلهي، فلما قال لي ذلك تذكرت له، وقلت : أأنت البشري؟ قال : نعم. وكان وصل إلى دلهي مع خاله أبي القاسم المرسي، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه، من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ، وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره، فأعطاه ثلاث آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده، فأبى، وكان قصده في بلاد الصين، فعظم شأنه بها، واكتسب الأموال الطائلة".

ويتحدث عن ثروته الطائلة قائلا : "أخبرني أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجواري، وأهدي إلي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة [...] ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري أن سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو، مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة . وليس بها من المسلمين إلا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور، نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام" (ابن بطوطة، 637- 638:1963).

المغاربة في شرق إفريقيا وببلاد السودان

لا يمدنا ابن بطوطة بأسماء الأعلام المغاربة بشرق إفريقيا لكنه يقدم لنا معلومات قيمة من النمط الأنتروبولوجي بخصوص تأثير الوجود المغربي بهذه المنطقة الإفريقية. فبخصوص مدينة ظفار من بلاد السواحل يعتبر رحالتنا "من الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم. نزلت بدار الخطيب بمسجدها

الأعظم، وهو عيسى بن علي [...] فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب : إحداهن اسمها بخينه وأخرى زاد المال، ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها ".
ويستطرد قائلا : "وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة [...] وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب، وأكلهم الذرة، وهذا التشابه كله مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير" (ابن بطوطة، 261:1963).

ومن الطبيعي أن يكون الوجود المغربي ببلاد السودان الغربي كثيفا نظرا للعلاق ات التجارية والروحية التي ربطت المنطقتين منذ فترة طويلة.(الشريف،م.1996: 77- 91).

فقد انبثت الجالية المغربية ببلاد السودان إلى جانب الجاليات الأخرى وخاصة المصرية منها . ولعبت أدوارا كبيرة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والروحي للسودان الغربي. وشهادات ابن بطوطة حول هذا التواجد كثيرة . تجدر الإشارة إلى أنه نزل بسجلماسة وهو في طريقه إلى بلاد السودان عند الفقيه أبي محمد البشري، وهو الذي لقي أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين.(ابن بطوطة. 1963: 673).

ولعل من بين النصوص المعبرة عن كثافة الوجود المغربي ما يورده ابن بطوطة قبل وصوله إلى العاصمة : "كنت كتبت [...] لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين ابن النقويش المصري، ليكتروا لي دارا [...] وصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان [...] ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمدا فوجدته قد اكترى لي دارا إزاء داره ، فتوجهت إليها، وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد [...] وجاء علي الزودي المراكشي، وهو من الطلبة [...] وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان" (ابن بطوطة، 681:1963). ويورد أسماء مغاربة آخرين في نص مماثل : "ثم سرت إلى مدينة كوكو [...] وأقمت بها نحو شهر، وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة، وكان ظريفا مزاجا فاضلا [...] وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي، وهو ممن دخل اليمن، والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان".(ابن بطوطة.1963: 695- 696).

وترد أسماء التجار المغاربة كذلك بمدينة تكدا، "وصلنا إلى مدينة تك دا ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي، وأضافني قاضيها أبو

إبراهيم إسحاق الجاناتي، وهو من الأفاضل، وأضافني جعفر بن محمد المسوقي "(ابن بطوطة.1963:696)، وبمدينة إيوالاتن نزل ابن بطوطة بدار ابن بداء، "وهو رجل فاضل من أهل سلا"(ابن بطوطة، 1963:677) ، كما أنه خرج من مالي في الثاني والعشرين لمحرم سنة 754هـ ورافقه تاجر يعرف بأبي بكر بن يعقوب (ابن بطوطة . 1963:691). وبتكدا التقى بعلي أغيول "المغربي التادلي" الذي لم تكن علاقته مع ابن بطوطة طيبة بسبب خادمة(ابن بطوطة.1963:697). وعلى غرار الجالية المغربية ببلاد الشام التي كان لها شيخها، من المفترض أن الجالية المغربية ببلاد السودان كان منظمة كذلك بدليل وجود "شيخ المغاربة " بها .(ابن بطوطة .1963:653-696).

عبد الله بن فرحان الإفريقي التوزري : رفيق ابن بطوطة

لم يكن ابن بطوطة في تجواله الطويل وحيدا، وإنما كان غ البا ما يسافر مع الجماعة في قافلة تجار، أو سفينة مسافرين، أو ركب رسمي ... الخ، ومن بين الشخصيات المغربية التي صاحبته لفترة طويلة وجالت معه في الأصقاع المختلفة حتى ربطتهما صداقة حميمة على ما يظهر، نشير إلى عبد الله بن أبي بكر بن فرحان الإفريقي التوزري الذي ي عطيه ابن بطوطة صفة "رفيق " أو "صاحب "(ابن بطوطة .1963 : 282- 323- 324- 365- 586- 601). ويبدو أن ابن بطوطة كان يكن له كل الاحترام والتقدير ويصفه بـ "الفقيه المكرم ". فقد التقاه الأول مرة بمكة سنة 728هـ / 1327م (ابن بطوطة. 1963 : 146). وسافر معه إلى الشام (ابن بطوطة . 1963 : 282) ، وتوطدت العلاقات بين الرجلين المغربيين وجمعتهما كثير من المغامرات سواء في شبه الجزيرة الأنضولية ("ثم سافرنا من مغنيسية، وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم... وبات أصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة، فأتت نوبة الفقيه عفيف التوزري... [تهاون في الحراسة] و "ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه ". ابن بطوطة . 1963 : 305- 306) أو في الهند (ابن بطوطة. 1963:323) ، وطالت صحبتهما كما ينص على ذلك ابن بطوطة. "ولم يزل في صحبتي سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهند فتوفى بسندابور"(ابن بطوطة. 1963:282). بل إنهما زارا معا قدم آدم بجزيرة سيلان (ابن بطوطة . 1963:601). وكان من نتائج توطيد علاقة الرجلين تفضيل ابن بطوطة

لصديقه المغربي على غيره من رفاق الطريق في بعض مغامراته . مثال ذلك أن ابن بطوطة عندما عزم التوجه إلى مدينة السرا، حضرة السلطان محمد أوزبيك، جهز عربة لركوبه مغشاة باللبد، ومعه بها جارية له، وعربة صغيرة لرفيقه عفيف الدين التوزري، "وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب "(ابن بطوطة . 324:1963) وتتأكد حميمية العلاقة بين الرجلين مرة أخرى في سفرهما ما بين خوارزم وبخاري يقول ابن بطوطة: "ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة (- المحارة : نوع من المحامل يركب فيه اثنان من كل ناحية واحد يسمى عديلا) ، وكان عديلي بها عفيف الدين التوزري".(ابن بطوطة.1963 : 365).

عودة الطير إلى وكره

عاد ابن بطوطة إلى بلده المغرب واتخذ حضرة فاس مقرا ومستوطنا بعد رحلة دامت خمسة وعشرين عاما (اعتبر البعض أن رجوع ابن بطوطة لبلده المغرب الأقصى أمر جدير بالاهتمام في سيرته الذاتية، انظر :
(Ross E. 1996 : 46

فهل مرجع ذلك إلى أن ابن بطوطة ألقى عصا التسيار بالمغرب المريني، "بعد أن تحقق بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان " وأن "لها مزية الفضل " على غيرها من الأصقاع على المستوى الاقتصادي والسياسي؟ . يختم ابن بطوطة بعد مقارنته بين جودة وأسعار مواد غذائية في كل من المغرب والمشرق العربي، قائلا : "فإذا ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا، وأكثرها خيرات، وأعظمها مرافق وفوائد". ثم يردف قائلا : "ولقد زاد بلاد المغرب شرفا إلى شرفها وفضلا إلى فضلها إمامة مولانا أمير المؤمنين الذي مد ظلال الأمن في أقطارها، واطلع شمس العدل في أرجائها، وأفاض سحاب الإحسان في باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين ". مقدما بعض الأمثلة عن "عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم " (ابن بطوطة . 1963 : 658- 659). يجب أن نستحضر أن تدوين الرحلة قد تم بإيعاز من السلطة المرينية. وهذا يدل على أن تلك الأمثلة وغيرها قد صيغت تحت ضغط الإكراهات السياسية للبلاط المريني وتدخل مباشر من طرف الكاتب ابن جزي مدون الرحلة، الذي أوغل بدوره في المدح والتقريظ للسلطان المريني. نستبعد إذا أن تكون عودة ابن

بطوطة قد تحكم فيها الوضع الاقتصادي للمغرب المريني أو نظامه السياسي . إن الأمر يتعلق في تقديرنا بالنزعة الوطنية لابن بطوطة والارتباط بأرض المغرب والتعلق به.

وإذا كان ابن بطوطة الذي فارق وطنه "مفارقة الطيور للوكور "(ابن بطوطة . 1963:14) موجزا وشحيحا في وصفه لوطنه وللمغربين الأوسط والأدنى "كما لو أن هذه البلاد مجرد مناطق عبور إلى أماكنه الرغيبة" (حميش، ب. 1996 : 22) ، فإن شعوره الوطني يبدو بارزا من خلال استحضاره المكثف لرموز المغرب الطبيعية والاقتصادية والروحية والحضارية وذلك من أولى صفحات الرحلة إلى آخرها . فهو كثيرا ما يستحضر مدنه، وقراره (ابن بطوطة. 1963 : 319- 561). ولون تربته (ابن بطوطة . 1963 : 319- 628) ، وأوديته (ابن بطوطة . 1963 : 188- 350) ، ومميزات طبخه، وأنواعه (ابن بطوطة . 1963 : - 364- 366- 397- 409- 587) ، وموسيقاه (ابن بطوطة . 1963 : 232). وطقوس زواج نسائه (ابن بطوطة . 1963 : 248- 506)، وزواياه (ابن بطوطة . 1963 : 43). ومساجده (ابن بطوطة . 1963 : 380) ، ومدارسه(ابن بطوطة. 1963 : 389) ، ومعتقدات عامته(ابن بطوطة. 1963 : 559) ، وحكمه (ابن بطوطة. 1963 : 45). وثرواته الحيوانية والنباتية (ابن بطوطة. 1963 : 268- 328- 383- 559- 587)، ونقوده (ابن بطوطة. 1963 : 212- 181- 610- 208- 363- 399- 431- 521) ، وأوزانه(ابن بطوطة . 1963 : 211- 610- 651) ، ومكاييله (ابن بطوطة . 1963 : 470- 473- 505- 523) ، وشموعه (ابن بطوطة . 1963 : 388) ، وقطع سفنه (ابن بطوطة . 1963 : 400- 634) ، وفواكهه (ابن بطوطة . 1963 : 408) ، وسجونه (ابن بطوطة. 1963 : 581) ، وأثمنة سلعه(ابن بطوطة. 1963 : 628) ، وتنظيم منازله(ابن بطوطة . 1963 : 633) ، أي بعض من تلك المقومات ا لتي تميز أمة ما عن غيرها وتشكل "دار الإسلام " لم تكن متجانسة ثقافيا ولا سياسيا ولا إثنيا ولا حتى مذهبيا.

يظهر من خلال هذه النماذج لأفراد "الجالية المغربية " بالعالم الذي زاره الرحالة ابن بطوطة أن المغاربة علماء وتجارا وفقهاء ومتصوفة ومدرسين وشعراء وقضاة وأئمة ومجاهدين... كانوا ينسجون بصمت، إلى جانب أفراد الجاليات العربية الإسلامية

الأخرى، خطوط التواصل بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي آنذاك . وتبرز أهمية الأدوار التي اضطلعوا بها أكثر في أطراف العالم الإسلامي وفي المناطق الحدودية حيث لم يكن الإسلام قد تركز بعد (السودان، شرق إفريقيا، الهند، جزر المديف ...) فنشر الإسلام بهذه المناطق لم يكن عبارة عن ظاهرة دينية وثقافية محضة، وإنما حركة اجتماعية تقتضي هجرة الأفراد الأدباء وأصحاب المواهب والمتصوفة والتجار والفقهاء ... ومن المؤكد الآن –من خلال رحلة ابن بطوطة على الأقل- أن المغاربة كانت لهم مساهمة هامة في الشؤون العامة لتلك الدول وفي تطور العلوم الدينية في مجتمعات بعض تلك المناطق.

من جهة أخرى يتأكد لنا أن المغربي كان –وما يزال- بطبعه يحب السفر والمغامرة والبحث عن سبل العيش والفرص ولو في أقصى المعمور، مثبتا قدرته على الانخراط النشيط في المجتمعات والفضاءات الأخرى والتكيف السريع مع المتغيرات المجالية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهران في العصر الوسيط من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين.

د. عبيد بوداود ،

قسم التاريخ، جامعة معسكر.

تعتبر الكتب الجغرافية، وأدب الرحلة، من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون لا سيما المؤرخون منهم، لكتابة تاريخ أية مدينة إسلامية في العصر الوسيط، وذلك لما تحمله من معلومات عن المدينة، من حيث النشأة، والتطور، والوظيفة، وغيرها من الموضوعات، وإن كانت لا تؤدي الغرض لوحدها ما لم تعزز بمصادر أخرى، وما لم تتطور الحفريات والتنقيبات الأثرية

سجلت مدينة وهران حضورها في أغلب الكتابات الخاصة بالجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين، باعتبارها مدينة تأسست في أواخر القرن الثالث اله جري، وظلت محافظة على وجودها طيلة العصر الوسيط، رغم أنها لم تكن من الحواضر الكبرى التي قامت بأدوار سياسية مثل تيهرت، وقلعة بني حماد، وبجاية، وتلمسان.

نحاول في هذه المقالة، نقل ما كتبه أولئك الرحالة والجغرافيين عن مدينة وهران، من خلال المؤلفات التي تركوها، والإشارة إلى قيمة المعلومات التي أوردوها، محترمين التسلسل الزمني في عرضها.

ولنبدأ أولا بكتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي أبي القاسم محمد، وهو من أهل القرن الرابع الهجري، اختلف في تاريخ وفاته، فحدده الزركلي في الأعلام بسنة 367هـ. زار ابن حوقل المغرب الإس لامي، وكتب عن مدينة وهران بضعة أسطر، ومما جاء فيها :" ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى فقد كنفته الجبال، وله مدخل أمن، وعليها سور، وماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين، وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه، وفي حاضرتها دهقنة وحذق، وفيهم حمية مع الغريب وهي فرضة الأندلس إليها ترد السلاع ومنها يحملون الغلال . والغالب على باديتها البربر من يزداجة، وهم في وقتنا هذا في ضمن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي خليفة صاحب المغرب." (ابن حوقل، م.د ت: ق1، 77- 78).

على الرغم من هذا العرض الموجز، إلا أنه يحمل معلومات مركزة، وهي في غاية الأهمية، منها التنويه بأهمية مرفأ وهران، وأظنه يعني به ما يعرف اليوم بالمرسى الكبير، ودوره الريادي في حركة التبادل التجاري بين وهران، وموانئ الأندلس لاسيما الجنوبية الشرقية، والشرقية منها. ويبدو أن هذه الحركة كانت نشطة خلال القرن الرابع الهجري . كما أشار إلى أن مدينة وهران كانت تتزود بالماء من واد جار ينبع من خارجها، وظلت هذه المشكلة تؤرق سكان وهران خاصة بعد تراجع منسوب هذا الوادي، واضمحلاله تماما خلال القرن التاسع الهجري إن لم يكن قبله، وهذا ما دفع الولي إبراهيم التازي (ت 866هـ) إلى إنجاز مشروع ضخم لجلب المياه عبر قواديس من خارج المدينة، وهو ما عجزت عنه الدول التي تعاقبت على حكم وهران، وعد هذا من مآثره الكبيرة

النص الثاني هو لأبي عبيد البكري عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، ا لمتوفى سنة 487هـ، ضمن كتابه المسالك والممالك، ومما جاء فيه: " ومدينة وهران:حصينة ذات مياه سائحة، وأرحاء ماء وبساتين، ولها مسجد جامع، وبنى مدينة وهران:محمد بن أبي عون، ومحمد بن عدون، وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة ، وبني مسقن، وهم من أزداجة...سنة تسعين ومائتين فاستوطنوها سبعة أعوام ."(البكري، ع.2003: ج2، 252)

ثم تعرض إلى التخريب الذي طال مدينة وهران على الأقل في مناسبتين، المناسبة الأولى في شهر ذي الحجة سنة 297هـ، لخلاف بين مجموعة من القبائل، وبني مسقن، انتهى بإجلاء هذا القبيل منها، وأضرمت النار في مدينة وهران، وتعرضت للتخريب، ثم أعيد بناؤها سنة 298هـ بأمر من أبي حميد دواس بن صولات، وولى عليها داود بن صولات، محمد بن أبي عون، وعادت أحسن مما كانت عليه .

المناسبة الثانية، إيقاع يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بأزداجة سنة 343هـ، حيث دخلها، في ذي القعدة من نفس السنة المذكورة، وخربها، وأحرقها، وظلت كذلك مدة سنتين، ثم عاد الناس إليها، وبنيت من جديد. (البكري، ع.2003: ج2، 253)

إن هذا النص يؤكد الحقيقة التاريخية لبناء مدينة وهران، سواء ما تعلق منها بتاريخ التأسيس، أو الجماعة التي بادرت بهذا البناء، ودوافعها من وراء ذلك. كما

ARCHIVE

يؤكد مواجهة المدينة لعمليات التخريب التي طالتها، وقدرتها على الانبعاث من جديد. كما أن مسألة الماء التي أشرنا إليها سالفا، تتأكد هنا، وذلك بإقدام القبائل المحاصرة لمدينة وهران في المناسبة الأولى، من منع الماء على سكان المدينة، مما يؤكد على نقص الماء داخل المدينة، واضطرارها للتزود به من خارجها، وما يترتب على ذلك من أخطار.

أما صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وهو من أهل القرن السادس الهجري، فلم يضف إلى ما ذكره ابن حوقل، والبكري شيئا، اللهم إلا التنويه بأهمية المدينة حينما يقول: " وهي من أعز البلاد "، (مجهول. 1985 : 134) والتي قد تعني كذلك أنها منيعة حصينة، يصعب على العدو دخولها بسهولة . وهو أمر مسلم به بالنسبة لمدينة وهران، بسبب حصانتها الطبيعية، وهذا ما يجمع عليه الجغرافيين والرحالة.

ومن بين الرحالة الذين زاروا مد ينة وهران، الرحالة المغربي أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي، وهو من أهل القرن السابع الهجري. بدأ رحلته إلى بلاد المشرق سنة 681هـ، انطلاقا من وطنه حاحة جنوب المغرب الأقصى، مارا ببلاد المغرب الأوسط، حيث توقف ببعض مدنه، وقدم لها وصفا غلب عليه التحامل والمبالغة، خلف لنا كتابا يتضمن تفاصيل رحلته بعنوان:" ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى المشرق "، والمشهور اختصارا بالرحلة المغربية . قدم إلى مدينة وهران في طريق عودته من الرحلة التي قادته إلى بلاد الحجاز وفلسطين ومصر، ومن أهم ما ذكره بشأنها :" ثم مررنا على مدينة وهران، وهي مدينة مليحة حصينة برية بحرية، وهي من مراسي تلمسان، وأنظارها، ومتجر تلك النواحي . ولكنها لما طرقها من نوائب الدهر مطرقة، وجيوش الخطوب الملمة بها محدقة، قارعتها حتى قرعت ساحتها، ونافحتها بسموم الآفات حتى ذهبت صبحاتها، فألقت بيدها مستسلمة . وعادت بعد ضوئها مظلمة . لا وشل بها يشفي غلة . ولا طبا يداوي علة . انتثلها الزمان فلم يبق بها تقيا . وأبدلها الحدثان من كل بشارة نعيا، لا تلقى بها معمل يراعة. ولا ترى بها حلف براعة . بل خرس بها لسان التلاوة، وزيد بها حمار الجهل على الفودين علاوة . لم يطعموا العلم ولا ذاقوا له حلاوة . بل تبرؤوا منه

فكلهم فالج بن خلاوة . فيا عجبا لي أصف بالفناء وهران، كأني لم أر سكان تلمسان."(العبدري، م.1968 : 278).

إن العبدري هو الآخر يؤكد عل حصانة مدينة وهران، وعلى طابعها التجاري، باعتبارها مرفأ مهما للدولة الزيانية، لكنه في الم قابل يصف أوضاعها الثقافية والعلمية بالكساد والخمول . وهذا الأمر الأخير عممه العبدري على سائر مدن المغرب الأوسط، ولم يخص به مدينة وهران لوحدها . وقد نعتبر هذا الوصف مبالغ فيه، ولم يعكس الوضعية الثقافية والعلمية الحقيقة التي كانت عليها حواضر المغرب الأوسط.

أما محمد بن عبد المنعم الحميري، الذي عاش في القرن الثامن الهجري، فقد خلف لنا معجما جغرافيا رتبه على حروف المعجم بعنوان الروض المعطار في خبر الأقطار، قدم هو الآخر معلومات عن مدينة وهران مثل التأسيس، والخراب الذي طالها، وما تتوفر عليه من بساتين وغلاة ، سوف نتح اشى ذكر المعلومات التي أوردها الجغرافيين والرحالة السابقين، ونثبت النص الذي نرى أنه يتضمن بعض المعلومات الجديدة، حيث يذكر : " وعلى وهران سور تراب متقن، وبها أسواق وصنائع كثيرة، وتجارات نافقة، وهي تقابل مدينة ألمرية في ساحل بر الأندلس، وسعة البحر بينهما مجريا ن، ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس، ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا، ولها على ميلين منها المرسى الكبير، به ترسي السفن الكبار، وهو يستر من كل ريح، لا مثال له في المراسي ...وبها فواكه ممكنة، وأهلها في خصب، والعسل بها والسمن والزبد كثير، والبقر والغنم رخيصة ، والمراكب مختلفة إليها، وفي أهلها عزة أنفس ونخوة ."(الحميري، م. 1984 : 612- 613)

إن أهم ما يلفت الانتباه في هذا النص، الإشارة إلى خصوصية المرسى الكبير، وأهميته، واختصاصه باستقبال السفن الكبيرة الحجم، والرخاء الاقتصادي والاجتماعي الذي بات يعيشه سكان مدينة و هران، وتوفر المنتجات الحيوانية والنباتية، وكثرة الحركة التجارية بالمدينة، سواء بداخلها، أو بينها وبين المناطق الأخرى لا سيما الأندلس، التي كانت تعتمد في تأمين الكثير من حاجاتها على ما يصلها من مدينة وهران.

آخر ما سوف نعرضه، هو تقديم رحلة عبد الباسط بن خليل (844 هـ – 920 هـ / 1440م- 1514م) إلى زيارة طرابلس و المغربين الأدنى و الأوسط و الأندلس في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، هذه الرحلة التي قد نعتبرها آخر حلقة في سلسلة الرحلات المشرقية إلى المغرب الإسلامي و الأندلس . و لما لم يخلف لنا عبد الباسط بن خليل مؤلفا مستقلا خاصا بهذه الرحلة، فإن المعلومات عنها تم استقاؤها من خلال مؤلفه الضخم الموسوم بـ : "الروض الباسم في حواد ث العمر و التراجم"، الذي تتوفر منه نسخة مخطوطة بمكتبة الفاتيكان تحت رقم:AR728 وAR729 ، و أخرى بدار الكتب المصرية.

و بالنظر إلى الصعوبة في الحصول على هذا المؤلف المخطوط، ارتكزنا في تقديم هذه الرحلة انطلاقا من العمل الذي نشره روبير برونشفيك سنة 1936 بعنوان :"مذكرتي رحلتين غير منشورتين إلى شمال إفريقيا".

ولد عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي الحنفي زين الدين في ملطية يوم 11 رجب 844هـ/ 6 ديسمبر 1440 م، من أب معروف في تاريخ إدارة المماليك. و كان أبوه خليل بن شاهين الظاهري غرس الدين بدوره ابنا لأ حد سلاطين المماليك"، بدأ في حكم بارس باي ثم تألق بسرعة في المناصب، فقد تقلد وظيفة حاكم لكل من الإسكندرية، الكرك، صفد، القدس، ميليتان، حلب، دمشق حتى وصل إ لى منصب أمير الحج بداية من سنة 840 هـ/1437م، ثم تقلد منصب وزير.

لقد ألف هذا الموظف السامي المتوف ى في ربيع الثاني 873هـ/ نوفمبر 1468م كتابا مفيدا هو "زبدة كشف الممالك و بيان الطرق و المسالك "، وهو عبارة عن جدول سياسي و إداري لكل من مصر وسوريا والحجاز تحت حكم سلاطين المماليك ما بين القرنين 13و15م.

أما ابنه عبد الباسط فلم يتبع سيرة والده في الطريق الإداري إذ يبدو أنه وجد في التجارة وسيلة للكسب، وإن ذلك لم يمنعه من تثقيف نفسه بمزاولة العلوم الدينية والأدبية والطبية مما أكسبه بين معاصر يه سمعة مشرفة كقاضي حنفي و فقيه، توفي في سن الرابعة و السبعين بعد مرض صدري ألزمه الفراش لمدة سنة ونصف (ت 5 ربيع الثاني 920هـ/ 30 ماي 1514م).

قام في شبابه برحلة قادته إلى الغرب الإسلامي، كان مقصده دراسة الطب على يد المشايخ المشهورين في المغرب، زار خلال بضع سنوات كل من دولة الحفصيين، وبني عبد الواد، وبني نصر.

انطلق من الإسكندرية في شوال 866هـ/جويلية 1462م على متن باخرة بندقية، ثم مر برودس ونزل بعدها بتونس العاصمة يوم 22 ذي العقدة 866 هـ/18 أوت 1462، بعد 33 يوما متواصلة من الإبحار.

في 15 ربيع الثاني 870هـ/ 5 ديسمبر 1465 أقلع من وهران بإتجاه الأندلس على متن باخرة جنوية كبيرة، وخلال شهرين ونصف زار مالقة، وغرناطة عاصمة النصريين، ثم إثر إصابته بجرح من قبل أحد أعدائه المتربصين به رجع قافلا إلى بلاده.

ما بين 01 رجب 870هـ/17 فبراير 1466، و11 ربيع الأول 871هـ/21 أكتوبر 1466 م مكث بوهران ليتعافى كلية من الجرح. وصل إلى الإسكندرية يوم 5 شوال 871هـ/10ماي 1467م.

لم يكن في رحلته هذه وحيدا إذ كانت برفقته زوجته المسماة شكر باي التي ولدت له في المغرب بنتين غير أنه لم يتسن له تربيتهما، إذ ولدت إحداهن شبه ميتة، والأخرى التي ولدت بتلمسان فقد توفيت بالقاهرة، و هي لم تبلغ سن الخامسة، وكان أبوهما متعلقا بهما أشد التعلق، وقد افتقدهما بمرارة، كما كان بصحبته عبيده، وكان من بينهم أسير مسلم اشتراه من تونس وتعلق به هذا الأسير وتبعه. وحينما كانت تتاح له الفرصة، كان يتاجر في العبيد، ومما سهل عليه ذلك كثرة تنقلاته. غير أن التجارة التي كانت تدر عليه أرباحا طائلة هي تجارة السلع، فكان مثلا يبيع القطن الذي يجلب من مصر، كما كان يشتري ويبيع بعض المنتجات المغاربية، وقد مكنه هذا التبادل التجاري من الاحتكاك بالوسط التجاري في مختلف المناطق التي أقام فيها: ففي تونس العاصمة مثلا كانت معظم مخالطاته لجماعة تجار الأندلس المتمركزين في الساحة، وحول هؤلاء التجار كان يلتف كثير من الأندلسيين الطلبة والشعراء والمثقفين من جميع المشارب الذين كانت تجتذبهم عاصمة الحفصيين منذ أكثر من قرنين، فحيثما حل كانت دائرة علاقاته واسعة للغاية و متنوعة، فلم يقتصر تعامله على رجال الأعمال بل تعداهم إلى

رجال الأدب، ولم يكتف بالتعاطي مع السماسرة بل شمل الفقهاء، وقد تساوت في الحفاوة به كل هذه الأصناف من الناس . و هكذا فقد كان في الوقت ذاته يوفق بين نشاطاته التجارية ومتابعة الدروس ، فقد كان يكسب قوته و قوت أهله كما كان يتثقف من اتصالاته الجديدة، لقد كان يفضل متابعة دروس الطب، وهذا لم يمنعه من الاستماع إلى دروس مشاهير العلماء، وذلك لتطور معارفه في القضاء و الشريعة. ولا ننس أيضا أنه كان شاعرا، فبهذا الصدد كانت له اتصالات بشخصيات مهمة مما وفر له تخفيضا للرسوم عن تجارته، بل وفي بعض الأحيان استفاد من منح و مساكن مكافأة له على قصائد المدح التي كان يوجهها إليهم

إن كتاب عبد الباسط لم يصلنا كاملا دفعة واحدة، و إنما وجد ضمن قسمين طويلين مكونين من مخطوطين لمكتبة الفاتيكا ن ((AR729- AR728 يصل المخطوط رقم 728 إلى غاية سنة 850هـ / 46- 1447م، بينما يتراوح المخطوط رقم 729 بين سنتي 865هـ / 60- 1461 إلى سنة 874هـ / 1469 – 1470. ويحتوي هذا الأخير على مقاطع من السيرة الذاتية الخاصة بسفر المؤلف إلى الغرب الإسلامي. وقد ذكر فيدا ((vida إنه قد كتب مخطوطه بيده، فقد كان جار كتابة هذا المؤلف خلال سنة 888 هـ / 1483 م كما ورد في الورقة b48 (سنة 867 هـ).

إن الرحلة إلى المغرب و الأندلس لا تشكل في هذا النص التاريخي كلا متواصلا، و إنما كان المؤلف في سياق ذكر حوادث تاريخية عامة يورد ذكرياته الشخصية، أو يذكر حوادث عاينها أو عايشها خلال تنقلاته . و إن الحصول على شيء منسجم اقتضى استخراج عدد من المقاطع المحددة من الوقائع التاريخية و ضم بعضها إلى بعض، و هذا ما أمكن من إعادة تشكيل الرحلة بمراحلها و تواريخها وأحداثها. لقد نشر ليفي دي لافيدا الجزء المتعلق بمرحلة "الأندلس" مع ترجمة إيطالية، وكذلك المقاطع المتعلقة بليبيا. وقد قام روبير برونشفيك بنشر القسم الأطول المتعلق بتونس والجزائر، والذي على ضوئه، نحاول أن نتعرف على ما دونه من معلومات تخص مدينة وهران.

يذكر الرحالة أنه دخل مدينة وهران يوم 27 ربيع الثاني 868هـ، قادما إليها من تلمسان، ونزل بمكان لم يحدده قرب زاوية الشيخ إبراهيم التازي، ومن كبار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العلماء الذين لقيهم بالزاوية، واستفاد منهم، شيخ الزاوية أبي العباس أحمد بن العباس المالكي مفتي وهران، حيث وصفه بالإمام العالم العامل، والشيخ سليمان الحميدي، وقال بشأن هذين العالمين:" وهما من كبار أهل العلم والفضل بهذه البلدة، فاستفت منهما، وحضرت الكثير من دروسهما"(Brunschvicg, R. 1936 : 46)

وفي موضع آخر يصف الوليمة العظيمة التي أقامها خطيب مدينة وهران في شعبان سنة 868هـ، بمناسبة ختم ابنه القرآن الكريم، حيث حضرها أعيان المدينة، وأكل منها كما يقول غالب أهل البلد، واستفاد كل من إمام زاوية إبراهيم التازي، الشيخ عبد الرحمان بن عزوز، وفقيه المكتب الذي اعتنى بتحفيظ هذا الولد القرآن، من مكافأة مالية فاقت المائة دينار ذهبا لكل منهما، كل دينار زنته مثقالا. (Brunschvicg, R. 1936 : 47)

كما يفيدنا الرحالة في التعرف على أمور عديدة، منها مقدم عبد الله بن عبد الرحمان، ولد صاحب الأشغال بالدولة الزيانية من تلمسان إلى وهران، يوم 14 رجب سنة 870هـ، لاستخلاص العشر من السلع القادمة على تجار وهران من المراكب الإفرنجية، وهو ما يؤكد على حيوية النشاط التجاري بالمدينة، ودوره في تدعيم خزينة الدولة. كما يسمي لنا المشرف على مدينة وهران آنذاك، وهو محمد الزكاجي، الذي كانت بيده كل شؤون المدينة. (Brunschvicg, R. 1936 : 59-60)

وفي أمور التجارة دائما، يذكر قدوم سفينة كبيرة على ساحل مدينة وهران يوم 29 صفر سنة 871هـ، وهي لجنويين، جاءت من البحر المحيط، وبالتحديد من فلندا، ونواحيها كما يذكر، وقد استقلها العديد من تجار وهران وتلمسان للسفر فيها إلى البلاد التونسية. (Brunschvicg, R. 193667 :)

كما ينقل لنا التدابير التي اتخذها سكان ضواحي مدينة وهران، وذلك بالتحصن داخل المدينة بعدما لاحت في أفق ساحل المدينة أربعة مراكب للفرنج اعتقد أنها حملة عسكرية إفرنجية، لكنه تبين فيما بعد أن لا علاقة لها بذلك الأمر، وكان ذلك في أواخر شعبان سنة 870هـ. (60- 61 Brunschvicg, R. 1936 : 46).

وهذا ما يكشف عن الجو المتوتر في العلاقة بين دول المغرب الإسلامي آنذاك، والدول الأوربية، وبداية ممارسة القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

إن هذه النتف التي نقلناها من هذا المصدر النفيس، تؤكد عل أهميته، في التأريخ لمدينة وهران، وغيرها من مناطق المغرب الأوسط، خصوصا في الثلث الأخير من القرن التاسع الهجري، الذي يعاني من شح في المصادر.

إن المصادر الجغرافية، بما في ذلك كتب الرحلة، قد تساهم في كتابة تاريخ أي مدينة، لكن لا أعتقد أنها كافية لوحدها ما لم تعزز بمصادر أخرى . إن مدينة وهران سجلت حضورها في أغلب المصنفات الجغرافية، وظلت قائمة منذ أن تأسست تقريبا وطيلة العصر الوسيط، لأنها تتوفر على مقومات البقاء وا لاستمرار، وشكلت حصانتها الطبيعية، ومرساها المتميز، وإطلالها على البحر من أهم عوامل قوتها وحيويتها.

قائمة المصادر والمراجع:

ابن حوقل النصيبي أبو القاسم محمد .(دون تاريخ)، كتاب صورة الأرض، ط 2، بيروت، دار صادر.

البكري أبو عبيد عبد الله .(2003)، المسالك والمم الك، تحقيق جمال طلبة، ط 1، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،

مجهول،(1985). كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب)، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء دار النشر المغربية.

العبدري الحيحي أبو عبد ا لله محمد بن محمد .(1968). الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط.

الحميري محمد عبد المنعم .(1984). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان.

Brunschvicg ,Robert (1936). *Deux Récits de voyage inédits en Afrique du Nord au xve siècle.* Abdalbasit B-Halil et Adorne , paris ve. la rose.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المهاجرون المغاربة بروما خلال العهد القديم

أ. صندوق ستي،

قسم التاريخ، جامعة معسكر.

عرفت بلاد المغرب القديم نوعين من الهجرة ، الهجرة الداخلية القائمة أساسا على تنق ل الأفراد والقبائل بقطعانهم بحثا عن الماء والكلأ اللازمين للأنعام، وكانت هذه حالهم منذ العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ، كما نسجل تحركهم بين مقاطعات المغرب القديم (إفريقية البروقنصلية، نوميديا، موريطانيا القيصرية والطنجية)، والهجرة الخارجية نحو الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط، إذ عثر على نقوش كتابية لمغاربة بكل من شبه الجزيرة الإيبرية، روما وحتى بمقاطعات بعيدة كمقاطعة الدانوب، إذ عثر بهذه الأخيرة على نقشية لتاجر من مدينة وليلي (Volubilis) يعود تاريخها إلى عهد الإمبراطور كلاوديوس « Claudius» (41/45م).(Euzennat,M.1979 :123)

ومن ضمن كل هذا، ارتأينا التركيز على المهاجرين المغاربة الذين اختاروا الإقامة بعاصمة الإمبراطورية الرومانية بصفة مؤقتة أو دائمة. ولدراسة هذه الظاهرة الاجتماعية في العهد القديم، كان لزاما العودة إلى النصوص الأدبية، إلا أننا استدمنا بضآلة المعلومات التي تقدمها بشأن العناصر الأجنبية عن المجتمع الروماني، لكن بالرغم من ذلك، فقد احتفظت لنا بأخبار أقدم مهاجر، أتى على ذكره المؤرخ تيتوس لفيوس «Titus Livius » خلال نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وهو القائد موتيناس « Muttinès » وهو في الأصل من مدينة بنزرت (Hippo Diarrhytus) ، وكان قد حارب في صفوف جيش حنبعل خلال الحرب البونية الثانية (218/201ق.م)، قبل أن ينقلب عليه ويسلم مدينة أغريغنتي (Agrigente) الصقلية للقوات الرومانية التي كانت بقيادة القنصل فالوريوس ليفينوس (Valerius Laevinus) ، والذي كوفئ بمنحه حق المواطنة الرومانية سنة 201 قبل الميلاد، بعد أن توسط له هذا الأخير، وحمل بذلك اسم فالوريوس موتيناس « Valerius Muttinès » وعين بمجلس الشيوخ، كما كان على رأس مفرزة الفرسان النوميديين في جيش شيبيون أثناء حربه مع أنتيوشوس «antiochus » سنة 190 قبل الهلاد، أين منح لقب حامي الأجانب من قبل حكام مدينة ديلفي (Delphes).(Tite Live.(1994) : XXVI,40,7 ;XXVII,6-7 ;XXXVIII ,41,12)

ضف إلى ذلك، فقد توجب الرجوع إلى النقوش الكتابية المتمثلة أساسا في النصب الجنائزية والتذكارية المكتشفة بروما وضواحيها، المقدر عددها ب ثمانية

وثلاثين نقيشة لمدنيين، ضمن إحصاء قدمته الباحثة سيسليا ريتشي « Cecilia Ricci » ضمن دراسة تحت عنوان "الأفارقة بروما"، إلا أن هذه النقوش لا تذكر كلها بالضرورة الوضعية الاجتماعية لهؤلاء المهاجرين، المهن والحرف التي عملوا بها أو المدن التي قدموا منها. (Ricci, C. 1994 : 189)

وتتمثل مجمل الأسباب الطوعية التي دفعت بالمغاربة إلى الهجرة إلى روما، في طبيعة النفس البشرية، الباحثة دوما في أي زمان عن تحسين أوضاعها المعيشية، البحث عن الثروة والتطور، طلب العلم والمعرفة، انبهار وتأثر الشباب المغاربي المنتمين إلى طبقة الفرسان وأبناء الأمراء بطبيعة الحياة بعاصمة الإمبراطورية (Lassère, J.M. 1977 : 643)، فعلى سبيل المثال ولا الحصر، فقد عثر على نقيشة يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثاني الميلادي " لأورلي كانارتاي" « Aurelii Canarthae » إبن أمير من قبيلة البقواط (C.I.L.VI, 18000).

إلا أن ذلك لم يكن لينطبق على العبيد، الذين تعرضوا للهجرة القصرية، وذلك منذ نهاية الحروب البونية وتحطيم قرطاجة سنة 146 قبل الميلاد (Ricci, C. 1994 : 190)، حيث أقتيدوا للعمل لصالح القناصلة الرومان، الأباطرة، وأعيان المدينة، إذ عثر على نقيشة "ك. بروتيوس تلسفوريوس" « C.Bruttius Telesphorius »، النوميدي الذي عمل حارسا شخصيا، يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي (C.I.L.VI 7582).

كما جز بهم إلى مدارس المصارعة للتدرب على الفنون القتالية، أين اشتهروا بالمهارة والحذق مقارنة بأقرانهم من العبيد القادمين من مناطق أخرى، ونذكر في هذا الصدد الإمبراطور كاليغولا « Caligula »، الذي عمل على إشراكهم في ألعاب المصارعة التي كان يسعد بتنظيمها كثيرا (Suetone : XVIII)، وكذا الألعاب البهلوانية والملاكمة، ويتعزز هذا الأمر، من خلال النقوش المكتشفة، إذ عثر على نقيشة يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي لكل من "م.أوريليوس ليبر" « M.Aurelius Libèr » "وابنه أوريليوس كايكليوس" « Aurelius Caexilius » اللذين عملا كسائقي عربات الألعاب « Agitators factionum » وهما من إفريقية (C.I.L,VI, 10058) ، كما مارس "كرسكنس الموري" «Crescens» نفس نشاط سابقيه حولي القرن الثاني الميلادي (C.I.L, VI, 10050).

زد على ذلك، تم الاستعانة باليد العاملة المغاربية في الورشات الحرفية الخاصة بصناعة الفخار، فقد عمد أصحاب ورشة " لوكي موناتيي" « Lucii Munatii » المختصة في صناعة المصابيح خلال القرن الأول الميلادي، بعد اعتاقهم إلى نقل مقر

عملهم من مدينة روما أين كانوا عبيدا إلى مقاطعة إفريقية البروقنصلية . (Gualandi Ginito, M.C :1986 :189)

تمكن المغاربة ابتداء من أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني، من فرض تواجدهم بالمجتمع الروماني، حيث كلفوا وتقلدوا مناصب محترمة وهامة بالجيش والإدارة وذلك بفضل ثرواتهم . وأصبح عدد منهم ضمن طبقة الفرسان وأعضاء بمجلس الشيوخ الروماني. حيث ذكر المؤرخ "سويتون" « Suetone » أن الإمبراطور فسباسبانوس « Vespasianus » قد اقترن بامرأة كانت صد يقة" ستتليوس كابلا" « Satatilius Capella » المنتمي إلى طبقة الفرسان وهو في الأصل من مدينة سبراتة، (Suetone, III) ولا يفوتنا أن نذكر سبتميوس سيفيروس الجد « Septimius Severus » الذي تقلد عدة وظائف ببلدية لبتيس الكبرى (Leptis Magna) ومقاطعة إفريقية البروقنصلية، قبل أن يصبح قاضيا مرموقا بروما بعد هجرته إليها، كما تمكن كلاوديوس هلفيوس سكوندوس « Claudius Helvius Secundus » من مدينة شرشال «Caesarea » أن يصبح قاضيا خلال عهد الإمبراطور نرفا « Nerva »، بعدما شغل منصب مدير لحري في أحد القناصلة. (Pflaum, H-G. 1968 : 156)

وتكلل هذا التدرج في المناصب، بوصولهم إلى أعلى هرم في السلطة، حيث أصبح سبتميوس سيفيروس الحفيد، إمبراطورا سنة 193م، وبدأ عهد عرف باسم هذه الأسرة المغاربية الأصل، وهو العهد السيفيري (235/193م)، مما سمح بزيادة نفوذهم في الإدارة الرومانية حيث قدر فرنسوا دوكري « F. Decret » ومحمد فنتر نسبة المغاربة المنتمين إلى طبقة الفرسان خلال القرن الثاني الميلادي بـ 15٪ و 12٪ ضمن مجلس الشيوخ، لترتفع هاتين النسبتين خلال القرن الثالث الميلادي إلى 27 ٪ و 17٪ على التوالي مقارنة بمقاطعات أخرى كمقاطعة غاليا . (Decret, F ; Fantar, M. 1998 :239-240)

إلى جانب ذلك استطاع المهاجرون المغاربة ترك بصماتهم في ميادين الخطابة، الأدب، الشعر، التاريخ والقانون، على غرار الخطيب فرتون « Froton» (100/175م)، من قسنطينة (Cirta) الذي أختير من قبل الإمبراطور هادريانوس «Hadrianus » وخلفه أنطونينوس « Antoninus » ليكون مدرسا لعلم البلاغة والبيان اللاتيني للأميرين ماركوس أوريليوس «Marcus Aurelius » ولوكيوس فاروس «Lecius Varus ».

المؤرخ كايوس سوتونيوس ترنكيلوس " Caius Suetonius Tranquillus(70-180م). أصوله من مدينة عنابة (Hippo Regius)، كان مسؤولا عن ديوا ن رسائل

الامبراطور هادريانوس " Hadrianus حوالي سنة 120م، مما سمح له من الاطلاع على أرشيف البلاط الروماني الذي شكل مادة هامة ساعدته على كتابة مؤلفه الشهير "حياة القياصرة الاثنا عشر "، عالم اللاهوت سبتيميوس فلورنس تارتوليانوس" Septimius Florens Tertullianus " المولود بقرطاجة سنة 155م والمتوفي سنة 225، الذي يعتبر مؤسس علم اللاهوت المسيحي المكتوب باللغة اللاتينية، أشهر مؤلفاته "إثبات العقائد " " Apologetique"، الخطيب أنيوس فلوروس "Annius Florus " عالم اللغة سولبيس أبولينار "Sulpice Apollinaire"، وقد أشار هؤلاء المثقفين من خلال كتاباتهم إلى جذورهم البربرية التي كانوا يفتخرون بها كثيرا، فهناك من قال أنه ينتمي إلى قبائل ليبية مرتحلة أومن أصل إفريقي (Decret,F,.Fantar,M.1998..208 -240).

وخلاصة القول، فقد إمتازت هجرة سكان بلاد المغرب القديم الى العاصمة روما بالبطئ والإستمرارية على مدار العهد الجمهوري والامبراطوري، تدرجوا خلالها بين المهن المتواضعة المرتبطة بالعبيد والطبقات الاجتماعية الفقيرة إلى أن استطاعوا إختراق طبقات المجتمع المرفه، بفضل ثرواتهم التي سمحت لهم بأن يصبحوا أطرا سامية بالإدارة والجيش وأباطرة روما ، وبرزوا كمثقفين في ميادين الأدب ، التاريخ والقانون.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قائمة المصادر والمراجع

أ - المصادر:

Corpus Inscriptionum latinarum (C.I.L ,VI). (1863). Berolini

Suetone.(1932).Vies des douze Cesares,Paris:Les Belle Lettres.

Tite Live.(1994).Histoire Romaine, Paris: Flamarion.

ب - المراجع:

Decret, F ; Fantar , M(1998).L' Afrique du Nord dans l'Antiquité , Paris :Payot et Rivages

Euzennat ,M. (1979)." Le Marocain du Magdalensberg". Ant.Afr ;T.14, pp.123 -128.

Gualandi Genito,M.C.(1986). La lecernr antiche del Trentino, Tronto :Servizio beni culturali delle provincia autonoma.

Lassère, J.M. (1977). Ubique Populus , peuplement et mouvement de la population dans l'Afrique Romaine de la chute de Cartage à fin de la Dynastie des Sèvères (146av.j.cà 235ap.j.c), Paris : CNRS.

Pflum ,H-G. (1968)." Les juges des cinq decuries originaires d'Afrique". Ant.Afr ;T.02, pp :153-195.

Ricci,C.(1994)." Africani à Roma testimonianze épigrafiche di et à imperale di personaggi provenienti dal Nord Africa ".Ant.Afr ;T.30,pp :189-207.

التميز... خصوصية الطب والأطباء في تلمسان
قراءة في تأثير هجرة الأطباء العرب واليهود على الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني

العرياوي عمر،
قسم علم الاجتماع، جامعة معسكر.

تشكل مدينة تلمسان حلقة مهمة في تاريخ الجزائر القديم والحديث، باعتبارها من أهم مدن الجزائر التي شكلت بحضورها القوي في التاريخ الإسلامي والعربي الهوية والشخصية العربية والإسلامية للمجتمع الجزائري بفضل الدور السياسي والاجتماعي والثقافي الذي لعبتاها المدينة باعتبارها إحدى أهم الحواضر العربية والإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي وجنوب حوض البحر المتوسط.

لقد برز الدور الريادي السياسي والاقتصادي والتجاري والثقافي والفكري لمدينة تلمسان خلال الحقبة الإسلامية وخاصة في فترة حكم الدولة الإدريسية(776م- 909م)وحكم الدولة المرابطية (1079م- 1145م) وقد شهدت قفزة نوعية في المجال الثقافي والفكري والعمراني على عهد حكم سلاطين وملوك الدولة الموحدية (1121م- 1269م) في عهد السلطان عبد المؤمن بن علي مؤسس الدول)ص. فركوس،2002: 34.25)، لكن المدينة ستعرف ازهي وأعظم فترات الرقي الاجتماعي والفكري والثقافي خلال حكم الدولة الزيانية (1235م- 1554م) (زرهوني.ط، 1994: 03) حيث عرفت المدينة أهم الإنجازات العمرانية من قصور ومستشفيات ومدارس ومساجد على عهد السلطان يغمراسن بن زياد والسلطان أبو حمو موسى الثاني، حيث غدت تلمسان حاضرة من أعظم حواضر العالم الإسلامي يؤمها العلماء والأدباء والشعراء والطلاب من المغرب والمشرق وأوروبا . وقد استمرت في أداء دورها السياسي والثقافي والفكري إلى فترة التواجد التركي العثماني على الرغم من فترات الانحطاط التي لازمت العالم العربي والإسلامي وارتبطت بمراحل اللا استقرار السياسي والصراع بين الدويلات الإسلامية التي نشأت في بلاد المغرب والأندلس وتأثرت بها مدينة تلمسان، حيث كانت هده الأخيرة في كثير من الأحيان مسرحا لأحداث الصراع السياسي والثقافي الذي نشأ بين العديد من المدن في بلاد المغرب والأندلس.

1- مدينة تلمسان البعد التاريخي والحضاري:

على الرغم من تأكيد الباحثين والمؤرخين على الدور السياسي والاجتماعي والثقافي والفكري الذي لعبته مدينة تلمسان في العهد الإسلامي مما أهلها لتكون من ابرز مدن المغرب الإسلامي إلا أن المدينة شكلت حضورا بارزا في مراحل سابقة وقد أثبتت الحفريات التاريخية ارتباط المدينة بمختلف الحضارات التي تعاقبت على شمال إفريقيا كالفينيقيين والرومان واليونان والوندا ل والبيزنطيون، مما يشكل أبعادا رمزية للخصوصية التاريخية للمدينة شكلت إلى حد بعيد الهوي ة التاريخية للمدينة وجعلتها إحدى مميزاتها في التعريف بنفسها وفي محاولة مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل وفق رؤية جديدة تزاوج بين الحداثة والأصالة، مع التركيز على الفترة الإسلامية والتي شهدت خلالها المدين ة حضورا قويا على المستوى السياسي والثقافي والعلمي أهلها لتكو ن عاصمة الفكر والمعرفة والثقافة والفن توازي في كثير من الأحيان الإشعاع الثقافي والحضاري لمدن بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وغرناطة، فقد كانت على مر السنوات والقرون محج ومزار للعديد من العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم والمعرفة من المشرق والمغرب خاصة بعد سقوط الأندلس عام 1492م وما ترتب عليها من هجرة العديد من العلماء والأطباء والشعراء ورجال الدين والعلم والفن والكثير من التجار والحرفيين العرب والمسلمين واليهود الذين استقروا بمدن المغرب الإسلامي وخاصة بمدينة تلمسان

ازدهار الحياة الثقافية والفكرية والفنية والعمرانية في مدينة تلمسان مما جعلها عاصمة للفكر والمعرفة والفن لقرون عديدة أهلها لتكون مركزا للإشعاع الثقافي والعلمي، فإلى جانب ازدهار العمران والتجارة والحرف والفنون ارتبطت المدينة بالتكوين العلمي في مختلف العلوم الدينية والدنيوية فإلى جانب علوم القران والسنة والفقه والشريعة والقانون والتصوف واللغة والنحو والشعر والخطابة والرحلات وعلم التاريخ برزت المدينة ومدارسها في تعليم علوم الرياضيات والحساب والجبر والهندسة والفلك وعلم التنجيم إضافة إلى العلوم الطبية من طب وجراحة وصيدلة وصناعة للأدوية (A. Filali, 1975:)، نظرا لحضور الطب والصيدلة وصناعة الأدوية عند العديد من العلماء والأطباء في تاريخ تلمسان ساهم على حد بعيد في جعل الممارسة الطبي ة داخل المدينة مزدهرة بشك ل كبير بين عامة الناس وخاصتهم وشكلت حضورا قويا داخل الصيرورة التاريخية للمدينة أصبحت منذ تلك السنوات جزءا من الخصوصية الثقافية والفكرية لمديرة تلمسان وجزء من المخيال الجماعي للمجتمع التلمساني، هده الممارسة الطبية قد تواصلت عبر تاريخ المدينة إلى اليوم لتشكل جزءا من الهوية الثقافية والعلمية والفكرية لتلمسان في الماضي والحاضر والمستقبل

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

رغم فترات الضعف والاندثار خلال فترة الحماية العثمانية وفترة الاحتلال الفرنسي، حيث يحرص سكان المدينة اليوم على جعل الممارسة الطبية صمن منظومة التكوين الجامعي حاضرة بقوة ويسعى المجتمع التلمساني إلى جعلها أكثر تميزا وحضورا داخل المجتمع أكثر م ن دلك الحرص على تكريس الأبعاد الرمزية والاجتماعية للممارسة الطبية داخل الف عل المعرفي والفكري لأفراد المجتمع التلمساني.

2- الطب الوجه الأخر للهوية الثقافية للمدينة

إنه على الرغم من صعوبة الربط التاريخي بين الممارسة الطبية في العصور التاريخية القديمة والعصور الحديثة، إما بسبب فترات الانقطاع والانحطاط التي لازمت الممارسة الطبية من جهة وتطور النماذج والأشكال والوسائل من جهة أخرى خاصة في العصور الحديثة، هذه الصعوبة قد نجدها عندم ا نحاول إيجاد قواسم مشتركة بين الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني على عهد رقيه الفكري والثقافي في فترة إزدهار الحضارة العربية الإسلامية وحضو ر الممارسة الطبية الحديثة في المجتمع التلمساني اليوم وفق مرجعية غربية حداثية في البرامج والمناهج والوسائل واللغة، إلى أنه يمكن إيجاد مجموعة من القواسم المشتركة التي تكرس تأثير البعد التاريخي والرمزي للط ب على تشجيع ودفع أبنائه والأطباء في تاريخ المدينة في المساهمة في استمر ارية الممارسة الطبية داخل المجتمع التلمساني وحرص العائلات على تشجيع ودفع أبنائها لولوج التكوين الطبي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يرتبط الطب والتكوين الطبي بمدينة تلمسان بمجموعة من الخصوصيات التاريخية والاجتماعية والثقافية جعلت ممارسة الطب داخل المجتمع التلمساني إحدى خصوصياته والمعبر عن هوية المجتمع التلمساني، تحرص العديد من العائلات على دفع أبنائها اختيار الطب والنجاح فيه، انطلاقا من الإدراك المتزايد بأهمية الممارسة الطبية ورمزيتها داخل المجتمع الجزائري عموما والمجتمع التلمساني خصوصا باعتبارها آلية من آليات المجتم ع للحفاظ على المكانة الاجتماعية والثقافية داخل النسيج الاجتماعي من جهة، كما يعتبر وسيلة لتحقيق الارتقاء الاجتماعي بفعل الوعي المتزايد بأهمية رأس المال المادي والرمزي الذي تحققه الممارسة الطبية

إن ارتباط الطب والممارسة الطبية بالهوية الثقافية والعلمية لمدينة تلمسان ليس وليد حاضر المدينة، لكنه اكتسب شرعية تاريخية انطلاقا من الخصوصية التاريخية لمدينة تلمسان قديما وحديثا، باعتبارها إحدى الحواضر المهمة في الجزائر وبلاد المغرب والحوض الجنوبي للبحر المتوسط وقد عرف الطب ازدهارا كبيرا في التاريخ الإسلامي للمدينة، انطلاقا من كونها عا صمة العلم والفكر والثقافة

الإسلامي على عهد الدول والمماليك التي تعاقبت عل ى المدينة واهتمام ملوكها وسلاطينها بالطب والأطباء من خلال مختلف المدارس الكبرى التي عرفتها المدينة كمستشفى المنصورة، مدرسة أولاد الإمام، المدرسة اليعقوبية، المدرسة التاشفينية، المدرسة المرينية (العباد) ومدرسة أبي عنان إضافة إلي حضور العديد من الأطباء العرب واليهود الذين استقروا بتلمسان ومارسوا الطب بين عامة الناس وخاصتهم بعد سقوط الأندلس عام 1492 م ولجوء العديد من الأطباء والعلماء العرب واليهود إلى الهجرة إلي بلاد المغرب وتلمسان (Khiati, 2000: 44)

لقد توافد العديد من الأطباء العرب واليهود على تلمسان إما بدعوة من ملوكها وسلاطينها أوتحت تأثير الرغبة في العمل ولكن سقوط الأندلس شجع الكثير منهم على الإستقراربها مما جعل المدينة عبر تاريخها الإسلامي تعرف العديد من أسماء في عالم الطب والتطبيب فقد عرفت المدينة مجموعة م ن أشهر الأطباء العرب واليهود منهم :أبو جعفر الذهبي، أبو عبد الله الندروم ي، الطبيب التفاشي، الطبيب ابن خميس، الطبيب ابن أبي حجلة، الطبيب ابن الفشوش، الطبيب أبي عبد الله الشريف،سعيد العقباني، ابن مرزوق الحفيد،الإمام السن وسي، الآبيلي، ابن الفحام، ابن مريم .وغيرهم، ومن الأطباء اليهود نجد إسحاق ابن سليمان، الطبيب يعقوب جابسون، الطبيب أسترو ك كوهان والطبيب موشي ابن سموال . Khiati, (2000: 57; 60-61)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في هذه الورقة نحاول تقديم مدى مساهمة هجرة الأطباء العرب واليهود إلي تلمسان بعد سقوط الأندلس في تكريس ثقافة الممارسة الطبية ضمن الهوية الثقافية والمعرفية لمدينة تلمسان؟ كيف استطاعت هذه الممارسة أ ن تستمد شرعيتها التاريخية والاجتماعية لتصبح إحدى خصوصيات الطب داخل المجتمع التلمساني ؟ أكثر من ذلك تعبير عن هوية المدينة وسكانها ؟

إن التأكيد على حضور الخصوصي ة التاريخية في الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني كانت محل دراسة ميدانية أجريت سنة 2005/2004 تحت عنوان، " حب التميز عند طلبة الطب بتلمسان ." منشورات المجلس الأعلى للغة العربية .2004 وقد ركزت فيها على محاولة فهم تأثير وحضور البع د التاريخي في ممارسة الطب في المجتمع التلمساني ضمن مشروع بحث عنوانه :" Médecines,maladies et société"، تحت إشراف المركز الوطني لتطوير البحث في الصحة . Agence nationale pour le développement de la recherche en santé "

حيث اتجه هذا العمل إلى محاولة الإجاب ة عن مج موعة من الإشكاليات التي ارتبطت بالممارسة الطبية داخل المجتمع التلمساني والتي تكرست كثقافة تعبر ع ن هوية المدينة قديما وحديثا، ذلك عن طريق جملة من التساؤلات المعرفية وفق مقاربة أنتروبولوجية لتصورات وممارسات الأطباء وطلبة الطب بكلية الطب بجامعة تلمسان، انطلاقا مما يلي:

- مدى تأثير حضور البعد التاريخي والحضاري في تكريس ثقافة الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني؟

- كيف يساهم الأصل الاجتماعي والثقافي المهني في إبراز التميز عند الأطبا ء وطلبة الطب؟

- ما دور نظرة المجتم ع للطب في خلق وتكريس ثقافة التميز عند الأطب اء طلبة الطب ؟

- كيف يمارس محيط الممارسة الطبية والدراسات الطبية بمختلف تقاليد ه وعاداته وعلاقاته دورا في إبراز التميز عند الأطباء وطلبة الطب ؟

على هذا الأساس تم العمل في هذا التحقيق الاجتماعي وفق الفرضيات التالية:

- الحضور القوي للطب والأطباء العرب واليهود في تاريخ مدينة تلمسان.

- يلعب الأصل الاجتماعي والثقافي والمهني للأطباء وطلبة الطب دورا في تميزه م على اعتبار اختياراتهم وفرص نجاحهم الدراسي والمهني يرتفع كلما ارتفع أصلهم الاجتماعي والثقافي والمهني.

- يملك الطبيب مكانة اجتماعية وقيمة رمزية داخل الذاكرة الجماعية للمجتمع باعتباره الضامن لصحة الفرد والمحقق الارتقاء الاجتماعي والمهني والمحدد للمكانة الاجتماعية المرموقة يدفع طالب الطب إلى التميز والتفوق والظهور بصورة يستحسنها المجتمع.

- يملك محيط الممارسة الطبية والدراسات الطبية داخل المستشفى الجامعي وكلية الطب بكل تفاعلات ه وعلاقاته وخصوصياته وتقاليده دورا مؤثرا في تكريس التميز.

في هذه الورقة نحاول التركيز على حضور البعد التاريخي والحضاري لمدينة تلمسان في تكريس الممارسة الطبية كثقافة تعبر ع ن هوية المدينة باستحضار مساهمات الأطبا ء العرب واليهود في تكريس الممار سة الطبية داخل المجتمع التلمساني بعد هجرتهم إلى تلمسان والاستقرار بها بعد سقوط الأندلس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3- الممارسة الطبية.. آليات التوريث:

قبل الحديث عن مجموعة الأطباء العرب واليهود الذين هاجروا من الأندلس واستقروا بتلمسان بعد سقوط الأندلس عام 1492م ومارسوا الطب والجرا حة والصيدلة وصناعة الأدوية في تلمسان (A. Filali, 1975:) إما في القصور أوالمستشفيات أو بين عامة الناس وق د تركوا الكثير من المصنفات في التأليف وصناعة الأدوية ووصف الأمراض وعلاجها، خاصة مع التشجيع الذي لقيه الأطباء من طرف خاصة المجتمع التلمساني وعامتهم حيث اهتم ملوك وسلاطين وأمراء تلمسان ببناء المستشفيات وتشجيع الأطباء والعلماء عل ى التأليف ومعالجة الأمراض وهوما سنورد عنه حيزا مهما في هذه الورقة، لك ن قبل ذلك يجب الإشارة إلى نقطتين أساسيتين في مقاربتنا لظاهرة الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني اليوم وتأثير ا لبعد التاريخي والرمزي للطب والأطباء في تاريخ المدينة وحاضرها، هاتين النقطتين تكمنان فيما يلي :

- النقطة الأولى : إن مختلف مؤسسات التكوين الطبي الحديث بتلمسان " كلية العلوم الطبية، المؤسسة الإستشفائية الجامعية، معهد التكوين الشبه الطبي"، على رغم من حداثة إنش ائها فهي وليدة جزائر ما بعد الاستقلال إلى أنها حافظت على خصوصية مكانية تاريخية فهي ترتبط دائما في تصور الأفرا د في المجتمع التلمساني بالمكانة الرمزية والتاريخية لمدينة المنصورة والتي شكلت أول مستشفى في المدينة على عهد السلطان حمو الثاني.

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

- النقطة الثانية : إدراك العائلة التلمسانية لأهمية الممارسة الطبية في تحقيق الارتقاء الاجتماعي والمكانة الاجتماعية والحفاظ عليها لذلك تحرص العديد من العائلات على خلق آلية اقرب إلى التوري ث "Les héritier" حسب" بيار بورديو" " P. Bourdieu" (P. Bourdieu, 1964: 12). لتمكين أفرادها من الاستمرار في ممارسة الطب بشكل يجعل هذا الأخير لا يخرج عن نطاق العائلة الكبيرة، على الرغم من التحول الذي طرأ على طبيعة وشكل العائلة الجزائرية عموم ا والعائلة التلمسانية خصوصا وذلك ضمن محاولات الحفاظ على مهنة الطب كجزء من الثقافة والهوية التلمسانية وذلك من خلال استحضار المخيال الجماعي لمنطقة تلمسان والذي يحتفظ بمجموعة كبيرة من الأطباء والمعاصرين الذين أسسوا لهوية الطب والممارسة الطبية داخ ل المجتمع التلمساني.

بالنسبة للنقطة الأولى نجد أن المؤسسات الطبية في مدينة تلمسان إم ا المرتبطة بالتكوين أو الاستشفاء حافظت على خصوصية مكانية تستحضر التاريخ القديم لمدينة تلمسان عموما ومدينة المنصورة على وجه الخصوص، فعلى الرغم من تمركز

مؤسسات التكوين الطبي " كلية العلوم الطبية، المؤسسة الإستشفائية الجامعية، معهد التكوين الشبه الطبي " في حي الأفق الجميل وهو حي حضري إلا أن هذه المؤسسات تقع غير بعيد عن محيط المدينة القديمة المنصورة وغير بعيد عن أثاره الشهيرة "الصومعة، باب الخميس، أسوار المدينة القديمة " هذا الحديث ينطبق على القطب الجديد كلية العلوم الطبية المنشأة حديثا، حيث تتوسط هذه الأخيرة الكثير من المواقع الأثرية الهام ة في تاريخ تلمسان، تقع في محيط الحوض الكبير لتلمسان غير بعيد ة عن أحد أشهر الأبواب التاريخية لتلمسان القديمة باب الحديد وغير بعيدة عن قصر المشور السعيد الذي يتوسط مدينة تلمسان، لذل ك يحرص الأطباء وطلبة الطب على تسجيل حضور المدينة بكل ما تحمله من زخم التاريخ والحضارة والثقافة وخصوصية المكان والزمان ذلك أنهم يدركون بنوع من الاعتزاز والفخر أهمية الطب في مدينتهم على اعتبار ما تملكه هذه الأخيرة م ن شرعية قوية ومتميزة تأسست على ميراث تاريخي وحضاري، جعل المدينة تملك الشرعية التاريخية لكي تكون مجالا رحبا للثقافة والفن والفكر والعل وم، من هنا الطب في تلمسان ليس وليد التخطيط السياسي والطلب الاجتماعي فقط بل نتاج حتمي للصيرورة التاريخية الطويلة وامتداد طبيعي لكل المسارات الثقافية الحضارية للمدينة وجاء استجابة إلى محاولة السير على خطى المدارس الكبرى التي عرفتها المدينة واشتهرت بها لعدة قرون وجعلتها تعج بالعلماء والطلبة في مختلف علوم الدين والآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الطبية ولعل من أشهرها مدرسة ابو حمو موسى الأول 1287م والمدرسة أبوتاشفين والمدرسة المرينية (العباد) لأبو الحسن المريني 1327م ومدرسة أبي عنان 1333م والمدرسة اليعقوبية لأبو حمو موسى الثاني1344م(زرهوني. ط، 1994 : 03)، هذه المدارس عرفت العديد من الشعراء والأطباء والمؤرخين مثل : عبد الرحمان ابن خلدون، يحيى ابن خلدون، ابن عرفة، الأبيلي وأصبحت تضاهي مدن القيروان وفاس وقرطبة إشبيليا وغرناطة ببلاد الأندلس، حيث يص ف ألفريد بال أهل تلمسان بقوله : " يتميز المسلمون التلمسانيون ويتفوقون بحياتهم الثقافية لا على سكان الأرياف فحسب، بل وعلى مسلمي المدن الأخرى "(.مجلة تلمسان، 1975: 17)

في مقابل ذلك يحرص الأطباء والطلبة على تأكيد هذا الإرث الحضار ي للمدينة في مختلف تصريحاتهم فيؤكدون على الحضور الق وي للطب في المدينة بتبني الفكرة القائلة بأن كبار الأطباء في الجزائر ينحدرون من منطقة تلمسان والمرتبطة بعائلات قارة، بن ديمراد، بن منصور، دمرجي، زرهوني، بلقلفاط، إسطنبولي، صنهاجي، بن ثابت، بن أشنهوا...وغيرهم.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول أحد الطلبة :"الطب ليس مهنة فقط، بل هوثقافة ارتبطت بالمدينة". (طالب. س4. طبيب)

تقول إحدى الطالبات :" كبار الأطباء الجراحون خاصة في التخصصات الدقيقة من تلمسان وأصولهم الاجتماعية من المنطقة ...." (طالبة.س4.رئيس قسم الأشعة بالمستشفى)

تقول طالبة أخرى :" عند الحديث عن الأطباء في الجزائريظهر الأطباء من أبناء تلمسان من صفوة الأطباء ولهم مكانتهم واحترام الناس لهم في الداخل والخارج والبروفيسور زرهوني والبروفيسور صنهاجي دليل على مكانة الأطباء التلمسانيين ليس في الجزائر فقط بل في الخارج.."(طالبة.س5. إطاربالبنك)

بالنسبة للنقطة الثانية تملك الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني أبعادا مادية ورمزية تحرص الأسرة التلمسانية من خلالها على دفع أبناءها إلى اختيار الطب والنجاح فيه، انطلاقا من الإدراك المتزايد بأهمية الطب ورمزيته في المجتمع، إضافة إلى المعرفة المسبقة بما يشكله الطب من رأس مال مادي ورمزي داخل المجتمع حيث يحقق الا رتقاء الاجتماعي ويضمن المكانة الاجتماعية و يحافظ عليها، نظرا لاعتبار التكوين الطبي جزء مهم في منظومة التعلي م والتكوين العالي في الجامعة فإن هذا الأخيريحاول أن يعيد إنتاج المكانة الاجتماعية والمهنية والثقافية باعتبارها مؤسسة تعليمية لذلك يذهب" بياربورديو""P.Bourdieu" إلى القول :"تساهم المؤسسة التعليمية،وألح على كلمة تساهم، في إعادة إنتاج وتوزيع رأس المال الثقافي وبالتالي في بنية المجال الاجتماعي"(بيار بورديو. 47:1998). لذلك تسعى الممارسة الطبية إلى تحقيق هذا المنحى بإبراز الأهمية التي تعطيها الفئات العليا في المجتمع للثقافة بهدف خلق قيم وممارسات ثقافية وإجتماعية وتوريثها لأبنائها أكثر من ذلك تؤشر إلى وجود تراتبية اجتماعية، هدفها فرض نظام من البنيات الفكرية والقيمية على مجمل أفراد مجتمع الفعل الطبي من أطباء وطلبة ومرضى وجمهور العامة من أجل خلق مجتمع الأ طباء المتميز في قيمه وتصوراته وسلوكاته وممارساته، فالعامل الثقافي مهم في تحديد العادات والتقاليد والممارسات والإستراتيجيات التي تعبر في جوهرها على وجود فكر وفلسفة وثقافة انتماء تعبر عن مجتمع الطب والأطباء وخصوصياتهم الثقافية واللغوية والرمزية يقول :" بيار بورديو" "P.Bourdieu " " إن الطلبة الأكثر رقي ا اجتماعيا لا يرتبطون بعائلاتهم فقط من حيث العادات والسلوكيات الاجتماعية التي تخدمهم بشكل مباشر في حياتهم الدراسية، بل إنهم يرثون أيضا المعارف وكيفية الحياة وفن التصرف ضمن رصيدهم المدرسي (P. Bourdieu, 1964: 12)، كما يظهر اهتمام العائلات بالطب ضمن الإستراتيجيات

المختلفة لضمان وجودها الاجتماعي وإستمراريتها بإحداث نوع وشكل من السيطرة والهيمنة الثقافية والرمزية في إطار إعادة إنتاج المكانة الاجتماعية نفسها، حيث تحيا وتستمر بنوع من إعادة الإنتاج، أي بنزوح إلى استمرارية وجودها الاجتماعي بكل سلطاته وامتيازاته الذي هو " أساس إستراتجيات إعادة الإنتاج وفق إستراتجيات الخصوبة إستراتجيات زواجية، إستراتجيات وراثية، إستراتجيات اقتصادية وأخيرا وبالأخص تعليمية "(بيار بورديو، 1998 : 47.48).

انطلاقا من الفكرة الاجتماعية القائلة بأن "الطب ومهنة الطبيب تساهم في الارتقاء الاجتماعي وتضمن الاستقرار الاجتماعي " (P. Aiach: 94)، وباعتبار البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية داخل أي مجتمع تحدد وفق الأصول السوسيوثقافية للفاعلين داخل هذه البنيات، كما أنها ترسم وتنتج مجموعة من القيم الا جتماعية والسائدة وتساهم في بناء الوعي الاجتماعي لدى جل الفاعلين وتؤسس لقيم اجتماعية وثقافية تعبر في الأساس عن انتماءات الفاعلين الاجتماعيين للنظام الطبقي الممارس داخل المجتمع، من هنا كانت المدرسة والجامعة والتكوين الطبي تعبير مباشر عن اللامساواة في المجتمع يقول كارل ماركس:" إن اللامساواة في التعليم هي الصورة الأكثر تعبير عن اللامساواة الأخرى في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وهي الانعكاس المباشر لموقع كل فئة أو طبقة اجتماعية من ملكية وسائل الإنتاج داخل المجتمع" (K. Marx. Engels:73).

4- الممارسة الطبية طريق النجاح المهني والاجتماعي:

يقدم التكوين الطبي في الجزائر عموما وفي تلمسان على وجه الخصوص صورة حية عن ممارسة الإقصاء الاجتماعي حيث يسعى إلى إعادة إنتاج بنيات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية تجسد في حقيقة الأمر مبدأ اللامساواة داخل المجتمع التلمساني، فبعيدا عن القراءات السياسية التي يقدمها التكوين الطبي بتلمسان من ديمقراطية التعليم ومجانيته وفتح الفرص أمام الجميع نجد كلية الطب تعمل على إنتاج وإعادة إنتاج نفسها من جهة ومن جهة أخرى محاولة تسويق أنماط من العلاقات الاجتماعية والتراتبيات الطبقية والإديولوجية المعبرة عن مجمل العلاقات الإجتماعية والثقافية داخل المجتمع التلمساني المجسدة للتراتبية واللاعدالة واللامساواة الاجتماعية.

هذه الفكرة في تصورات عامة أفراد المجتمع التلمساني وعند الأطباء وطلبة الطب انطلاقا من ارتباط الطب بالخصوصية الثقافية والتاريخية للمدينة إضافة إلى محاولة العديد من العائلات العمل على احتكار الممارسة الطبية وفق آلية التوريث التي تحدث عنها بيار بورديو (P. Bourdieu, 1968: 12) حيث نجد في التصور الجماعي

والمخيال الجماعي لأهل تلمسان ارتباط ممارسة الطب في كثير من الأحيان بمجموعة من العائلات التي تعمل على تكريس هذه الممارسة عند أبنائها وأحفادها بالاعتماد على استحضار الوعي بأهمية ورمزية المهنة الطبية المادي ة والاجتماعية والإنسانية م ن أجل تحقيق الارتقاء الاجتماعي والحفاظ على المكانة الاجتماعية هذه الفكرة ترسخت وفق علاقة رمزية داخل مجموعة من ا لعائلات التلمسانية فأسماء عائلات ابن زرقة، ابن أشنهوا ،بلقلفاط، خديم، دمرجي، صنهاجي، بابا أحمد، كازي، بوشناق، الهدام، بريكسي، قارة، بن ثابت، ثابت خليل، قهواجي، تشوار، بن منصور بن زرجب، زرهوني، بن زرقة بن غبريط كلها تحيل في تصور أفراد المجتمع التلمساني إلى ممارسة الطب واحتكاره من طرف هذه العائلات حيث يعد الطبيب بن زرقة محمد (1851م)من أول الأطباء في الجزائر بالإضافة إلى الطبيب نقاش محمد (1856م)الذي يعتبر من أول الجراحين في الجزائر على الرغم من الاتجاه العام الذي يؤكد على أن محمد بن العربي الصغير ه و أول طبيب جزائري ولد بشر شال (1850م- 1939م).(M. Benlarbey, 1999:15).

يقول أحد الطلبة " أقيم مع عائلتي في فيلا .نحن ثلاثة إخوة الوالدين يعملان في قطاع الصحة واهتمامهم بي كبير، إن إخوتي يتفهمون خصوصية الطب وصعوبته ويعملون على توفير الجو الملائم والهادئ خاصة في الامتحان ات "(طالب. س4. أستاذ جامعي).

تقول طالبة : " الطب ومهنة الطبيب تملك Prestige لا يمكن أن تتوفر في مهن أخرى أحببت الطب لأنه شيء عظيم ويشعرني بأنني استطيع أن أساعد الناس من حولي ". (طالبة.س5. أعمال حرة).

يقول طالب أخر:" أنا من عائلة متوسطة الحال لم أحب الطب يوما ، كنت أحب الرياضيات لكن حديث الناس عن الطب وإغراءاته المالية دفعني إلى اختياره بالرغم من واقع الصحة والأطباء في الجزائر."(طالب. س4. موظف).

إن انتماء الطلبة للوسط العائلي الممارس لمهنة الطب يولد لديهم الشعور وينمي اتجاهاتهم نحو الطب حيث نلمس بوضوح قدرة الأسرة على ترسيخ مجموعة من النوايا والمشاريع وتنمية الطموح والاستعدادات الذهنية عند أفرادها بشكل يجعل المسألة تدخل في إطار الإستراتجيات التي تعتمدها الأسرة في إعادة إنتاج المكانة الاجتماعية عند البع ض وتحقيق الارتقاء الاجتماعي عند البعض الأخر يذهب الدكتور توماس لويس إلى القول :" كان أبي يصطحبني للزيارات الطبية كلما كنت بالبيت وإنني لموقن بأن أبي كان يرجو دائم ا أن أصبح طبيبا ....أما أمي فكانت وهي تتحدث مع الأسرة في رواحها وغدوها في البيت تقول لنا : إن أبانا لم

يكن خير طبيب في المدينة فحسب ولا الأفضل الأطباء في مقاطعة كويتز فقط بل الأرجح إنه الأفضل في أي مكان". (لويس توماس،1983: 38).

في اتجاه أخر تظهر الخصوصي ة الرمزي لمهنة الطب عن غيرها من المهن الاجتماعية في تصور الأفراد في المجتمع باعتبارها مرتبط ة بصحة وحياة الأفراد تفرض الممارسة الطبية مجموعة من القيم والأ خلاقيات التي يجب أن تتوفر في الطبيب الممارس وطالب الطب على حد سواء لذلك تحرص الأسرة على تنشئة أفراده ا على تحمل مسؤوليات الممارسة الطبية ذلك أنها تفرض مجموعة من التقاليد إما على مستوى كلية الطب أو على مستوى المؤسسة الإستشفائية وعلى مستوى طبيعة العلاقات الاج تماعية والإنسانية التي يفرضها مجتمع الممارسة الطبية حيث يحرص الطبيب وطالب الطب على الالتزام بمجموعة من لشروط المعرفية والعلمية والأخلاقية والإنسانية بفعل الأبعاد الرمزية والاجتماعية والإنسانية لمهنة الطب فإلى جانب ضرورة الإطلاع الكافي والتحكم الجيد في معطيات التكوين بشكل ينمي القدرات والكفاءات المعرفية لطالب الطب عن طريق الإطلاع المستمر على الأبحاث الطبية الجديدة بشكل يلزمه ضرور ة التحكم في اللغات الأجنبية والتخصص من أجل التحكم في معطيات الطب المتجددة حتى يضمن لنفسه تكوينا جيدا وقبولا من المجتمع لكن بالموازاة مع التحكم في متطلبات التكوين الطبي يؤكد الأطباء والطلبة على وجوب توفر مجموعة من الأبعاد الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية والمعرفية خاصة أنه يتعامل مع النفس البشرية أغلى ما يملك الإنسان لذلك على الطبيب وطالب الطب أن ينمي شعوره الأخلاقي والإنساني والاجتم اعي من خلال حب المهنة والشعور بالمسؤولية والاعتزاز بها والتحلي بالأخلاق والسلوك الحسن واستحضار الضمير المهني والأخلاقي والشعور بالرحم وحب المساعدة والتضحية إضافة إلى البساطة والصرامة المسؤولية والرغبة والاجتهاد والقدرة على اتخاذ القرارات السليمة والفعالة م ع وجوب توفر شروط الكفاءة والاجتهاد والمعرفة الواسعة للطب والتخصص فيه أكثر والتحكم في اللغات والإطلاع المستمر والدائم على جديد الطب من أجل الحصول على معلومات ومعطيات دقيقة وتكوين جيد يضمن النجاح الدراسي والمهني لممارس الطب

يقول أحد الطلبة :" الطب يحتاج إلى التخصص والكفاءة والمعرفة الواسعة لكن الأهم أن يتوفر الطبيب على أخلاقيات المهنة وهي الشعور بالمسؤولية والمحافظة على الأسرار المرضية المريض وكذلك حب المهنة والتضحية والشعور بالرحمة ..." (طالب.س4.موظف).

تقول طالبة: " الطب ليس مثل العلوم الأخرى وأنا لا أقلل من أهميتها لك ن الطب بفرض الصرامة الدقة والتحدي سرعة اتخاذ القرار لأننا نتعامل مع أغلى ما يملك الإنسان وهي الصحة والحياة ". (طالبة.س5.تاجر)

يقول طالب :" كلية الطب لها تقاليد خاص ة النظافة الالتزام الهدوء والاحترا م وهي مرتبطة بطبيعة الطب ".(طالب.س5.طبيب عام).

5- الطب والأطباء في تاريخ تلمسان:

التكوين الطبي في الجزائر قدي م قدم الحضارات التي تعاقبت على شمال إفريقيا فقد عرفته مع الوجود الفينيقي والروماني وتطور مع الوجود العربي الإسلامي في المدن التي سجلت حضورا قويا في هذه الفترة كتيهرت وبجاية وتلمسان، هذه المدن ت أثرت كثيرا بهجرة الأطبا ء العرب واليهود والأوربيين من المشرق والمغرب، خاصة بعد سقوط الأندلس عام 1492م واهتمام ملوك وسلاطين وأمراء الدول والإمارات الإسلامية التي كانت تيهرت وبجاية وتلمسان عواصم لها بالفكر والعلوم والثقافة والفنون والعمران حيث حضي العلماء والأ طباء والصيادلة وصناع الأدوية باهتمام وتشجيع عامة وخاصة أهل هذه المدن كما عرف الطب حضورا م ع التواجد التركي العثمان ي والذي ساهم في تواجد وهجرة الأطباء الأوربيين ومع الاحتلال الفرنسي تكرس الطب الأوربي ولو بشكل محتشم هذا الأخير ه و الذي ساهم في إعطاء اللبنة الأ ولى للتكوين الطبي الحديث في الجزائر بعد الاستقلال (Khiati, 2000:).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يرتبط تاريخ الطب في الجزائر خلال الفترة الإسلامية مع بداية القرن (03هـ/08م) بتأثير من دولة الأغالبة، حيث كانت القيروان عاصمة العلم والثقافة والطب وقد كانت على علاقة جيدة بمدينة تيهرت عاصمة الدولة الرستمية (160هـ/296هـ)، مما ساعد على هجرة العديد من الأطباء والصيادلة العر ب واليهود من أهمهم الطبيب إسحاق ابن عمران البغدادي (293هـ/905م) (Khiati, 2000: 42) والصيدلي يوحنا الموسوي (155هـ/772م)والطبيب محمد ابن سعيد طبيب الخليفة الرستمي عبد الرحمن بن رستم والطبيب اليهودي "يهودا" (Yahuda ibn Qaraich)، كل هؤلاء الأطباء العرب واليهود كانوا مقربين من ملوك الدولة الرستمية (Khiati, 2000: 49)، لكن مع بزوغ الدور الريادي لمد ن جديدة على غرار بجاية وتلمسان أصبحت هاتين المدينتين مركزين للعلم والفكر والثقافة وال تكوين الطبي، فبجاية عاصمة دولة بني حماد كانت تتوفر على مدرسة ومستشفى يستقطب إلى جانب المرضى العديد من الأطباء والطلبة في مختلف العلوم ومن أهمها العلوم الطبية حت ى أن تأثيرها بلغ أوروبا.

عرفت مدينة بجاية العديد من الأطباء العرب واليهود م ن أشهرهم الطبيب أبو ج عفر عمر بن علي ابن البحوث والطبيب أحم د بن خالد ولد بملقة بالأندلس وتوفي ببجاية عام (600هـ/1179م)(Khiati, 2000: 51) والطبيب أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام اشتغل بالطب إلى جانب الفقه والقضاء في مدينة بجاية، كما نجد الطبيب علي بن الطبيب والطبيب ابن أبي المليح الذي عاش على عهد الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي في حدود سن ة(571هـ/1166م) والطبيب ابن الدراس وهو أب و القاسم محمد بن احمد بن محمد الأموي الذي جاء إلى بجاية سنة610هـ واشتغل بالطب وألف فيه ثم رحل إلى تونس على عهد السلطان الحفصي المستنصر بالله توفي سنة 1271م، كما نجد الطبيب محمد بن الحسن ابن ميمون التميمي اشتغل بالطب والفلسفة والتاريخ توفي سنة 1274م والطبيب القاسم ابن زنتون المتوفى سنة1201م والطبيب علي بن عمران بن الأساطير توفي سنة1271م والطبيب عبد الحق ابن إبراهيم ابن سبان جاء إلى بجاية اشتغل بالطب وتقرب من ملوكها توفي سنة1270م. (Khiati, 2000: 50-52)، الطبيب تقي الدين ابن الخطاب والطبيب أبو العباس الجاد الأصفهاني عاش في القرن (08ه/13م)والطبيب أبو إسحاق إبراهيم الداني والطبيب ابن النباش وهوعبد الله محمد ابن عبد الله ابن أحمد البجاوي عاش في القرن (08ه./13م) والطبيب المشدالي وهو أبو الفضل محمد ابن محمد ابن أبي القاسم عاش في الفترة مابين(822هـ/1471م- 864هـ/1460م) والطبيب أبومحمد عبد الحق والطبيب الدلسي والطبيب أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن الخزراجي والطبيب علي ابن حمزة الحكيم جاء إلى بجاية واشتغل بالطب والتأليف وصناعة الأدوية توفي سنة (747هـ/1346م). (Khiati, 2000: 54-56)

كل هؤلاء الأطباء زاروا مدينة بجاية واستقروا بها ومارسوا في كثير من الأحيان التطبيب والجراحة وصناعة الدواء والتأليف، إلى جانب اشتغال بعضهم بالفقه والإمامة والتدريس والقضاء نظرا للاهتمام الذي كان يوليه حكام وسلاطين بجاية لأهل العلم والفكر والثقافة إلى درجة أصبحت بجاية مزار للعلماء والطلبة من المشرق والمغرب وجنوب أوروبا.

إضافة إلى مدينة بجاية كانت تلمسان بالنظر إلى خصوصياتها كعاصمة للعديد من الدول الإسلامية على عهد الموحدين والمرابطين والزيانيين ملتقى الفكر والثقافة والعلوم والفنون، تأثرت بعواصم المغرب وبلاد الأندلس مراكش وفاس وغرناطة واشبيليا وقرطبة حي ث توافد عليها العديد من رجال الدين والعلماء والشعراء والأطباء والطلبة خاصة بعد سقوط الأندلس عام 1492م، اهتم أمراءها وسلاطينها بالفكر والثقافة والعلوم فأنشئوا المدارس والمساجد والمستشفيات وقد كان حض

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الطب والأطباء وفيرا بإنشاء مستشفى المنصورة وتشجيع الأطباء والطلبة جعل حركة العلوم الطبية تزدهر خاصة مع توافد العديد من الأطباء العرب واليهود والأوربيين على تلمسان بعد سقوط الأندلس وهذا ما سوف نتعرض إليه في جزء من هذه الورقة.

لقد استمر الاهتمام بالطب والأطباء على عهد الأتراك فمجيئهم إلى الجزائر عام 1516م للوقوف في وجه الحملات الإسبانية وتحرير السواحل الجزائرية من الوجود الإسباني قابله تطور في عدد المستشفيات وزاد الاهتمام بالطب خاصة مع حضور العديد من الأطباء الأوربيين المقربين من الدايات والبايات والباشوات الذين عرفتهم الجزائر في عهد الأتراك (Khiati, 2000: 79) مع إنشاء العديد من المستشفيات في الجزائر ووهران وتلمسان توافد الكثير من الأطباء الأوربيين من أشهرهم الطبيب "Guillandin Melchior"(1557م- 1516م) والطبيب "Murillo" (1649م- 1678م) والطبيب الهولندي "Sanson" (1713) والطبيب الإيطالي "Pascal Garnisot" (1771) والطبيب الألماني "Simon Pfeiffer" والطبيب الإسباني " (Sanchez 1786 والطبيب " Underhill" والطبيب "Robert Heirome" (1689م- 1697م) والطبيب "Monier Francois"(1553م-1557م) والطبيب "Maurin Francois" (1815م- 1817م) والطبيب اليهودي "Michich" (1818م). (أبو القاسم سعد الله.18.1918 105 106)، هؤلاء الأطباء الأوربيون واليهود قد زاولوا الطب في العديد من المستشفيات على عهد الأتراك في مدن الجزائر وبجاية ووهران وقسنطينة والبليدة وخميس مليانة ومازونة وتلمسان.

إلى جانب الأطباء الأوربيين واليهود على عهد الأتراك السالفي الذكر، نجد مجموعة من الأطباء والصيادلة الدين مارسوا الطب والتأليف والتدريس وصناعة الأدوية في كثير من المدن كالجزائر العاصمة وقسنطينة ومعسكر وعنابة وقسنطينة وبجاية ووهران ومازونة ومستغانم ومليانة وتلمسان رغم حالة التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي عرفتها الجزائر في السنوات الأخيرة للتواجد التركي العثماني وتزايد الأطماع الاستعمارية الإسبانية والفرنسية حيث نجد من أشهر الأطباء في هذه الفترة سعيد ابن أحمد المقر ي التلمساني (998هـ/1507م). (أبو القاسم سعد الله .105) والطبيب محمد إبن سليمان ابن التلمساني الشهير بلقب الجازولين والطبيب محمد بن أحمد الشريف الحسني والطبيب سيدي بلال والطبيب أحمد بن علي الراشدي المعروف بابن سحنون صاحب كتاب " المنة القدوسية في الأدوية الخ موسية" والطبيب ابن مريم التلمساني صاحب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل "وكتاب "البستان "،إضافة إلى الطبيب محمد بن أحمد الشريف الجزائري صاحب كتب الدرر المصو ن في تدبير الوباء والطاعون" والطبيب أبورأس

محمد الناصري المعسكري (1751م- 1823م). (أبو القاسم سعد الله . 106). والطبيب محمد ابن علي ابن الأمين والطبيب أحمد بن القاسم والطبيب محمد ابن علي ابن باديس الصنهاجي والطبيب عبد الله بن عزوز المراكشي المعروف بالطبيب سيدي بلال والطبيب نور الديـن ابن نصر الدين الشافعي المكي صاحب كتاب " تحفة الإيمان"، كما نجد الطبيب أحمد ابن قاسم ابن محمد ابن ساسي التميمي البوني أبو العباس (1653م- 1726م) له كتابين هما "أعلام أهل القريحة في الأدوية الصحيحة" وكتاب "مبين المسارب في الأكل والطب مع المشارب" والطبيب خليل ابن إسماعيل الجزائري صاحب كتاب " *Les trésors de l'âme pour pallier aux maladies difficiles* "، يعتبر الطبيب عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري (1107هـ- 1200هـ)من أشهر الأطباء الجزائريين في فترة الأتراك (أبو القاسم سعد الله.105.106).

هذه الأسماء العربية واليهودية والأوروبية تؤكد إلى حد بعيد وجود الطب في الجزائر في مختلف مراحل تطور ها التاريخي وخاصة على عهد الحضارة العربية والإسلامية ومرحلة التواجد التركي خاصة في المدن التي كانت عواصم للثقافة والفكر والعلوم مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة ومازونة .كل هذا الحضور القوي للطب في تاريخ الجزائر القديم والحديث سيؤسس لمرحلة جديدة في تاريخ الطب الحديث في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسي انطلاقا من تأسيس المدرسة العليا للصيدلة والطب سنة 1857م وهي تابعة لكلية الطب والمعهد العالي للصيدلة بمدينة مونبلييه الفرنسية، (Reggabi. M,1999:18-19)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

6- مساهمات الأطباء العرب واليهود في تكريس الممارسة الطبية في المج تمع التلمساني:

بالعودة إلى الحديث عن تاريخ الطب والأطباء بتلمسان ضمن الخصوصية التاريخية والثقافية لهوية المدينة، والتي تشكل عبر مراح ل تطورها التاريخي خاصة في العهد الإسلامي فضاء رحبا للازدهار الثقافي والفكري والحضاري، لم تحض به مدينة أخرى في الجزائر عدى مدينة تلمسان، مما جعلها قبلة لأهل الثقافة والفنون والعلوم واستقطبت العديد من رجال الدين والسياسة والتاريخ والكثير من الشعراء والعلماء والأطباء والصيادلة، ساعدتها مجموعة من الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية ولعل من أبرزها اتخاذها عاصمة للكثير من الإمار ات الإسلامية الناشئة في المغرب الإسلامي واهتمام الأمراء والسلاطين بعمارة المدينة على عهد الموحدين والزيانيين والمرينيين، بشكل جعلها تضاهي أعظم المدن الإسلامية في المشرق والمغرب وبلاد الأندل س، لكن أهم عامل هو قدرتها على الاتصال السياسي والثقافي والفكري ببلا د الأندلس والتي شهدت مدنها فتوحات

عظيمة في العمران والحرف والفنون والفلسفة ومختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الطبيعية والعلوم الطبية في مدن قرطبة وغرناطة واشبيليا وغيرها ، هذا الانفتاح عاد بالخير على مدينة تلمسان وأهلها ، فشيدت القصور والحصون وقنوات السقي والري والحمامات والمساجد والمدارس والمستشفيات وازدهرت التجارة والحرف والصناعات وشجعت أهل العلم والفكر والثقافة والفن لكن أهم عامل ساهم في بزوغ الدور الريادي لمدينة تلمسان هو سقوط الأندلس عام 1492م وهجرة العديد من رجال الدين والفقه والقضاء والشعراء والأدباء والعلماء والأطباء الأندلسيين والعرب واليهود إلى جانب التجار والحرفيين إليها والذين استقروا بها ، مع ضرورة استحضار الدور الذي لعبه أمراء الدولة الزيانية في إبراز الدور الثقافي والحضاري المتميز للمدينة تلمسان فطيلة ما يزيد عن03 قرون حرص ملوك بني زيان على تشجيع العلم والعلماء فق د كان المسجد الكبير يشكل شبه جامعة على النمط القديم يضاهي جامع القرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة، كما تم على عهدهم تأسيس مدارس تلمسان الخمسة الشهيرة والتي كان ت بحق معاهد للدراسات العليا في مختلف العلوم الدينية و الفقهية والعلوم الدنيوية، أهمه ا مدرسة أبو حمو موسى الأول (707هـ- 718 هـ) والمدرسة التاشفينية التي بناها السلطان أبو تاشفين الأول (718هـ- 737هـ) (زرهوني.ط، 1994: 03) وقد كانت تحفة فنية رائعة اعتبرت أفخم مدرسة في المغرب الأوسط والمدرسة المرينية التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني سنة)748هـ/1327م) بقرية العباد حيث ضريح الولي الصوفي الكبير أبي مدين شعيب الغوث الاشبيلي دفين تلمسان ومدرسة أبي عنان(754هـ/1333م) التي بنيت بجوار ضريح الصوفي أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي إضافة إلى ا لمدرسة اليعقوبية التي أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760هـ- 791هـ) سنة 765هـ بجانب الضريح الذي أقيم فيه قبر والده السلطان أبي يعقوب يوسف وفيه ضريح الفقيه إبراهيم المصمودي . (أبو القاسم سعد الله.1981: 105- 106).

على الرغم من تركيز هذ ه المدارس على تعليم الع لوم الدينية والفقهية إلا أن حرص ملوك بني زيان على الاهتما م بالعلم والعلماء دفعهم إلى تحويلها إلى شبه جامعات تقدم إلى جانب العلوم الدينية والفقهية علوم اللغة والبلاغة والنحو والرياضيات والمنطق والحساب وعلم التنجيم والفلك والتاريخ والطب والصيدلة حيث عملوا على توفير ك ل شروط التكوين الناجح من أموال وأساتذة ومؤلفات وكتب ففي مجال الطب والصيدلة أكدت الدراسات التاريخية توفر هذه المدارس على أمهات مصادر الطب العربي ولاسيما مؤلفات ابن رشد وابن سينا وداود الأنطاكي

وابن البيطار وقد عرفت المدينة إنشاء أول مستشفى قبل حكم السلطان أبي حمو موسى ثاني شيده السلطان يوسف ابن يعقوب في مدينة المنصورة في ضواحي تلمسان واستطاع أن يجهزه ويوفر له العديد من الأطباء والعلماء لصناعة الأدوية وتكوين طلبة الطب والصيدلة وتقديم الأدوية بالمجان للمرضى، هذا الاهتمام الذي كان يوليه ملوك تلمسان للأ طباء شجع العديد منهم على الهجرة إلى المدينة خاص ة مع ظروف اللاإستقرار التي شهدتها بلاد الأندلس في تلك الفترة

يقدم التاريخ العربي الإسلامي لتلمسان العديد من الأسماء اللامعة في عالم الطب والصيدلة عربا وأندلسيين ويهود استقروا بتلمسان ومارسو ا الطب في مستشفياتها وفي مختلف قصور أمرائها كما قاموا بتكوين العديد من الأطباء من أبرزهم الطبيب أبو جعفر الذهبي (553هـ- 600هـ/1134م- 1204م) وقد كان طبيب السلطان المنصور والطبيب اليهودي إسحاق ابن سليمان الإسرائيلي عاش في تلمسان له العديد من المؤلفات الطبية في الحمية ونظام التغ ذية وصناعة الأدوية توفي في عام (320هـ/899م) وكان طبيب السلطان عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالقيروان، إضافة إلى الطبيب أبو عبد الله الندرومي واسمه الكامل محمد بن سحنون الكومي الندرومي ولد سنة (634ه/1184م) كان طبيب أمراء دولة الموحدين السلطان ناصر المؤمنين محمد بن يعقوب وبعده السلطان المستنصر يوسف ابن محمد ثم السلطان المتوكل على الله محمد ابن يوسف ابن هود وبعده السلطان عبد الله ابن هود (Khiati, 2000: 58)، كما نجد الطبيب التفاش ي وهو شرف الدين أبو العباس احمد ابن يوسف الحفصي ولد تلمسان وتوفي سنة (651ه./1230م) والطبيب ابن خميس التلمساني وهو أبو عبد الله محمد ابن عمر ابن محمد ابن عمر الجاميري أصله من اليمن ولد بتلمسان (645هـ/1247م)كان طبيبا ومدرسا للطب بالأندلس قتل سنة (708هـ/1309م) والطبيب ابن أبي حجلة وهو شهاب الدين أبي العباس أحدد بن يحيى ابن أبي بكر ا بن عبد الوهاب التلمساني ولد سنة(776هـ/1375م) (Khiati, 2000: 59-60) والطبيب ابن سعيد ابن علي ابن محمد القرشي الأموي التلمساني ولد سنة (772 هـ/1370م) وتوفي (839هـ/126) والطبيب الخطيب ابن عبد السلام التلمساني ولد بالعباد سنة1313 م أخذ الطب من علماء القيروان ا لقاهرة والطبيب أبوعبد الله محمد ابن الشريف العلوي التلمساني ولد بتلمسان سنة (710هـ/1310م) هاجر إلى فاس ثم عاد إلى تلمسان في عهد حكم السلطان أبوحمو موسى الثاني وقد درس بالمدرسة اليعقوبية التي عرفت العديد من العلماء من أمثال عبد الرحمن ابن خلدون ويحيى ابن خلدو ن وابن عرفة والمقري والابيلي وابن الحباك (عبد الرحم ن الجيلالي، 1971: 415)، وقد توفي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سنة(771هـ/1370م) كما نجد مجموعة من الأطباء م ن أمثال أبو إسحاق إبراهيم أحمد المقري التلمساني والطبيب الطلالسي والطبيب محمد الشكوري والطبيب محمد ابن مرزوق التلمساني والطبيب مح مد ابن احمد العكباني (804 هـ/1401م وقد توفي في سنة 871هـ والطبيب محمد أبو الفضل التلمساني والطبيب محمد ابن يوسف السنوسي ولد سنة (832هـ/1422م) وتوفي سنة (895هـ/1490م)والطبيب ابن الفشوش (840ه/م 1436) والطبيب عبد الباسط المصري (866هـ/ 1462م) توفي سنة(871هـ/1466م) وقد برز كذلك الطبيب إبراهيم أحمد الثغري والدي كان له مؤلفات طبية منها " معجم في الطب " وهو عبارة عن قائمة أسماء الأعشاب والأدوية المشاعة بين عامة الناس كما كان له رسالة في الطب حول الأدوية ومنافعها وقد تلقى الطب على يد أبي عبد الله الشريف التلمساني بقي الثغري في أوائل القرن 09هـ (أبو القاسم سعد الله 1918 106 105).كما حل بمدينة تلمسان الطبيب البجاوي أبو الفضل محمد المشدالي وقد درس الطب عن محمد ابن علي بن الفشوش وداع صيته في المغرب والمشرق توفي بالشام سنة866هـ.كما نجد الطبيب داود عبد الله البغدادي. (M. Temmar :1983: 230)

لقد كان الطبيب محل احترام وتبجيل خاصة أهل تلمسان وعامتهم وقد ارتبط بعضهم بالتأليف والتدريس والبعض الآخر بالتداوي والجراحة والصيدلة وصناعة الدواء، حيث يركبون الأدوية من النباتات المتوفرة في البلاد ويصنعون المعاجين والأشربة ويستعملون ا لكي والحجامة والجراحة والتجبير على الرغم من تراجع الاهتمام بالطب والأطباء على عهد الأتراك واقتصاره على الأطباء الأوربيين الذين استقروا بالجزائر وتقربوا من العائلات التركية العثمانية الحاكمة

لقد شهدت تلمسان هجرة العديد من الأطباء اليهود الذين استقروا بالمدينة بعد حالة الفوضى التي أعقبت سقوط الأندل س، على الرغم من توافدهم على الجزائر وتلمسان في فترات سابقة، فإلى جانب الطبيب اليهودي إسحاق ابن سليمان الإسرائيلي المتوفى بتلمسان سنة 320هـ/899م وقد تر ك مؤلفات ورسائل طبية في الحمية ونظام التغذية وصناعة الأدوية ،نجد الطبيب اليهودي يعقوب جابسون " Jabcob Gabison" والطبيب موشي ابن صموال "Mouche Ibn Samual " (820هـ/1418م) (Khiati, 2000: 68)

والمعروف بالطبيب أبي الأشقر والطبيب ابراهام أنكوها " Epraham Ankoa "(1359م- 1442م) والطبيب أستروك كوهان "Astruc Cohen " والطبيب سيمون سيماح دوران "Simon Semah Duran " ولقد ترك هؤلاء الأطباء اليهود العديد من

المؤلفات والرسائل الطبية من أشهرها كتاب موشي بن صموال " " وعبد السلام ابن الخليل " الروض البسيم في حوادث العمر والتراجم"(Khiati, 2000: 68)

على الرغم من التراجع الثقافي والفكري على عهد الأتراك خاصة في السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية بسبب حالة الانحطاط التي أصابتها وازدياد أطماع الدول الاستعمارية إسبانيا وفرنسا واصلت تلمسان أداء دورها الفكري والثقافي والحضاري فنبغ العديد من العلماء في علم الفلك والرياضيات والك يمياء مثل أبو عبد الله بن النجار التلمساني الذي نبغ في العلوم العقلية توفي سنة 749هـ بتونس ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف والمقري وأبو الحسن الفحام والعالم أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم التلمساني الملقب بالأبيلي ولد سنة 681هـ وساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من كبار العلماء منهم عبد الرحمان بن خلدون ويحيى بن خلدون والمقري وأبو الحسن الفحام والعالم أبو عبد الله الشريف والطبيب ابن مرزوق الخطيب وسعيد العقباني وابن الصباغ المكناسي توفي سنة 757هـ(رشيد بورويبة. موسى لقبال، 1984 : 437؛452). والعالم إبن الفحام والعا لم علي البجائي الذي ذاع صيته في الحساب والفرائض والطب وأبو عبد الله الحباك نبغ في الطب والحساب والفرائض ومن تلاميذه الإمام السنوسي توفي سنة 867هـ والعالم أبو الحسن القلصادي الذي ألف الكثير في الرياضيات والفرائض إلى أنه قدم مساهمات في الطب والصيدلة (رشيد بورويبة.موسى لقبال، 1984 :437؛452).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من هنا فإن مدرسة تلمسان الطبية لم تأفل تماما على عهد الأتراك حيث كانت كتابات إبراهيم بن أحمد التلمساني معروفة في الطب، كما أن سعيد المقري جمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية ولاسيما الطب والتشريح والهندسة والفلاحة والتنجيم، كذلك نجد ابن مريم صاحب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل "، نجد محمد بن سليمان صاحب الموسوعة الضخمة في التصوف قد جمع بين الطب والتصوف ونظم رجزا في الموازين والمكاييل الطبية والشرعية، كذلك الطبيب محمد ابن احمد الشريف صاحب رسالة الطب النبوي " المن والسلوى في تحقيق معنى حديث لا عدوى" إضافة إلى عبد الله بن عزوز المراكشي التلمساني في كتابه "ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة " (أبو القاسم سعد الله:1981،432- 434).

تؤكد هذه الأسماء وأخرى الحضور القوي للطب والتكوين الطبي في الصيرورة التاريخية للمجتمع التلمساني في عصر النهضة العربية والإسلامية، خصوصا مع استفادتها من الاتصال السهل بالأندلس وارتباطها بالعديد من الأمراء والسلاطين الذين قدسوا العلم والثقافة، إضافة إلى تأثير سقوط الأندلس1492م في هجرة العديد

من الأطباء العرب واليهود إلى تلمسان، من هنا أمكن القول بأن هذا الإرث التاريخي والحضاري للمدينة ساهم إلى حد بعيد في ضرورة خلق تواصل في التكوين الطبي داخل المدينة يتيح لها أن تستفيد من مؤسسة جامعية طبية حديثة، تستمد وجودها وشرعيتها من هذا الإرث الحضاري والتاريخي.

المـراجـع :

- لويس توماس. يوميات طبيب. ترجمة أمير كامل. دار النشر كتابي. القاهرة. 1983.
- بيار بورديو. أسباب عملية إعادة النظر بالفلسفة. ترجمة أنور مغيث. دار الأزمنة الحديثة. ط01. بيروت. 1998.
- عبد الرحمان بن محمد الجيلاني . تاريخ الجزائر العام . الجزء الأول. ط03. المطبعة التجارية. الجزائر. 1971.
- أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري.(16م- 20م).الجزء الأول.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر.
- رشيد بورويبة. د.موسى لقبال. د.حاجيات عبد الحميد. د عطا الله دهينة. د.محمد بلقراد. الجزائر في التا ريخ. العهد الإسلام ي من الفتح إلى بداية العهد العثماني . المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر1984م.
- مجلة تلمسان، الفن والثقافة . مجلة تصدر ع ن وزارة الثقافة والإعلام .الجزائرية.مطبعة ألتاميراروتبريس.ي.م.إسبانيا1975.
- صالح فركوس. المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين 814ق م – 1962م.دار العلوم.الجزائر.2002م.
- الطاهر زرهوني . التعليم في الجزائر قبل وبعد الإستقلال .المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية . الجزائر.1994.

-P. Bourdieu. Et J. C. Passeron. *Les héritiers. les étudiants et la culture*. Minuit. Paris.1964.
-K. Marx et Engles. *Critique de l'éducations et de l'enseignement*. Maspero. Paris.
- M. Temmar. *Les relations culturelles entre l Algérie et l'extérieur*. SNED.Alger.1983.
-A. Filali. *Tlemcen a l époque des zianides* Thèse d'état en histoire de l'islam.Alger.1995.
- K. Khiati. *Histoire de la médecine en Algérie.de l'antiquité a nos jour*.ANEP. alger. 2000.
-Aiach. P. Fassin. *Les métiers de la santé. enjeux de pouvoir et quête de légitimité*.Anthropos. paris
-M. Benlarbey.(1850-1939). "Premier médecin algérien". *La revue medico-pharmaceutique*. n°:11. decembre. Alger. 1999.
-Reggabi.M. "Histoire de la faculté mixte de médecine et de pharmacie." *La revue. Medico-pharmaceutique*. n°:11. décembre. Alger.1999

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرأة، المواطنة والمشاركة السياسية

د. عبد الكريم العايدي
جامعة وهران

بدأ الاهتمام بالمرأة وقضاياها الاجتماعية والثقافية والسياسية منذ فترة، لأن معرفة أوضاع المرأة ومكانتها تمكن الباحث والمهتم بقضاياها من معرفة درجة تقدم المجتمع وتنميته. ومن بين القضايا الشائكة التي تثير الجدل أكثر من غيرها إشكالية المشاركة السياسية للمرأة، لأن هذه المشاركة تنم عن ما إن كان الفرد يتمتع كغيره من الأفراد بحقوقه وواجباته، هذه الحقوق والواجبات هي وحدها التي تضفي عليه صفة المواطنة.

وبما أن المرأة عانت ولا زالت تعاني من نقص في الاندماج الاجتماعي، فإنه من المهم معرفة حظوظها في المواطنة والمشاركة السياسية عبر بعض المحطات والمؤشرات المتعلقة ببعض الفضاءات السياسية والمؤسساتية.

تميزت المرأة بحضور وممارسات، عبر مسارات تاريخية، جعلتها تفرض وجودها ومكانتها للحصول على المزيد من الحظوظ التي تمنحها حقوق المواطنة التي تجسد سعي الإنسان من أجل "الإنصاف والعدل والمساواة".

ينصب اهتمامنا في هذه المقاربة على واقع المرأة في الفضاء السياسي بالتركيز على حضورها على مستوى الهيئات التمثيلية، لأهمية وحساسية مشاركة المرأة في اتخاذ القرارات التشريعية للإسهام في بلورة المشاريع التنموية.

ولا يمكن تقديم حصيلة لهذه المشاركة دون وضعها في إطار أعمّ يخص واقع المرأة في فضاء أوسع، ألا وهو فضاء بلدان العالم العربي، لتشابه أو تماثل الخصائص المميزة لأوضاع المرأة في هذه البلدان.

ولكي نتمكن من إبراز صورة واقعي ة لهذه الظاهرة، علينا أن نحدد ملامح تمثيل المرأة ومشاركتها دوليا على مستوى الهيئات المنتخبة والبرلمانات، وبالتحديد المجالس الوطنية أو ما يسمى بالمجالس السفلى والعليا (المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة في الجزائر مثلا).

ويمكن بدءا إعطاء صورة لهذا التمثيل با لرجوع إلى المعطيات والبيانات المتوفرة لدى الهيئات الرسمية والدولية كالإتحاد البرلماني المشترك

إن هذه البيانات والمعطيات ترسم، بما لا شك فيه، التمثيل المتواضع، بل الضعيف أحيانا، لهذه المشاركة على المستوى الدولي بمناطقه المختلفة، إذا استثنينا البلدان الشمالية.

إنّ المعدل الدولي لحضور النساء في البرلمانات لا يتجاوز 18.2 بالمائة في حصيلة مؤرخة بتاريخ 31 ماي 2008 (18.4 بالمائة بالنسبة للغرف السفلى أو الغرف الوحيدة و17.2 بالمائة في الغرف العليا).

والملاحظ أن هذه المعطيات تشير إلى تحسن في هذا التمثيل مقارنة ببيانات الفترة السابقة الممتدة من 1995 إلى 2000، هذا التمثيل الذي لم يكن يتجاوز 11.3 بالمائة بالنسبة للغرف السفلى و13.8 بالمائة بالنسبة للغرف العليا.

ومن المفيد إعطاء فكرة عن هذا التوزيع لتمثيل النساء في البرلمانات (الغرف السفلى والغرف العليا) حسب هذه المناطق المختلفة استنادا إلى نفس الحصيلة المحددة بتاريخ 31 ماي 2008 :

- البلدان الشمالية : 41.4 بالمائة (لا شيء بالنسبة للغرفة العليا).
- بلدان أمريكا : 21.6 بالمائة للغرف السفلى و20.0 بالمائة للغرف العليا.
- أوروبا (بما فيها بلدان الشمال) : 21.2 بالمائة و18.8 بالمائة.
- آسيا : 18.4 بالمائة و16.6 بالمائة.
- بلدان إفريقيا ما تحت الصحراء : 17.2 بالمائة و20.8 بالمائة.
- بلدان محيط الهادي : 13.4 بالمائة و31.8 بالمائة.
- البلدان العربية : 9.7 بالمائة و7.0 بالمائة.

ويمكننا بالتالي إعطاء معدل عالمي لنسبة مشاركة المرأة في هذه الهيئات البرلمانية بالرجوع إلى البيانات الواردة في بنك المعلومات للإتحاد البرلماني المشترك:

- نسبة النساء في الغرف السفلى : 18.5 بالمائة.
- نسبة النساء في الغرف العليا : 17.6 بالمائة.
- نسبة النساء في الغرف مجتمعة : 18.4 بالمائة.

وتسجل هذه الإحصائيات 31 امرأة على رأس هذه البرلمانات من مجموع 188 برلمان.

تؤكد هذه البيانات التباين الهام في تمثيل المرأة على مستوى البرلمانات بين مناطق مختلفة من العالم. لكن ما يجب تسجيله قبل كل شيء هو ما يتعلق بواقع البلدان العربية التي تعرف نسبة ضعيفة في هذا التمثيل مع تفاوت فيما بينها، حيث تتوزع نسبة هذا التمثيل من 0 بالمائة إلى 22.75 بالمائة.

ونقدم هذه المعطيات المتعلقة بالبرلمانات الوطنية العربية بالاعتماد على آخر بيانات مسجلة لكل بلد حسب آخر استحقاق انتخابي.

البلد - الهيئة التمثيلية	السنة	العدد الإجمالي	عدد النساء	النسبة %
الجزائر :				
المجلس الشعبي الوطني	2007	389	30	07,71
مجلس الأمة	2006	136	4	02.94
المغرب :				
مجلس النواب	2007	325	34	10.46
مجلس المستشارين	2006	270	3	01.11
تونس :				
مجلس النواب	2004	189	43	22.75
مجلس المستشارين	2008	112	17	15.18
موريتانيا :				
الجمعية الوطنية	2006	95	21	2211
مجلس الشيوخ	2007	56	9	16.07
الجماهيرية العربية الليبية:				
مؤتمر الشعب العام	2009	468	36	07.69

مصر :				
مجلس الشعب	2005	442	8	01.81
مجلس الشورى	2007	264	18	06.82
لبنان :				
مجلس النواب	2005	128	6	04,69
الأردن :				
مجلس النواب	2007	110	7	06.36
مجلس الأعيان	2007	55	7	12.73
الجمهورية العربية السورية:				
مجلس الشعب	2007	250	31	12.40
الكويت :				
مجلس الأمة	2009	50	4	08,00
الإمارات العربية المتحدة:				
المجلس الوطني الاتحادي	2006	40	9	22.50
المملكة العربية السعودية:				
مجلس الشورى	2009	150	0	00.00

وقبل أن ننتقل إلى فحص معطيات متعلقة بتمثيل المرأة في الواقع الجزائري على مستوى الهيئات السياسية المركزية، علينا أن نتقدم ببعض الملاحظات الأساسية الخاصة بمستوى هذه المشاركة وعلاقتها بتحولات اجتماعية عامة خاصة بمكانة المرأة في المجتمع.

تتعلق المقاربة هنا بمستوى معين ومحدد من المشاركة السياسية للمرأة، هو مستوى المشاركة في الهيئات التمثيلية والتشريعية المركزية . تطرح هذه المقارنة إشكالية مرتبطة بمدى مواكبة هذه المشاركة السياسية المركزية التحولات الهامة المتعلقة بمكانة المرأة في الفضاء العمومي خاصة في قطاعات التعليم والتكوين والتشغيل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولإيضاح هذه المسألة، علينا أن ندرك مدى اقتحام المرأة قطاعات واسعة تجسد دخولها عددا من المهن مثلا . تشير البيانات المختلفة لمؤسسات رسمية، كالمجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي (2008)، إلى أن النساء في الجزائر تمثلن أكثر من 30 بالمائة من العدد الإجمالي من الموظفين.

كما تشير معطيات أخرى إلى أن حضور المرأة أصبح مكثفا وقويا في عدد من القطاعات الاجتماعية كقطاع التربية والصحة والقضاء، إضافة إلى حضورهن المعتبر في القطاع الخاص.

فهكذا، تمثل النساء الجزائريات أكثر من 60 بالمائة من عدد المعلمين في قطاع التربية الوطنية، وقطاع الصحة كذلك، وما يقارب 50 بالمائة من سلك الأساتذة الجامعيين، وأكثر من 35 بالمائة من عدد القضاة.

كما تشير معطيات حديثة إلى ظاهرة قد تثير انتباه الملاحظ، هي ظاهرة اندماج النساء في ميدان المسؤولية الاقتصادية، نظرا لتسجيل المركز الوطني للسجل التجاري لـ 100.000 تاجرة ومقاولة سنة 2008.

وانطلاقا من هذه البيانات والمعطيات الخاصة باقتحام المرأة لهذه القطاعات الاقتصادية والاجتماعية خاصة، على المحلل والمراقب أن يتساءل عن مدى تأثير هذه التطورات على مساهمة ومشاركة المرأة في صنع وبلورة القرار السياسي

ARCHIVE

يمكننا أن نعتبر أن المرأة الجزائرية لم تكن غائبة على هذا المستوى، رغم أن تواجدها هنا كان متواضعا بل ضعيفا أحيانا . ولنكتف هنا بالإشارة إلى بعض مؤشرات هذا الحضور بالرجوع إلى بيانات حديثة خاصة بهيئات مركزية منتخبة. إذ نسجل انتخاب 11 امرأة من بين 322 مترشّحا في الا نتخابات التشريعية للمجلس الشعبي الوطني في جوان 1997، و27 امرأة منتخبة من بين 694 مترشّحا في ماي 2002، كما يمكننا أن نسجل دخول 7 نساء مجلس الأمة سنة 2002.

ومن جهة أخرى، نسجل حضور 5 نساء على مستوى المسؤولية الوزارية، بعد التغيير الوزاري لجوان 2002، من بينهن وزيرة مكلفة بشؤون الأسرة والمرأة.

ومن المهم الإشارة إلى تحمل المرأة المسؤوليات في الإدارة المركزية للدولة حيث يبلغ العدد الإجمالي للنساء على هذا المستوى 122 امرأة من بين 285 موظفا، مما يعطينا نسبة معتبرة تصل إلى 42 بالمائة. ويمكننا تسجيل 9 نساء من بين 47 منصبا

عاليا في الدولة، أي بنسبة 19 بالمائة، و16 امرأة من بين 42 مسئولا في الإدارة العليا، أي بنسبة 37 بالمائة، و53 امرأة من بين 78 مديرا، أي بنسبة 67 بالمائة، و44 امرأة من بين 118 مسئولا في التنفيذ، أي بنسبة 37 بالمائة.

ويبقى هذا التمثيل للمرأة على مستوى القرار السياسي ضعيفا، وهذا ما أدى إلى التعديل الدستوري الأخير المتعلق بمنح المرأة حظوظا أكبر في التمثيل السياسي . ويمكننا أن نحدد ثلاث محطات في بلورة وتجسيد هذا الخيار.

كانت المحطة الأولى خطاب رئيس الجمهورية بتاريخ 29 أكتوبر 2008 الذي أكد فيه على ضرورة تمكين المرأة الجزائرية وتدعيم مشاركتها في مختلف المجالات بما فيها المجال السياسي : "تذكرون أني كنت قد أشدت، في كلمتي بمناسبة اليوم العالمي للمرأة، بأهمية المكاسب المستحقة والمكانة المتميزة التي حققتها المرأة الجزائرية بنضالها المجيد وتضحياتها المشهودة. على أن ما تحقق يبقى دون ما هي جديرة به، وما نريده لها . لذلك أكدنا مجدّدا على ضرورة مواصلة العمل من أجل ترقية مكانة المرأة الجزائرية في مجتمعنا، و تفعيل دورها الحيوي في بناء و تطور البلاد، بتذليل كافة العقبات لتمكينها من مشاركة أفضل، على قدم المساواة مع أخيها الرجل في كافة مناحي التنمية، وتشجيعها خاصة على الانخراط في النشاطات الاقتصادية والسّياسية والجمعوية." (خطاب رئيس الجمهورية بمناسبة افتتاح السنة القضائية 2008 – 2009).

وتم بالفعل، في محطة ثانية، تعديل الدستور خلال 2008 بموجب القانون رقم 19- 08، المؤرخ بتاريخ 15 نوفمبر 2008، بإضافة المادة 31 مكررة، تنص على أن الدولة تعمل على "ترقية الحقوق السياسية للمرأة بتوسيع حظوظ تمثيلها في المجالس المنتخبة"، مع الإشارة إلى أنّ كيفية تطبيق هذه المادة يحددها قانون عضوي لاحق.

وتجسدت المحطة الثالثة في رؤية مستقبلية لوضعية المرأة وآفاق تمكينها في مجالات مختلفة، هذه المحطة التي تضمنها الخطاب الرئاسي بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي للمرأة (8 مارس 2008)، هذا الخطاب الذي ركز على المساواة الدستورية بين الجنسين ومبدأ تكريس حقوق المواطنات وحماية حقوق المرأة وارتقائها، كما يشير إلى حساسية هذه المسألة : "غير أنه لا يجب أن نغفل عن

كون المسائل المتصلة بترقية المرأة غالبا ما تتسم بالحساسية ويثقلها الاحتقان، وأنها تكون محل جدل لا ينتهي وأفكار مسبقة وأخرى جزافية لا أساس لها من الصحة .

إن التعقيد هذا يوحي، بحق، بأن هذه المكاسب لا محالة هشة وبأن الأش واط الباقي قطعها طويلة وملتوية."

كما أنه تمّ التركيز، في هذا الخطاب الرئاسي، على ضرورة تطوير الذهنيات بفضل التعليم واكتساب المعرفة : " إن تطور الذهنيان أمر بالغ الأهمية بالنسبة لترقية المرأة، و كل خطوة تسهم في هذا التطور جديرة بالتنويه، ذلك أن المساواة في القانون ينبغي أن تلازمها مساواة فعلية هي وحدها الكفيلة بإكسابها صفة الديمومة التي لا رجعة فيها."

ومن المهم أن نسجل أن هذه النظرة الجديدة المتعلقة بهذه المسألة تؤدي إلى الاعتقاد : "أن تواجد المرأة ما يزال محدودا للغاية، لا سيما في الوظائف التي تسند عن طريق الانتخاب".

هكذا تتأكد، وعلى أعلى مستوى، حقيقة أن مشاركة المرأة في المجال السياسي ما تزال متواضعة بل ضعيفة في الوقت الذي أصبحت تطلعات المرأة فيها أكثر إلحاحا، وأصبح من الصعب تبرير ضعف هذه المشاركة السياسية بالتقاليد

وأصبح العامل المتعلق بالإرادة والعمل للنه وض بهذه المشاركة وتمكين المرأة يطرح نفسه في المقدمة الأولى . إنّ هذا التمكين لا ينقص من دور المرأة في تغيير أوضاعها المختلفة بنفسها، بما فيها وضعها على مستوى التمثيل السياسي، بل يقتضي منها مساهمتها القوية كفاعل اجتماعي أساسي في مجتمع يعرف تحديثا وتنمية متواصلة.

ويتوقف تعزيز المشاركة السياسية للمرأة وتطويرها على تحويل وتغيير التمثلات والتصورات السائدة والمواقف والسلوكات النمطية التي تشكل عائقا أمام هذه المشاركة، كما أنه لا يمكن تصور تنمية لمكانة المرأة كمواطنة في غياب إسهامها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا في آلي ات اتخاذ القرار في الميادين التي تخصها كفاعل اجتماعي وتهم المجتمع كله.

مراجع :

- جماعي، الأداء البرلماني للمرأة العربية: دراسة حالات مصر وسوريا وتونس، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، 2005، 216 ص.
- جماعي، المرأة والمواطنة، مجلة نقد (الجزائر)، عدد 22- 23، ديسمبر 2006.
- جماعي، المشاركة السياسية للمرأة العربية تحديات أمام التكريس الفعلي للمواطنة: دراسات ميدانية في أحد عشر بلدا عربيا، منشورات المعهد العربي لحقوق الإنسان، تونس، 2004.
- جماعي، المواطنة والديموقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، 2004.
- جماعي، موقع المرأة في السياسي في لبنان والعالم العربي، باحثات، الكتاب الرابع 1997- 1998، بيروت، 485 ص.
- كمال محمد، ثامر، "إشكاليتا الشرعية والمشاركة وحقوق الإنسان في الوطن العربي"، مجلة المستقبل العربي، العدد 251، يناير 2000، صص 110- 125.
- وزارة الخارجية (الجزائر)، التقرير الثاني المقدم من الجزائر سنة 2003 بموجب المادة 18 من اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، الأمم المتحدة، 5 فبراير 2003، 91 ص.
- ADEM, *Développement et démocratie*, Alger, Ed. ADEM, 2003.
- Bras (Jean-Philippe), « Elections et représentation au Maghreb », *Maghreb-Machrek*, n° 168, avril 2000, pp. 41-50.
- Callies de Salies (Bruno), *Le Maghreb en mutation*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1999.
- Daoud (Zakya), *Féminisme et politique au Maghreb*, Eddif, 1996.
- El-Ahl (Amira), « Algérie : Les femmes sur les marches du pouvoir », *Courrier international*, n° 913, 30 avril – 6 mai 2008, p. 33.
- Mansour (Mouloud), « Le pouvoir de suffrage et son impact sur les élections législatives du 17 mai 2007 », *Revue algérienne des sciences juridiques, économiques et politiques*, n° 4, octobre 2007, pp. 137-192.
- Mizouni (Naget), « Citoyenneté et femmes au Maghreb », *Naqd*, dossier : « Femmes et Citoyenneté », n° 22-23, Automne - Hiver 2006, pp. 241-260.
- U.I.P. (Union Interparlementaire), *Rapport de l'Union interparlementaire au Comité des Nations Unies pour l'élimination de la discrimination à l'égard des femmes (41ème session; juin-juillet 2008)*, Genève, 2008, 10 p.
- Seriak (Lahcène), *Les élections en Algérie : tout ce qu'il faut savoir*, Alger, Casbah Editions, 1997.
- Tlemçani (Rachid), *Elections et élites en Algérie*, Editions Chihab, 2003.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الهجرة السرية في المجتمع الجزائري أبعادها وعلاقتها بالاغتراب الاجتماعي دراسة ميدانية

د. محمد رمضان،
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية،
جامعة تلمسان.

مقدمة:

يرتسم جدل الهجرة السرية والاغتراب في عمق النقاش الدائر حول المتغيرات الحديثة، التي تندفع إلى الأمام بعنف، مُخلفة في كل يوم مشكلات معقدة جديدة. وتتحول ثنائية هذا الجدل إلى ظاهرة اجتماعية، يبدو أنها أضحت قدرا محتوما على حضارة العصر، لدرجة أنها تستطيع العبث بالثقافة المحلية والمؤسسات التقليدية، التي قادت البشرية إلى هذا المستوى من التطور التكنولوجي . وليست الحياة في المجتمع الجزائري بمنأى عن هذه الظاهرة التي أصبحت تسجل حضورها الشامل في الثقافة الجزائرية المعاصرة. فالفرد الجزائري يعاني في الوقت الحاضر أشكالا من القصور والسلبية واللامبالاة، وهذه المظاهر تلعب دورا بارزا في إستيلاب الشخصية وتخلق ثقافة متسلطة وتعطل الإبداع وتدفع الإنسان إلى دوائر الا غتراب المفضي إلى براثين السلوك الغير المحمود.

إن رحلة الإبحار في المياه المجهولة تبدأ من الاغتراب، وتمر بطريق الخوف والهلع وفي أصل كل خوف أو هلع يكمن القهر والتسلط، وتنتهي بحالات من الانتحار.

أولا: المفاهيم الأساسية:

الهجرة:

تعد الهجرة من أهم العوامل المؤثرة في النمو السكاني، وتعرف بأنها، انتقال الفرد أو الجماعة من مكان إلى آخر، بغرض الاستقرار في المكان الجديد، ويستثنى من ذلك الإقامة المحددة كما في حالات الرحلات الاستكشافية والعلاج والسياحة...

وتنقسم الهجرة من حيث الاستمرار والدوام إلى نوعين: الهجرة الدائمة والهجرة المؤقتة.

أما من حيث اتجاهها فيمكن تقسيمها إلى :هجرة دولية. هجرة داخلية. هجرة موسمية أو دورية. وهذا النوع الأخير قد يندرج جزئيا تحت أحد النوعين السابقين (عطوي.ع، 1993، 142).

والمتصفح للتاريخ البشري يلاحظ أن الهجرة شملت شعوب العالم القديم، جماعات وفرادى. لقد هجرت شعوب من آسيا الوسطى إلى أوربا واستوطنتها، وأخرى من أوربا إلى آسيا وإفريقيا، وكان لشعوب الجزيرة العربية هجرات تاريخية إلى الشمال ومنه شرقا وغربا، كما أن معظم سكان أمريكا اليوم من المهاجرين الأوربيين والأسيويين وغيرهم.

الهجرة الشرعية:

تحدث الهجرة الشرعية في الدول التي تسمح نظمها القانونية باستقبال الأجانب، وتتم عن طريق الدخول من الأماكن المحددة سواء كانت عن طريق البر، الجو أو البحر لإقليم الدولة. وتشترط الدول لدخول أراضيها أو الخروج منها، تقديم جواز سفر، ساري المفعول وصادر عن السلطات المختصة أو وثيقة سفر تقوم مقام الجواز مع احترام مبدأ المعاملة بالمثل بخصوص التأشيرات.

وأشارت ديباجة دستور منظمة العمل الدولية إلى ضرورة حماية مصالح العمال المستخدمين في بلدان غير بلدانهم، وظهرت اتفاقيات دولية وإقليمية تنظم عمليات الهجرة الشرعية، وطورت الدول تشريعاتها الوطنية المتعلقة بالهجرة، وأخيرا انتقلت النظم القانونية للهجرة إلى مرحلة أكثر تطورا، فأصبح القانون الدولي هو الذي يشرع وينظم الهجرة من أجل العمل، وتشرف عليه منظمات دولية، مثل الأمم المتحدة وفروعها المتخصصة، أو المنظمات ذات العلاقة . (عثما ن.أ، ياسر.ع، 2008، 26.25).

تولي الجزائر عناية بالغة لموضوع الأجانب، حيث اتخذت السلطات العمومية منذ السنوات الأولى من الاستقلال تدابير تشريعية وتنظيمية تخص حركة وإقامة وعمل الأجانب في الجزائر، وتتمثل في:

- الأمر رقم 211.66 والمرسوم التنفيذي 212.66 المؤرخ في 02 ربيع الثاني عام 1386 الموافق 21 يوليوسنة 1966 والمتعلق بوضعية الأجانب في الجزائر.
- القانون رقم 81. 10 المؤرخ في09 رمضان عام 1401الموافق 11يوليوسنة 1981والمتعلق بشروط تشغيل العمال الأجانب.

- المرسوم82. 51المؤرخ في 09 ربيع الأول عام 1403 الموافق ل 25. ديسمبر1982، يحدد كيفيات منح رخص العمل والرخص المؤقتة للأجانب.

- مرسوم رقم 276.86المؤرخ في 09 ربيع الأول عام 1407 الموافق 11نوفمبر سنة 1986، يحدد شروط توظيف المستخدمين الأجانب في مصالح الدولة والجماعات المحلية والمؤسسات والهيئات العمومية.

- القانون المدني: الأحكام المتعلقة بتشغيل العمال الأجانب:المواد 21.20.19.18.

وتماشيا مع التطور الذي عرفه العالم في العقد الأخير من نهاية القرن العشرين، وما رافقه من تدفق للمهاجرين وتزايد في أعدادهم، وظهور الإجرام العابر للقارات وجرائم المخدرات والإرهاب والتهريب، اتخذت الجزائر مجموعة من الإصلاحات الجذرية، شملت المؤسسات والتشريع الوطني في مختلف المجالات. وتعد التعديلات التشريعية المتعلقة بوضعية الأجانب من بين الإصلاحات المتخذة في هذا السياق. وطبقا لتعليمات المجلس الوزاري المشترك المنعقد في 14يونيوسنة 2005 التي تنص على "تجريم الهجرة الغير الشرعية"، قامت الحكومة الجزائرية بإعداد قانون يتعلق بتحديث التشريع الذي يخضع له الأجانب في الجزائر. وقد استوحى هذا القانون فلسفته من:

- نتائج تقييم التشريع الساري المفعول منذ الاستقلال والمتعلق بتسيير السكان الأجانب في الجزائر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- المصالح الدبلوماسية والإستراتيجية للجزائر.

- الحاجة إلى تنظيم إقامة الأجانب، بالنظر إلى التوجُهات المتعلقة بالسياسة الوطنية للتشغيل والشروط المتعلقة بالأمن والنظام العمومي.

- ضرورة تحديث الآليات القانونية التي تسمح للمصالح المختصة بمراقبة الأجانب بتأدية مهمتها في أحسن شروط الفعالية.

- الحماية القانونية للأجانب الذين دخلوا بصفة شرعية إلى الجزائر أو الذين لهم صفة مقيم في إطار احترام قوانين البلاد وكذلك حماية أملاكهم وذلك طبقا للمادة 67 من الدستور الجزائري. (دستور1996).

- التحديات المعاصرة التي تفرض على الدول التحكم في تنقل الأجانب عبر الحدود، لاسيما وأن الهجرة غير الشرعية أضحت عاملا مهددا للأمن القومي، نتيجة تطور الإجرام العابر للقارات، وجرائم الإرهاب والمخدرات والتهريب.

ـ تطور العلاقات بين الأفراد والمجتمعات، والاهتمام الذي أصبح يحضا به الأجنبي في ظل التشريعات والاتفاقيات الدولية الحديثة، حيث حددت مركزه القانوني، وبينت التزاماته وحقوقه وما يترتب عليه أثناء وجوده على أرض دولة خارج بلاده.

الهجرة غير الشرعية:

الهجرة غير الشرعية في معناها العام هي التسلل عبر الحدود البرية والبحرية، والإقامة بدولة أخرى بطريقة غير مشروعة. وقد تك ون الهجرة في أساسها قانونية وتتحول فيما بعد إلى غير شرعية، وهو ما يعرف بالإقامة غير الشرعية.

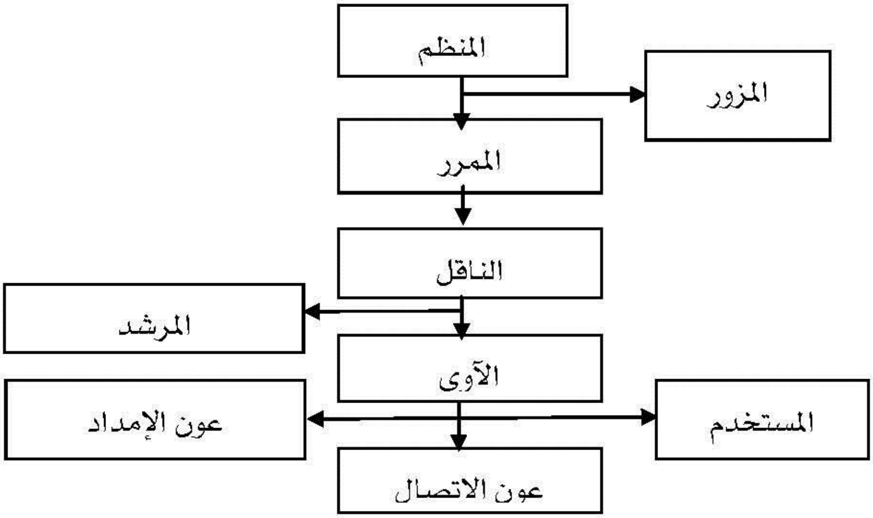
وتتضمن الهجرة غير الشرعية في مضمونها الهجرة السرية، وتعني الاجتياز غير القانوني للحدود، دخولا أو خروجا من التراب الوطني للدولة.

باتت ظاهرة الهج رة السرية ظاهرة عالمية، إذ تصنف في المرتبة الثالثة تبعا لخطورتها الإجرامية بعد المتاجرة بالمخدرات والأسلحة، وقد تفاقمت في فترة ما بعد الحرب الباردة بسبب: التطور التكنولوجي في ميدان الاتصال ووسائل النقل المراقبة الهشة للحدود النزاعات العرقية النزوح القسري. (عمران.أ، 1997، 92.91). هذه المظاهر الجديدة دفعت الناس إلى البحث عن حياة أفضل في بلدان أجنبية، وحفزت أنواعا مختلفة من الهجرة، فظهرت تنظيمات وعصابات إجرامية مختصة تعرف بشبكات الهجرة السرية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن شبكة الهجرة السرية هي جمعية مهيكلة لعصابة أشرار، عادة ما تكون متدرجة وأحيانا مقطوعة فيما بينها، تقوم بتنظيم وتسهيل استدراج وتوجيه مهاجر واحد أوعدة مهاجرين سريين من بلد إلى آخر، غالبا ما تكون مقابل مبالغ مالية، وأحيانا مقابل قيم أخرى (دليل عملي، د،م،م،ه،س، 2007، 04).

ويمكن تحديد طائفتين من الأشخاص المتورطين في جرائم الهجرة السرية : أولاهما من يرتكبون جرائم تهريب الأفراد والمخدرات، أما الطائفة الثانية فتضم المشاركين في الجريمة عن طريق التحريض أو الاتفاق أو المساعدة، والبيان النموذجي التالي، يوضح البناء الهرمي لشبكة مختصة في الهجرة السرية.



المصدر: الديوان المركزي لمكافحة الهجرة السرية

تواجه الجزائر بصفة مباشرة وبشكل متزايد خطر ظاهرة الهجرة السرية، كونها بلد عبور إلى معظم دول أوروبا الغربية، وقد تحولت مؤخرا، إلى بلد اتجاه ومنبع، فتكونت عدة شبكات مختصة في الهجرة السرية تعمل على جلب سيول متدفقة من الرعايا الأفارقة والأسيويين إلى الجزائر، كما تعمل أيضا على حث شباب جزائريين على الهجرة غير الشرعية نحو أوروبا "الحراقة "(دليل علمي، د،م،م،ه،س، 2007، 02).

ظهر في الفترة الأخيرة مسلك بحري جديد استعملت فيه قوارب طولها من 4 إلى 5 أمتار و2,5 متر عرضا، تم رصدها على مشارف المدن الساحلية للغرب الجزائري من قبل الفرق الجهوية للتحري حول الهجرة الغير الشرعية، ويلاحظ أن المهاجرين السريين يكونون أفواجا، كل نوع يضم 10 إلى 12 شخص، يشتركون في شراء قارب مجهز بمحرك قوته بين 40 و60 حصانا بثمن يتراوح بين 100 000 إلى 500 000 دج، أو يقومون بسرقة قارب من أحد الموانئ غير المحروسة، ثم يبحرون باتجاه " ألميريا" بإسبانيا.

إن هذه القوارب غير الشرعية تحمل على متنها صهاريج البنزين لضمان العبور الذي يدوم بين 7 و8 ساعات، وهي مجهزة بنظام السير عبر الأقمار الصناعية (G.P.S)، ويستعمل المهاجرون السريون بوصلة تمكنهم من تحديد المسار انطلاقا من شواطئ الاستجمام وموانئ الصيد غير المحروسة، وتخص على العموم:

ساحل وهران: (كاب بلون، كاب فالكون، بوسفر).

ساحل عين تموشنت: بوجزار، مداغ (بني صاف)، ساسل، تارقة.

ساحل تلمسان: آقلة، المخلد.

وعادة ما يفضل هؤلاء المهاجرين السريين العبور على جزر " حبيباس " التابعة للإقليم الجزائري نظرا لموقعها الجغرافي والإستراتيجي حيث تقع على مسافة 72 ميل أي 130 كلم من ميناء " ألميريا " بإسبانيا.

تهريب البشر:

يعني تهريب البشر: " تدبير الدخول غير المشروع لشخص ما إلى دولة ليست موطنا له أولا يعد من المقيمين الدائمين فيها، من أجل الحصول بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على منفعة مالية أو منفعة أخرى " (عثمان، أ، ياسر، ع، 2008، 19).

وقد نشطت حركة التهريب البشري بعد الحرب العالمية الثانية في الدول الفقيرة، وتطور هذا النشاط خلال العقدين الأخيرين الذي شهد تزايدا مذهلا في عدد الأشخاص الذين يبحثون عن فرص للعمل، وحاولوا عبور البحر المتوسط بوسائل نقل غير مأمونة، وغالبا ما كانت هذه المحاولات محفوفة بالمخاطر. وتقوم بالتهريب البشري عصابات دولية منظمة تظم أشخاصا من دوي الخبرة والتجربة، سبق لهم أن عملوا لدى مؤسسات متخصصة في الهجرة، والسفر والسياحة، والنقل (البري والبحري)، فحسب الدراسة التي أجراها مركز دراسات اللاجئين سنة 2006، نجد أن المهاجرين الذين يعبرون منطقة البحر الأبيض المتوسط هم ضحايا الاتجار بالبشر، وبعضهم من النساء والأطفال الذين يقعون ضحايا للاستغلال وإساءة المعاملة مدى الحياة. وتضيف الدراسة إلى أن الهجرة السرية للدول الأوربية تسهم في تأجيج مشاعر الكراهية للأجانب، وبعض هؤلاء المهاجرين يتعرضون لأخطار الاضطهاد وانتهاكات حقوق الإنسان.(عثمان، أ، ياسر، ع، 2008، 42).

الاغتراب:

ظهر مفهوم الاغتراب Aliénation لأول مرة عام 1837 في كتابات"Falret" ليدل به على مظاهر الاضطراب العقلي، ووظف فيما بعد في مجال علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس الاجتماعي، ويفيد المعنى الأول لهذه الكلمة التي اشتقت من الكلمة اليونانية persona على معنى نقل الملكية من شخص إلى آخر إكراها. (دسوقي.ك، 1988. 77). وقد تطور هذا المفهوم في أحضان الفلسفة، حيث تمتد

الجذور الأولى إلى "هيجل" ومن بعده "ماركس" ثم الوجودية و "سارتر". ويعني الاغتراب عند "هيجل" إما الانفصال أو التخلي (محمد خضر.ع 150.1999)، اهتم "ماركس" بنقل المصطلح إلى الفكر المادي، ومنحه طابعا أمبريقيا وسوسيولوجيا، بعد أن كان مفهوما ميتافيزيقيا ولاهوتيا (ألنوري. ق،21.1979)، ويرى أن الاغتراب هو العملية التي يتحول فيها الإنسان إلى حالة "تشيؤ" حيث يُستعبد من خلال العمل، ويصبح بقوة عمله سلعة تباع في الأسواق (وطفة .ع، 247.1998)...ويعني "التشيؤ" وقوع الإنسان في قبضة الأشياء، فتنشأ علاقات اجتماعية بين الأشياء وعلاقات مادية بين الأفراد، الأمر الذي يؤدي إلى أن يمنح الناس ثقتهم للأشياء وليس لبعضهم البعض.

ويشير مفهوم الاغتراب إلى الحالات التي تتعرض وحدة الشخصية للانشطار، نتيجة تأثير العوامل الثقافية والاجتماعية التي تتم داخل المجتمع، فيفقد الفرد مقومات الإحساس المتكامل بالوجود. ووفقا لهذا المفهوم فان اغتراب الشخصية يتحدد بالأبعاد التالية: (وطفة.ع248.1998).

- حالات عدم التكيف النفسي التي تعاني منها الشخصية مثل: عدم الثقة بالنفس، القلق المستمر، العنف الاجتماعي، المخاوف المرضية.
- غياب الإحساس بالتكامل الداخلي في الشخصية.
- العقد النفسية التي تعتري الشخصية مثل: عقدة أوديب، عقدة النقص، عقدة الاضطهاد.
- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية مثل: الشعور بالانتماء، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالمكانة، وغياب الإحساس بالأمن.

ترجع "هورني" HORNEY أسباب الاغتراب لدى الإنسان إلى ضغوط داخلية، حيث يوجه نشاطه نحو الوصول إلى أعلى درجات الكمال، حتى يحقق الذاتية المثالية، ويصل بنفسه إلى الصورة التي يتصورها، وتقول في هذا الصدد: "يصبح المغترب غافلا عما يشعر به حقيقة وعما يحبه، ويرفضه أو يفقده، أي يصبح غافلا عن واقعه ويفقد الاهتمام به ويصبح عاجزا عن اتخاذ قراراته حيث لا يعرف حقيقة ما يريد، كما يعيش في حالة من اللاواقعية، وبالتالي في حالة من الوجود الزائف مع نفسه " (أمال محمد.ب، 1989، 30). ويعتبر " إريك فروم" من رواد التحليل النفسي الجدد، الذين ساهموا بالعديد من مؤلفاتهم في توضيح وتفسير الاغتراب،

ففي كتابه "الهروب من الحرية" (محمد . خضر، ع، 1999، 52.51). حدد " مولفان سيمان" MELVIN SEEMAN خمسة أبعاد لمفهوم الاغتراب هي : الحرمان من السلطة، غياب معنى الحياة، غياب المعايير، ومن ثم غياب القيم والإحساس بالغربة عن الذات (MADELEINE –G 19،12). فالإنسان كينونة جوهرها العقل والحرية والعمل والانتماء (وطفة.ع، 1998، 247)، والمساس بهذه الأبعاد يعرض الشخصية الإنسانية للقسر والإكراه والتشويه، فتحدث عملية الاغتراب. فالاغتراب في حدود ما نوظفه في هذه المقالة هو الوضعية التي ينال فيها الحرمان والقهر واليأس من جوهر شخصية الإنسان..وهي الحالة التي يتعرض فيها الفكر الإنساني إلى التشويه، فتضعف أحاسيس الشعور بالهوية وبالثقة بالنفس وبالغير، ومن ثم تظهر مظاهر الاغتراب في أشكال أحاسيس مفرطة بعدم وجود معنى للحياة، وفقدان الروابط والعلاقات الاجتماعية، واندثار قيم التضامن الاجتماعي والعدالة الاجتماعية، والانهزامية، والانطواء عن الذات.

ثانيا : المفاهيم المساعدة.

ـ التطرف : تعددت التعريفات الخاصة بالتطرف تبعا لنوع الدراسة التي اعتمدت المفهوم، ويشار إليه في قاموس "روبار" بأنه تجاوز حدّ الاعتدال والغلو في الاعتقاد والسلوك (MICHEL.L 1997,742.). التطرف من المنظور النفسي، هو تجاوز خط الاعتدال ورفض الواقع المحيط بالفرد بما يحمله هذا الواقع من نظام قيمي ومعايير (MICHEL.L ,121 ,1953) أما في المجال السوسيولوجي، فالتطرف يشير إلى تجاوز حد الاعتدال في الخطاب أو الموقف أو الفعل، مما يترتب على ذلك ممارسة سلوك غير محمود (PIERRE.A 1977,46.) والهجرة السرية هي النهاية القصوى في قبول الواقع.. وهي تشير إلى التطرف في السلوك والتعصب في الموقف وبالتالي هي ظاهرة تمثل رفض الواقع والانسحاب أو الهروب منه.

التفاوت الاقتصادي والاجتماعي: هو عدم العدالة في توزيع الثروة والأشياء ذات القيمة بين مختلف طبقات المجتمع وفئاته، نظرا لعدم كفاءة السياسات التوزيعية وانجازها لصالح فئات دون أخرى (محمود.ع، 246.1980).

تكتسي عملية التوزيع أهمية خاصة في التنمية الشاملة، فهي مدخل أساسي لتلبية مطالب فئات المجتمع وبالتالي القضاء على التفاوت الاقتصادي والاجتماعي ومنه الحفاظ على الاستقرار السياسي.

- الحرمان:

يقصد بالحرمان عدم إشباع الحاجات التي يراها الأفراد أساسية أو مرغوبة أو متوقعة.والمحرومون هم أكثر فئات المجتمع شعورا بالاستياء تجاه الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الموجودة (سوريال. إ، 233، 1977). تعتبر نظرية الحرمان إطارا مهمّا في تفسير الهجرة السرية، حيث يعبّر الحرمان عن الإحباط والمعاناة النفسية والاجتماعية، وهو قصور وتعارض بين الأهداف التي يضعها المجتمع لأفراده وبين الوسائل المتوفرة. والأفراد الذين يمارسون سلوك الهجرة السرية يعانون من الإحباط في الثقافة التي يعيشون فيها، حيث أن التجارب التي مروا بها كان لها تأثير على أدوارهم.

- الوعي بالحرمان:

يدل الوعي بالحرمان، على معنى إدراك الجماعات التي تعاني الحرمان حقيقة أوضاعها وقدرتها على تغيير هذه الأوضاع (سموك.ع.53.2006). وهنا تبرز أهمية سلوك الهجرة السرية الذي يحرّك الأنظمة السياسية، بضرورة الانتباه إلى فئة من فئات المجتمع والإسراع بتشخيص الأعراض المرضية التي يعانون منها مع العمل على تحسين وترقية الأوضاع الاجتماعية من أجل حياة تُحترم فيها الكرامة الإنسانية.

ثالثا: قراءة سوسيولوجية في الاتجاهات النظرية المفسرة للهجرة السرية:

تصنف الهجرة السرية حسب طبيعتها القانونية بأنها جريمة يعاقب عليها القانون. ويخول المشرع المؤسسات المتخصصة الصلاحيات الواسعة لمحاربة هذه الظاهرة بكل الوسائل المشروعة. وينظر الاتجاه الاجتماعي إلى الهجرة السرية على أنها إفراز اجتماعي ناجم عن مظاهر السلوك والتفاعلات والعمليات الاجتماعية المتنوعة التي تحدث داخل المجتمع (اليوسف.ع، 2006، 31).

ويكتسي هذا المفهوم بعدين أساسين:

البعد الأول:

يربط التغيرات بمعدل نسبة الهجرة السرية في البناء الاجتماعي بما في ذلك التحولات والنظم الاجتماعية. وفي هذا الصدد يناقش الباحث الاجتماعي ارتباط معدلات الهجرة السرية ببعض المتغيرات الاجتماعية مثل: الحراك الاجتماعي والصراع الثقافي ونظام التدرج الاجتماعي والعوامل الاقتصادية والسياسية وكثافة السكان وعمليات توزيع الثروة والدخل والعمل وغيرها.

البعد الثاني:

يربط بين الهجرة السرية والتفاعل الذي يحدث بين الأفراد داخل البناء الاجتماعي. الحقيقة أن تفسير سلوك الهجرة السرية لا يخرج عن إطار النظريات الاجتماعية الأساسية في علم الاجتماع وهي النظرية الوظيفية والماركسية وأخيرا التفاعلية الرمزية.

إن دراسة الهجرة السرية من منطلق المنهج الوظيفي تقوم على أساس أنها:

- سلوك يخالف القواعد والأنماط السلوكية المتعارف عليها في المجتمع، فضلا على أنه يعتبر تعديا صارخا عل ى قواعد الضبط الاجتماعي، فيفضي إلى تمزيق العلاقات والأبنية الاجتماعية.

- الإخفاق في النظم الاجتماعية المختلفة من حيث تشريب أفراد المجتمع المعايير والقيم التي يرعاها المجتمع (اليوسف. ع، 2002، 25).

- فشل أفراد المجتمع في استيعاب معاييره القائمة على التضامن والتساند الاجتماعيين.

لذلك يؤكد أنصار المنهج الوظيفي على ضرورة توقيع العقاب على مثل هذا النوع من السلوكات مع ضرورة إتباع طرق العلاج والإصلاح.

وحسب الاتجاه الماركسي أو الصراعي، فإن الهجرة السرية تحدث نتيجة التوزيع غير العادل للثروة في المجتمع، مما يحدث الصراع الدائم بين من يملكون هذه الثروة والذين لا يملكونها. ويشهد العصر الحالي نظاما عالميا يقود إلى الثراء الفاحش، ويلاحظ أن الديمقراطية أفرغت من مضمونها في عصر العولمة بحكم الأثرياء الجدد، فاختلّت توازنات التنمية، وارتفعت البطالة في الدول كلها (الغنية والفقيرة على حد السواء)، وظهر الفقر، واشتدت حدة المعاناة، وأصبح الوضع لا يطاق، فبدا الصراع واضحا بين الطبقات، مما دفع البعض إلى البحث عن منافذ الهجرة السرية.

ويعد عالم الاجتماع الأمريكي "إدوارد ليمرت" أبرز من يمثل الاتجاه التفاعلي الرمزي أو التأثير الاجتماعي المتبادل، حيث يرى أن الانحراف في السلوك بصفة عامة هو نتيجة صراع ثقافي تظهر أثاره في نظم المجتمع. (اليوسف.ع، 38.2006).

وعليه يمكن القول أن الهجرة السرية تحدث تبعا لثلاثة أبعاد:

البعد الفردي: يكمن في الضغوط النفسية الداخلية التي تؤثر مباشرة على الفرد فتدفعه إلى سلوك الهجرة السرية.

البعد الاجتماعي: يقوم نتيجة وجود تنظيمات اجتماعية أو عصابات ترى أن الهجرة السرية سلوك مشروع يسد نقصا في الأيدي العاملة لدى بعض الدول الصناعية في مجال الخدمات والبناء والزراعة وبصفة عامة المهن الهامشية.

ولذلك تشدد التشريعات الحديثة على توقيع العقاب، إذ تنص على توسيع مجال الأفعال التي تعتبر الهجرة السرية جريمة. ويعاقب القانون الأشخاص الذين كونوا عصابات أو تنظيمات بغرض تنظيم عمليات الهجرة السرية، أو الأشخاص المساعدين، سواء بالإرشاد أو تسهيل العبور إلى الدول، أو إيواء الأشخاص المهربين أو تهريبهم، أو إعداد أماكن لإخفائهم، وتوفير وسائل النقل لهم، أو القيام بعملية النقل في حد ذاتها (عثمان الحسن.م، ياسر عوض.أ،2008. 49.50).

البعد الظرفي: ينشأ نتيجة الأحداث المفاجئة التي تعرض الأفراد إلى ضغوطات بيئية قاسية يستحيل معها التفكير الحكيم واختيار السلوك السليم. والهجرة السرية وفق هذا المنظور تحدث بالتدرج، تبدأ الرحلة بالاغتراب والإحساس بالعزلة والقهر في الثقافة المحلية، وتنطلق بمحاولات أولية، تمر بردود أفعال مجتمعية قاسية (من جهة المجتمع يرد على السلوك بالعقاب ومن جهة أخرى عصابات متخصصة تثير العنف الاجتماعي)، تتخلل الرحلة تبادل مشاعر الحقد والكراهية والعدوانية بين الأطراف المشاركة فيها، وتنتهي بإضفاء وصمة الانحراف والإجرام على المهاجر السري. وفي هذه المرحلة جميع الاحتمالات تكون واردة. إن ارتفاع نسبة الهجرة السرية مرده وصمة الانحراف التي أضفاها المجتمع على المهاجر السري. وما يزيد الأمر تعقيدا هو الزج بهذا "المنحرف" إلى المؤسسات العقابية ووضعه في قاعات تلتهب بنيران التسلط والقهر والإجرام بكل أشكاله.

رابعا: أبعاد الهجرة السرية:

يخلص من التحليل السوسيولوجي للاتجاهات النظرية المفسرة للهجرة السرية، أن هذه الظاهرة ترتبط بالأبعاد التالية:

ضغوط البيئة وما يصاحبها من تفكك في قواعد الضبط الاجتماعي والروابط الاجتماعية. وفي هذا الإطار، يمكن توظيف نظرية التفكك الاجتماعي لتفسير

الهجرة السرية، وتفيد الملاحظات الميدانية أن المهاجرين السريين يعيشون في بيئات اجتماعية منخفضة المستويين الاقتصادي والاجتماعي.

اختلال التوازن بين الأهداف والوسائل المتاحة لتحقيق هذه الأهداف بالطرق المشروعة، يُعرض المجتمع إلى حالات من الاضطراب، فيضعف التماسك والتساند الاجتماعيين، مما يؤدي إلى ظهور الانزلاقات.

وعليه يمكن تصنيف الهجرة السرية وفقا لنظرية " دوركايم " في الانتحار إلى ثلاثة أنواع:

أ- الهجرة السرية وكونها انتحار أناني:

يحدث هذا السلوك بسبب النزعة الفردية المتطرفة وانفصال الفرد عن الثقافة التي يعيش فيها. ينشأ هذا النوع من السلوك نتيجة ضعف درجة التضامن الاجتماعي داخل المجتمع (الدوري ع، 1991، 75)، حيث لا يجد المهاجر السري من يسانده عندما تحل به أي مشكلة وتصبح الهجرة السرية من الاستراتيجيات الحيوية التي يحددها لنفسه.

ب- الهجرة السرية وكونها انتحار إيثاري:

تحدث هذه الحالة عندما يكون الفرد مرتبطا ارتباطا وثيقا بجماعات أوأشخاص متشبعين بفكرة الهجرة السرية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ج - **الهجرة السرية وكونها انتحار أنومي:**

تحدث الهجرة السرية في هذه الحالة عندما : تنحل النظم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في المجتمع. تضطرب الحياة الاقتصادية والسياسية في المجتمع. تحدث هوة ثقافية تفصل بين الأهداف وبين الوسائل، بين الطموح الشخصي وبين ما هو متوفر فعلا (العفيفي. ع، 1983، 92،91).

وبالنتيجة يمكن القول أن هذه النظرية تفسر الهجرة السرية من منطلق أن المهاجر السري يشعر بأنه غير قادر للوصول إلى الوسائل المشروعة لتحقيق الأهداف التي وضعها المجتمع لأفراده، بسبب عدم توافر الفرص الوظيفية، أو لأنه لا يستطيع الاندماج في الثقافة المجتمعية، فيُجبر على الانسحاب.وهذا الموقف يعتبر نمط من أنماط عدم المعيارية – حسب ميرتون (اليوسف.ع، 2006، 47).

3- مخالفة القيم والمعايير التي يشترك فيها غالبية الناس في المجتمع. في هذا الصدد تفسر الهجرة السرية على أساس أنها سلوك منحرف، ويقوم المجتمع بإضفاء

وصمة الانحراف على المهاجر السري ، مما يؤدي إلى بلورة نقمة الجمهور ضد الشخص الممارس لهذا السلوك، وأيضا تأكيد نقمة الفرد الموصوم نح و نفسه (اليوسف.ع، 2006، 53).

4. التقليد حيث أن الهجرة السرية تنشأ بتأثير نموذج يحتذى به. وتلعب وسائل الإعلام دورا هاما في تحريك الدوافع الذاتية، حيث أن الفرد الذي يملك استعدادا للهجرة، يندفع بقوة التقليد نحو ممارسة هذا السلوك.

5. الموضة ويعبر عن ذلك بقانون الاندماج أو قانون تداخل الموضات والعادات وتزاحمها وحلول بعضها محل بعض الآخر، (اليوسف. ع، 2006، 55).

6. قوة خفية في المجتمع تدفع الفرد إلى البحث عن منافذ للهجرة السرية، من منطلق أن أرض الله واسعة، ... والإنسان لابد عليه أن يتحرك ليرزق.

خامسا: أسباب الهجرة السرية:

تناولت دراسات عديدة أسباب الهجرة منها محاولة EVERTT. Lee بتحديد أربعة عوامل تحفز للهجرة وتؤثر في تياراتها وهي : عوامل مرتبطة بالمنطقة الأصلية للمهاجرين – عوامل مرتبطة بمنطقة استقبال المهاجرين – العوائق المتداخلة بين المنطقتين – العوامل الشخصية (ع طوي.ع، 1993، 151، 152).

واهتم Mangalem بتتبع عملية التغير الاجتماعي وانعكاساتها على قيم الناس وحاجاتهم وطموحاتهم وتوقعاتهم، فدرس البناء الاجتماعي وركز في دراسته على ثلاث مستويات هي : النسق الاجتماعي – نسق الثقافة – نسق الشخصية ، وتوصل إلى أن الهجرة:

تبرز في خضم هذه العملية كفاعل أساسي في حفظ التوازن الديناميكي للنظام الاجتماعي ككل.

تعتبر ميكانيزما تعويضيا بالنسبة للأفراد الذين يواجهون مشكلات في ثقافتهم الأصلية.تعتبر من القيم الخاصة المضادة لانعكاسات التغير الاجتماعي (غانم. ع، 1982، 32). وتوصلت نتائج دراسات أخرى، إلى أن التغيرات الديموغرافية أثرت في الهجرة الدولية من حيث:

- ارتفاع معدلات النمو السكاني في الدول النامية ، مع غياب برامج تنموية ناجحة، مما أدى إلى ارتفاع معدلات البطالة وتدني مستويات الأجور ، الأمر الذي دفع ببعض سكان هذه الدول إلى البحث عن فرص عمل في دول أخرى.

- أن الدول الصناعية تمر منذ أكثر من نصف قرن، بآخر مراحل التحول الديموغرافي التي تتميز بانخفاض كبير في معدلات النمو السكاني، وارتفاع نسبة كبار السن نتيجة للانخفاض الشديد في معدلات الوفيات (عثمان . أ، ياسر، ع، 2008، 7).

ولا جدال من أن دراسة جدية للهجرة السرية تتطلب الأخذ بعين الاعتبار الأسباب التاريخية والاقتصادية والسياسية للواقع الذي نشأت فيه، فضلا عن العوامل الطارئة أو الاعتراضية التي تصاحب التغيرات الاجتماعية المفاجئة والعنيفة. إن طرح إشكالية هذه القضية لازال يتم بطريقة فجة، بل أن الإعلام يكتفي بنشر المعلومات والبيانات التي يجمعها من مصادر المؤسسات المكلفة بمحاربة الظاهرة، ويوظف مصطلحات ومفاهيم تفيد التهويل والإثارة والتحذير (قوارب الموت)، فشاعت تصورات بسيطة وضيّقة، مع أن المشكلة في بعديها الإنساني والأمني، تتجاوز كل ذلك إلى معضلة حقيقية تتفاقم بحدة وقساوة.

إذن فالقضية هي أن الهجرة السرية تعود إلى مجموعة واسعة وكبيرة من الأسباب (نسعى من خلال هذه المقالة إلى الكشف عن بعض هذه الأسباب، لأن الظاهرة تتسم بالشمول، ومعالجتها مسألة تتعدى إمكانيات الباحث الواحد وحدود البحث الواحد) نلخصها في التالي:

1. تفتيت الاستعمار للبنية الاجتماعية:

إن تحديد الأفعال التي مارسها المستعمر على المجتمع الجزائري تكتسي خصوصية سوسيوتاريخية هامة يجب التمعن فيها لفهم الحاضر، ذلك أن الاستعمار باشر في وقت مبكر عملية إعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية وفق تطور الرأسمالية الأوربية وتحقيقا لأغراضها (سموك.ع،186.2006).وشكلت الممارسات التفكيكية للبنية الاجتماعية أولى الانعكاسات النفسية على الثقافة الجزائرية، تجلت أبعادها في ما يلي:

- ظهور خلال فترة الاحتلال فئات رأسمالية مختلفة شكلت القاعدة الأساسية في خدمة مصالح المستعمر.

- تدمير المجتمع الزراعي بطريقة عنيفة أجبرت السكان على العودة إلى زراعة الاكتفاء الذاتي، فتفككت علاقات الإنتاج القديمة بدون أن تستبدل بعلاقات اجتماعية أرقى (Alain. B ,1968.292)، وهاجر عدد قليل من سكان القرى إلى

المدن بحثا عن العمل في المهن الهامشية، وبقي العدد الأكبر في الريف مداوما يقاوم المستعمر متحملا كل أشكال المعاناة (جغلول.ع، 244.1982).

- إلحاق التدمير العنيف بالسهول والمناطق الحضرية.

- إنتاج الفرد المنفصل عن قبيلته على حد تعبير"بورديو " (Bourdieu. P. 1964. 30.31).

- انهيار القرابة الجماعية وارتفاع مكانة القرابة الدموية (Jacques B. 1956. 50.51).

<u>عدم العدالة في توزيع الثروة الوطنية:</u>

ارتبط الاستقلال الاقتصادي للجزائر، باعتماد سياسة تنموية شاملة، كان الهدف منها إحداث تغيير عميق في البنية الاقتصادية للمجتمع الجزائري، وذلك بالقضاء على البطالة وإعادة توزيع الدخل الوطني وتغيير الأنماط السلوكية التقليدية. إلا أن الأزمة الاقتصادية العالمية التي ظهرت في 1986 كشفت عيوب السياسة الاقتصادية المنتهجة (سموك .ع،02.2006)، ولاحظ الباحثون أن الاضطرا بات الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجزائري في مراحل مختلفة كان سببها:

- تجاهل القيم الثقافية المحلية في إعداد وتنفيذ سياسة التنمية الاقتصادية.

- انعدام تصور شامل ومنسجم لمشاكل الهوية الثقافية والاعتقاد بأن الاقتصاد كفيل بتعويض النقص الثقافي (Pierre. C. 1992.200.207).

- إقصاء الشعب الجزائري من المشاركة في السياسة التنموية على عكس مشاركته الجماعية في تحرير البلاد واسترجاع السيادة الوطنية.

- غياب دور الفرد الجزائري كحافز في العملية التنموية، جعل الاقتصاد الوطني جسد بدون روح، خاصة وأن هذا الاقتصاد بني على أساس فكر غربي عنيف.

- تدفق ريوع النفط، سمح بالزيادة في الاستهلاك الكمالي لشرائح اجتماعية محددة، بينما ظلت القاعدة العريضة من المجتمع الجزائري تعاني عدم إشباع الحاجات الأساسية للحياة . وازدادت المعاناة بشروع الدولة في تنفيذ سياسة الإصلاحات الاقتصادية والهيكلية وكانت آثارها واضحة على الفئات الدنيا من المجتمع سواء تلك القاطنة في الأرياف أوفي المدن (سموك.ع،209.2006). لذلك شعر الفرد الجزائري بعدم توافر المساواة في توزيع الثروة الوطنية، وظل يعاني من ارتفاع

الأسعار ومن انعدام السكن، مما عجل بنزوح مجموعة كبيرة من سكان الأرياف نحو المدن والإقامة بأحياء متخلفة تفتقر لأدنى شروط الحياة الكريمة. ترتب عن هذا الوضع انهيار نظم التماسك العائلي والتضامن الاجتماعي، وتراجع دور مؤسسات الضبط الاجتماعي فكثرت الاحتجاجات والاضطرابات الاجتماعية، وأصبح العنف هو السمة السائدة في المجتمع الجزائري.

- إن العملية التوزيعية للثروة الوطنية ارتبطت بالعديد من المشكلات التي عرفها المجتمع الجزائري عبر مراحل مختلفة. والواقع عندما يتضاعف عدد الحاصلين على الشهادات الجامعية وشهادات التكوين المتخصص، وتعجز مؤسسات المجتمع عن استيعاب هذا العدد الهائل من الشباب وتحقيق حد أدنى من طموحاتهم، وعندما تعجز المؤسسات في تسيير تدفق السكان من الأرياف نحو المدن، فان المهاجرين سوف يعانون الفقر المدقع والاغتراب الاجتماعي ويشعرون بالبؤس والقهر والشقاء...هذا ما يؤدي إلى الزيادة في الإحباط الفردي والسخط الجماعي. ومن تم يصبح الفرد أكثر استعدادا للانخراط في الثقافة الهامشية. والهجرة السرية تعتبر مظهرا من مظاهر هذه الثقافة وتعد الملجأ والمتنفس الأمثل لتأكيد الذات وتحقيق الهوية.

ARCHIVE

1 مصيدة العولمة:

شهد العالم في نهاية القرن العشرين أزمات متعددة أربكت دول العالم الثالث، فقد حدثت هزة النفط في السبعينات، وعانت المجتمعات من الركود الاقتصادي في الثمانينيات بسبب المديونية الخانقة والأزمات المتتالية، وظهرت نزاعات عرقية ودينية وسياسية في مناطق مختلفة من العالم، واستسلمت حكومات الدول النامية لشروط المؤسسات المالية العالمية، وجاءت تكلفة التصحيح الهيكلي للمؤسسات الاقتصادية لهذه الدول باهظة، فظهرت الاضطرابات الاجتماعية وعمت الاحتجاجات، وطالب المتضررون برفع الغبن عنهم. إن التوسع العالمي لقوى السوق الذي جاءت به العولمة مزق في الصميم الملايين من البشر في العالم كله (عمران.أ، 1997، 11، 35)، وأصبح الناس يعانون يوميا من تفاقم البطالة، وتعمق الفقر، وعدم المساواة، وانهيار أنظمة المساعدة الاجتماعية، وعدم الأمان في المستقبل. ويبدو أن العولمة غير مرخص لها بتغيير قواعدها في العقود الأولى من هذا القرن، وأن حلقات البؤس والحرمان سوف تستمر وتتعاظم يوميا، وتصبح حالة مفروضة لا مفر منها في

المستقبل .(روبرت .إ، 2005، 24، 230). ولا غرابة من أن نلاحظ اليوم أعدادا من المهاجرين ينتقلون من المناطق الريفية إلى المدن، ومنهم من يتابع تحركه إلى أقطار ما وراء البحار للبحث عن فرص تبقي لهم الأمل في استمرار الحياة . في هذا الإطار، تشير الإحصائيات إلى أن الهجرة من الريف إلى المدن في دول العالم الثالث، كانت في الخمسينيات من القرن العشرين حوالي 17٪ فقط من سكان العالم الذين يعيشون في المدن، أما في نهاية العقد أصبحت النسبة حوالي 40٪ وفي العقود المبكرة من القرن الحالي ستصل إلى حوالي 50٪ (عمران.أ، 1997، 92). وخلال العقدين الأخيرين، ازدادت معدلات الهجرة الخارجية بنسبة عالية بالمقارنة بالفترات التاريخية السابقة، وتقدر منظمة الهجرة العالمية عدد الذين يعيشون خارج أوطانهم الأصلية نحو 192 مليونا من سكان العالم، كما تقدر حاليا معدلات الزيادة السنوية لتيارات الهجرة الخارجية بنحو 2.9٪ مقارنة بنحو 2.1٪ للفترة التي انتهت بنهاية القرن العشرين (عثمان.أ، ياسر.ع، 2008، 8.7). وورد في تقرير الأمين العام عن الهجرات الدولية والتنمية (14 و15 سبتمبر 2006)، أن التعداد الإجمالي للهجرة في العالم يبلغ حوالي 192 مليون شخص، وأن نسبة الهجرة السرية فيه تتراوح ما بين 15.10٪ أي ما بين 19 مليون و28 ونصف المليون مهاجر سري. ومن المحتمل أن تزيد الاضطرابات الاجتماعية التي تشجع الهجرة الغير الشرعية المفضية إلى ارتكاب الجرائم.وما وجود عصابات وتنظيمات تقوم بتهريب البشر وتمارس التزوير وتجارة المخدرات إلا مظهرا بارزا من مظاهر الأنشطة الإجرامية الأوسع انتشارا في الوقت الحاضر.(عثمان. أ، ياسر.ع، 2008، 47).والملاحظ أن العولمة سائرة في تضخيم عدد من الأزمات الاجتماعية وفي انتشار أشكال جديدة من الإجرام. وحينها لا يجد الأغنياء ولا الفقراء فكاكا من هذه المصائد.

وعن الجزائر فقد ورد في تقرير جامعة الدول العربية حول الهجرة المغاربية إلى أوروبا خلال الأربعة أشهر الأولى من عام 2005، أن عدد الجزائريين المقيمين بإسبانيا بصفة شرعية يقدر ب:17 ألف شخص وفقا للإحصائيات الرسمية ، فيما تضم فرنسا وحدها نحو90 ٪ من المهاجرين الجزائريين إلى الخارج، بينهم نحو 20 ألف شخص لا يملكون الوثائق الرسمية. وأحصت المديرية العامة للأمن الوطني الجزائري خلال الخمس السنوات الأخيرة حوالي 8839 مهاجرا غير شرعي.وأشارت دراسة ميدانية قامت بها مصالح الدرك الوطني الجزائري، إلى أن القضاء عالج ما

بين سنتي 2000 و2006 حوالي 151 قضية تورط فيها 899 مهاجرا غير شرعي ، وصنفت الدراسة المهاجرين السريين إلى أربعة أنواع هي:

الموقوفون الذين ارتكبوا أفعالا يعاقب عليها القانون في الدول التي تسللوا إليها.

الموقوفون خلال عمليات تفتيش قامت بها مصالح أمن البلد الذي تمكنوا من دخوله بطريقة غير شرعية.

المرحلين الذين تم طردهم بعد القبض عليهم في بلدان أجنبية.

المهاجرين السريين الذين دخلوا بلدان أجنبية بجوازات سفر منتهية الصلاحية أومزورة.

وأفادت الدراسة أن من مجموع المهاجرين السريين الموقوفين والمرحلين فيما بعد إلى الجزائر، يوجد :

11 قاصرا ، 50 مسنا تتجاوز أعمارهم الخمسين سنة ، 09 نساء ، 144 شخص ينحدرون من ولايات الجزائر، تليها وهران بـ 91 حالة ، والباقي موزعين على الولايات التالية على الترتيب: تيزي وزو ، تلمسان،شلف.

<u>سادسا: معاينة ميدانية لمظاهر اغتراب المهاجر السري في المجتمع الجزائري:</u>

تهدف الدراسة الحالية إلى التحقق من أن الاغتراب الاجتماعي الذي يعاني منه الفرد الجزائري في بيئته الأصلية هو العامل الأساسي الذي دفعه إلى ممارسة سلوك الهجرة السرية لهذا الغرض أجريت مسحا اجتماعيا شمل:

مدينة " مغنية " الواقعة على الحدود الجزائرية المغربية ، وهذا لما تحمله هذه المدينة من دلالات عميقة في مجال الهجرة السرية: (يوجد بهذه المدينة مخيمات تقع في " واد جورجي " و" واد وردفو " تجمع الأفارقة من الرجال والنساء الذين دخلوا التراب الجزائري بطريقة غير شرعية)

- **المؤسسات المتخصصة في محاربة الهجرة الغير الشرعية.**

مكاتب المحاماة التي تكفل أصحابها بالدفاع عن المهاجرين السريين أمام الجهات القضائية. وتبعا لذلك قمت بتحديد العينة (بلغ عددها 168 مهاجرا سريا) التي راعيت في اختيارها الضوابط التالية : أن تكون من الجزائريين الذكور البالغين من العمر أكثر من 21 عاما.

المرحلين إلى الجزائر.

الذين باءت محاولات هجرتهم السرية بالفشل وتم القبض عليهم في حالة تلبس.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإقامة بصفة دائمة في التراب الجزائري.

وتضمن الاستبيان عددا من الأسئلة، تم اختيارها من مقياس الاغتراب الذي أعده الدكتور: " محمد خضر عبد المختار" (وهو مقياس يرتكز على أن الاغتراب محصلة لأربعة عوامل هي: العوامل النفسية، السياسية، الاقتصادية والاجتماعية).

جرى تطبيق هذا المقياس خلال الدراسة الاستطلاعية، فسجل أفراد العينة أعلى درجة على المقياس ككل، مما جعلني أركز البحث على الاغتراب الاجتماعي لأنه يشمل العوامل الثلاث الباقية، وتتمثل مظاهره في:

شعور الفرد بأن المادة هي الغاية ولم تعد وسيلة، وأن الإنسان الذي يملك الثروة هو صاحب الشأن في هذا العصر، مما ينعكس ذلك بالشعور بالضيق والقلق والخوف من المستقبل.

شعور الفرد بالحرمان وعدم المساواة في توزيع الثروة، والتمادي في الكسب الغير المشروع، وبفقدان الحب، وبالانفصال عن الذات عن الأخريين، مما يصاحب ذلك الشعور بأن الحياة أصبحت لا معنى لها.

ARCHIVE

ضعف أحاسيس الشعور بالهوية مثل: الشعور بالانتماء، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالوحدة والتضامن الاجتماعي، احترام الصغير للكبير، خوف الجار على جاره، الكسب المشروع.

هذا وقد توزعت أسئلة الاستبيان على أربعة محاور: تعلق المحور الأول منها بالأسئلة الخاصة بالسمات العامة لأفراد عينة البحث، وشمل المحور الثاني الأسئلة الخاصة بعامل: " فقد المعايير الاجتماعية "، وضم المحور الثالث أسئلة عامل: " حالات اللا معنى "، أما المحور الرابع فقد تعلق بالأسئلة التي تفيد عامل: " فقدان الروابط الاجتماعية".

تجدر الإشارة، وفي حدود جهودي الشخصية، إلى أنني لم أستطع الحصول على دراسات تناولت بالبحث العلاقة بين الاغتراب والهجرة السرية. إلا أنه تبين لي، من خلال المناقشات التي أجريتها مع الباحثين المهتمين بالموضوع، وإطارات تعمل في مجال مكافحة ظاهرة الهجرة السرية، أن فئة المهاجرين السريين، أو ما يعرف في الثقافة الجزائرية المحلية بـ: "الحراقة " يعانون من انشطار في الشخصية. واستقر رأيي على هذا الاستنتاج بعد أن قمت بالدراسة الاستطلاعية، واستطعت من خلالها أن أقيم علاقات تفاعلية مع مجموعة من المهاجرين السريين مكنتني من تأمل

جوانب مختلفة من حياتهم الخاصة والعامة ، وتوصلت إلى قناعة مفادها : أن هؤلاء الأفراد يعيشون في وسط اجتماعي متأزم يدفع إلى البحث عن منافذ للهجرة السرية.ومن هذا المنطلق قمت بصياغة الفرضية على النحو التالي : إن الاغتراب الاجتماعي ينال من جوهر شخصية الفرد الجزائري ، فيدفعه إلى ممارسة سلوك الهجرة السرية. فالاغتراب الاجتماعي هو السبب (المتغير المستقل) والهجرة السرية نتيجة (المتغير التابع).

جدول رقم 01 : يبين توزيع أفراد العينة حسب متغير السن.

مدى العمر	من 22الى 24سنة	من 25الى 29سنة	من30 إلى 34سنة	من35 إلى 40سنة	المجموع
التكرار	16	30	72	50	168
النسبة	9.52	17.85	42.85	29.76	100

يتضح من الجدول رقم (1) أن أكثر التكرارات (72) فردا يمثلون نسبة 42.85٪ من مجموع المجيبين، كانوا في المدى العمري 34.30 سنة ، وتليها (50) فردا يمثلون نسبة 29.76٪ من المجموع، كانوا في المدى العمري 40.35 سنة.

ويلاحظ أن الإنسان يكون في قمة العطاء ويبلغ ذروة نشاطه الاقتصادي في الفترة العمرية الممتدة ما بين 30. 40 سنة. إن العمل قوة تكسب الشخص هوية الانتماء وتحفزه على التماس فرص الترقية الاجتماعية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جدول رقم 02 : يوضح توزيع أفراد العينة حسب موطن الإقامة.

الإقامة	شلف	تلمسان	تيارت	الجزائر	مستغانم	المدية	عين تموشنت	غليزان	المجموع
التكرار	24	36	16	20	16	12	22	22	168
النسبة ٪	14.28	21.42	9.52	11.90	9.52	7.14	13.09	13.0 9	100

يتضح من الجدول رقم (2) أن المهاجرين السريين ينحدرون من مناطق تضررت كثيرا من أعمال العنف التي شهدها المجتمع الجزائري خلال العقد الأخير من نهاية القرن العشرين.

وأفاد المستجوبون أن المناطق التي يقيمون بها (ريفية وشبه حضرية) لا تشكل مركزا للإشعاع الثقافي والعلمي والفني ، فضلا على أنها تفتقر للبرامج التنموية التي تتماشى وتحديات العصر. إن التنمية غير المتوازنة والتركيز على منطقة دون أخرى من العوامل التي تؤدي إلى التهميش والشعور بعدم المساواة ، مما يدفع الأفراد إلى البحث عن البديل غير محمود.

جدول رقم 03: يوضح المستوى التعليمي لأفراد عينة البحث.

المستوى العلمي	ابتدائي	متوسط	ثانوي	جامعي	غير مبين	المجموع
التكرار	16	20	72	52	08	168
النسبة ٪	9.52	11.90	42.85	30.95	4.76	100

يتضح من الرجوع إلى الجدول رقم (03) أن 124 فردا من عينة الدراسة يمثلون نسبة 73.80 ٪ من مجموع المجيبين، لديهم مستوى تعليمي يفوق مرحلة المتوسط، وتتوزع هذه النسبة كالتالي:

12 فردا يمثلون نسبة 16.66 ٪ لديهم مستوى ثاني ثانوي

60 فردا يمثلون نسبة 83.33 ٪ لديهم مستوى ثالثة ثانوي

22 فردا يمثلون نسبة 42.30 ٪ من ذوي المستوى الجامعي، غير حائزين ع لى شهادة الليسانس.

30 فردا يمثلون نسبة 57.69 ٪ حائزين على شهادات جامعية في العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة.

والقراءة الحدسية لهذه النتائج تبرز:

إن ارتفاع عدد الخرجين من الثانويات والجامعات مرده إلى عدم وجود فرص للعمل، والبطالة تعتبر من العوامل الهامة التي تؤدي إلى الإحباط الفردي والسخط الجامعي، وقد أشارت نتائج دراسة أجراها FARGUES، أن معدل البطالة في الجزائر يتراوح بين 32.3 ٪ للذين تبلغ أعمارهم 23 عاما، إلى 21.3 ٪ للذين تبلغ أعمارهم 29 عاما (05، 2005، FARGUES، P).

وجود عدد هائل من خريجي الثانويات والجامعات وحتى التعليم المتوسط (يمثلون نسبة 45.13 ٪من مجموع 144 فرد)، حائزين على شهادات من مركز التكوين المتخصص في: الإعلام الآلي، التبريد، الميكانيك ا، الكهرباء، الحلاقة، إصلاح الأجهزة الإلكترو- منزلية. هذه الفئة تطمح في الاستفادة من فرص التأهيل العلمي ومن عقود عمل تسمح لها بتسوية الإقامة وترقية الوضع الاجتماعي.

اطلاع أفراد العينة بأن الدول الأوروبية في حاجة إلى:

أصحاب الكفاءات العلمية: فقد جاء في "الكتاب الأخضر" الصادر عن المفوضية الأوربية حول سياسة الهجرة، أن ظاهرة تهرم المجتمعات الأوروبية،

ستتسبب في خلق نقص في العمالة مقداره 20 مليون شخص لعام 2030م. ولتدارك هذا العجز، لا بد من اتخاذ إجراءات لتنظيم وتسيير الهجرة مستقبلا، خاصة لفائدة أصحاب الكفاءات العالية، بحيث يصبح من حق الحاصلين على عقود عمل، والقادرين على إثبات حاجاتهم للعائد الاقتصادي للعمل، حيازة التصريح اللازم للإقامة (عثمان.ياسر، ع، 2008، 37.36).

أشخاص يوجهون للعمل في المهن الهامشية مثل الزراعة والبناء والمطاعم والفنادق والخدمة المنزلية والرعاية المنزلية للمرضى الطاعنين في السن. ويتغاضى عن الإقامة غير الشرعية للأفراد المستفيدين من عمل في هذه القطاعات، ولا يجبرون على دفع الضرائب، وبالمقابل لا يحصلون على حقوقهم المدنية، وتجدهم يواجهون ظروفا صعبة (عثمان.أ، ياسر، ع، 2008، 37)، وكثيرا ما يقع هؤلاء في قبضة المساومات والتهديد والمؤامرات التي يقف من ورائها عصابات إجرامية، فيتورطون في قضايا الإرهاب والمخدرات والتهريب والتزوير.

جدول رقم 04: يبين الحالة الاجتماعية لأفراد عينة البحث.

الحالة الاجتماعية	أعزب	متزوج أكثر من واحدة	مطلق	غير مبين	المجموع
التكرار	120	32	12	02	168
النسبة ٪	71.42	1.19	7.14	1.19	100

يتضح من الجدول رقم (04) أن عدد العزاب في عينة المهاجرين السريين بلغ 120 فردا يمثلون نسبة 71.42 ٪ من مجموع المجيبين، أما عدد المتزوجين بواحدة أو أكثر بلغ 34 فردا يمثلون 20.23 ٪ من مجموع المجيبين، وهكذا يبدوا واضحا ارتفاع نسبة العزاب بين أفراد عينة الدراسة، ولعل ذلك يرجع إلى أن الأعزب يظهر غير مكترث بالمسؤولية التي تقع على عاتق المتزوج، فهذا الأخير يحسب للعواقب قبل أن يقدم على ممارسة فعل ترفضه الثقافة التقليدية، مما جعل المتزوجين أقل إقداما على الهجرة السرية.

جدول رقم 05: يوضح وجود الأولاد لدى عينة الدراسة.

وجود الأولاد	نعم	لا	غير مبين	المجموع
التكرار	16	150	02	168
النسبة ٪	9.52	89.28	1.19	100

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتضح من الجدول رقم (05) أن 16 فردا يمثلون نسبة 9.52 ٪ من مجموع المجيبين لديهم أولاد (12 فردا لديهم طفل واحد و4 أفراد لديهم طفلين).

إن عدم وجود الأولاد أو وجودهم بأحجام منخفضة، يعتبر من الأسباب الهامة التي تجعل الدوافع إلى الهجرة تتغلب على الموانع.

جدول رقم 06: يوضح المسئول عن إعالة الأسرة لدى عينة الدراسة

المسئول عن إعالة الأسرة	المبحوث نفسه	الوالد	الوالدة	الأخ	الإخوة	غير مبين	المجموع
التكرار	17	115	16	8	8	4	168
النسبة ٪	10.11	68.45	9.52	4.76	4.76	2.38	100

يتضح من الرجوع إلى الجدول رقم (06) أن من يقوم بإعالة أسر أفراد العينة هو الوالد، وتقدر النسبة ب 68.45 ٪ تمثل 115 فردا، وهي نسبة تفوق بكثير تلك التي تخص المبحوثين الذين يعولون أسرهم بأنفسهم، وبلغ عددهم 17 فردا يمثلون نسبة 10.11 ٪ من مجموع المجيبين. وتبرز هذه النتيجة أن المبحوثين لا يتحملون مسؤولية الإنفاق على الأسرة، يتعزز هذا الاستنتاج بالقراءة المتأنية للنتائج المتحصل عليها، حيث تفيد أن:

46 فرد نسبتهم 27.38 ٪ من مجموع المجيبين، تمثل فئة المتزوجين، بواحدة أو أكثر - والمطلقين.

16 فرد نسبتهم 34.78 ٪ من مجموع المبحوثين المتزوجين والمطلقين، لديهم أولاد (سبقت الإشارة أن 12 فرد لدى كل واحد منهم طفل واحد و04 أفراد لكل واحد منهم طفلين).

17 فرد يعولون أسرهم بأنفسهم، يمثلون نسبة 36.95 ٪ من مجموع المبحوثين المتزوجين – بواحدة أو أكثر – والمطلقين.

29 فرد نسبتهم 63.64 ٪ من مجموع المبحوثين المتزوجين - بواحدة أو أكثر- والمطلقين، يتحمل إعالة أسرهم إما الوالد أو الوالدة. وفي هذا تدعيم للاستنتاج السابق.

جدول رقم 07: يبين راي أفراد العينة من مكانة الأب داخل الأسرة في المجتمع المعاصر

طبيعة المكانة	مكانة متماسكة، الأب يحتفظ بسلطته داخل الأسرة	مكانة مختلة التوازن، تراجع سلطة الأب داخل الأسرة	غير مبين
التكرار	63	91	14
النسبة ٪	37.5	54.16	8.33

يتضح من الجدول رقم (07) أن 91 فردا يمثلون نسبة 54.16 ٪ من مجموع المجيبين، صرحوا بأن سلطة الأب داخل الأسرة تراجعت في المجتمع المعاصر.

وتعكس هذه النتيجة الانفتاح السريع الذي أصبح يشهده المجتمع الجزائري ابتداء من العقدين الأخيرين من نهاية القرن العشرين. إن التغير الذي حدث بفعل تأثير العولمة أثر في تماسك الأنساق الاجتماعية ومن بينها، النسق الأسري الذي لحقه بعض التغيرات السلبية مثل، ضعف سيطرة الأب على أفراد أسرته وتراجع مكانته المعهودة في الثقافة التقليدية. وتعكس الإحصاءات المتعلقة بالطلاق وإجرام الأحداث هذا الواقع المأساوي، حيث تفيد بعض الدراسات أن جرائم الأحداث تكمن أسبابها في ضعف قدرة النسق الأسري في الاضطلاع بدوره التربوي الحضاري (رمضان.م، 2003، 192).

جدول رقم 08 :يبين موقف المبحوثين من العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع.

طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع	علاقات اجتماعية ايجابية تقوي أحاسيس الشعور بهوية الانتماء.	علاقات اجتماعية سلبية تضعف أحاسيس الشعور بهوية الانتماء.	غير مبين
التكرار	66	94	08
النسبة ٪	39.28	55.95	04.76

من مراقبة الجدول رقم (08) يتضح أن 94 فردا يمثلون نسبة 55.95٪ من مجموع المجيبين،صرحوا بأن العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع الجزائري تعاني القصور والسلبية بسبب:

حالات التفكك الاجتماعي، اللامبالاة، العنف الاجتماعي...

غياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي في شخصية الفرد الجزائري.

حالات عدم التكيف النفسي، الازدواجية في الشخصية، عدم الثقة بالغير الحواجز النفسية والاجتماعية، غياب الحب الصادق وحل محله حب المصلحة وحب المنصب، المجافاة الانفعالية بين الأفراد.

حالات العقد النفسية، عقدة التخويف، عقدة التسلط..الخ

ضعف أحاسيس الشعور بالهوية : غياب الإحساس بالأمن والأمان في المستقبل، غياب التضامن الاجتماعي السخي، الشعور بالغربة عن الثقافة التي يعيش فيها الفرد، الشعور بالقصور في استثمار ما يقدمه المجتمع من ثروات وخدمات...

إن العلاقات الاجتماعية التي تعاني القصور والسلبية واللامبالاة تلعب دورا كبيرا في استلاب الشخصية، وتخلق ثقافة متسلطة تعطل الإبداع وتدفع الفرد إلي دوائر الجمود والاغتراب .ويبدوا أن الشخصية الجزائرية تعاني أزمة حقيقية ومستمرة في هذا المجال، والعوامل التي أدت إلى تشكيل مثل هذه الشخصية متعددة أهمها : العوامل التاريخية الاستعمارية ـ العوامل الاقتصادية ـ

التغيرات المفاجئة والعنيفة ـ العولمة وفلسفتها في القضاء على الثقافة التقليدية . هذه هي الحقيقة التي تشير إليها أغلب الدراسات العربية الجارية في هذا المجال، فقد بينت الدراسات أن الثقافة العربية تعاني من العلاقات التي تأخذ طابع الإكراه والقهر والتسلط، وأن الشخصية العربية بصورة عامة تعيش حالة اغتراب واستلاب بسبب : فقدان الثقة بالنفس، وغياب التلقائية والابتكارية، الشخصية الحالمة، اللامبالاة والخوف والخجل (قنير.م،1992، 114)، وترسم دراسة "فؤاد زكريا" صورة مأساوية للشخصية العربية قوامها سمات الخداع والنفاق واللامسؤولية والخضوع الأعمى والسلبية (وطفة.ع،1998، 249).

جدول رقم 09 : يوضح موقف المبحوثين من وجود صديق مخلص إخلاصا حقيقيا.

وجود الصديق المخلص	نعم	لا	بدون جواب
التكرار	19	141	08
النسبة ٪	11.30	83.92	04.76

بالرجوع إلى الجدول رقم (09) يتضح أن 141فردا يمثلون نسبة 83.92٪ صرحوا بأنه يستحيل وجود صديق مخلص إخلاصا حقيقيا في الوقت الحاضر.وتبرز هذه النتيجة مدى الاغتراب الذي أصبح يعاني منه الإنسان المعاصر.

والإحساس بالغربة عن الذات وعن الجماعة والشعور باليأس واللامبالاة، وعدم الثقة بالنفس، والقلق المستمر، والعلل المرضية ... مظاهر أصبحت تشكل سمة العصر، فالإنسان في الوقت الحاضر، أصبح منفصلا انفصالا حادا لم يسبق له مثيل، سواء عن الطبيعة أو المجتمع أو حتى عن نفسه وأفعاله (عبد المختار.م،1999، 11)، وبالتالي أصبح عاجزا عن التفكير السليم واتخاذ القرار الحكيم، فضلا عن تحقيق ذاته وفق الفضائل الخلقية .

جدول رقم10 : يبين موقف أفراد العينة من الطرق المتبعة في تنفيذ الحقوق *الشخصية بالمجتمع الجزائري*

الطرق المتبعة في تنفيذ الحقوق الشخصية	الطرق القانونية	طرق الوساطة والعلاقات الشخصية	غير مبين
التكرار	30	130	08
النسبة ٪	17.85	77.38	04.76

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتضح من الجدول رقم (10) أن 130 فردا يمثلون 77.38 ٪ من مجموع المجيبين، يلاحظون

بأن الحقوق الشخصية أصبحت تنفد بالمجتمع الجزائري عن طريق الوساطة والعلاقات الذاتية. إن مثل هذه الممارسات تجعل المواطن يفقد الثقة بمؤسسات الدولة التي تحل محلها مفاهيم العشائرية والقبلية ومنطق أخد القانون باليد . ولا سبيل لتجاوز هذا الإشكال سوى تغذية روح المواطنة المسئولة، وذلك بالعمل على إشعاع التضامن الاجتماعي الذي يعتبر قاعدة أساسية في أي مجتمع سياسي (يوجين.د ،هيكوك. إ،د.ت،277). إن مؤسسات المجتمع المدني مطالبة بالعمل على تعزيز أسس الحكم الديمقراطي السخي والذي يستند مرجعيته من الدستور والقانون، فليس هناك من خطر على المجتمع سوى أن يظل أفراده في موقف المتفرج أو على الأقل في حالة إنتظارية قاتلة (139، 1991، LECA،j).

جدول رقم11 : يبين مدى شعور أفراد العينة بالمساواة في الاستفادة من الحقوق بالمجتمع الجزائري

الشعور بالمساواة في الاستفادة من الحقوق	نعم	لا	بدون جواب
التكرار	28	120	20
النسبة ٪	16.66	71.42	11.90

يتضح من الجدول رقم (11) أن 120 فردا يمثلون 71.42 ٪ من مجموع المجيبين صرحوا بأنهم لم يستفيدوا من كافة الحقوق التي تكفلها الدولة لمواطنيها. في هذا السياق أكد وزير التضامن الوطني الجزائري ، السيد جمال ولد عباس ، أن الأسباب الرئيسية لتنامي ظاهرة الهجرة السرية تتمثل خاصة في : " البطالة والتهميش والتوزيع غير العادل للثروات والرشوة في التوظيف وفي أساليب قبول ملفات تشغيل الشباب، وغلق أبواب الإدارة في وجوههم " (جريدة.ش، 2008، 4). إن مثل هذه الممارسات تحول المؤسسات في الدولة إلى ملكية خاصة لطبقة مسرتفيدة في مقابل سجن كبير للطبقة المحرومة، فتقدم باليد اليمنى الامتيازات والمكافآت وتضرب باليد اليسرى على الطبقات المستضعفة لتمارس عليها الإقصاء والتهميش والتميز، وفي ذلك إجهاض لمجتمع المواطنة (زين الدين. م، 2005، 66).

وفي هذا المعنى يقول:" مايكل هدسون" " إن أكبر عقبة في طريق الشرعية هو عدم توافر المساواة بدرجة كافية، والمساواة ليست كما تفسرها النظم السياسية والاقتصادية المختلفة، فالناس في العصر الحديث ترى في الإحساس بالمساواة شرطا أساسيا لتقبلها الاختياري لوضع ما وتعني العدالة أيضا القوانين المنسجمة مع المرطق والمعقولية في السلوكات وعدم التحيز لمذهب أو عقيدة أو فئة "(102.91، 1995، Dumand.P).

جدول رقم 12 : يوضح رأي المبحوثين من نظرة المجتمع إلى الإنسان والمال في الوقت الحاضر.

مكانة الإنسان والمال في الوقت الحاضر	ـالقيمة للإنسان. المجتمع يقدر الإنسان من دون أي اعتبارات أخرى	القيمة للمال المجتمع يقدر فقط صاحب المال	غير مبين
التكرار	26	136	06
النسبة ٪	15.47	80.95	3.57

يتضح من الجدول رقم (12) أن 136 فردا يمثلون نسبة 80.95 ٪ من مجموع المجيبين، صرحوا بأن المال انفرد بمكانته على حساب الإنسان، وأصبح المجتمع يحترم ذلك الشخص الحاذق الذي استطاع أن يجمع لنفسه ثروة هائلة ولوعن طريق الكسب غير المشروع.

وتبرز هذه النتيجة خطورة الأفكار الهدامة التي تسربت في هذا العصر إلى منظومة القيم في الثقافة الجزائرية، وكيف أن الإنسان المعاصر أصبح بحكم طبيعة التغير المتسارع والعنيف مهيأ للانجراف في براثين التصورات والأفكار الخاطئة. إنه لمن المؤسف أن نقول بأن الهوية المعاصرة في مجال العلاقات الاجتماعية أصبحت تتلخص في الصيغة التالية: المال، المنصب، والمصلحة. فالإنسان المعاصر وقع في قبضه المادة، وأصبح يعيش حالة "تشيؤ"، فاستؤصلت منه شخصيته، وأضحت مجمل علاقاته لا تخرج عن إطار ثلاثية المال والمنصب والمصلحة... إن التغير الذي حدث بفعل تأثير العولمة أدى إلى اضطرابات في الطبائع الاجتماعية للناس، وأصبحت العادات القديمة غير مناسبة للمجتمع المعاصر، مما زاد من شعور الإنسان بالاغتراب واليأس والخوف من المستقبل.

وناقش " ألفن توفلر"هذا التحول المفاجئ في عادات الناس وعقائدهم وأبرز أن الإنسان المعاصر يعيش ظروفا حياتية تنوعت وسائلها وتعقدت أساليب العيش فيها، وأصبح التغير السريع المتلاحق سمة أساسية من سمات العصر، إن لم تكن أبرز ملامحه على الإطلاق، والإنسان في الوقت الحاضر يعيش في دوامة هذا التغير السريع، الذي يكون له فعل الصدمة الكهربائية على عادات الملايين وعلى عقائدهم وتصورهم.(ألفن.ت، 8.1992).

وهذا ما أكده "إريك فروم"من قبل بقوله: أن الإنسان المعاصر عاجز عن الحب وعن استخدام العقل وإصدار القرارات. إنه في الواقع عاجز عن تقدير الحياة، ومن ثم فهو مستعبد، بل يميل إلى تحطيم كل شيء (إريك.ف، 1960، 244).

خلاصة الدراسة:

عالجت هذه الدراسة ظاهرة اجتماعية معقدة تشغل الرأي العام الاجتماعي والسياسي في العالم بأسره، وهدفت إلى التحقق من أن الاغتراب الاجتماعي الذي يعاني منه الفرد الجزائري في بيئته الأصلية هو العامل الأساسي الذي دفعه إلى

ممارسة سلوك الهجرة السرية . لهذا الغرض انطلقت الدراسة من طرح التساؤل التالي:

ما مدى ارتباط الهجرة السرية بالاغتراب الاجتماعي في المجتمع الجزائري؟

ارتكز البحث على مجموعة من الأبعاد تمحورت أساسا في:

- توظيف نظرية السلوك الإجرامي لتفسير الهجرة السرية
- تشخيص أسباب الهجرة السرية في المجتمع الجزائري
- دراسة مظاهر اغتراب المهاجر السري في الثقافة التي يعيش فيها.

لقد تبين من تطبيق مقياس الاغتراب الذي أعدّه الدكتور " محمد خضر عبد المختار "، أن أفراد العينة سجلوا أعلى درجة على المقياس في أبعاده النفسية والسياسي والاقتصادية والاجتماعية.

ويمكن القول أن الاغتراب حاضر في الحياة اليومية للمهاجر السري، وتتجلى أبعاده في ما يلي:

شعور المهاجرين السريين بانهيار قيم الانتماء والهوية بسبب : تدهور مكانة الأب داخل الأسرة. فشل الأنساق الاجتماعية في الاضطلاع بالدور الحضاري في هذا العصر– تفكك العلاقات الاجتماعية – غياب الحب الخالص بين الأفراد.

الشعور بعدم العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة : أصبح شعار القوي يأكل الضعيف هو المعيار السائد. الحقوق الشخصية تنفذ عن طريق الوساطة والع لاقة الشخصية والرشوة. المال هو كل شيء في هذه الحياة، لا مكانة لصاحب الثروة الأخلاقية.

فقدان الثقة بالنفس وبالغير وغياب التلقائية والابتكارية ولا وجود للصديق المخلص إخلاصا حقيقيا في هذا العصر.

الفشل في مقاومة أسلوب الحياة الرتيبة وفي استخدام العقل واختيار ا لقرار الحكيم ... والواقع أن المهاجر السري عاجز عن تقدير المستقبل في هذا العالم المتفجر المتحير الذي نحن جزء منه ... عالم أصبح يلوح في فضاءه نوع جديد من التهميش:

فالأثرياء يرغبون في أن يكون المهاجر أداة ووسيلة في إنتاج السلع والخدمات من دون أن يتمتع بحقوق المواطنة الكاملة ... والساسة الجدد يحرصون على تجريد

المهاجرين من خصوصياتهم الاجتماعية والثقافية ليتم توظيفهم في تنفيذ مهمات قذرة ...فهل نحن أمام نوع جديد من الاستعباد في هذه الألفية الثالثة؟

المراجع باللغة العربية

- ابراهيم سوريال (1977)، الثورة بين الفكر والواقع، القاهرة، منشورات الجامعة.
- إريك فروم (1960)، المجتمع السليم، ترجمة محمود محمود، سلسلة الفكر المعاصر الانجلو المصرية.
- الدوري عدنان؛ الانحراف الاجتماعي؛ دراسة في النظريات والمشكلات، الكويت، ذات السلاسل، الطبعة الأولى 1985.
- العفيفي عبد الحكيم؛ الاكتئاب والانتحار؛ دراسة اجتماعية تحليلية، الطبعة الأولى، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- العوجي مصطفى؛ التأهيل الاجتماعي في المؤسسات العقابية، بيروت، مؤسسة تمسون للنشر والتوزيع.
- ألفن توفلر (1992)؛ صدمة المستقبل، ترجمة محمد علي ناصف، مصر، دار النهضة العربية.
- النوري قيس؛ (1979)، الاغتراب؛ اصطلاحا ومفهوما وواقعا، عالم الفكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد العاشر، العدد الأول.
- اليوسف عبد الله بن عبد العزيز؛ (2002)، أساليب التطوير في البرامج والمناهج التدريبية لمواجهة الجرائم المستحدثة، الطبعة الأولى، الرياض، مركز الدراسات والبحوث.
- اليوسف عبد الله بن عبد العزيز؛ (2006)، الأنساق الاجتماعية ودورها في مقاومة الإرهاب والتطرف، الطبعة الأولى، الرياض، مركز الدراسات والبحوث.
- أمال محمد بشير محمد؛ (1989)، الاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات عند طلبة وطالبات الدراسات العليا بكليات التربية - جمهورية مصر العربية- رسالة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في علوم التربية، جامعة عين شمس، مصر.
- أولفييه.روا.(1994)، تجربة الإسلام السياسي، لندن، دار الساقي.
- بيتر ورسلي؛ العوالم الثلاثة؛ الثقافة والتنمية العالمية، ترجمة صالح الدين محمد سعد الله، الجزء الثاني، بيروت، دار الشؤون الثقافية العامة.
- تركي الحمد (2003) ؛ الثقافة العربية في عصر العولمة، الطبعة الثالثة، لندن، دار الساقي.
- دسوقي كمال؛ (1988)، ذخيرة تعريفات مصطلحات وأعلام علوم النفس، المجلد الأول، القاهرة، الدار الدولية للنشر والتوزيع.
- روبرت إسحاق؛ (2005)، مخاطر العولمة؛ كيف يصبح الأثرياء أكثر ثراء والفقراء أكثر فقرا، ترجمة سعيد حسنية، الطبعة الاولى، بيروت، الدار العربية للعلوم.
- سيد محمد عبد العالي؛ (1986)، القيم والطموح على ضوء الوضع الطبقي، دراسة نظرية ميدانية، سعيد رأفت.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- عبد القادر جغلول؛ (1982)، تاريخ الجزائر الحديثة، ترجمة فيصل عباس، الطبعة الثانية، دار الحداثة.
- عبد الله عبد الغاني غانم (1982)، هجرة الأيدي العاملة، الطبعة الأولى، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث.
- عبد الله عطوي (1993)؛ الإنسان والبيئة في المجتمعات البدائية والنامية والمتطورة، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر.
- عثمان الحسن محمد نور، ياسر عوض الكريم المبارك؛ (2008)، الهجرة غير المشروعة والجريمة، الرياض، مركز الدراسات والبحوث.
- عزيز العظمة (1992)؛ الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع، الطبعة الأولى، لندن، دار الساقي.
- علي سموك (2006)، إشكالية العنف في المجتمع الجزائري، من أجل مقاربة سوسيولوجية، الجزائر، مخبر التربية والانحراف والجريمة في المجتمع، جامعة باجي مختار.
- علي وطفة؛ (1998)، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية؛ بحث في إشكالية القمع التربوي، عالم الفكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد السابع والعشرون، العدد الثاني.
- عمران أبوحجلة (1997)؛ حالات فوضى ـ الآثار الاجتماعية للعولمة. مراجعة هشام عبد الله، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- محمد خضر عبد المختار؛ (1999)، الاغتراب والتطرف نحوالعنف ؛ دراسة نفسية اجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر.
- محمد زين الدين (2005)، مجتمع المواطنة، المغرب، مجلة فكر ونقد.
- محمود عبد الفاضل؛ (1980)، أنماط توزيع الدخل في الوطن العربي، القاهرة، المعهد العربي للتخطيط.
- محمود قنير؛ (1992)، التربية وترقية المجتمع، الكويت، دار سعد الصباح.

المراجع باللغة الأجنبية

1. Alain Bernard ;(1986), L'évolution du nomadisme en Algérie, Paris. Ed. I.C.E.D.
2. Bourdieu,P ;(1964), Sociologie de l'Algérie. PARIS. Ed ; que sais je ?
3. Dumand Perrel ; Idéologies et pouvoirs, Ed PUF. Paris. 1995.
4. FARGUES. Philippe ;(2005) Temporary Migration ; Italy, European university Institute.
5. Jacques Berque ; (1956) Cent vingt cinq ans sociologie maghrébine, Annales. E.S.C.
6. LECE. Jean (1991) ; Réflexions sur la participation politique de citoyens en France, étude réunies par GEORGE LAVAU, Paris, presses de sciences politiques.
7. MADELEINE ; GRAWITZ ; (1983) Lexique des sciences sociales. Paris. DALLOZ.
8. MICHEL DUFRENNE ; (1953) La personnalité de base Paris. Ed PUF.
9. MICHHEL LEGRAIN ;(1997) Le grand ROBERT. Paris, Ed ROBERT.
10. Pierre Ansart ;(1997) ; Idéologie, conflit, pouvoir, Paris , Ed PUF.
11. Pierre colin ; Sous développement, identité et réalité Ed Paris. Ed GALLIMARD.

الهجرة غير الشرعية(الحرقة)
حالة الجزائر

بوشمة الهادي،

قسم علم الاجتماع، جامعة سيدي بلعباس.

تمهيد:

تتلاقى المعاجم الاجتماعية والجغرافية والديمغرافية في تعريف الهجرة عموما في الانتقال من مكان (أ) إلى مكان (ب)، مثلما لكل الهجرات أهداف معينة يتوخى من خلالها الوصول لتحقيق شيء أو أشياء بعينها.

والهجرة حسب هذا المفهوم قد تكون فردية أو جماعية، مثلما ترتبط في صيرورتها بأبعاد نفسية واجتماعية تعبر عن المزاج الفردي والجماعي في لحظة وزمان معينين يعتبران بدور هما بعدين لها (الهجرة) معبرين عن لحظات البداية والنهاية، الانطلاق والوصول.

فالهجرة إذا هي ظاهرة اجتماعية وتاريخية ساهمت في إعمار الأرض، وستساهم ربما مستقبلا في إعمار بقية الكون الممكن الحياة فوقه، كما تلعب دورا هاما في تلاقي مجموعات بشرية متنوعة الثقافات ك شيء إيجابي، لكن بمثل ذلك فهناك الوجه السلبي لها، ومنها ما يعرف اليوم بالهجرة السرية وغير الشرعية أو كيف ما تسمى؟.

في العقود الأخيرة شكلت الظاهرة (الحرقة) موضوعا لعديد الدراسات الأكاديمية واللقاءات الدولية ومحورا لاهتمام مؤسسات المجتمع المدني وجمعياته الحكومية وغير الحكومية، كما أبرمت بشأنها العديد من الاتفاقيات الثنائية والجماعية بين دول العالم.

وعلى امتداد التاريخ البشري، ما فتئت الهجرة تشكل تعبيرا عن رغبة الفرد في التغلب على ظروفه الصعبة والهروب من الفقر واللاأمن السياسي والاجتماعي، وبدء حياة جديدة قد توفر له العيش الكريم وقد أدى التطور غير المسبوق لوسائل الإعلام والاتصال والمعلوماتية اليوم إلى زيادة عدد الأفراد الراغبين في الانتقال إلى أماكن أخرى توفر الشغل كانعكاس أول لعولمة شاملة للاقتصاد والسياسة والثقافة والقيم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولما تعددت طرق الإنتقال هذه فإن سبيل ا لكثير من البشر أصبح عبر ا لهجرة السرية، التي غدت كما يقول (**تركماني** ،ع، **2006**، **05**) من الأسئلة الأكثر إرباكا للحسابات السياسية في ضفتي المتوسط، فما من لقاء حكومي أو غير حكومي بين الضفتين، إلا وألقت الهجرة السرية بضلالها عليه، وفي هذا مؤشر على حساسية الموضوع وقوته الرمزية والمادية في صياغة السياسات المستقبلية وبناء العلاقات الثنائية.

ومنه تأتي محاولتنا هذه لطرح موضوع الهجرة السرية في ميدا نها الواقعي على لسان عدد من الشباب (من مدينة وهران) من الحالمين بالهجرة، محاولين من ذلك تحديد معناها ومفهومها، وأسبابها والعوامل التي أدت إلى نشوئها ، وما يسهم في تأجيجها اليوم عند هؤلاء الشباب، كما سنعتمد بعضا من الإحصائيات والتقارير سواء منها الأوروبية أو المغاربية، وإن كان المنطق العقلاني يقول كيف للسري أن يكمم ويعلم، فالتكميم يساوي العلم بالعدد، وهذا ما لا يمكن الجزم به إطلاق ا في ظاهرة كالهجرة السرية نظرا لندرة الإحصاءات والأرقام ، ما عدا المراجع غير الرسمية كالصحف التي تتابع الحدث بإسهاب والملاحظ أنه حتى التقارير الأوروبية تعتمد اليوم على الكثير من هذه الإحصائيات غير الرسمية.

في الأخير سنطرح بعضا من الحلول السوسيولوجية للظاهرة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إشكالية الهجرة السرية "الحرقة":

يشكل موضوع الهجرة السرية اليوم مادة دسمة للعديد من المقالات خصوصا منها الإعلامية، كما خص بالجزء الأكبر من أحاديث الخاصة والعامة، من جهة أخرى أصبحت الظاهرة (الحرقة) محرجة فعلا لعديد الأنظمة والدول، وخطرا ينزف بثرواتها البشرية الشبابية (دول الجنوب والجزائر بالخصوص)

واعتبارا لخطر الهجرة السرية في أبعادها الإجتماعية المختلفة بدأ يتزايد اليوم الاهتمام البحثي بها سواء منه العلمي أو السياسي من خلال محادثات واتفاقيات الدول مثلا، حيث تعددت أسئلة المهتمين بالظاهرة، وإن كنا نخص الج زائر بالدراسة، ومن خلالها جميع دول جنوب المتوسط، فإن التساؤل الجوهري الذي طرحناه على الشباب الذين إلتقينا بهم هي عن الأسباب والظروف الحقيقية والدافعة لهم اليوم لنهج طريق الهجرة السرية؟

مفهوم ومعنى الهجرة السرية الحرقة":

الهجرة السرية أو ما يصطلح عليه بالعامية الحرقة بالجزائر، أو الحريك بالمغرب الحرقان بتونس مصطلح شاع استعماله في بلاد المغرب نهاية الثمانينات و استفحل بعد سنة 2000 في الجزائر حيث ارتبط في معناه بالحريق، والحرق معناه في التسمية هو الفعل الذي ينجر عن القيام به من حرق الوثائق وحرق المسافة بين الشمال والجنوب بدون وثائق قانونية، وحرق القانون، وحرق الماضي ورسم معالم جديدة كلها دلالات واضحة لفعل الحريق بالمصطلح العامي

في الجزائر مصطلح الحريك سبقه مصطلح " الهدة "، بدوره كان من معانيه المغامرة، والهدة نشأت في منتصف الثمانينات وبداية التس عينيات (أحداث أكتوبر 1988م)، أي قبل تشديد قوانين الهجرة إلى دول الإتحاد الأوروبي، وقبل استفحال الأزمة الأمنية والاجتماعية والاقتصادية في الجزائر.

ومنه فرض مصطلح الحرقة نفسه كمفهوم سوسيولوجي معبر عن تأزم سوسيونفسي واقتصادي خص من خلاله المشهد الفكري والثقافي المغاربي والجزائري بالخصوص وطبق على حياة ومخيال فئات معينة من المجتمع ومنها الفئة الشبابية الأكثر تفاعلا مع الظاهرة.

والحريق والحريك بعموم لفظه فهو أشمل للجزء عندنا المعروف بالهجرة السرية، ومعه تصبح هذه الأخيرة جزءا مهما من معنى الحريك لكن ليس كله، فهذا الأخير له معاني متعددة ومنها مثلا : عدم احترام القانون، أو بمعنى الهلاك والموت السريع، أو بمعنى السرعة في اختصار المسافة الزمنية والاقتصادية، وحرق الضوء (إشارة المرور)، وحرق الفيزا أي عدم احترام مدتها وتجاوزها، وحرق الوثائق أي اللارجوع إلى حين، ومعناه أيضا الحريق الطبقي والمدرسي، وحرق المراحل (اقتصاديات الدول المتخلفة)...إلخ .

فالحرقة إذا لا تعني بالضرورة المطلقة الهجرة السرية فقط، وبالتالي من خلال ما سبق تعداده فالحرقة هي إذا مجرد تمظهر من بين التمظهرات الكثيرة للتكوين البنيوي للمجتمع الجزائري والمغاربي بعموم.

ولعل المعنى الأعمق لفهم دلالات ظاهرة الحرقة اليوم في مجتمعاتنا هو الذي ربما سيكون مفتاحا لكشف خبايا الظاهرة وظواهر أخرى لها صلة وثيقة بها فيما يشكل بنية إجتماعية قابلة للتمثل والفهم ضمن إطار نظري أو باراديغم موحد،

ومعه ستصبح الحرقة الشخصية الأساسية للمجتمع الجزائري، المميزة لمزاجه وسماته المشتركة إلى حدود كبيرة مع دول الجوار والجنوب عموما، وعن هذا بالطبع تتفرع أنماط فرعية أو شخصيات وظيفية، تختلف باختلاف الفئات الاجتماعية الفاعلة لها.

فالحريق إذا واحد ومتعدد في الآن نفسه، واحد من حيث أنه يمارس من طرف المجتمع ككل ومتعدد بمعنى أنه متنوع بتنوع الانتماء الاجتماعي ومقاصده، ولما كانت الهجرة السرية اليوم واحدة من هذا المتعدد، فإنها تحمل معنى كبير من مصطلح الحريق وتصبح في مفهومها وفي مفهومه (الحريق) عموما مجازفة ومغامرة غير مضمونة النتائج أو العواقب إن صح التعبير، لأنها غالبا ما تنتهي بالمو ت ومعها أصبح حلم الشباب كبوسا وأصبحت مغامراتهم الذي يعتبرها بعضهم هروب مقامرة ليس لها دوما ضوابط تؤكد نجاحها كما يقول (**تيروز، إ، 2006، 03**).

أصول وتاريخية الهجرة السرية

في بداية الثلاثينات حتى الستينات كانت أوروبا في حاجة إلى الأيدي العاملة، فلم تصدر قوا نين تحرم عملية الهجرة غير الشرعية إلى أراضيها، أكثر من ذلك فقد امتدت حركة الهجرة تاريخيا كظاهرة عالمية لتعمير الأرض، لتشمل في الزمن الحديث كلا من إسبانيا وإيطاليا كبلدين كانا مصدرين للهجرة السرية عبر جبال البرانس لباقي أوروبا، خصوصا خلال تاريخهما الدكتاتور ي، والحروب الأهلية كحرب فرانكو بإسبانيا.

تاريخيا بدأت هجرة الجزائريين بالخصوص نحو فرنسا بعد الحاجة إلى مزيد من الموارد البشرية التي تطلبتها الصناعة المتسارعة في عموم أوروبا، ومن المعروف أن الظروف التاريخية والاستعمارية آنذاك ومخلفاتها المتعددة كانت العامل المسبب لتزايد الهجرة (القصرية أو الاختيارية) بين الجزائر وفرنسا، حيث استقدم رجال الأعمال الفرنسيين حسب كلام (**بوحوش.ع، 1975، 134- 135**) 5.000 جزائري سنة 1912م، ثم حوالي 100.000 جزائر سنة 1924 لتعويض ما خسرته فرنسا بين 1914 و1918م من شبابها والذين قدروا بـ 1800.000 شاب، فيما قدرت مصادر أخرى على سبيل التمثيل لا الحصر حاجة رجال الأعمال الفرنسيين مثلا للأيدي العاملة المغاربية سنة 1950 ب"12.000" عامل مهاجر، نظرا لكل المزايا الإجتماعية والمهنية التي كان يوفرها هذا النوع من الهجرة لرجال الأعمال

كما يقول بذلك (Khachani. M, 2003, 01-02) حيث كان مسموحا به في فرنسا وبلجيكا خصوصا.

غير أنه بعد الأزمة البترولية سنة 1973م بدأت الأمور تأخذ مجرى آخر، خصوصا مع توسع عدد بلدان الإتحاد الأوربي، وتوحيده عبر اتفاقية "شنقن" هذه الأخيرة التي عدها (Khachani. M, 2003,02) كسبب من الأسباب التي حدت من الهجرة القانونية، وأدت في المقابل لظهور ظاهرة الهجرة غير القانونية.

ومنه يمكن تميز محطتين تاريخيتين للهجرة الشرعية خلال القرون الماضية سواء من شمال المتوسط (أوروبا) إلى جنوبه (شمال إفريقيا) أو العكس.

1- الهجرة نهاية القرن19م وبداية القرن20م :

كانت الهجرات تتم من الشمال نحو الجنوب وذلك بدءا من الرحلات الاستكشافية التي قام بها الرحالة الأوربيون نحو العوالم الجديدة، وجاءت بعدها الهجرات السياسية والعسكرية التي قامت بها الدول الأوروبية إلى جنوب المتوسط، وأعماق إفريقيا التي كان يحكمها البحث عن موارد إنتاجية جديدة في اطار سباق الدول الاستعمارية لغزو آفاق جغرافية جديدة، لتحقيق مجتمع الوفرة والظفر بالسباق نحو التفوق الاقتصادي.

2- الهجرة في النصف الثاني من القرن20م:

تحديدا تبدأ هذه الفترة بعد الحربين العالميتين الأولى (1914- 1918) والثانية (1939- 1945) اللتين أفرزتا وضعا جديدا ميزه فقدان كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا لقوتهم البشرية بسبب الحرب حيث لم تعد تتوفر هذه الدول على السواعد اللازمة لبناء الغد، وأصبحت في حاجة ماسة إلى مزيد من العمالة الأجنبية لتحقيق النمو المتوقع، ومن ثم شرعت في جلب اليد العاملة من كل من الجزائر والمغرب وتونس ودول جنوب الصحراء ، وفق شروط كانت تمليها حاجة البلدان الأوربية لهذه العمالة الشمال إفريقية.

تجدر الإشارة أن العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي بالحوض المتوسط قد تميزت بتسجيل تدفق واسع لأنواع الهجرة من الجنوب، وه و ما يمكن تقسيمه بدوره إلى ثلاث محطات زمنية مترابطة ومتداخلة وهي:

أ- المرحلة الأولى " ما قبل 1985م":

وخلال هذه المرحلة كانت الدول الأوروبية لا تزال بحاجة ماسة إلى مزيد من العمالة القادمة من الجنوب، كما أن الدول الأوروبية نفسها كانت متحكمة في حركة تدفق المهاجرين من الجنوب عبر قنوات التجمع العائلي، وأهم ما ميز هذه المرحلة أن المهاجر الجنوبي تمكن من فهم قواعد اللعبة في دول الشمال وصار يطالب بحق دخول أبنائه المدارس الحكومية وبداية بلورة الخطابات الحقوقية للمهاجر.

كل هذه العناصر بدت بالنسبة للمهاجرين "القادمين" من دول الجنوب محفزة لهم للالتحاق بنظرائهم ، ويبدو أن الكثير منهم استفاد من غفلة الأنظمة الأمنية الأوروبية في تلك المرحلة بالذات، لكن ليس بالحال الذي عليه تدفقات الهجرة السرية اليوم.

ومن هذا الجانب الأخير، يمكن الإقرار حقيقة أن الجزائر ومن خلالها دول المغرب والساحل الإفريقي كانت إلى بعد تحقيق لاستقلالياتها الوطنية تعيش نوع من الانغلاق والاكتفاء الذاتي في المجال الزراعي فأغلبية سكان الجزائر كما يقول **(د.السويدي.م، 1989م، 82)** كانوا من بيئة ريفية زراعية (70٪ من مجموع السكان غداة الاستقلال كانوا ريفيين حسب إحصائيات آنذاك).

في مقابل هجرة الجزائريين الكبيرة نحو فرنسا بالخصوص ، فقد سجلت حركة هجرة عكسية لكثير منهم إلى الجزائر، خصوصا فترة السبعينيات نظرا لما أحاط بهذه الفترة التاريخية من بحبوحة مالية واقتصادية، حيث قدرت إحصائيات سنة 1974 العائدين إلى الجزائر بحوالي 541.758 شخص **(بوحوش.ع، 1975، 134- 135)**، لكن هذا لا ينطبق على بقية دول الجوار والساحل، يضاف لكل هذا أن الاحتكاك كان قليلا بالأجانب، كذلك الراديو والتلفزيون الوطنيان كانا يساهما بما يحفظ الشعور بالوطنية بعيدا عن النموذج الاستهلاكي الأوروبي.

في هذا يقول الباحث **(زمورز.د، 2007، ص02)** " التطلع إلى الرحيل هو رغبة في أن يعيشوا شبابهم أكثر ما هي رغبة في الرقي الاجتماعي، الشباب يشعر وكأنهم محرومون من شبابهم، ويرون في الهجرة وسيلة للالتفاف على الممنوعات ليغنموا شبابهم، فبمجازفتهم يعتقدون أنهم يمنحون نفسهم فرصة للتخلص من حياة بائسة نتجت عن اللاثقة التي أصبحت تطبع المخيلة الشبابية الناقمة على أنظمة

بلدانه ومجتمعاتها وأسرها وبالتالي فالهجرة كما يقول هي البحث عن الحرية وتحقيق التطلعات.

ب- المرحلة الثانية" من 1985 إلى 1995م":

تميزت هذه المرحلة ببداية ظهور التناقضات المرتبطة بالمه اجرين الشرعيين ومزاحمتهم أبناء البلد الأصليين، وقد تزامن هذا الفعل مع إغلاق مناجم الفحم في كل من فرنسا وبلجيكا التي كانت تستوعب آنذاك أكبر عدد من المهاجرين الشرعيين، وفي مقابل هذا الوضع الاحترازي تزايدت رغبة أبناء الجنوب في الهجرة اتجاه دول الشمال ما أدى إلى إغلاق الحدود.

ففي 19 يونيو/حزيران 1985 ومع دخول "اتفاقية شنغن" الموقعة بين كل من فرنسا وألمانيا ولكسمبورغ وهولندا حيز التنفيذ، تم السماح بموجبها بحرية تنقل الأشخاص المنتمين إلى الفضاء الأوروبي، لكن مع دخول كل من إسبانيا والبرتغال إلى هذا الفضاء اتخذت قضية الهجرة أبعادا غير متوقعة، لا سيما بعد لجوء سلطات مدريد إلى فرض مزيد من الإجراءات الاحترازية أمام أي عملية هجرة جديدة، وذلك في محاولة لمنح مواطنيها مزيدا من الاندماج في الاتحاد الأوروبي

في هذه المرحلة تبرز مفارقة كبيرة تتمثل في الاتفاقيات الدولية الصادر ة في العام 1990 المخصصة "لحماية حقوق العمال المهاجرين وأهاليهم " والتي صادقت عليها تسع دول من الجنوب في العام 1998، ووجه المفارقة هي أن هذه الاتفاقية لم تحظ بقبول أي دولة أوروبية، وهو الأمر الذي يفسر الرغبة الأوروبية في التعامل مع هذا المعطى الجديد من منظور جديد ولو تم الأمر على حساب الحقوق التي تضمنها المواثيق الدولية الداعية إلى الحق في التنقل والبحث عن غد أفضل

ج- المرحلة الثالثة" من 1995 إلى اليوم":

أخذت هذه المرحلة طابعا أمنيا صارما لجأت من خلاله الدول الأوروبية إلى نهج سياسة أمنية صارمة عبر تنفيذ مقرر ات "القانون الجديد للهجرة" والذي يستند إلى تبني إجراءات صارمة بخصوص مسألة التجمع العائلي، وإبرام اتفاقيات مع دول الجنوب حول ترحيل المهاجرين غير الشرعيين

كرد فعل تجاه هذه السياسة بدأ ما يعرف الآن بالهجرة غير الشرعية /السرية والتي تحيل على عملية الالتحاق بالديار الأوروبية بدون وجه قانوني، وأصبحت معها الجزائر من الدول المصدرة والمعبر المهم لهذا النوع من الهجرات.

- **الهجرة السرية والتغيرات الجديدة**

رغم كل العراقيل والقوانين التي حدت من الظاهرة، مع كل ما صاحبها من إجراءات أمنية وقائية، إلا أن وتيرتها تزايدت، وطرأ عليها تغيرات في بنية المهاجرين كما ونوعا، يقسمها الباحث (Khachani. M, 2003, 03-04) إلى أربعة أصعدة :

1- **الجنس:** كانت بداية الهجرة ذكورية ثم أصبحت مختلفة، ومعها أصبحت النساء تركب القوارب مع الرجال لتقطع المضيق والمتوسط للوصول إلى ضفتي المتوسط سواء من جهة تونس – إيطاليا أو الجزائر والمغرب- إسبانيا، حيث برغم طابع المجتمع الجزائري والمغاربي بعمومه المميز بذكورية أبوية وأكثر محافظة، لكن التحولات الأخيرة التي أصابت مختلف البنى المكونة للمجتمع، جعلت من مسألة خروج المرأة مهاجرة سريا أمر حاصل وهو الأمر الذي أكده مبحوثينا.

2- **السن:** لم تعد فئة الشباب هي الفئة الوحيدة المهاجرة سرا، بل اتسعت الشريحة المهاجرة غير شرعيا لتشمل القصر، والأطفال المشردين، وحتى الشيوخ والكهول سواء في إتجاه إسبانيا أو إيطاليا.

3- **مستوى التعليم:** تتفاوت مستويات المهاجرين السرين، لكن الأغلب هم من ذوي المستويات المحدودة والتكوين المهني المتدني، مع نسب معينة لأصحاب الشهادات (Khachani. M, 2003, 03-04). والجدول التالي يوضح خصائص عينتنا البحثية :

رقم المبحوث	المستوى التعليمي	الوضعية المهنية	الوضعية العائلية	عدد المحاولات الفاشلة للهجرة بين سنة 2006 – 2008.
مبحوث 01 (21سنة)	السنة السادسة أساسي	بطال	أعزب	00
مبحوث02 (24سنة)	السنة الثانية جامعي (علوم اقتصادية)	بطال	أعزب	01
مبحوث 03 (28سنة)	السنة أولى ثانوي	عامل يومي	أعزب	02
مبحوث04 (31سنة)	السنة السابعة أساسي	حارس مؤقت	أعزب	01
مبحوث05 (31سنة)	السنة الرابعة أساسي	بائع متجول	أعزب	00

فهؤلاء الشباب تجمعهم البطالة، والانقطاع المبكر عن الدراسة، رغم بعض الحاصلين على البكالوريا (مثال المبحوث02، 24سنة)، كما ينحدر الكثير منهم من عائلات فقيرة، معظمها يعاني من التفكك الاجتماعي (المبحوث رقم04 والديه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مطلقين)، وجميع هؤلاء مصابون بما يسمى "بتوَرُّم الخيال" حيث يسيطر عليهم حلم "الجنة الأوروبية"، التي تجمع بين المال والجمال، وتمثل الهجرة لديهم حرقا للماضي بكل ما يشمله من انتماء، وفرصة وحيدة لتهريب الذات القلقة والمعذبة، ويرى كثير منهم في الهجرة "استراتيجيه" لإنقاذ الذات (الشاب) من عالمي الجريمة والفقر.

4- **الأصل:** منذ مطلع التسعينيات أصبح ديكور المهاجرين السرين خليط بين الأفارقة والمغاربة بل حتى من آسيا من هنود وباكستانيين ومن الشرق الأوسط، ومعه أصبحت الجزائر مركز عبور أساسي في إتجاه ضفتي المتوسط من جهة الشرق (إيطاليا) والغرب (إسبانيا)، حيث سجلت إحصائيات (Gendarmerie nationale, 2007) بين سنة 2001 إلى شهر يناير من سنة 2007 دخول أكثر من 25 ألف من المهاجرين من غير العرب منهم للتمثيل فقط 162 باكستاني.

كما تعدد جنس وأعمار هؤلاء حيث بلغ عدد الموقوفين من النساء مثلا 1683، في حين بلغ عدد القصر 1300 قاصر من مجموع أكثر من 30 ألف مهاجر دخلوا الجزائر خلال الفترة السالفة الذكر.

الهجرة السرية (الحرقة) كمؤسسة منظمة:

أصبحت الهجرة السرية اليوم مؤسسة قائمة بذاتها، لها تنظيمها الخاص بها، مثلما لها أعراف وطقوس محددة بمكانيزمات يتسلسل من خلالها هرميا تنظيم أطر وكوادر مافيا وقيادات التهجير السري ويتمركز كل في موقعه يتخذ خلاله الاتصال عادة شكله العمودي، فالشبكة مكونة من حراقة وسماسرة ورئيس وليس أفقيا بمعنى كل سمسار يتصل بالآخر إلى أن يصل الخطاب في النهاية إلى الرئيس المكلف وكل ذلك لأسباب أمنية ووقائية، وتتعدد تبعا لكل ذلك الوسائل والإمكانيات المسخرة بشكل يوحي اليوم بقدرة قادة هذه المؤسسة على اختراق كل التحصينات الغربية لحدودها.

ميدانيا كما يقول مبحوثينا تتم العملية بقيام مروجين محليين يتكفلون بعرض أسعار الهجرة السرية ثم بتجميع الموافقين على الهجرة في أماكن محددة (أحياء شعبية ومقاهي ومآرب غائبة إلى حد ما عن أعين الأمن)، ومن ذلك مثلا حي قومبيطة والعيون ومرسى الحجاج بوهران، والأمر هو في منتهى التنظيم والسرية، ثم

ينتقلون باتفاق مع أحد العملاء إلى أحد الشاطئ الذي سينطلقون منه وعادة كما يقول مبحوثينا يكون من الشواطئ المهجورة وغير المحروسة بالغرب الجزائري

وتبدأ العملية كما سبق الذكر بالتفاهم على ثمن الرحلة التي تسدد مسبقا للمشرف على تهريبهم حيث يختلف المبلغ حسب نوع القارب وقوته والبعد الجغرافي وأمان وسلامة الرحلة وفصل الإنطلاق....إذ يبلغ ثمن الهجرة في الجزائر مثلا بين 80 ألف دينار إلى 180 ألف دينار جزائري، بعد هذا يلتحق الحراقة بالمراكب في جنح الظلام، لتبدأ رحلة البحث عن المجهول.

أشكال ووسائل الهجرة السرية: وسنكتفي في تعديد وسائلها على تلك الشائعة في الجزائر والتي جاءت على لساني مبحوثينا حيث جرب من خلالها هؤلاء محاولات لهجرة فاشلة.

1- **الحريق عبر القوارب:** حيث تعد هذه الأخيرة من الوسائل المهمة في معادلة الهجرة السرية يتحدث عنها هؤلاء المرشحين للهجرة بثقافة ملمة جدا فهم يعرفون جميع أنواع القوارب وقوتها وأثمانها وكمية البنز ين التي توصلهم للضفة الأخرى...إلخ، حيث تكلم لنا ثلاثة من الحراقة من عينتنا البحثية عن تجريب هذا النوع وفشلهم لأسباب تعددت بين احتجازهم من طرف حرس السواحل الجزائرية والإسبانية وإرجاعهم إلى أرض الوطن.

في نفس الإتجاه خلص تقرير خلية (Gendarmerie nationale,2007) حول الهجرة السرية عن طريق المسالك البحرية إلى تزايد مخيف لها وخلصت الدراسة في جانبها السوسيو نفسي إلى أن الظاهرة أصبحت تشمل النساء والقصر وحتى الكهول الذين يتجاوز عمرهم 50 سنة، وقد عالجت مصالح الدرك خلال الفترة الممتدة بين سنة 2000 و 2006م، 151 قضية تورط فيها 899 حراق من بينهم 09 نساء ومن مجموع هؤلاء 495 أدانتهم العدالة بالسجن، وأفرجت مؤقتا عن 395 شخص.

أما (شرطة الحدود، 2007) الجزائرية فقد سجلت بين سنة 2001 إلى 2006 حوالي 8839 قضية متعلقة بالهجرة السرية عبر كامل التراب الوطني.

وقد توصل تقرير الدرك الوطني السابق إلى تسجيل تعاظم عدد محاولات الهجرة عبر الزوارق سنة 2007 حيث بلغ عددهم 725 مهاجر سري.

أما من حيث ترتيب الفئات لعينة يناير 2007 فإن من ضمن الحراقة الموقوفين، نجد 62٪ من الذين يعانون من البطالة، 6.2٪ موظفون، 5.6٪ من فئة التجار.

في نفس الإطار سجل ميناء وهران سنة 2000 توقيف 141 مهاجر سري، ووصل العدد سنة 2001م 161 حراق ، ثم - تناقص العدد ليصل سنة 2002 إلى 143 حراق أرادوا الهجرة من خلاله (Hammouda, N.E, 2005, 69).

2- **الحريق عبر الحاويات والسفن الكبرى**: حيث يعتبر مبحوثينا أن موانئ وهران وأرزيو كانت منفذا للعديد من أصدقائهم في السنوات الماضية، استحضر أحدهم وصول صديقين له إلى إنجلترا، مثلما ذكر آخر بفشل محاولة أصدقاء آخرين له.

ولعل أهم ما يميز هذا الشكل من الحريق كما هو معروف، هو أن الهجرة عبره قد تتم بدون مقابل ويكفي التسلل الناجح في أسفل الباخرة أو داخلة حاوية، مع التزود بالطعام والماء المشكل عادة كما يقول هؤلاء من التمر (الماء والغريس) خصوصا لاعتباره غذاء يحمي من الجوع لزمن أطول

3- **الحريق الشبه قانوني** : حيث يعدد مبحوثين أساليبه بين دخول المهاجر كسائح والمكوث بالبلد المتجه إليه نهائيا ، أو حتى تزوير كل أوراق الهجرة التي تمكن من الهجرة، سواء ما تعلق منها بجواز السفر، أو أوراق الإقامة أو عقود العمل للتمثيل فقط لا الحصر ، كما يقوم البعض عند الوصول بما يسمى عادة بالزواج الأبيض أو الزواج المصلحي، وهو المتضمن إتفاق مسبق بين الطرفين، على أن يكون على الورق فقط من أجل وثائق الإقامة كما يقول **(الجمعي.ت، 2007، 03)**، وهو نفس الأمر عند مبحوثينا، بل إن الأمر يتعدى ذلك كما يقول هؤلاء إلى طلب اللجوء السياسي مثلا هو واحد من الوسائل التي اهتدى لها الحراقة بعد تضيق الخناق عليهم في بلدان الوصول وطردهم منها، (يذكر المبحوث رقم 03) قريبة له تمكنت سنة 1994 من طلب اللجوء السياسي وتحقيقه بفرنسا بعد توهيمهم بتهديدها من طرف الإرهاب.

4- **الحريق عبر الحدود البرية** : ونقصد من خلاله المرور عبر بلادنا أو بلدان الجوار أو حتى الإستقرار بها بطرق غير قانونية، سواء بالنسبة للجزائريين أو بالنسبة للأجانب خصوصا منهم الأفارقة.

4- 1- **بالنسبة للجزائريين** : حيث سجلت الإحصائيات تواجد 10 آلاف جزائري مقيم غير شرعي بليبيا ، أما عبر المغرب فقد سجلت الإ حصائيات دخول 2008 مهاجر سري جزائري إليه سنة 2004 (Lahlou, M, 2005,08).

أما عبر تونس فتشير الإحصائيات إلى تسجيل دخول 6500 مهاجر سري منهم العديد من الجزائريين إلى جزيرة لامبيدوسا الإيطالية عبر تونس سنة 2002، كما تم تسجيل سنة 2003 دخول نفس الجزيرة من طرف 6000 شخص عبر تونس دائما (Lahlou, M, 2005,13).

4- 2- **بالنسبة للأجانب:** تشير إحصائيات سنة 1998 التي أعدها الباحث (Lahlou, M, 2005, 14) أنه تم إحصاء 74.551 مهاجر سري فوق التراب الجزائري منهم 55.1٪ مغاربة، 3.9٪ أفارقة.

فيما سجلت إحصائيات وزارة العمل الجزائرية بين سنوات 1992 إلى 2003م دخول 28.800 مهاجر سري (Labdelaoui, H, octobre 2005, 29).

أما تقرير (Gendarmerie nationale,2004)، فإنه حدد عدد المهاجرين السريين الموقوفين بأرض الجزائر كما يلي:

1- عدد التوقيفات حسب كل ولاية.

الولاية	أدرار	إليزي	تلمسان	تمنراست
عدد الموقوفين	2.125	2.043	1.565	6.344
إجمالي عدد الموقوفين	12.077 شخص.			

2- عدد التوقيفات في كامل التراب الوطني(Hammouda, N.E, 2005, 70-74).

السنوات	2003	2004	الأشهر الستة الأولى من2005
عدد الموقوفين	4.870	5.680	3.234

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حسب حصيلة أخرى (Gendarmerie nationale,2004) فإنه بين سنة 2000 إلى 2004 تم توقيف 35 ألف مهاجر سري قدموا للجزائر من 55 دولة، قامت فرق الدرك الجزائري بترحيل 32 ألف منهم ومن بين هؤلاء سجلت قيادة الدرك عن المصالح المختصة وجود 605 حالة سيدا بالمهاجرين السريين الأفارقة، كما وضع 1373 شخص تحت المراقبة الطبية للاشتباه في إصابتهم بنفس المرض.

3- جدول لعدد المهاجرين السريين الأجانب الموقوفين، الذين دخلوا الجزائر بين سنة 2000 إلى 2006.

البلدان	النيجر	مالي	المغرب	نيجيريا	سوريا	تونس	ليبيا	موريتانيا	مصر
العدد	11.000	7.000	2.500	1.616	1.600	543	100	60	31

4- جدول لعدد المهاجرين السريين الأجانب الموقوفين في كل ولاية جزائرية بين سنة 2000 إلى 2006م.

المدن	تمنراست	إليزي	غرداية	تلمسان	أدرار	وهران
العدد	12.000	7.000	2.800	2.598	2.186	1.400

أما في التقرير الذي أعدته (Gendarmerie nationale,2007) خلال شهر جانفي من سنة 2007م فإنه تم إحصاء دخول 30 ألف مهاجر سري بين 2001م و إلى شهر جانفي من سنة 2007م، من بينهم 7700 شخص أدانتهم العدالة بالسجن وأفرج مؤقتا عن 1854 شخص، وتم ترحيل 20 ألف شخص إلى بلدانهم الأصلية.

رغم كل هذه الإحصائيات فإن تعدد الأساليب ومعها أشكال الهجرة السرية وأنواعها ووسائلها جعل من إمكانيات تحقيق تقديرات إحصائية قريبة من الحجم الحقيقي لها غير ممكنة، وتبقى الأرقام المقدمة م ن طرف كل المصالح تقديرية فقط.

الأسباب والعوامل الدافعة للهجرة السرية

تتعدد أسباب الهجرة السرية تبعا لطموحات الشباب المستقبلية وآلامهم الإجتماعية المختلفة في أوطانهم وهو ما نلمسه في إجابات مبحوثينا ، ووفقا لذلك حاولنا تصنيف هذه الأسباب تبعا لبلدان الإنطلاق والوصول (التصدير والاستقبال) من جهة، واعتماد دراسة الباحث المغربي المختص في الهجرة (Khachani. M, 2003, 03-04) الذي عدد بدوره العوامل الدافعة للهجرة السرية بين عوامل محفزة وعوامل النداء وعوامل اقتصادية متأزمة دافعة وأخرى راقية منادية، ويبقى هذا الفصل بين هذه العوامل مساهما لنا في تسهيل تفصيل أسباب ودوافع وعوامل الهجرة السرية.

- **أسباب وعوامل داخلية (بلد الإنطلاق):** لا شك أن الجزائر باعتبارها بلدا مصدرا للهجرة فهي تتحمل مسؤولية أساسية عن مأساة أبنائها، حيث كانت عوامل الإخفاق التنموي المنتهج منذ الإستقلال، وعجزه عن تحديث المجتمع وإحداث إقلاع إقتصادي ، يؤمن الحياة الكريمة للجزائريين من الأسباب الكامنة وراء إصرار هؤلاء على الهجرة بأي ثمن، مع مجابهة كل مخاطر الموت عطشا أو غرقا، كما أفرزت أزمة النظام التعليم عشرات الآلاف من الشباب البطال والمتسرب من المدارس، والذي يعيش اليوم قسوة التهميش ومرارة الضياع ، فيفضلون أي حل على البقاء في ذل البطالة **(تركماني، عل، 2006، 07).**

ومنه يمكن اختصار الأسباب والعوامل المؤدية لنزيف الهجرة كما يلي:

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أ- **العامل الإقتصادي:** وتختصره إجابات مبحوثينا في ما يلي:

1- قلة فرص العمل / البطالة، وحتى ولو توفر العمل فالأجر زهيد، ويقارن هؤلاء الشباب أجورهم بما يحصل عليه أقرانهم الشباب سواء من الأوروبيين ، أو العمال الأجانب بالجزائر (الصينيين مثلا).

2- انخفاض مستويات المعيشة / الفقر، الجزائر، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الجزائر تصنف في المرتبة 103 من مجموع 173 دولة فقيرة في العالم، وحسب التقرير الأخير **(تقرير الأمم المتحدة السنوي، 2006، 02)** فإن عدد الجزائريين الذين يعيشون تحت خط الفقر بلغ 5.2 مليون شخص ما يمثل 16.25٪ من إجمالي سكان الجزائر، كما أحصي أن 06 مليون جزائري يعيشون في مستوى الفقر وبخصوص مبحوثينا فإن ثلاث فقط يشتغلون أشغال بسيطة غير قارة، فدخلهم غير المنتظم وقدره هؤلاء في العموم بأقل من 500 دينار جزائري يوميا، أما الآخرين فليس لهم سوى بعض إعانات أسرهم

3- الأجور الزهيدة بالمقارنة مع دول الاستقبال، فحسب (Khachani. M) فإن الفرق بين الدخل الفردي الأوروبي والحوض المتوسطي هو عشر مرات أعلى من الدخل الفردي في دول الجنوب.

ARCHIVE

4- حاجة السوق الأوروبية للأيدي العاملة المغاربية، فبلدان الشمال تحتاج طرديا للأيدي العاملة السرية وكثيرا من المشغلين الأوروبيين يوظفونها نظرا لأنها أرخص وغير مكلفة فيما يتعلق بالضمانات الإجتماعية.

يختصر الباحث **(سليماني، ع.ك، 2006، 01)** هذا العامل بقوله: " تدني مستوى عيش الفرد البطالة والفقر المرتفع في الجزائر، دفع الشباب إلى الوقوع في فخ اليأس وأوجد الرغبة في التغيير نحو الأفضل مهما كانت الظروف".

ب- **العوامل السوسيو نفسية**

1- اغتراب نفسي- اجتماعي يعيشه هؤلاء الشباب نتيجة كما يقولون لتأزم الواقع بمختلف أركانه مما خلق عندهم مساعي في البحث عن عالم اجتماعي واقتصادي أفضل يحققون من خلال الذات والمستقبل، من جهة أخرى انبهار هؤلاء الشباب بعالم الآخر الذي يقدم نفسه في صور من التقدم والغنى والرفاهية كلها عوامل دافعة لهؤلاء للمقامرة بحياتهم للوصول إلى معيش الآخر.

2- أزمة الثقة التي تعاظمت مع سنين الفشل التنموي وتخلف وعود الساسة عن التحقيق، عبر عنها هؤلاء بالهجرة السرية كسلوك بديل ومعبر لحجم الضرر النفسي والإجتماعي الذي يعيشونه.

3- دخول المرأة سوق العمل، وتقلص حظوظ الجنس الرجالي في العمل، وعدم القدرة على الزواج يترجم ميدانيا بتراجع سن الزواج في الجزائر ، كلها ظروف اجتماعية ونفسية تدفع إلى البحث عن تلبية هذا المفقود في الضفة الأخرى، حيث لا موانع دينية ولا تكاليف ولا شروط مادية كبيرة تعيق عن الزواج وممارسة الممنوع.

ج- : العامل الإعلامي:

2- ضعف آليات التأطير الثقافي والسياسي الذي تلعبه هيئات المجتمع المدني الجزائرية اتجاه الشرائح الشبابية.

3- التطور الإعلامي المتزايد ساهم إلى حدود ما في تأجيج الشعور المتزايد بالهجرة نتيجة لبثها مثلا لنجاح ات الشباب المغاربي المهاجر، (مثلا الحصص التلفزيونية الجزائرية والمغربية كـ Sans visa، نجوم من الخارج، بلادي...).

في هذا الإطار يرى **(سليماني، ع.ك، 2006، 01)** " أنه من الطبيعي جدا أن يحلم أي شاب جزائري بالاستقرار في إحدى دول الشمال، لا سيما بعد الانفتاح الإعلامي الذي تشهده البلاد، بفضل إنشاء الهوائيات، مما سمح للشباب بإكتشاف حياة أخرى في الضفة الشمالية للبحر المتوسط".

د- العامل الديني: يذهب البعض خصوصا منهم الإسلاميين إلى تفسير ولع شبابنا وبحثهم عن الهجرة السرية إلى أسباب الفراغ الروحي وغلبة المادة في تمثلاته، ويختصر هؤلاء ذلك بضعف الوازع الديني للعديد من شبابنا.

ب- أسباب وعوامل خارجية(دول الاستقبال):

1- تأثير المهاجرين الجزائريين العائدين للجزائر أثناء العطل في تمثلات وتصورات الكثير من شبابنا لنجاحات هؤلاء الاقتصادية من خلال صورة الترف والغنى التي تبدو على هؤلاء وتصاحبهم (سيارات ملابس، أموال .....)، كل هذا كان ذا أثر نفسي إجتماعي مؤجج لمشاعر مغامرة شبابنا للهجرة

2- ظهور أوروبا في الإعلام كأنها الإلدورادو التي يجب اقتحام أبوابه، وهو ما جعل من الحلم بالوصول والسفر إليها أمرا ضروريا ومغريا للجزائريين، فللصورة الوافدة اليوم من أوروبا عبر الفضائيات والانترنت، تؤكد أن ثمة مسافة تقاس

بالسنوات الضوئية بين الضفتين، ولهذا فلا مناص من حرق المسافات الزمنية للتحرر من أزمات الذات وانهيارها الفادح بين أحضان البطالة والتهميش والإقصاء.

3- نتائج اتفاقية شنغن، والتي حدت بقوة من منح تأشيرات الدخول مما ولد في أوساط الشباب الجزائري شعورا بالسجن، أد إلى انفجار حركة الهجرة السرية من نهاية التسعينات إلى اليوم، وكل ذلك كان نتيجة الإجراءات التي قامت بها الدول الأوروبية في السبعة عشر سنة الماضية للحد من الهجرة بالمقابل فاشتداد التدهور الأمني والإجتماعي بالجزائر أيضا تعاظم معه التفكير في الهجرة لأوروبا.

4- العولمة، وما يصاحبها من حب انساني في السفر والتطلع لحياة الآخر(**تركماني**، ع.ل، **2006**، **08**)، يقول (**ابن خلدون**، ع.ر، **المقدمة**) "المغلوب دائما مولع بإقتداء الغالب في نحلته وأكله وملبسه وسائر أحواله وعوائده"، ومنه كان الانبهار بدنيا الآخر واشتهاء ما فيه في سياق رحلة الإغتراب عن الذات التي تحتمل التوجه العام لمجتمع استهلاكي ذي بعد واحد يرى في الآخر منتهى الأشياء(**العطري**، ع.م، **2007**، **07**)، ومعها أصبحت الهجرة السرية اليوم كحل لهذا التخلف والتأزم السوسيو اقتصادي.

5- ارتفاع عدد الملفات المرفوضة سنويا حيث قدرت سنة 1998م وحدها بحوالي 760.836 من طلبات التأشيرة المغاربية، ووصل العدد سنة 2002م حوالي 1.007.722 وفي سنة 2005 بلغ العدد307.575 (Hammouda, N.E, 2005, 75).

6- بالإضافة لكل هذا فعوامل القرب الجغرافي بين الشمال المتوسطي وجنوبه، وغياب القوانين الردعية للأيدي العاملة غير الشرعية ومستغليها إلى وقت قريب في دول الإتحاد، كلها عوامل ساهمت في تزايد إقبال شبابنا على المغامرة.

ومنه فالظاهرة خلقت اليوم واقعا جديدا في الجزائر، وجعلت التعاطي مع إشكالية الهجرة أمرا أكثر تعقيدا لسلطات البلاد، ففي الماضي كانت محاولات الهجرة السرية تقتصر على شبان جزائريين تعرف دوافعهم وإمكانياتهم بسهولة وكذلك كيفية التعامل معهم، ومع الشبكات التي تحرضهم على مغادرة البلاد أما اليوم فمسألة الهجرة صارت خارج سيطرة الأجهزة الأمنية الجزائرية والمغاربية، فأعداد المهاجرين تقدر اليوم بالآلاف، وتكاليف سجنهم وإرجاعهم تقدر بالمليارات، ومنهم من طلب اللجوء السياسي وبمعاملة استثنائية نظرا لظروف

الحروب الإثنية للرعايا الأفارقة وحتى بالنسبة للجزائريين خلال الأزمة الأمنية وكل هذا خلق إشكاليات لم تتعود السلطات الجزائرية ودول الجوار على التعامل معها

- **سبل المعالجة:** إن خطر الهجرة السرية كعامل استنزاف للطاقات البشرية اليوم يدفع إلى تكاتف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والقانوني لإيجاد حلول وسبل وقائية وناجعة للحد من تفاقم هذه النوع من الهجرة، سواء ببلادنا كمنطقة للعبور والتصدير أو ببلدان الوصول والاستقبال، وليس بتغليب بعض الأراء والمقاربات عن أخرى في حل هذه الأزمة (الهجرة) المستعصية، ونلخص المقترحات كما يلي :

1- محليا:

أ- المحور السوسيو - اقتصادي:

1- التنمية من خلال إعداد برامج وطنية ذات فاعلية في تحقيق العيش الكريم خصوصا للفئات الشبابية.

2- تحقيق العدالة الإجتماعية، وقوامها حق العمل، وتقليص التفاوتات الطبقية وتكافؤ الفرص سواء ما تعلق منها بالتعليم والرعاية الصحية والحصول على المنزلة المستحقة، وفي الا ستفادة من الثروة الوطنية ...إلخ، ولا يكفي الإشارة على ه ذه الحقوق في الدساتير والمواثيق، ولكن المطلوب هو ممارستها وهذا هو الجوهر الحقيقي فيها ، وبذلك فإن الحل الداخلي في نظرنا هو الأكثر نجاعة وفعالية من خلال إعادة الإعتبار للشأن الإجتماعي بواسطة إنعاش فرص الشغل وتنشيط الاستثمار، والاهتمام بجميع شرائح المجتمع الر يفية منها والحضرية، المثقفة والأمية، مع إعطاء جرعات كثيرة من الصدق والنجاعة للعمل السياسي حتى يسترجع الثقة المفقودة.

ب- المحور الإعلامي - السياسي:

1- تحسيس الرأي العام وفق برامج منظمة تذكر بمخاطر الهجرة السرية.

2- التواصل بين جميع الفرقاء الاجتماعيين والسياسيين في الداخل والخارج وتوحيد رؤاهم لصناعة نوع من الحل للظاهرة.

2- إقليميا ودوليا:

أ- المحور السياسي– الاقتصادي:

1- إن ما هو مطلوب من دول الاستقبال ليس مجرد الضغط على الحكومات لتحقيق متطلباتها في الكف عن الهجرة مع اتخاذها هي أيضا لسياسة أمنية أدرجت الظاهرة كلية كشكل أمني، بل لا بد من حلول علاجية مبنية على مساعدات وتعاون حقيقي وفاعل بين دول الشمال المتوسطي ودول جنوبه بشكل يبحث في مسببات الظاهرة والحلول الممكنة لها، وبذلك يمكن أن يحد من التلهف المتزايد للشمال من خلال خطط استعجاليه واستثمارات بدول الجنوب، ووحده هذا يمكن أن يحد من تدفقات المهاجرين السريين نحو الشمال

2- إن استحضار الهاجس الأمني من طرف الدول الأوروبية إتجاه الظاهرة، ولجوئها إلى تقوية سياسة الستار الحديدي لمجابهة تهافت مهاجري دول الجنوب إلى أراضيها، هو اختزال كبير لمبادئ العلاقات التنموي المشتركة التي تظل حبرا على ورق، ومعها فسيول الهجرة السرية ستستمر في التدفق نحو الشمال، وإن المافيا العاملة بها مستمرة في ابتداع الطرق الكفيلة بتخطي كل المتاريس والقلاع المنيعة

3- في الأخير لا بد لكل الأطراف أن تنتهج مقاربة مندمجة وشمولية واضحة من الظاهرة تتأسس في أبعادها الحقيقية على المنطقية غير المخادعة في الحل، ولا تحصر الهجرة في كل ما هو أمني / حدودي، ومنه فبدون حلول ناجعة لجميع الأسباب الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ....التي تتخبط فيها الفئات المقبلة على الهجرة، فإن ذلك لن يفيد وسي قود بالمقابل إلى ج عل البحر المتوسط أكبر مقبرة بحرية في تاريخ الكوكب الأزرق ، وللتمثيل فقط لحجم هذه المأساة تشير إحصائيات وزارة الداخلية الإسبانية على لسان **(Khachani. M, 2003, 13-14)** أن حجم المهاجرين غير الشرعيين المفقودين بين المياه الإسبانية والمغربية بين سنوات 1997 إلى جوان 2001 قدر بـ 3932 مهاجر مفقود سواء في المياه الإسبانية أو المغربية أو حتى بينهما، فيما قدرت (Association Pro Droits de l'Homme d'Andalousie, juin 2006, p02.) عدد الوفيات والمفقودين بين شهري جانفي – جوان 2006م بأكثر من 640 شخص.

وبالتالي فإن الهجرة السرية اليوم ليست مسألة ظرفية عادية بل تعبير عن واقع اقتصادي واجتماعي وسياسي متأزم في عالم متوحش في تعامله مع الإنسان وحقوقه وكرامته، وكل المجتمع الدولي ومؤسساته بما فيها مؤسساتنا من أسر ومؤسسات

المجتمع المختلفة وجمعياته وسلطاته السياسية والمدنية تتحمل المسؤولية اليوم عن كل روح تزهق في صحارينا ومياه المتوسط والأطلسي.

خلاصة: ما يمكن التأكيد عليه في ختام هذا العمل هو أن أسباب الهجرة تعددت اليوم وأصبح معها أمل العديد من الفئات في العبور للضفة الأخرى أكثر من ضروري، بل إعتبر بعضهم الآخر أن البقاء هنا هو الموت البطيء بعينه، في حين يقول بعضهم الآخر "الهربة"، "يأكلني الحوت وما يأكلنيش الدود".

هذه العبارة الأخيرة تعكس فعلا أزمة مستعصية في حياة عديد من فئاتنا الإجتماعية وحلها بالمقابل يتطلب اليوم تضافر لكثير من الجهود سواء بالجزائر أو بدول الاستقبال، فظروف البطالة والفقر والتهميش والمحسوبية في التوظيف والمحاباة ولا عدل في توزيع الثروة كما يرى هؤلاء ......ظروف قاهرة دفعت الكثير منهم "الشباب" إلى التفكير في المقامرة بالهجرة السرية ولو بأمل 01٪ في الوصول للضفة الأخرى ما دام كما يقول هؤلاء ليس لهم معنى هنا.

يقول أحد مبحوثينا "عندي غي بطاقة التعريف الوطنية التي تأكد بلي أنا جزائري.... في حياتي ما خدمتش عند الدولة .....لا زواج لا دار .....شا نقعدوا نديروا هنا... قلولولهم يخلونا نمشوا ما بقانا ما نديروا هنا .....". بالمقابل لهذا فالانبهار والتطلع لدنيا الآخر، والعيش في الوهم بالعالم الغربي، وتأثير فئات المهاجرين العائدين للجزائر خلال العطل يجعل من أمل شبابنا يتعاظم في الهجرة بشتى الطرق

ومن كل هذا تطرح لنا سوسيولوجيا الهجرة السرية كأزمة مجتمعية بنيوية لعديد فئاتنا الإجتماعية بشكل أسرت معه تصورات وتمثلات هذه الفئات خصوصا منها الشبابية، وأثرت في جوانب عديدة، ومعه يطرح لأي باحث حول ظاهرة الهجرة السرية عددا من الأسئلة التي تحتاج الكثير من التفكير والبحث عن الحلول

فمفهوم الهوية اليوم مثلا في علاقته بالهجرة السرية ومن خلاله معنى المواطنة، وكيف أصبح ت؟ يحتاج لإعادة الصياغة في ظل كل هذه الظرو ف الدافعة لهجرة الوطن والتي صيغت وفقها تصورات الكثير من شبابنا، ومنه فهل الأزمات السوسيو اقتصادي ببلادنا ستؤدي إلى إلغاء المفهوم الكلاسيك ي للهوية ومن خلاله ستنحدر معاني المواطنة إلى أدنى مستوياتها، مادام شبابنا لا يشعر بمواطنته في ظل حقوقه المهضومة كما يقول مبحوثينا، وهل الجزائر أصبحت اليوم عاجزة عن التكفل بأبنائها؟.

أما بالنسبة للمهاجر السري الجزائري لماذا لا يفكر عن طريق للنجاح اقتصاديا في وطنه أسوة بنسبة ليست بالهينة من الأفراد الذين تمكنوا من ذلك؟، وإن كان لا يريد ذلك فهل يعود ذلك لكون الفرص التي ينتجه ا نظامنا الإقتصادي والإجتماعي محدودة بخصوص ذلك؟.

قائمة المراجع:

1)- Alouane Youssef, Khachani Mohamed, Labdelaoui Hocine, Organisation Internationale du travail, la Migration de main-d'œuvre pour l'intégration et le developpoment en Afrique-« Rapport sur les Migrations et développement au Maghreb central », sous la direction de: Musette Mohamed Saïb, Coordinateur principal, *Projet Migrant Maghreb, avec la collaboration des consultants suivants : Projet Migrant – Maghreb – Bureau de l'OIT d'Alger - 2005* 27Organisation Internationale du Travail, TUNIS –octobre 2005.

2)- Association Pro Droit de l'Homme d'Andalousie, CANARIES : Politiques migrations, Victimes et Violations des Droits de l'Homme, SEVILLE, juin 2006. **www.apdha.org**

3)- HAMMOUDA Nacer eddin, « Algérie : démographie et économie des migrations » « migrations méditerranéennes », edited by PHILIPPE Fargues, Projet de coopération sur les questions liées à l'intégration sociale des immigrés à la migration et la circulation des personnes, Published by the European University Institute, Robert Schuman Centre for Advanced Studies, Via delle Fontanelle, Italy, CARIM 2005, rapport 2005.

4)- Joundarmorie National, « l'immigration clandestine en Algerie. Le 15/04/2004 - www.algerie-dz.com/articles 656.html

5)-KHACHANI Mohamed, La Migration Clandestine au Maroc , colloque « Entre Mondialisation et Protection des Droits- Dynamiques Migratoires Marocaines : Histoire, Economie et culture Casablanca, 13, 14 et 15 juin 2003.

6)- LAHLOU Mehdi, « les Migrations irrégulières entre le Maghreb et l'Union européenne : évolutions », Projet de coopération sur les questions liées à l'intégration sociale des immigrés à la migration et la circulation des personnes, Institut universitaire européen, RSCAS, Rapport de recherche, CARIM- RR , Badia Fiesolona- Italie, CARIM 2005, rapport 2005.

7)- LABDELAOUI Hocine, « dimension politique est sociale des migrations », « migrations méditerranéennes », edited by PHILIPPE Fargues, Projet de coopération sur les questions liées à l'intégration sociale des immigrés à la migration et la circulation des personnes, Published by the European University Institute, Robert Schuman Centre for Advanced Studies, Via delle Fontanelle, Italy, CARIM 2005 rapport 2005.

8)- SMATI Samar, Alegria- Watch, Informations sur la situation des Droits Humains en Algerie « L'Algerie, Terre de fixation pour les clandestins », le Quotidien d'Oran, Nov. 2004 www.algerie-watch.org

10) - الجميعي توفيق، "إستراتيجيات الشباب بين الفعل ورد الفعل "، مجلة العلوم الإنسانية، تونس. www.ulum.nl/c26.html

www.thisissyria.net/2006/05/30/articles/01.htmlwww.rezgar.comwww.swnsa.comhttp://www.dgsn.dz/ar/immigration_clandestine.php

شباب مهاجر في مواجهة الموت
مقاربة لظاهرة الهجرة السرية ببلدان المغرب العربي

أ. عبد الغني شفيق،
باحث في علم الاجتماع، الرباط المغرب.

نسعى من خلال هذه الورقة إلى إماطة اللثام عن إحدى الظواهر الحساسة التي يعيشها العالم عموما والمنطقة المغاربية على وجه التحديد . يتعلق الأمر بظاهرة الهجرة السرية التي لا يمكن الحديث عنها دون استحضار المشاهد الدرامية والمآسي التي تخلفها في صفوف شريحة هامة من الشباب، حيث أصبح من المألوف الحديث عن الغرق والموت والضياع...

إن أية محاو لة لدراسة ظاهرة الهجرة السرية لابد وأن تستند إلى تحليل شمولي يراعي الظروف الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعي والسياسية للبلدان المغاربية. كما يتوجب ضبط الظروف التاريخية التي أنتجتها . هذه الاعتبارات تبدو ضرورية لمعرفة الظاهرة في تفاصيلها ومحاولة الإمساك بخيوط ها. فالارتفاع المهول لوتيرة تطورها وما تخلفه من مآسي جعل منها خطابا مبتذلا ومستهلكا، بكيفية لم تعد تسمح بمعرفة الشروط التي أنتجتها ولا إدراك المخاطر التي تأتي من ورائها . والسبب في ذلك، يعود في تقديرنا إلى غياب دراسات علمية دقيقة حول الظاهرة، ثم طفو الخطاب السياسي الذي حاول أن يجعل منها ورقة سياسية في العلاقة مع الدول الأوربية.

إن استحضار هذه المشاهد، بقدر م ا يثير قلق الدول المستقبلة لتيارات الهجرة في الضفة الشمالية ليس من باب الرأفة وإنما سعيا لاجتناب التدفقات البشرية المتنامية يكشف بعمق عن الأوضاع التي ي عيشها الشباب المغاربي والتي تدفع به إلى اللعب على حبال الموت غير آبه بالمخاطر . وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب التي تدفع الشباب إلى تقديم نفسه قربانا من اجل الانتقال إلى الضفة الأخرى بالرغم من مآسيها ومشاكلها وبالرغم من العنصرية التي قد يتعرض لها.

ما الذي يدفع الشخص إلى اختيار الموت بدلا من العيش في بلده؟ لكن بالمقابل، كيف يمكن لشخص أن يعيش في مكان لا يجد فيه أبسط مقومات الحياة

الكريمة؟ كيف يمارس العالم الآخر إغراءاته على الشاب المغاربي؟ أليس من الأجدر استثمار المؤهلات البشرية لخدمة التنمية والوحدة المغاربية بدلا من ضياعها بين أمواج البحار؟ كيف يمكن تحقيق التنمية والدول المغاربية تخسر أهم طاقة بشرية؟ ألم يحن الوقت لوضع حد لهذه المآسي وجعل الشباب المغاربي حلقة وصل لبناء المغرب العربي الموحد؟

أولا: الشباب المغاربي بين الواقع المحلي والتفكير في الهجرة السرية

1ـ الشباب: محاولة لتحديد المفهوم

يستعمل مفهوم الشباب في مجالات عديدة سواء منها الدراسات الاجتماعية، الاقتصادية، أو النفسية التربوية، ولم يقف استعمال المفهوم عند هذا الحد، بل أصبح من إحدى الركائز التي يعتمد عليها الخطاب السياسي ووسائل الإعلام، سواء في الجوانب المتعلقة ببطالة الشباب أو هجرة الشباب أو انحراف الشباب..

لكن على الرغم من الحضور القوي لمفهوم الشباب في خطابات متعددة إلا انه يطرح لبسا في التعريف، فكيف يمكننا أن نقارب المفهوم ؟

ترد كلمة شباب بمعاني متعددة، حيث يقابلها لفظ شبب وتعني الفتوة والحداثة، والجمع شباب وشبيبة ومرادفاتها كثيرة، منها : يافع ومراهق وصبي وفتى وغلام... وهي كلمات لا تدل على مراحل عمرية محددة ومنفصلة، بقدر م ا تشير إلى خصائص جسدية وخلقية ونفسية ووجدانية لفترة من فترات الحياة، هي إجمالا خصائص القوة والنشاط والحيوية.

يذهب بعض الباحثين إلى تحديد فترة الشباب ما بين سن السادسة عشرة سنة وسن الثلاثين (معجم العلوم الاجتماعية : 1975 : 333). وفقا لهذا التحديد يمثل الشباب فئة هامة وحيوية في البلدان العربية عامة، والمغرب العربي على وجه الخصوص، وتتميز هذه الشريحة بديناميكيته ا وقدرتها العملية . فهي تتسم بالحماس والطموح والحيوية.

غير أن طموح هذه الشريحة كثيرا ما يصطدم بتعقيدات الحياة اليومية والمشاكل الاجتماعية التي يتخبط فيها الأفراد وهو ما يحدث اضطرابا ت في حياة الشباب، تؤدي بهم إلى الانحراف أو التفكير في الهجرة والابتعاد عن الموطن الأصلي، في غياب الشروط الضرورية للعيش الكريم.

2ـ الهجرة السرية وتطورها

تتعدد دلالتها بين هجرة سرية، هجرة لا شرعية، هجرة لا قانونية، حريك كما هو متداول في الوسط الشعبي المغاربي . ويحتوي المفهوم الأخير على حمولة أكثر مأساوية، فهذا النوع من الهجرة - بالمقارنة مع الهجرة الرسمية- يعتبر لا شرعيا وغير مرغوب فيه.

لقد عرفت الدول الأوربية المستوردة لليد العاملة وجود هجرة تلقائية منذ أمد بعيد، أصبح يطلق عليها الهجرة السرية أو اللاقانونية . هذه الهجرة التي بدأت في عقد السبعينيات تزامنت مع إلغاء استيراد اليد العاملة الأجنبية من قبل الدول الأوربية. وعرفت ارتفاعا في وتيرتها في عقد الثمانينيات مع اتفاقية "شنكن" وتوحيد أوربا. وقد وضعت الدول الأوربية في الفترة ما بين 1973 و1979 قوانين خاصة بالعمال الأجانب لحماية سوق العمل الوطنية (معروفي.ع.ل 2000 : 4). وبما أن الأولوية أعطيت لحماية سوق العمل بتق ليص حق العمال الأجانب في العمل، فان تقنين حركة الهجرة طرحت مشاكل بالنسبة للشباب المغاربي . فما دام هؤلاء لا يحصلون على حق الإقامة فإنهم يتحولون إلى مهاجرين سريين

ارتفع حجم هذه الفئة من "المهاجرين السريين" في سنوات الثمانينات بفعل دخول قوانين الأجانب حيز التنفيذ، لكن رغم ذلك لم يضع حدا لتدفق المهاجرين الذين ارتفعت وتيرتهم باستمرار.

ظهرت معالم الهجرة السرية المغاربية إلى أوربا بشكل أكثر وضوحا مع إغلاق الحدود الاسبانية في وجه المغاربيين، وتحول مضيق جبل طارق إلى مقبرة " للضحايا من الشباب ". وقد احتلت مشكلة الهجر ة الصدارة في الخطابات السياسية والإعلامية منذ ماي 1991، (معروفي.ع.ل 2000 : 4) وبما أن اسبانيا فرضت التأشيرة على كل الذين يودون دخول ترابها من المغاربيين، فان هؤلاء حاولوا بكل الطرق ولوج أوربا وبأساليب سواء كانت شرعية أو غير شرعية

بالرغم من الحراسة الأمنية المشددة التي حاولت اسبانيا فرضها للحيلولة دون قدوم الأجانب (خاصة الشباب المغاربيين)، فان قوارب الموت استمرت في نقل شرائح اجتماعية، ضاقت درعا من الفقر والتهميش الاجتماعي، طامحة في الوصول إلى فردوس مفقود، ساهمت في الترويج له شبكات تهريب وتزوير، وعصابات تتاجر في مستقبل شباب أصبح همه الوصول إلى الضفة الأخرى رغم كل الخسارات المتوقعة. فما الدافع إلى اختيار هذا الطريق المظلم وعدم الاكتراث بالمخاطر؟

3 الهجرة: تعدد الأسباب والطموح واحد

تتعدد الأسباب التي تدفع الشباب إلى التفكير في الهجرة، وتتجلى أساسا في الظروف الاقتصادية التي تعيشها دول المغرب العربي . كما تبرز أسباب أخرى ذات أهمية بالغة في توجيه تيارات الهجرة السرية ومن ضمنها القرب الجغرافي وكذلك التمثلات التي يحملها الشباب حول أوربا كأرض خلاص

أ الأسباب الاقتصادية

تتميز غالبية دول المغرب العربي بهشاشة اقتصادها وت بعيته للغرب، في إطار النهج الليبرالي . هذه التبعية فرضت انصياع معظم هذه الدول لشروط وتوصيات المنظمات الدولية، وهو ما أدى إلى تضرر الاقتصاديا ت الوطنية، التي تعاني من الضعف في ضل المنافسة الشرسة التي أصبحت تفرضها العولمة، الأمر الذي نتج عنه تراجع في الأنشطة ا لاقتصادية التقليدية، خاصة الصناعات التقليدية المحلية . وتضاءلت معها فرص الشغل. وقد نتج عن ذلك ارتفاع مهول في نسبة البطالة خاصة في شرائح الشباب، نسبة البطالة هذه مست بشكل كبير الشباب من حاملي الشهادات العليا، وهو ما خلف استياء في أوساط هذه الشريحة

لقد تبين من خلال دراسة حول "تصور الشباب القروي المغربي للأوضاع الهجروية في البلدان المستقبلة " (العماري.خ 2003 : 16 وما بعدها) أن الغالبية العظمى من هؤلاء يستحسنون الأوضاع في البلدان الأوربية، ويفضلون ذلك على أن يعيشوا في وضعية البطالة في بلدهم . هكذا صرح بعضهم قائلا : " أفكر في الهجرة نظرا للأوضاع المزرية في المغرب، حيث قلة الشغل، والآفاق مسدودة، هذا إضافة إلى أن الفقر يجعل منك إنسانا مهمّشا. فالمال هو هويتك، صحيح أن الغرب مجهول بالنسبة لنا لأننا لسنا موجودين به، لكنه فرصة لجمع المال.."

إن هذه الصورة البسيطة والمعبرة هي بدون شك حالة من بين مئات الحالات التي يكشف الواقع المغاربي عن وجودها، والتي ضلت عائقا أمام التنمية التي ينشدها المجتمع.

إن غياب فرص العمل والاندماج السوي في الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى ضعف التأطير الثقافي والسياسي الذي يمكن أن تلعبه هيئات المجتمع المدني، ساهم بشكل واضح في التشجيع على الهجرة . ذلك أن الأفراد في هذه المجتمعات (المغاربية) يعرفون هبوطا مهولا في مستويات معيشتهم، بحيث إن الفئات التي كان

لها عمل مأجور رسمي أصبحت معرضة للبطالة. لقد اعتبر تقرير منظمة اليونسكو ما عرفه العالم من تدفق للمجموعا ت البشرية من دول الجنوب نحو دول الشمال بحثا عن حياة كريمة، في أشكاله المأساوية أوما يعرف بالهجرة السرية، يدخل في إطار ردود الفعل اليائسة هذه. رغم الحواجز التي تضعها البلدان الغنية أمام هؤلاء اليائسين (أمتي.خ 2004 : 9.7.6).وما كلمة الحريك أوالحريق المتداولة في الثقافة الشعبية بدلالتها السميولوجية، إلا تعبيرا عن حالة اليأس التي يواجهها الشباب المغاربي. حالة يأس وتهميش تضافرت إلى جانبها عوامل أخرى، شكل القرب الجغرافي والانبهار الخادع الذي يبنيه الشباب المغاربي عن أوربا إحدى أبرزها.

ب ـ القرب الجغرافي وبداية المغامرة

تشكل دول المغرب العربي بوابة رئيسية وصلة وصل بين إفريقيا وأوربا، هذا الموقع الجغرافي المتميز على بعد أربع عشرة كلومتر، ساهم في تسهيل عملية المرور بين الضفتين الجنوبية والشمالية.

وإذا كان القرب الجغرافي قد ساهم في فترة الفتوحات الإسلامية في تسهيل دخول الأندلس على يد جيوش المسلمين، فانه أصبح اليوم وبعد مضي قرون عديدة، ملاذا لكل الذين يئسوا واستحال عيشهم، ويتطلعون لعالم آخر مختلف. لم يعرفوا عنه شيئا سوى صورة بنيّت في مخيّلتهم، تدفعهم إلى المخاطرة بأرواحهم وراء نزوات ورغبات غذتها قساوة الحياة ببلدانهم

إذا كان الباحثون في الدراسات الإستراتيجية يعتبرون منطقة شمال إفريقيا عموما والمغرب العربي على وجه التحديد من المناطق الحساسة، فان حساسيتها اليوم تتمثل في كونها قنطرة لعبور، ليس فقط لرؤوس أموال ورساميل، وإنما لأسراب من البشر في مقتبل عمرهم ممن يلقون بأجسادهم في أمواج المتوسط، تستهويهم لحظة الوصول إلى الضفة الأخرى.

ج ـ تمثلات الشاب المغاربي لأوربا وإغراءات العالم الآخر

قد يكون ابن خلدون أصدق قولا بما ذكره في مقدمته من "أن المغلوب دائما مولع باقتداء الغالب في نحلته وأكله وملبسه وسائر أحواله وعوائده "(ابن خلدون.ع.ر دون تاريخ : 56) إنها بالفعل ضريبة جديدة من ضرائب التبعية، التي تغرق فيها دول الجنوب وضمنها الدول المغاربية. فالانبهار بدنيا الآخر وطريقة عيشه، والرغبة في محاكاته في سياق الاغتراب والبحث عن الذات المفقودة والهوية المجزأة، التي

ترفض البلد الأصلي وتأمل في تحقيق هوية البلد الأوربي المستقبل، كلها تجعل الشباب يفضلون اللعب على حبال الموت بين أمواج المتوسط . فالذين تكتب لهم النجاة لا يترددون في التخلص من أوراق هويّاتهم لاكتساب هوية جديدة، وتفادي السقوط في قبضة الأمن والرجوع إلى موطن الانطلاق، أما الذين صعب عليهم الوصول فلن يكون مصيرهم سوى مقابر بحرية تتسع للمئات.

تساهم التمثلات التي يحملها الشباب المغاربي عن أوربا في تأجيج الرغبة في الهجرة دون تقدير المخاطر . فأوربا بالنسبة للعديد منهم بمثابة الفردوس المفقود، والسبيل الوحيد للانتهاء من متاهات العطالة والانتظارية القاتلة. والتفكير في الهجرة يمثل الحل الأنسب لذلك.

لقد أظهرت دراسة اجتماعية بمنطقة بني ملال بوسط المغرب، أن حوالي 96 بالمائة من المبحوثين الذين شملتهم الدراسة عبروا عن رغبتهم الملحة في الهجرة بأي شكل من الأشكال (العطري.ع.ر 2005 : 2 وما بعدها). فما يجلبه المهاجرون صيفا من سيارات فاخرة، وما يأتون به لصالح أسرهم يضيف بعض الشباب يبين أن عسل الضفة الأخرى يستحق اللعب بالنار عبر ركوب قوارب الموت.

ثانيا: الشباب المغاربي والهجرة السرية بين الطموح إلى النجاة وبداية المنغلق بأوربا

تشكل ظاهرة الهجرة السرية في صفوف الشباب المغاربي جزء من ظاهرة الهجرة ككل، بيد أنها لم تنل اهتمام المتتبعين والدارسين إلا بعد إغلاق الحدود الاسبانية في وجه المغاربيين سنة 1991، هكذا أصبحت بمثابة مشكلة في صميم العلاقات بين الاتحاد الأوربي والبلدان المغاربية.

إن المتتبع لمسارات تيارات الهجرة المغاربية، سيستشف أنها ظلت حاضرة باستمرار ولم يتغير سوى شكلها، فالإحصائيات المقدمة تؤكد ثقل تواجد الجالية المغاربية ببلدان الاتحاد الأوربي، حيث تبلغ الجالية الجزائرية في فرنسا حوالي 56.77 ٪. من المقيمين الأجانب في مقابل 32 ٪. بالنسبة للجالية المغربية، بينما تمثل تونس 8 ٪. (الغالي.ك 2003 : 47).

إذا سلمنا بأن هذه النسب من المهاجرين بفرنسا، ما هي إلا صورة مماثلة لنسب أخرى بدول عديدة كألمانيا، اسبانيا، ايطاليا، فانه من المؤكد أن الظاهرة تتم بأشكال غير قانونية وغير مرغوب فيها . إن التعامل مع قضية الهجرة ل طالما غلبت عليه المقاربة الأمنية وعسكرة الحدود في وجه المتدفقين من الشباب واليائسين .

ولعل الأرقام المستخلصة من تطور هذه الظاهرة كفيلة بتقديم صورة أكثر دقة عن خطورتها. ففي سنة 1995 ألقى حرس الشواطئ الاسباني القبض على 1363 مهاجرا سريا حاولوا التسلل إلى التراب الاسباني بطريقة غير "قانونية". وخلال الستة أشهر الأولى من سنة 1996 تم إلقاء القبض على حوالي ألف مهاجر سري أغلبهم من الشباب المغاربي. (معروفي ع.ل، 2000 : 4).

رغم ما تقدمه المؤشرات الإحصائية من أرقام حول الظاهرة، فان خطورتها تتمثل في الصور البشعة التي يتم بها فقدان شباب في مقتبل العمر. وعلى الرغم من انه ليس من مهام الدراسة العلمية تقديم النصائح، فإننا نسعى إلى استيضاح مدى ثقل وخطورة ظاهرة الهجرة السرية على البناء الاجتماعي وتطوره . فهل تمثل الهجرة فرصة للشاب المغاربي للوصول إلى مطامحه والخروج من براثين الفقر والبطالة والحرمان، أم أن مآسيها تتجدد بصورة أخرى.

1 الهجرة السرية أوالبحث عن مصير مجهول

لعل الأرقام والمعطيات التي توردها قصاصات الأنباء كل يوم عن ماسي الهجرة السرية، كفيلة بتقديم صورة أكثر دقة عن المآسي والأرواح التي تحصدها من ورائها، فقد أصبح من المعتاد أ ن نسمع في الخطاب الإعلامي حديثا عن ضحايا وغرقى، لدرجة أصبحت معها ظاهرة الموت والغرق قاعدة وأصبحت النجاة استثناء

تتعدد الطرق والوسائل والموت واحد، فمن الشباب من يختار شمال المغرب لقربه من اسبانيا ومنهم من يفضل طريق تونس مالطا، لكن تتعدد أسباب الاختيار والغرق واحد.

يشكل اختيار الوسطاء أنجع الحلول بالنسبة للمهاجر . لكون الوسيط أكثر خبرة ومعرفة بالطرق والوسائل المستعملة للوصول إلى الضفة الأخرى . غير أن الأمر يقتضي توفير مبلغ باهض من المال، لطالما افتقده المهاجر وظل يبحث عنه، بل إن مثل هذا المبلغ هو الدافع الأساس ي لهجرته. لكن المهاجر لا يجد بدّا من البحث بكل الوسائل عن جمع المبلغ المطلوب، حتى لو اقتضى الأمر استعمال طرق غير مشروعة(السرقة، التهريب...).

تبلغ تكاليف عملية الهجرة السرية ما بين 15 ألف درهم و25 ألف درهم /مغربي (◆)، منذ سنوات 2003. وليس هناك من الضمانات م ا يجعل المهاجر في مأمن من المخاطر. ففي كثير من الأحيان يتم نقل المهاجرين من قبل الوسطاء عبر قارب من

شواطئ تطوان، إلى شاطئ مدينة مغربية أخرى بعد أن يكون الوسيط قد درس كل خططه للتخلص من المهاجرين . وما أن يبدأ ظلام الليل حتى يتم نقلهم، ويتم إيهامهم بأنهم قد وصلوا شواطئ الجزيرة الخضراء، لان العملية تتم ليلا ولا تتيح للمهاجر السري التأكد ومعرفة وجهة القارب.

تعتبر الشواطئ المغربية والتونسية أفضل المناطق للانطلاق، وبالرغم من خضوعها أحيانا إلى مراقبة، إلا أن خبرة الفرق المختصة في تهجير الشباب تكون أكثر دراية بالأماكن البديلة والوقت المناسب لذلك.

يمكن إدراك خطورة وثقل الظاهرة ومخلفاتها من خلال عرض معطيات دقيقة واقعية حولها، وهو ما سيتضح من خلال الأرقام والإحصائيات الآتية : (الغالي.ك 2003 : 47)

الفترة الزمنية	عدد الضحايا
3 أوت 2001	13 من 30 كانوا على متن زورق خرج من الحسيمة إلى أليريا ماتوا غرقا.
4 أوت 2001	انتشال جثة مغاربي بشواطئ قاديس
22 أوت 2001	إيقاف 60 مغاربي، 4 منهم القوا بأنفسهم في البحر بشواطئ كابودي كاطا
23أوت 2000	9 ضحايا يلقون بأنفسهم في البحر بشواطئ كانارياس
12 سبتمبر 2001	3 جثث في حالة تحلل قرب الميريا
18 اكتوبر2001	قاصر مغربي يموت تحت عجلات حافلة بالخزيرات
28 اكتوبر2001	مغاربي عمره 18 سنة مات غرقا بشواطئ فوينتي بنتوار
1 أوت 2002	13 مغاربيا يموتون غرقا خوفا من مطاردة دورية للحرس المدني الاسباني
2 أوت 2002	غرق مغاربي حاول دخول مليلية سباحة

لقد تم تسجيل حوالي 148 حالة وفاة في الفترة الممتدة ما بين 3 أوت 2001 و2 أوت 2002.

إن المعطيات المقدمة، ساهمت إلى حد كبير في تقريب الصورة الحقيقية لمآسي الهجرة، وإن كان الواقع أكثر من أن تستوعبه الأرقام . ذلك أن أشكال عديدة للهجرة بدأت تبرز مؤخرا. حيث لم تعد المناطق الشمالية للدول المغاربية هي المنطلق الوحيد، بل أصبحت شواطئ عديدة بالجنوب المغربي – على سبيل المثال قبلة للمهاجرين المغاربيين والأفارقة. وهو ما يوحي بصعوبة ضبط الظاهرة ودراستها بدقة. فالدارس لمثل هذه المواضيع يصعب عليه الإمساك بجل خيوطها ومعرفة اتجا هاتها المختلفة. وهو ما يجعل الدراسات الاجتماعية في هذا الميدان قليلة، إذا ما قورنت بأهمية الموضوع وحساسيته، ما يستوجبه من متابعة . وهو الأمر الذي يذكي تهافت الخطابات السياسية حول الموضوع، وان كان الأمر من باب المزايدة السياسية

وإفراغ الموضوع من طابعه الاجتم اعي، القائم على كون الهجرة آفة اجتماعية واقتصادية وتعبيرا عن خلل هيكلي يصيب البلدان المتخلفة أكثر من غيرها. فتزايد ظاهرة الهجرة خاصة السرية منها. ولن نبالغ أن أسميناها بالهجرات المأساوية. يعبر عن خلل في توازن واستقرار البنية الاقتصادية للدول المصدرة للمهاج رين. أما من الناحية الاجتماعية فهذا الشكل من الهجرة هو تعبير عن خلل في البنية الاجتماعية، وعن تهميش اجتماعي، واقتصادي في الآن ذاته، لأفراد وشرائح معينة من المجتمع

2. شباب الهجرة السرية وأوربا: نهاية مأساة وبداية مأساة

إذا كان الأمل الذي يراود كل مهاجر هو الوصول إلى الضفة الأخرى من الأبيض المتوسط، فان للوصول وجه آخر للاغتراب والمآسي، فعسل الدول الأوربية الذي طالما توهم به الشباب المغاربي، وصورة الديمقراطية المتخيلة، سرعان ما تزول لتكشف القناع عن صورة أخرى تقوم على الإقصاء والتهميش . وفي هذا الصدد تكشف الباحثة **جميلة الشيخي،** في مقال لها، عن حقيقة الصورة التي تروج لها وسائل الإعلام الاسبانية حول المهاجرين المغاربة والعرب جميعا، حيث تصفهم بالبرابرة المحتلين. وتسوق سلسلة من الصور التي أوردتها بعض الجرائد الاسبانية ك " الموندو" و" البابيس" والتي تعيد إلى الأذها ن صورة المحتل العربي " المورو". الصورة التي ارتبطت تاريخيا لدى الأسبان بالفتوحات الاسلامية للأندلس(Chikhi.D 2003: 91-103) والتي توجه شكل تعاملهم مع المهاجر العربي عموما والمغاربي على وجه التحديد. صور تجعل الشاب المغاربي المهاجر أمام تساؤلات عديدة : من أنا؟ ما دوري ومكانتي في مجتمع التقدم والثورة التكنولوجية ؟

إنها أسئلة الهوية التي طالما أسالت أقلام مفكرين . وأسئلة الهوية تجعل المهاجر من الناحية النفسية شخصا لهويات متعددة لا يملك أيّا منها . فلا هو يعيش ببلده مكرّما ليدرك حلاوة العيش بوطنه، ولا هو قادر على العيش في وسط لا يقاسمه هواجسه وآلامه . فالهوية الفردية تتنامى وتنصهر داخل هوية الجماعة داخل مجتمعاتنا العربية. وسؤال الهوية بالنسبة للمهاجر يبدأ من الأسرة والوطن والسمات الثقافية المشتركة، وكلها أشياء يفتقدها في بلدان المهجر المختلفة عنه لغويا وثقافيا.

إن الخطابات المروجة عن أوربا الديمقراطية، الحرة، المتقدمة والمؤمنة بالحوار والاختلاف واحترام حقوق الإنسان، سرعان ما تتكسر وتمحوها وقائع الحياة

اليومية التي يمر منها المهاجر، فتبدو له هذه الشعارات في حقيقتها جوفاء وغير ذات معنى عندما يتعلق الأمر بمواطن خارج ال دول الأوربية . فهذه الشعارات والخطابات الرنانة، إن صحت فلا تنطبق إلا على المواطن الأوربي، أما المهاجر المغاربي فلا يبقيه في أوربا غير استيائه من بلده وواقعه المزري.

لقد أكدت أحداث العنصرية المستمرة، أن المهاجر. خاصة السري الذي لا يمتلك رخصة الإقامة القانونية يعيش في وضع لا يحسد عليه . أبرز تلك الوقائع أكدتها أحداث اليخيدو باسبانيا في 5/6/7 / فبراير من سنة 2000. حيث حملة الكراهية والحقد تواصلت ضد كل مهاجر مغربي، واتخذت مشهدا تراجيديا في ذهنية كل المهاجرين المغاربة الذين تعرضوا لأعمال عنف شنيعة. لقد مثلت هذه الأحداث واحدة من الصور الكثيرة التي تظهر صعوبة التعايش مع المهاجر وزيف الشعارات

إضافة لكل ما سبق نسجل وجود عدد كبير من المهاجرين ممن يقطنون بشكل غير قانوني بأوربا دون أن يصلوا إلى تسوية أوضاعهم القانونية، وهو ما يجعلهم يشتغلون في ظروف مزرية . فكثير منهم يفضلون الاشتغال بمقاهي ليلية ويقضون معظم أوقاتهم مختفون عن الأنظار، حتى لا يتم إلقاء القبض عليهم وإرجاعهم إلى بلدانهم الأصلية . كما أن البعض الآخر يختار الاشتغال في القطاع الفلاحي بعيدا عن المدن الكبرى، درءا لكل ما من شانه أن يلقي بهم في أيادي السلطات المعنية التي لن تتردد في إرجاعهم من حيث أتوا.

يبدو أن مواسم الهجرة اللامتناهية ستؤرق بال المهتمين بالموضوع، طالما أنها تتشعب وتتخذ أشكالا تجعلها أكثر تعقيدا، ولكن على الرغم من ذلك فان الأمر يقتضي البحث عن حلول ناجعة لإيقاف نزيف شريحة أصبح شغلها الشاغل البحث وابتك ار أساليب للهجرة والابتعاد عن واقع لم تصنعه بأيديها وإنما قدر لها أن تكون ممن يجني سلبياته.

إن الجرأة العلمية تقتضي منا أن لا نغض الطرف عن مآسي وآفات تنخر هيكل مجتمعات بأكملها. فإذا كانت جل الدول اليوم تراهن على الاستثمار في الطاقات البشرية التي يمثل ا لشباب أهم رأسمال فيها، فان الضرورة تقتضي إثارة كل المشاكل الاجتماعية وعلى رأسها قضايا الشباب . لذلك فمن الإنصاف أن لا تلقي الدول المغاربية اللوم على الآخر في تحليل آفاتها الداخلية. وأقصد تحديدا أن لا تجعل من قضية الهجرة همّا أو مشكلا أوربيا، فالهجرة السرية ومآسي قوارب الموت لا

تمس سوى الشباب المغاربي . كما أن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة نابعة أساسا من واقع هذه الدول ومتاهاتها ومن تفقيرها ومخططاتها التنموية المعطوبة التي ترسمها الجهات الرسمية، أضف إلى ذلك تبعيتها لاقتصاد رأسمالي، يجعل منها سوقا لتصريف السلع وإقامة التجارب. لكل ذلك يفضل الشباب المغاربي مرارة عسل أوربا بدلا من واقع مزري وتهميش اجتماعي يرهن حياته من أجله

إذا كانت عملية التنمية تقتضي إشراك كل الشرائح، وتستند إلى خطابات المواطنة، فان أول ما تقتضيه المواطنة الارتكاز على حق الإنسان في العيش الك ريم وإتاحة الفرصة له لإظهار قدراته وطاقاته، وهو ما يقتضي إدماج الشباب وإشراكه في عملية التنمية، لا أن يتم إقبار كفاءته وجعله يسلك طرق الانحراف والموت والضياع الذي تشكل الهجرة السرية إحدى وجوهه.

- يقتضي الأمر كذلك الابتعاد عن جعل قضايا الشباب خطابا لمزايدات سياسوية واستغلاله لتمرير مخططات وسياسات لا تخدم الشباب في شيء

خلاصة

إن إثارة موضوع الهجرة السرية في صفوف الشباب، والذي طالما تم التعامل معه بشكل مناسباتي، يستدعي التعامل معه كظاهرة اجتماعية ناتجة عن خلل أوجب إصلاحه، وذلك وفق إستراتيجية اجتماعية واقتصادية وتربوية متكاملة تشرك كل الفاعلين، وتراعي المصلحة العامة للبلدان المصدرة للمهاجرين، بعيدا عن النزعات الفردية المتأزمة.

كما يجب الإقرار بأن الرهان على أوربا والدول المستقبلة للهجرة ودعوتها إلى التعامل مع المهاجرين بمقاربات اخرى، هو بمثابة خطاب أجوف ينفي المسؤولية عن الجهة المسؤولة عن الظاهرة، فقد أصبح من الملح أن تنتبه معظم الدول المغاربية إلى عطبها الداخلي، وتعيد النظر في سياساتها بعيدا عن منطق الحرمان والإقصاء الاجتماعي للشباب.

الهوامش والإحالات:

- ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة. دار الفكر. د.ت. يمكن الرجوع إلى الفصل 23 من المقدمة . ص 56، من الطبعة الالكترونية، المتواجدة على الموقع التالي:
- أمتي خديجة (2000): الهجرة السرية من خلال الصحافة المغربية. الهجرة السرية الرهانات والآفاق . الرباط. الجمعية المغربية للأبحاث والدراسات حول الهجرة. مكتبة الكرامة.

- العماري خديجة (2003): تصور الشباب القروي المغربي للأوضاع الهجروية في البلدان المستقبلة . بحث لنيل الإجازة في علم الاجتماع. غير منشور. جامعة محمد الخامس. الرباط. المغرب.
- العطري عبد الرحيم: مقال حول الهجرة السرية، منشور بموقع جريدة الشرق الأوسط على الانترنيت 2005/04/28
- الغالي كنزة (2003): " نساؤنا المهاجرات في اسبانيا" منشورات الزمن مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء .
- معجم العلوم الاجتماعية (1975): إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، مراجعة الدكتور إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص: 333.
- معروفي عبد اللطيف (2000): "الهجرة السرية والمهاجرون بدون أوراق في العلاقات المغربية الأوربية، النموذج الهولندي" ضمن كتاب جماعي بعنوان. الهجرة السرية الرهانات والآفاق. الجمعية المغربية للأبحاث والدراسات حول الهجرة. مطبعة الكرامة، الرباط، الصفحة.
- هذا المبلغ كان متداولا منذ سنوات عديدة أما الآن فالمبلغ ارتفع، خاصة مع تعقّد إمكانية الحصول على عقد أوالذهاب بشكل شرعي . وكذلك مع تكثيف المراقبة التي أصبحت تخضع له الشواطئ في الضفتين.
- Djamila CHIKHI : « Les Relations Hispano- Marocaines à l'Epreuve de la crise Persil-Leila » in ; *Les Relations Maroco- Espagnoles. Revue Paix et sécurité internationales.*N° 1 juin 2003

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

L'immigration algérienne au Maroc a l'époque coloniale :
le cas de la communauté algérienne a Oujda

الهجرة الجزائريةنحو المغرب أثناء الاستعمار:
دراسة حالة للجالية الجزائرية بوجدة

AZIZA Mimoun,
Département d'histoire,
Université de Meknes-Maroc.

أزيزة ميمون،

قسم التاريخ، جامعة مكناس، المغرب.

ترجمة :

د. جيلاني كوبيبي معاشو،

قسم علم الاجتماع، جامعة معسكر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرفت الجزائر أثناء الفترة الكولونيالية هجرات متنوعة خاصة نحو الإمبراطورية المستعمرة، وكانت أيضا نحو المغرب الذي كان الوجهة الأولى للجزائريين المستنكرين لهمجية الإستعمار الفرنسي في إطار اللجوء والنجاة بالعقيدة من هؤلاء، وتعود دوافعها بالدرجة الأولى لأسباب ثقافية ودينية تحديدا وبسبب الجوار الجغرافي والعلاقات العائلية التي تربط المجتمعين المغاربيين (الجزائر – المغرب)، هكذا إذن كانت البداية وبهذا الشكل تجسدت، ثم تنوعت في صيغ أخرى لتمس عدة أجيال من الشعب الجزائري وقد دامت أكثر من قرن أي منذ 1840 وإلى غاية 1962، ليجعل بعد ذلك آلاف الجزائريين من المغرب بلدهم الثاني (وكان عددهم حوالي 100000 أثناء حرب التحرير الوطنية).

إن الهدف من هاته المحاولة هو لكشف النور عن هذا النوع من الهجرة المغاربية وإثارة انتباه المحللين لمثل هذه الظواهر، ولأن الجالية الجزائرية سكنت خصوصا بإقليم وجدة وضواحيها، فإننا سنخصص رؤيتنا الدراسية لهاته الفئة بهذه المدينة وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذا الطرح لم يسبق له وأن كان موضوعا للدراسة، وفي هذا الشأن فإن مسعانا يندرج في إطار إظهار الوجه الآخر للهجرة الجزائرية 1 الذي يجب الاهتمام به وتدوينه، ونظرا لكون المخيمات الجزائرية انحصرت في 29300 شخص، فإن إقليم وجدة جاء في سنة 1960 في المرتبة الثانية بعد مدينة الدار

البيضاء من حيث التواجد الأجنبي به، وتمثل عدد كل الجزائريين المقيمين بالتراب المغربي بنفس التاريخ في 95000 شخص أي ما نسبته 24٪ من مجموع الأجانب المتمثل في (396000).

ومن جملة هؤلاء الجزائريين 50٪ منهم سكنوا المنطقة الشرقية (A.Guitouni.1995 : 103)، وتعلقت الهجرة نحو المغرب بأوربيي الجزائر أي الكولونياليين تماما مثل الجزائريين سواء كانوا مسلمين أو يهود . لكن هذه الدراسة تتعلق فقط بالفئة الأولى التي يشار إليها في البيانات سواء كانت الكتابات أو الوثائق الرسمية لتلك الفترة كالتقارير الإحصائية تحت إسم الجزائريون المسلمون أو المسلمون الجزائريون، بينما نستعمل نحن مفهوم الهجرة الجزائرية أو الجزائريون بكل بساطة، كما سنحاول تقبل ذلك في حدود إمكان المقاربة السوسيولوجية التي تؤول إلى دراسة الحياة العامة لهاته الجالية أو مسايرة التاريخ الإجتماعي لها من حيث القانون والهيكل التشريعي، ومن خلال ظروف حياتها أو علاقاتها مع المواطنين خاصة في الجهة الشرقية من المغرب طبعا.

المصادر التاريخية :

كما أشرنا سابقا لا توجد حسب معلوماتنا دراسات تتع لق بهذا الموضوع، في الوقت الذي توجد فيه فقط بعض الوثائق الأساسية التي يمكنها أن تسمح لنا بتكوين فكرة عن تاريخ هاته الهجرة ومسايرة مختلف دفعاتها.

رغم الأحكام الكولونيالية المسبقة خاصة الكلاسيكية منها 2، فإن هذه الوثائق تسمح لنا بمتابعة تطور الجالية الجزائرية المقيمة بهاته المنطقة الحدودية من المغرب على وجه التحديد أي بمدينة وجدة، كما تشكل لنا معطيات رقمية لمختلف فئات هاته الهجرة من حيث توزيعها الجغرافي بالمدينة، والنشاطات المهنية الممارسة ويتعلق الأمر ببعض التقارير وكذا بعض المذكرات بمركز الدراسات العليا ح ول إفريقيا وآسيا الحديثة CHEAM3.

1. " الجزائريون بوجده في 1937 " لومال. م. نشريات لجنة إفريقيا الفرنسية رقم 5 ماي 1937 ص255- 260

2. الجزائريون المسلمون بالمغرب : الظروف التشريعية والاجتماعية (بولونيا على السين) 1938) و " الحياة الإجتماعية للجزائريين والمغرب " الأخبار الإقتصادية للمغرب.1938 ص20- 25 لـ : ب. دكرو

3. "الهجرة الظرفية للشرق المغربي" (ب.عزام 1951) الدراسة التي تحتوي كذلك على معطيات هامة حول الجزائريين بالشرق المغربي

4. معالم الوضعية ودور الهجرة الجزائرية الإسلامية بناحية وجدة . عن المراقب المدني بالنيابة هـ. لومبار. تقرير مؤرخ في 1953

5. مشكل اللاجئين الجزائريين بالشرق المغربي (عن مذكرة : ب.دوبيس مارس 1956 – ماي 1962)

تاريخ الموجات المهاجرة من الجزائر نحو المغرب

يتعلق هذا الفصل بمختلف الموجات المهاجرة من الجزائريين نحو المغرب ويتعلق بإلزامية إدراكنا بأن هذه ا لظاهرة ارتبطت خاصة بالاستعمار لأنه تسبب من جهة فيها وتسبب في مختلف الهزات الإجتماعية التي مست كل بلدان المغرب العربي من جهة أخرى ، فكانت بذلك هجرة الجزائريين الذين وصلوا إلى المغرب واستقروا خاصة بمدينة وجدة ونواحيها ، وحسب لومبار .هـ نستطيع التمييز بين أ ربعة دفعات من الهجرات الهامة وتظهر كل دفعة باسم مغاير للأخرى :- كهجرة المنفى التي استمرت إلى غاية 1907 والهجرة المدعو إليها من 1909 إلى 1926 والهجرة المفضلة التي تمتد من 1926 إلى 1942 ثم الهجرة المحبذة والمتقبلة من 1942 إلى غاية نهاية الحماية في 1956.

يعود تاريخ الدفعة الأولى من المهاجرين إلى فترة الإستعمار الفرنسي للجزائر، وتسمى بهجرة المنفى التي تمتد من 1830 إلى غاية 1907 ، حيث عايش الجزائريون الهيمنة الإستعمارية لبلدهم فهربوا منها متخذين من اللجوء إلى المغرب طريقا لمنفاهم، و قد رافق الكثير منهم الأمير عبد القادر خلال تواجده مجبرا بالمغرب بين 1843- 1844.

يأتي المنفيون خاصة من الجهة الغربية للجزائر وتحديدا من ناحية : تلمسان، ندرومة ومعسكر، ويتحول عددا هاما منهم إلى منافسين هامين للتجار الفاسيين باعتمادهم على علاقتهم من أجل الوقوف على شؤونهم في الحياة العامة، و نظرا لتقادم استقرارهم بالمنطقة قبيل الحماية فهم يعتبرون كالمغاربة، وحسب مجموعة هامة من المصادر4 فإن عناصر هذه الجالية جلبت الغيرة للسكان الأصليين خاصة وأن الدولة تختار الأعيان من السلطات من بين الجزائريين الذين يشتغلون في الطقوس المختلفة، لذلك تشكل هاته الوضعية عاملا لبقاء و صلابة الشخصية

الجزائرية، وتشكل كذلك عائقا أمام الوحدة والإلتحام الكلي الذي بدأ يتشكل ويتحقق تدريجيا ، لذلك يجب التفكير على العموم في نصف التشكيلات الأجنبية كتب لومبار.

إننا نجد أثر هاته الموجة الأولى من المهاجرين ووقعها في مصادر مغرب ية، خاصة وأن المغاربة قد آثروا على أنفسهم حسن الاستقبال الذي كانوا يخصصونه لهاته الفئة من اللاجئين"، وقد أعطى الملك المغربي أوامر تهدف إلى حسن الضيافة بتوفير استقبال جيدمن مأوى ومسكن.(M.Bendaoud(1959-1979):314) ويروي محمد بن داوود في كتابه المتعلق بتاريخ مدينة تيطوان أنه بعد نزول الإستعمار الفرنسي بموانئ الجزائر في 1830 قد وصلت باخرتين إلى المدينة في شهر أوت من نفس السنة تحمل كل واحدة على متنها بعضا من العائلات الجزائرية، وفي 1842 كشفت الإحصائيات عن إقامة 700 جزائري بالمدينة وقد كانوا في حالة فقر مدقع (Id : p,357) وقد تزامن مع قدوم الموجة الثانية من المهاجرين احتلال مدينة وجدة في 1907 من قبل الفرنسيين ثم إقامة الحماية عليها، وجاء هذا النوع من الهجرة في هاته الفترة تحديدا(1907- 1926) تبعا للنداء الموجه إلى الجزائريين سواء كانوا قضاة أو معلمين أو أساتذة ... من أجل القيام بدور الوسيط بين المحتلين والمغاربة باعتبارهم مترجمين يعرفون العربية والبربرية والفرنسية وتوقف بعد ذلك عددهم عن الارتفاع، ورغم ما كشفت عنه الإحصائيات من حقيقة رقمية، فإنها أقل بكثير مما يوجد في الواقع نظرا لاعتبار البعض من الجزائريين يحصون ضمن تع داد المغاربة)... لويشكل المسلمون الجزائريون حسب لومبار.هـ(Op.Cit.,p.9) في هاته المرحلة الثانية استعمارا ملحقا بالاستعمار الأوروبي." وسواء كان النداء للهجرة من قبل الإدارة أو من قبل الإخوة المقيمين سابقا أو أبناء العمومة أو الأصدقاء، فإنها كانت بالمئات قادم ة من المنطقة الغربية خاصة من نواحي تلمسان وندرومة اللتان تعتبران مشتله حقيقية للموظفين لاعتقادهم باستمرار التواجد الفرنسي بالمغرب . وتصورهم بأن الشرق المغربي يعد امتدادا للجزائر (Y.Katan, p.432). أما أولئك الذين كانت أسباب منفاهم إلى المغرب دينية بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، فإنهم لم يستطيعوا المقاومة بعد تأسيس الحماية على المغرب وذلك بالاستغناء عن جنسيتهم ما دام التشريع يبقيهم في خضم القانون الإسلامي، وبالتالي فهم وأتباعهم يحسبون على القوائم الإحصائية المغربية 5، كما أنهم أصبحوا يشكلون في 1907

أكثر من 1/5 سكان إقليم وجدة الذي يبلغ حوالي 6000 ساكنا، ويذكر لويس فوانو 1500 (Op.Cit.p.37) جزائري مجمعين في 300 مسكن وذلك بين سنة 1910- 1911، لكن إحصائيات 1911 التي يشيد بها أوغسطين برنار6 تكشف عن حالة مائتين (200) من الجزائريين في صيغة المواطنين الفرنسيين أو التابعين لهم. إنه من الصعوبة بما كان القيام بإحصائيات رسمية للعدد الحقيقي لهؤلاء المهاجرين وكذلك معرفة موقفهم الصحيح من فرنسا خاصة وأن القانون الخاص بالمواطن الفرنسي لم يتم التنقيب عنه بعد والفصل فيه من قبل الإدارة الفرنسية . لذلك وجد الكثير من الجزائريين أنف سهم من بين المسجلين المغاربة نظرا لعدم قيامهم بإجراءات إظهار هويتهم الجزائرية أو صفتهم كمواطنين أو كتابعين فرنسيين، وكان كل ذلك يجري طبعا بشكل طوعي(Y.Katan.1990 : 437)... فأصبحت لهم الجنسية المغربية و من بين هاته العائلات : عائلة بن منصور وعبد الغني وأولاد سعدوني.... ، وبقي آخرون من أصول جزائرية تركية مختلطة والمعروفون باسم (الكراغلة) بدون جنسية، بينما وضعية التابعين من الجزائريين لفرنسا كما يوضح ذلك لومبار بقيت تحت تصرف السلطات المغربية التي أخذت على عاتقها مسألة التكلف بها عن طريق تسديدهم للمنح باعتبارهم مهاجرين لهم أحقية تسجيل أبنائهم بمصالح الحالة المدنية لمدينة تلمسان وهذا قبل الاحتلال الفرنسي للمغرب ، ويتعلق الأمر بكل من عائلات : التريكي ومزيان.. في الوقت الذي فضلت فيه بعض العائلات الأخرى عدم الظهور وبقيت بهوية مغربية

ويرى لومبار بأن تواجد الجزائريين بالمغرب يعد مكسبا لفرنسا حيث كتب يقول: بأنه وبالمغرب الذي يعد بلدا أجنبيا عن فرنسا يعيش الجزائريون المسلمون حتى وإن كانوا قد هربوا من الهيمنة الفرنسية راغبين فقط في الذوبان في المجتمع الذي يحتضنهم، ورغم ذلك فإنهم وبطريقة غير قصدية يخدمون مصالح فرنسا التجارية والسياسية (Op. Cit., p.5)، لذلك فهم في نظر المغاربة عبر هاته المشاركة أكثر قربا من إدارة الحماية من إخوانهم المسلمين لدرجة تسميتهم بأصحاب النصارى أي أصدقاء المسيحيين (M. Lemaille.1937:42)

في إطار سلسلة الهجرات المتواترة على المغرب تبدو الموجة الثالثة منها كمرحلة تنظيم لدخول الجزائريين للمغرب في إطار الهجرة المفضلة بين (1926- 1942)، لذلك أصبحوا مع التقادم أقل أهمية بالنسبة للإدارة الفرنسية، وقد تم تعويضهم

ARCHIVE

تدريجيا بالمغاربة في بعض المهام والأعمال الصغيرة وبظهور القرار الوزاري في الثامن من جانفي 1926 تغيرت وضعية الموظفين الجزائريين المسلمين بالمماثلة من الإطار الفرنسي إلى المغربي الخاص تماشيا مع تسوية وضعية الإنتقال إلى المغرب، لذلك أصبح من غير حق الجزائريين الاستفادة من التشريع الإجتماعي المطبق على المواطنين الفرنسيين، ولأنهم ليسو بمواطنين بل تابعين فقط لل سلطات الفرنسية فإنهم لا يتقاضون استحقاقات الأجور الشهرية المتمثلة في 38٪ ولا يتلقون حقوق التنقل أثناء العطل المصادق عليها والمقبولة للفرنسيين فقط.

وقد عارض الجزائريون سنة 1926 هذه القوانين من خلال ودادية الجزائريين المسلمين بالمغرب، حيث بينوا رفضهم بعد إد راجهم ضمن المغاربة متهمين فرنسا بالعنصرية الإدماجية، و قد ذكرت الفيدرالية بأن العدد الكبير من الجزائريين تركوا وضعيتهم بالجزائر، ويكفي أن نذكر من بينهم من توقف عن الدراسة من أجل تلبية نداء فرنسا وبتركهم لأوطانهم، فإنهم أعطوا للمغرب دفعا ايجابيا وقويا وقدموا خدمات جليلة لإدارة الحماية . وحتى يحافظ اليهودي الجزائري على قانون مخالف وسام على نظيره من المغرب 7 فإن حق الجنسية يعتبر حقا بالرجوع إلى الانتساب الفعلي في المراجع الأصلية، ويعتبر القانون المعارض المتمثل في العنصرية المدمجة غير مطبق على الإسرائيليين. ورغم كل هاته المساوئ واصل الجزائريون من منطقة الغرب توافدهم على المغرب حيث انتقل عددهم من 2471 في سنة 1926 إلى 4594 في سنة 1936، ويمكننا تفسير الجاذبية نحو المغرب بمحاولة تملص بعض قدماء المهاجرين إلى فرنسا من الهيمنة الاجتماعية، كما يمكننا الإشارة إلى الأزمة الإقتصادية لسنة 1931 التي منعتهم من الهجرة نحو فرنسا ومن ثم كان التحول إلى المغرب وكانت مدينة وجدة وجهتهم الأساسية في ذلك، ولأن أكثر الجزائريين (أي 57.6٪) بالمغرب يعيشون بهذه المدينة في سنة 1936 حاولت من جهتها المغرب تشديد الخناق على المهاجرين بسبب الأزمة ا لإقتصادية وانطلاقا من هاته المرحلة أصبحت شروط الدخول إلى المغرب جد مستعصية، حيث نظمها قانون 20 أكتوبر 1931 وتدعمت إجراءاته في سنة 1934، ومن جملة هاته الشروط أن يقدم المهاجر عقد عمل مقبول من قبل صاحب العمل لمدة عام على الأقل، وأن يحمل تأشيرة مصلحة العمل بالرباط، لكن الجزائريون عارضوا هذا القانون خاصة وأن المغاربة يدخلون

الأراضي الجزائرية بحرية مطلقة وينشطون في سوق العمل الجزائري وينافسون أصحابه دون مقابل8.

الموجة الرابعة الممتدة بين (1942- 1956) هي من الهجرات المنشودة والمتقبلة حسب تعبير لومبار وهي على المست وى الإقتصادي غير تلك التي تتم على مستوى النداء أو تلك التي عرفت بالمحبذة والمتقبلة وتنجم أساسا عن فئة العمال الموجودين دون دخل ودون رأسمال وتكون دائمة البحث عن عمل وتختلط بعد ذلك بفئة العمال البسطاء من المغاربة، ولقد برز هذا الطابع الجديد خاصة بعد الحرب العالمية الثانية

فبوجده انتقل عدد الجزائريين من 4813 مهاجر في سنة 1943 إلى 14322 في 1951 بزيادة تضاعفت ثلاث مرات في ظرف ثماني سنوات وكانت هاته الزيادة هي شأن كل المنطقة الشرقية للمغرب سواء بالقرى أو بالمدن كبركان ، أحفير، تاوريرت...... وتعود الأسباب بالدرج ة الأولى إلى وضعية المنطقة الوهرانية قاطبة والتي عرفت زيادة ديموغرافية مهمة، وإلى توقف الهجرة نحو فرنسا بسبب الحرب وبسبب تواصل نزول الحلفاء بالجزائر.

هؤلاء المهاجرون هم في غالبيتهم من العمال عديمي التأهيل المهني والعاطلين الذين يبحثون عن عمل، لذلك اشتغل الكثير منهم ضمن العصابات المختصة بالسرقة وغيرها والتي عرفت بضاحية وجدة، وقد تمركزت جماعة كبيرة من هؤلاء المهاجرين الذين لا يملكون مهنة قارة والعاطلين منهم بالقرب من أدنى الفئات الإجتماعية المغربية للاحتكاك بها والاندماج معها (H.Lombard.Op.Cit.,p.31)... وقد تكاثرت هاته الحركة بعد نهاية الحرب ببروز مجموعة كبيرة من الأشخاص لتشتغل بمحلات تجارية صغيرة وتتعايش مع الفئات المتدنية من المغاربة بالأحياء وبالقرى المحاذية، أما الإتجاه الأخير للجزائريين نحو الجهة الشرقية فيرتبط بأحداث الحرب التحريرية المندلعة في سنة 1954 ، حيث أقام الآلاف من اللاجئين الجزائريين بمدينة وجدة، وقد سجلنا 6386منهم في سنة 1957 و9851 في سنة 19589 ، لذلك فإن موضوع هجرة اللاجئين الجزائريين لمدينة وجدة يستوجب منا لوحده دراسة مفصلة ومعمقة ويستدعي العودة إليه لاحقا.

الظروف السوسيواقتصادية للجالية الجزائرية بوجدة :

ونحن بصدد دراسة ظروف الحياة والإقامة الخاصة بالجالية الجزائرية بمدينة وجدة وجدنا أنفسنا مجبرين على مراجعة القوانين التشريعية والاجتماعية التي تعد

مشوشة وغير واضحة في نظر الوثائق الرسمية لتلك الفترة . وهذا ما دفع بنا إلى الإطلاع على تطور القانو ن الخاص بالجزائريين داخل المجتمع المغربي بصفة عامة وبمدينة وجدة على وجه التحديد.

لقد تحسنت أوضاع المهاجرين الإجتماعية والاقتصادية تدريجيا وتماشيا مع الموجات المختلفة للهجرة . فالمنفيون الأوائل منهم لقوا أحسن الترحيب والمعاملة من قبل السلطات الحاكمة بالمغرب، ويوجد من بينهم العدد الكبير من التجار والميسورين والشخصيات البارزة وبتواتر الدفعات اللاحقة تغيرت التشكيلة الإجتماعية للجالية الجزائرية، وقد أورد لومبار . هـ في تقريره أن الجزائريون المقيمون بوجدة يعتبرون نصف أجانب. لقد تطورت خصوصياتهم السوسيولوجية على مدار قرن من الهجرة بالنظر للاعتبارات المتماشية مع جملة العوامل المرتبطة بالسياسة الكولونيالية والمتعلقة بالهجرة في سنة 1938. لقد اعتبر ديكرو.م وضعية الجزائريين بالغير طبيعية بالمغرب وغير الواضحة مما هي عليه بتونس لأن التعامل معهم يتم على أساس أنهم فرنسيون وعلى أساس أنهم أجانب أو مغاربة في أحيان أخرى. رغم أنهم ليسوا أحدا من هاته الأطراف الثلاثة خاصة وأنهم لا يملكون حق العمل كالمواطنين في ظل الحماية ولم يتم اختيار المساعدين القضائيين من بينهم لتشكيل المجالس والمحاكم الإجرامية، كما أنهم ليسوا أعضاء بالهيئة الإنتخا بية الفرنسية..الخ ولا يستطيعون الانخراط في النقابات المهنية كالأجانب ولا حتى المشاركة في أشغال هيئة العدالة الفرنسية كلجان، كما أنهم لا يشاركون في الحياة السياسية للبلد وليسوا انتماءا للغرف الاستشارية للمجلس الحكومي...الخ(P.Decroux. 1938,p.95).

ليس بإمكان هؤلاء المهاجرين الإلتحاق بالمهام العمومية كالمواطنين الفرنسيين، لأن هذا النوع من الأشغال يشترط فقط الجنسية الفرنسية ولا يهتم بصفة المواطن . ولأنهم أجانب فهم لا يستطيعون بأي حال من الأحوال المشاركة في الإدارة المحلية، وهم ليسوا بأعضاء بأي مجلس كان. ولأنهم من جهة أخرى كالمغاربة فهم موجهون فقط لإطار مهني خاص يجردهم من الحرية النقابية ..الخ. وقد شكل المهاجرون الجزائريون مع البدايات الأولى للحماية مجموعة اجتماعية وسيطة بين المستعمرين الفرنسيين والمغاربة، ولقد تلقوا أحسن المعاملة من قبل السلطات الكولونيالية بالمغرب، وكانت لهم مكانة مرموقة داخل المجتمع ألوجدي، كما قدموا خدمات

كبيرة للإدارة الفرنسية تجلت في عدة مستويات حيث لعبوا دور الوسيط بين الفرنسيين والمغاربة سواء كانوا من الموظفين أو المترجمين أو الأساتذة ..الخ، لكن مع سنوات الثلاثينات بدأ الجزائريون يفقدون مكانت هم التي ضاعت منهم بتطور المجتمع المغربي وبالنظر إلى توجه الإدارة الفرنسية صوب إشراك المغاربة في تسيير بلدهم، ورغم كل ذلك يبقى الجزائريون أكثر حظا من نظرائهم المغاربة، فنسبة التمدرس مثلا عندهم هي أكثر ارتفاعا مما عليه عند المغاربة، كما أنهم أكثر حظا للمرور إلى المهن الحرة، ولقد استطاع بعضهم الإستحواذ على أماكن سامية ومناصب عالية بالرباط، وكمثال على ذلك السيد بن غبريت وهو من أصول جزائرية كان مديرا للبروتوكول الملكي والسيد معمري الذي شغل منصب وزير بالقصر الملكي والبروتوكول الخاص بمحمد الخامس بين(1909- 1961)10.

من بين الخصائص الأخرى للجالية الجزائرية المقيمة بوجدة آنذاك هي محافظتها على خصوصيتها، ويرجع ذلك إلى الوصول المستمر للمهاجرين الجدد ورغم أوجه التشابه التي تربط المجتمعين ثقافيا ودينيا، فإن الجزائريون يشكلون جماعة اجتماعية خاصة، فالأوائل منهم كانت لهم جمعية تأوي الأشخاص المثقفين وكانت تعمل على الدفاع عن حقوق المواطنين لدى الإدارة، وقد عوضت هاته الجمعية في سنة 1933 بجمعية أحباء الجزائريين بوجده . إن هاته الخصوصية لا تتعلق في الحقيقة إلا بفئة قليلة من الجزائريين وهي الفئة الميسورة التي تتميز بشكل بارز عن المغاربة من خلال مظهرها الخارجي وعقليتها ودرجة تكوينها التكوين الغربي، واعتبارا لذلك يسميها الوجد يو ن بالفئة المتطورة .ويتعلق الأمر بالفئة البرجوازية القديمة المتأتية من التجارة والمهن الحرة ومن بعض المدرسين، أما فيما يتعلق بالزواج المختلط الخاص بين هؤلاء وا لمغاربة فقد بقي محدودا جدا : حيث أحصت التجربة البحثية عند لومبار .هـ في 1952 خمسة عشر زواجا فقط، لكن حسب كتان .ي (Y.Katan.Op.Cit, p.458-459.) فإنه كان يقام في الأوساط الشعبية بطريقة حبية بين الأطراف المعنية بعيدا عن الإدارة.

التطور العددي و الأصول الجغرافية لجالية الجزائرية بوجدة:

أصول الهجرة:

إن أغلبية الجزائريين المقيمين بوجدة وضواحيها قدموا من المنطقة الوهرانية أي الغرب الجزائري خاصة من مدينة تلمسان وندرومة، وقد أعطى قيطوني ع.

(Op.Cit., p.450) قائمة بأسماء هؤلاء موزعة حسب أصولهم الجغرافية واستنادا لنفس المعطيات، فإنه من بين 131 اسما عائليا 116 اسما من المنطقة الوهرانية عموما ، أي ما نسبته 88٪ موزعين على الشكل التالي : 33٪ من تلمسان (بمعدل 43 اسما)، 30٪ من ندرومة (أي 40 اسما)، 25٪ من جهات أخرى (أي 13اسما) من مناطق معسكر، مغنية، مستغانم ..الخ، أما ما بقي من أسماء (أي 15) والمتمثلة في نسبة 12٪ فهم موزعين على الجنوب الوهراني، بلاد القبائل ثم بقية النواحي الجزائرية.

التزايد العددي:

قبل 1907 تاريخ الاحتلال الفرنسي لمدينة وجدة، لم يتجاوز عدد الجزائريين 1000 شخص و بلغ 1377 في سنة 1910، ثم عرف تزايدا سريعا بعد ت أسيس الحماية كما يبين ذلك الجدول التالي:

الجدول رقم1 : التزايد (بالعدد و النسبة٪) للجزائريين بوجدة بين1910و1960

السنوات	عدد السكان الإجمالي	الجزائريون المسلمون	
		العدد	النسبة ٪
1910	6466	1377	21
1926	19976	2471	12
1931	29437	3338	11
1936	34523	4619	13
1943	-	4813	-
1951	80546	14322	18
1960	128645	29301	23

التوزيع الجغرافي و النشاطات المهنية بوجدة:

لا يوجد بمدينة وجدة أحياء خاصة بالجزائريين بل كان يتوزع هؤلاء المهاجرون في كل المدينة، ولأنهم كانوا بأعداد هائلة في بدايات القرن العشرين خاصة بالقرى النصف حضرية كدار ملاح ومنطقة الحدائق" درب المباصو M'Basso، وقد كان لهم مسجدهم الخاص11 بهذه الأماكن، لكن بعد تزايد مجيئهم إلى المنطقة بصفة عامة بعد اندلاع الحرب التحريرية، كان من بين من جاء معهم العاطلون عن العمل والغير مؤهلين مهنيا، حيث أقاموا بالأحياء وا لقرى المجاورة بالجهة الغربية لمدينة وجدة وتحديدا بقرية خلوفي – شريف ألنقادي و قرية مير علي، حيث قدرت نسبتهم ب 3.25٪ من عدد السكان الإجمالي في سنة 1955.أما بالقرى الشمالية

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فوصل عددهم إلى 1824 أي ما نسبته 17.49٪ من العدد الإجمالي، بينما بالقرى الفلاحية للناحي ة الثالثة فكانوا يمثلون 22٪ ب644 شخص من جملة السكان.(Capitaine Herand.1952.p.64).

ويمكننا متابعة النشاطات المهنية الممارسة من قبل الجزائريين بوجدة بالإعتماد على المعلومات التي أشار إليها لوماي. م في 1937 وكذلك إلى بحث لومبار في سنة 19532. إن التوزيع على مسرتوى المهن في سنة 1937 والذي أقامه لوماي13يسمح لنا بملاحظة من هم أكثر عددا من العمال والمهنيين من مسئولي المؤسسات ووكالات العمل ويمكننا تجميع هاته المعلومات بالشكل التالي:

جدول 2 : نشاطات الجزائر بوجدة في1937

الجزائريون النشطون	العدد	النسبة
رؤساء المؤسسات	314	13.18
عمال (ما عدا المصالح العمومية)	281	27.9
متربصون(ماعدا المصالح العمومية)	31	3.0
المصالح العمومية	142	14.1
المستخدمون(ماعدا المصالح العمومية)	119	11.8
العاطلون	113	11.2
المستبعدون	7	0.7
المجموع	1007	100

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

المصدر: لوماي.م " الجزائريون بوجدة " أخبار لجنة إفريقيا الفرنسية رقم 5 ماي 1937، بينما المعلومات المستخرجة من العمل البحثي الذي قام به لومبار.م في 1953 المتعلق ب3200 مسكن فقد كان على الشكل التالي:

جدول 3 : توزيع جزائريو وجدة حسب القطاعات الخاصة بالنشاطات الإقتصادية

قطاع النشاطات	عدد المهاجرين
الفلاحة	650
التجارة	760
الصناعات التقليدية	240
الإدارة	262
المهن الحرة	10❖

المصدر: لومبار. م : الرؤى المتعلقة بالوضعية والدور الخاص بالمهاجرين الجزائريين المسلمين بمنطقة وجدة مذكرة C.H.E.A.M 1953.

(❖طبيبين، ثلاثة صيادلة، ثلاثة محامين، أحد المرافعين القضائيين، طبيب أسنان ويضاف إلى ذلك فئة سكانية خاصة يصل عددها إلى 500 رب أسرة مستفيدة من الخصائص الحدودية بمنطقة وجدة مع الجزائر)

أما من بين التجار الذين أحصاهم البحث، فإننا نسجل الربع منهم يتوزعون على مجموعة من النشاطات فهم : إما تجارا للجملة أو ص ناعيون أو مشتغلين بالنقل العمومي....الخ 170 منهم من بين 760تاجرا يتناسبون مع الفئة البورجوازية التي أشرنا إليها سابقا، أما ما تبقى فهم أصحاب المحلات.

خاتمة:

ارتبطت الهجرة الجزائرية نحو المغرب بالاستعمار الفرنسي وتجلت بوضوح كنتيجة لأسباب الجوار الجغرافي وال روابط التاريخية، وقد استقبلت ناحية وجدة ودها العدد الكبير من المهاجرين القادمين من الغرب الجزائري في شكل أربعة موجات متواترة، ولقد تطورت وضعيتهم الإجتماعية والقانونية بالتقادم، ففي البدايات (1907) كانت لهم مكانة خاصة جدا مقارنة بالمغاربة بالنظر إلى الدور الذي كانوا يلعبونه داخل إدارة الحماية، أما في الثلاثينات 30من القرن الماضي فقد ضاعت منهم عدة أفضليات نتيجة لتوقف نشاطهم كوسطاء بين الإدارة الكولونيالية وسكان المغرب. لقد كانت للجالية الجزائرية وضعية سوسيومهنية جد هامة على العموم مقارنة بالسكان الأصليين، وك انت الودادية دائمة الدفاع عن مصالح الجالية لدى الإدارة، ويمكننا أن نقول بأن هؤلاء الجزائريين بقوا محافظين على خصوصياتهم رغم الروابط القوية مع بلد الاستقبال والمتمثلة في التعايش وفي عقود الزواج.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد توقفت هاته الهجرة مباشرة بعد استقلال الجزائر في سنة 196214وظهرت مقابل ذلك حركة العودة القوية إلى البلد الأم، حيث انتقلت نسبة الجزائريين لمدن الشرق المغربي من 20٪ في 1960 إلى 2٪ سنة 1971 أي حوالي 7000 شخص عموما من بينها 5000بوجدة وحوالي 1000 أو يزيد بمدينة أحفير الحدودية ، بينما سجلت الإحصائيات السكانية لسنة 1982 5500 جزائريا أقاموا بالناحية الشرقية للمغرب ويعود هذا الانخفاض نتيجة الحصول على الجنسية المغربية في نفس التاريخ وتقريبا في (1984) قدر عدد المغاربة الذي ن أقاموا بالجزائر ب 200.000 أي ما نسبته 17.5 ٪ من المغاربة بالخارج (A.Guitouni, Cit., pp.103-105 .

Bibliographie :

-André –Julien Ch.(1978), *Le Maroc face aux impérialismes,1415-1956*, Paris, éd.Jeune Afrique.
-*Annuaire marocain*, (1952) Imprimeries réunies, Casablanca.
-Azam P.(1951), *Sur l'émigration temporaire au Maroc.* Mémoire pour le CHEAM.

-Bendaoud M.(1959-1979), « Tarikh Tétouan » (en arabe : Histoire de Tétouan), Tome 8, Rabat.
-Bernard A.(1911), *Les conflits Algéro-marocains*, Paris, La Rose.
-Decroux P.(1938a), *Les Algériens musulmans au Maroc ; conditions juridique et sociale*, Boulogne sur Seine.
-Decroux P. (1938b) « la vie sociale des Algériens au Maroc » *Bulletin économique du Maroc*, pp20-25.
-Depis P.(1962), *Notes sur le problème des réfugies algériens au Maroc oriental* (mars 1956-mai 1962), mémoire pour le C.H.E.A.M.
-Guitouni A.(1995), *Le Nord –Est marocain, réalités et potentialités d'une région excentrée*, Oujda.
-Herand Cpt.(……952), *Les villages suburbains d'Oujda*, mémoire pour le C.H.E.A.M.
-Katan Y.(1990), *Oujda, une ville frontière du Maroc (1907-1956)*, Paris L'Harmattan.
-Le maille M.(1973) « les Algériens d'Oujda en 1937 » *Bulletin du Comité de l'Afrique française* n°5, mai.pp.255-260.
-Lombard H (1953) *Aspects de la situation et du rôle de l'imagination algérienne musulmane dans la région d'Oujda*, mémoire de C.H.E.A.M
-Mahla N,(1992), « les ressortissants étrangers à Oujda » (en arabe), in *Revenue de la Faculté des Lettres d'Oujda*, n°3,pp.169-176.
-Raget J,L, *Les musulmans Algériens en France et dans les pays islamiques*, Paris, Les Belles Lettres,1950.
-Voint L.(1912), *Oujda et l'Amalat*, Oran, Fouque

هوامش.

1 - ايفات كتان.(1990) في كتابه الخاص بمدينة وجدة ابان الحماية الفرنسية وكذا عبد القادر قيطوني (1995) في دراسته حول شمال شرق المغرب، يعطيان معا معطيات مهمة وضرورية لفهم هذه الظاهرة

2 - تندرج هذه الوثائق فيما نسميه " بالآداب الكولونيالية " التي كان روادها من كتاب ومفكرين ذوي مراتب ومسؤوليات بالإدارة الفرنسية سواء بالمغرب أو بالجزائر.

3 - C.H.E.A.M م.د.ع.إ.أ.أ.ح. مركز الدراسات الإدارية العليا حول إفريقيا و آسيا الحديثة

4- Henri Lombard (1912) Louis Vonot 4.CF.

5 - يذكر Katan خليفة الباشا بمدينة وجدة لمنصبه في سنة 1955 الذي رغم كونه جزائريا من مدينة جريفيل إلا أنه يعتبر مغربيا.

6- Augustun Bernard (1911).

7 - تقرير ودادية الجزائريين المسلمين بالمغرب حول وضعية الجزائريين المسلمين بالمغرب مشار إليها من قبل H. Lombard (op.ct) p26

8 - يتعلق الأمر بالهجرة الموسمية للمغاربة نحو الجزائر وهي ظاهرة قديمة ظهرت مع المنتصف الثاني للقرن 19 وتزايدت أثناء الحماية على المغرب . ومن ذلك مقالات : ميمون عزيزة، الريف: أرض الهجرة. من الهجرة الموسمية نحو الجزائر إلى الهجرة الدائمة نحو أوروبا (بروكسل ، أكاديمية بريون ، 2004). تاريخ هجرة : الريفيون بالجزائر (1912- 1956) (مجلة التاريخ المغاربي رقم 91- 92 زغوران ، تينيس ،1998).

9- P.Depis (1962).

10- Ch.Andre- Julien (1978).

11- C.Vornot(op.ct) p 40

12 - بالإمكان الرجوع إلى الحوليات المغربية. المطبوعات المجمعة الدار البيضاء 1952.

13 - Op. c.t.p18

14 - أرى أنه من المهم جدا الإشارة إلى التسجيل التالي: في شهر ماي 1962 أي قبل استقلال الجزائر مباشرة في 1962 الذي توبع مباشرة بالرحيل المكثف للجزائريين كانت تشكيلة فريق كل القدم لمولودية وجدة مشكلة من خمسة جزائريين وهم الداي (حارس المرمى) حرشاوي، صابي ،شلال وبوفلجة(C F Guituoni (OP c.t .

المواطنة والهوية في فلسفة روسوالسياسية

أ. رباني الحاج،
قسم الفلسفة، جامعة معسكر.

إن وجود الإنسان يتميز عن وجود غيره من الكائنات الأخرى في نقطة أساسية وهي أنه الكائن الوحيد الذي يفكر في هويته وينشغل في قسط كبير من حياته بتبرير وجوده ومحاولة إضفاء الشرعية عليه، ولأنه مطبوع على هذا فإنه مضطر إلى التفكير في صلته بأقرانه من بني جنسه، إذ يتصور أنهم يقاسمونه هذا الانشغال لاشتراكهم معه في الطبيعة البشرية التي تطبع وجوده، والتي تمكنه من التواصل معهم وبالتالي التفكير في كيفية العيش معا إذ يعتبر هذا ضروريا لحياة كل فرد من حيث أنه عاجز عن تحقيق اكتفائه فيما يحتاج إليه بنفسه، لذلك يستحيل أن يفكر في وجوده، بمعزل عن أولئك الذين يقاسمونه هذا النقص، وذلك المصير المشترك، من هنا يصبح العيش المشترك مسألة ضرو رية، وبما أن الطبيعة البشرية تنطوي على ميول وأهواء ورغبات أنانية فإن حياة البشر معرضة للهزات العنيفة والصراعات التي لا ضابط لها، مما يجعل حياة الإنسان مهددة بالانحراف والفوضى، هذا ما يؤدي به إلى التفكير في القوانين الملائمة والبحث عن كيفية سليمة لإرساء قواعد جديدة تحقق للإنسان غايته في الوجود، وهي الشعور بالراحة والاطمئنان الفردي والاستقرار الاجتماعي، فيكون أساس تلك القوانين هو الالتزام بالإرادة المشتركة التي تقوم على الحرية والمساواة بين الجميع، والتي تمنح لكل فرد هويته كمواطن وتخلصه من صدفة الطبيعة القائم ة في جوهرها على الغريزة غير الواعية، لتنقله إلى عالم الوعي والإرادة و إدراك الذات في علاقتها بالآخرين وبالتالي تحقيقها لهويتها، لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن بصورة تلقائية هو التالي: ما الذي يشترطه روسو في تحقيق المواطنة حتى لا يحن الإنسان إلى حالة الطبيعة التي هجرها نتيجة شعوره بالاغتراب؟

في البداية، كضرورة منهجية ليس من الممكن الولوج إلى إشكالية المواطنة والهوية في فلسفة روسو السياسية دون الإشارة إلى الفلسفات التي تطرقت إليها، إن الفلسفة طرحت المسألة منذ أن تحولت من الاهتمام بالطبيعة إلى الاهتمام بالإنسان كذات لها وجودها الخاص، حدثت تلك النقلة مع السفسطائيين الذين دشنوا الفكر الأخلاقي في طابعه الاجتماعي والسياسي مما جعلهم يتصرون للإنسان

على حساب الطبيعة محاولين بذلك تجاوز القوانين الطبيعية إلى القوانين البشرية، شكلت تلك المحاولة خطوة أساسية على طريق الانتقال من الميتافيزيقا إلى الأخلاق إذ أن الفلسفة السفسطائية تختلف عن الفلسفة الطبيعية في الموضوع والمنهج والغاية، «فالسفسطائية فلسفة حضارة لا طبيعة، موضوعها الإنسان وحضارته التي أبدعها من دين ولغة وفن وشعر وأخلاق وسياسة.ومنهج الطبيعيين قياسي يستخلص النتائج من المبادئ التي يضعونها، أما منهج السفسطائيين فتجريبي استقرائي، وغاية الفلاسفة الطبيعيين المعرفة لذاتها، ولذالك كان بحثهم نظريا، أما غاية السفسطائيين فعملية» (فؤاد الأهواني، أ.2009: 259).

افتتح السفسطائيون مشكلة الوجود الإنساني فوضعوا الإنسان في صلب التفكير الفلسفي كما وضعوا التفكير الفلسفي في صلب الوجود الإنساني، فالتفكير ليس بإمكانه أن يتجاوز أفق الوجود الحسي والوجود الإنساني جزء من هذا الوجود الحسي ولذلك يتغير ويتبدل، فالإنسان مقياس الأشياء وهذا المنطلق الذي صاغه السفسطائيون ينطوي على بعدين رئيسيين، البعد الم يتافيزيقي والذي مفاده الاكتفاء بالوجود الحسي والبعد الأخلاقي مفاده التأسيس للروح الفردية على المستوى الاجتماعي، ترتب على ذلك تفكير الفرد في ذاته وفقا لما يحقق مصلحته الفردية دون الاهتمام بالمدينة، جاء سقراط ليدحض هذه الفلسفة باعتبارها فلسفة لا أخلاقية لأنها تدعوا إلى فرض الذات وتركز على النزعة الصراعية وتمجد حق القوي، أما هو فانطلق من الإقرار بوجود قيم ثابتة يقوم عليها الوجود الإنساني، وهي لا تتغير من فرد لآخر بل تمثل القاسم المشترك بين جميع الناس إذا ما تعرفوا على أنفسهم بشكل صحيح، تتشكل مع سقراط فلسفة إنساني ة تقوم على الجمع بين المعرفة والأخلاق والسياسة، فالوجود الفردي لا يمكنه بأية حال من الأحوال أن يحقق ذاته بعيدا عن الوجود الجماعي، هدا ما تلقاه أفلاطون عندما اقتنع بأن الإنسان لا يمكنه أن يكون فاضلا أو قريبا من الكمال بمعزل عن الوطن، إن الدولة في نظره«وجدت لأجل الصالح العمومي، لا لأجل تفضيل طبقة على أخرى، ثم إن كانت العدالة هي الفضيلة الكبرى، ففي الدولة تمارس هذه العدالة الممارسة الفضلى لأنها تتحقق، أفضل ما تتحقق ببذل كل مواطن جهده في تتميم الواجب المترتب عليه مع احترامه لحرية الآخرين، أما مهمة تحقيق هذا العدل وهذا الانسجام، فيجب أن تسند إلى الفيلسوف، لأن الفيلسوف وحده قد شاهد الحقيقة الوجودية المطلقة، ولذلك هو وحده يستطيع أن يقيم التوازن اللازم بين المواطنين لأن

علم الموازنة بين مراتب القيم هو وحده يمكنه أن يضمن الرفاهية العمومية » (فينيكان، ج. 1991 : 83).

لا تتحقق المواطنة في نظر أفلاطون خارج المدينة ولذلك فالإنسان كائن مدني يبحث عن تحقيق هويته من خلال البحث عن ماهية المدينة التي يعيش فيها ورغم تقسيم أفلاطون المدينة إلى طبقات تشبه قوى النفس البشرية إلا أنه يهدف من وراء ذلك إلى بناء مدينة قائمة على روح المواط نة التي تقوم على الإيمان بوجود مجال مشترك بين الأفراد فهو يقول « يمتاز مواطنونا باشتراكهم جميعا في مصلحة يدعونها " **لي** ". وإذا لهم هذه المصلحة يتصفون إلى حد بعيد بالمشاركة في المسرة والألم ». (أفلاطون، د. ت : 160). هذا التصور جعل أرسطو يتوجه بالنقد لفلسفة أفلاطون السياسية بحيث رأى أنها تفرغ المواطنة من مضمونها الحقيقي بإهمالها لهوية الفرد وتركيزها على هوية المدينة وهو ما أوقعها في المثالية التي تؤدي إلى التعارض بين طبيعة الأفراد ومتطلبات المدينة، فأرسطو ينطلق مؤكدا أن الدولة (أو المدينة) هي « مجتمع طبيعي سابق منطقيا لسائر المجتمعات الأخرى : كالأسرة والقبيلة، لأنها تشمل سائر تلك المجتمعات وتفي بأوسع حاجات المرء ومطالبه، وهو يرد في ذلك على بعض السفسطائيين الذين ذهبوا إلى أن الدولة ليست مجتمعا طبيعيا، بل وضعيا ». (فخري، م. 1999 : 127).

يبرهن أرسطو على أن الإنسان مدني بطبعه عمليا فيقطع خطوة أخرى تفصله عن أفلاطون وذلك بتمييزه للفلسفة النظرية عن الفلسفة العملية، فهذه الأخيرة غايتها العمل لا النظر فحسب، والعمل يقتضي المشاركة والمساواة، فالمواطن هو«الفرد الذي له نصيب في السلطة وفي الطاعة العامتين، بما أن مركز المواطن متغير تبعا للدستور. وفي الجمهورية الفاضلة إنما الفرد هو الذي يستطيع ويريد طوعا أن يطيع وأن يأمر دواليك تبعا لقواعد الفضيلة ».(أرسطو، ط. 2008 : 216)، يقيم أرسطو المواطنة على الصداقة ويأخذ الجانب المعياري بعين الاعتبار فلا يمكن للفرد أن يشارك في بناء المدينة ما لم يشعر أنه معترف به من طرف قوانينها ومواطنيها، فالإنسان اجتماعي بطبيعته، من هذا المنطلق تشكل المواطنة اعترافا بانتماء الفرد إلى الجماعة ولا يمكن الحديث عن المواطنة خارج الجماعة، فالمواطنة تعطي للإنسان هويته في إطار المدينة والمدينة لا توجد إلا بوجود جماعة سياسية.

في العصر الحديث طرحت من جديد مسألة المواطنة لكن بشكل آخر، بحيث أعطيت الأولوية للفرد على الدولة وهذا ما يبين تأثير الطرح الأرسطي ولكن

بشكل محدود ونسبي، لأن أرسطو ظل وفيا لأهمية المدينة مثلما كان أستاذه أفلاطون نظرا للاختلاف في المنهج والاتفاق في الغ اية بشكل كبير أي وحدة واستقرار المدينة، أما في الفكر السياسي الحديث فرغم مركزية الدولة إلا أنها تتأسس على إرادة الأفراد، لذلك رأى سبينوزا «أن الدولة أو نظام الحكم الذي لا تأخذ فيه مصلحة الآمر بوصفها قانونا أسمى، بل تراعي مصلحة الشعب كله، فمن الواجب ألا يعد من يطيع الحكم عبدا لا يحقق مصلحته الخاصة، بل مواطنا، وعلى ذلك تكون أكثر الدول حرية تلك التي تعتمد قوانينها على العقل السليم . فهناك فرق كبير بين العبد والابن والمواطن، فالعبد هو من يضطر إلى الخضوع للأوامر التي تحقق مصلحة سيده، والابن هو من ينفذ بناءا على أوامر والديه، أفعالا تحقق مصلحته الخاصة، وأما المواطن فهو من ينفذ، بناءا على أوامر الحاكم، أفعالا تحقق المصلحة العامة، وبالتالي مصلحته الشخصية ». (اسبينوزا، ب. 2008 : 374 – 375). لكن تلك الإرادة التي أرست قواعد المواطنة كهوية للإنسان الحديث اتضحت أكثر مع نشأة فلسفة العقد الاجتماعي التي بلغت مداها مع جون جاك روسو فيلسوف الإرادة العامة أي إرادة الأفراد كمواطنين وهو ما نتطرق له الآن.

يؤمن روسو إيمانا عميقا بحالة الطبيعة التي افترض وجودها كغيره من فلاسفة العقد الاجتماعي، ويتصور أنها تخلو من كل وعي وفكر وبالتالي من كل ما هو عقلي، لذلك فهي طبيعية بشكل كامل، فالوجود الحقيقي هو ما ينطق باسم الطبيعة ويعبر عنها ويستمد وجوده منها، ولا يفكر في الاعتراض عليها أو الاستقلال عنها، بل ليس بإمكان البشر أن يفكرو ا في ذلك لأنهم منغمسون في حياتهم الشهوانية والغريزية، لهذا صدم روسو الناس بقوله « بقدر ما كانت علومنا وفنوننا تتقدم نحو الكمال، كانت أخلاقنا تفسد، ونفوسنا تتعفن » (شوفالييه، ج.1998 : 475).

إن الربط بين العلوم والفنون وبين فساد الأخلاق يعني أن تلك العلوم غير صادرة عن الطبيعة البشرية الأصيلة وإنما هي ثمرة الانحراف عن قوانينها ومتطلباتها لأنها تدل على رغبة غير ضرورية وهي ضارة بتلك الطبيعة والمفسدة لها، لأن هذه الطبيعة قائمة بذاتها مكتفية بحاجاتها الأساسية التي غرست فيها لتحقيق سعادتها وهي حاجات محدودة وبسيطة بشترك فيها البشر مع سائر الكائنات التي لها صفة الحياة وهي أعظم صف ة زودتنا بها الطبيعة لنعيش أحرارا حرية تامة وحقيقية،

فالحياة لا تشترط العلوم والفنون بل تنطوي بطبيعتها على الحرية والمساواة بين أفراد الجنس البشري، الذين لا صلة لهم ببعضهم ما دام وجودهم مكفول للطبيعة.

من واقع الإنسان الطبيعي في حالة الفطرة الأولى نفهم أن ر وسو يفترض غياب القيم ويمكن القول أن البشر في حالة الطبيعة ليسوا لا صالحين ولا أشرارا، إذ لا تجمع بينهم أية علاقة أخلاقية وواجبات مشتركة، مما يعني أن حالة الطبيعة هي حالة جهل تام بالقيم الأخلاقية والالتزامات الاجتماعية، فيترتب على هذا التصور أنه لا يمكن إضفاء أية صفة على الطبيعة البشرية كأن نصفها بالشر أو العدوانية والأنانية، لأن هذه الصفات لا تتوفر إلا في ظل وجود علاقة بين البشر من جهة، ووجود قيم ووعي مشترك من جهة أخرى، وهذه أشياء مفقودة أو بالأحرى غير موجودة في حالة الطبيعة لأن البشر ليسوا في حاجة إليها، بل ليسوا في حاجة إلى معرفة أنفسهم ما داموا يشعرون بالراحة والسعادة، ولا يشعرون بالنقص لأنهم يتمتعون بحياتهم أحسن استمتاع ويمارسون حريتهم دون أن يبحثوا عن تعريف لها.

إن إنسان الطبيعة عند روسو هو كائن غريب الوصف والوضع، يبدو أنه كامل الصفات من حيث حصوله على حريته المطلقة المنزهة عن كل قيد وشرط، متمتع بسعادته التامة، ملب لجميع حاجاته دون عون من أحد وهو مكتف بذاته، ولذلك فهو في أفضل وضع، لكن من جهة أخرى يبدو ناقصا حد النقص من حيث اغترابه في الطبيعة، فاقد لكل معرفة وكل وعي، عاجز عن الفهم وعن استخدامه للعقل والفكر، فهو كائن غريزي شهواني، وهو حر فقط من حيث ظاهره لأنه غير قادر على إدراك حريته، ومتساو مع الآخرين الذين لا يعرفهم مساواة غريزية لأنه لا يعرف عنهم شيئا بالفعل.

قد يكون هذا الوصف المفضي إلى استنتاجات مختلفة وربما متناقضة ناتج عن نزعة روسو النقدية والتي عادة ما تؤدي إلى التداخل بين الاستقراء والاستنتاج، بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون، بين الملاحظة والفرض، لكن الشيء الثابت في هذا الوصف هو الاستقرار والسلام الذي كان يتمتع به الأفراد في وضعهم الطبيعي، مما يدل على سلامة الطبيعة البشرية وانطوائها على قيم خ يرة تساعدها على تحقيق السعادة والفضيلة، وتمكنها من تحقيق التوازن بين الحرية والمساواة بشكل تلقائي، دون رابطة اجتماعية أو ملكة عقلية، لهذا يخاطب روسو الفضيلة قائلا « يا أيتها الفضيلة ! العلم الأسمى للنفوس البسيطة، هل يجب إذن بذل كل هذا المقدار من العناء والأدوات من أجل معرفتك؟ أليست مبادئك منقوشة في كل

القلوب؟ وألا يكفي من أجل تعلم قوانينك أن يعود المرء إلى ذاته وأن يصغي لصوت ضميره أثناء صمت الشهوات ». (شوفالييه، ج. 1998 : 476).

إن فكرة العودة إلى الذات تعتبر فكرة أساسية في تصور روسو الذي شكك في فكرة التقدم السائدة آنذاك في الفكر الغربي، ومن هنا نستقرئ براءة الذات وتاريخية الخطأ وهو ما يعني أننا مجبرون على الكشف عن أسباب الشقاء والمعاناة في واقعنا التاريخي بدل ربطها بطبيعتنا الأصلية التي توارت خلف طبقات هذا الواقع السميكة والتي أصبحت تبدوا لنا كطبيعة ثانية مغايرة للطبيعة الفطرية، إذ بعدما كان الإنسان حرا طليقا، أصبح مثقلا بالقيود في كل مكان، يتساءل روسو، « كيف تم هذا التبدل من حال إلى حال؟ ثم يجيب، إني لأجهل ذلك . يضيف متسائلا، وما الذي يستطيع أن يجعل هذا التبدل مشروعا؟ ثم يجيب، أظن أنه في استطاعتي أن أحل هذه المسألة». (روسو، ج. 1972 : 11).

ينتقل روسو بفكره من البحث في حالة الطبيعة ومشكلة الأصل إلى حالة الاجتماع ومشكلة الواقع، ويرى أن هذا الاجتماع لا علاقة له بحالة الطبيعة وذلك يعني أن لا شيء يدعونا للعودة إلى الوراء، إلى عالم أصبحنا نجهله تماما، بل علينا أن نفكر في ما نحن عليه الآن، أي انطلاقا من اعتبارنا أن « النظام الاجتماعي حق مقدس يتخذ أساسا لجميع ما سواه من الحقوق، على أنه لا ينبثق من الطبيعة أبدا، فهو إذن قائم على أس من العهود، ولابد من الإلمام بهذه العهود » (روسو، ج.1972 :11)

وهكذا بعد فساد حالة الطب يعة ظهر جليا أن بقاء الجنس البشري أصبح مكفولا لحالة أخرى، وذلك أن حالة اللا تمايز بين أفراد الجنس البشري والمساواة التامة بينهم قد تراجعت منذ أن أعلن « الشخص الأول، الذي استهدف، بتصويره لأرض ما، أن يقول هذه لي، ووجد أناسا بسطاء ليصدقونه، كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني...لكن هناك احتمال كبير بأن الأمور، حينذاك، كانت قد وصلت إلى حد لم يكن لها أن تبقى فيه على ما كانت عليه ». (شوفالييه، ج. 1998 : 480 - 481).

يؤدي هذا إلى ضرورة البحث عن صيغة ملائمة للوضع الجديد، هذا الوضع الذي رغم أننا لا نعرف مصادره الحقيقية بشكل دقيق وقاطع إلا أننا ملزمون بالتكيف معه بالطريقة الملائمة للحفاظ على بقائنا، لأن الوضع الآن أصبح بأيدينا وهذا الوضع هو الذي يفرض علينا عقد علاقات متبادلة بيننا بعد أن كنا نجهل بعضنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تماما، وكنا نعيش في حالة من الاغتراب واللاوعي، لقد كنا نحيا في عزلة ت امة وعلينا الآن أن نوجد « صيغة شراكة تدافع وتحمي، بجميع مالها من القوة الجماعية شخص كل مشترك وأمواله، شركة ينضم فيها كل مشترك إلى شركائه ويتحد بهم، ولكنه مع ذلك، لا يطيع إلا نفسه، ويظل متمتعا بالحرية نفسها التي كانت له»(92: Gaille ,M.1998).

ينشأ العقد الاجتماعي على خلفية أخلاقية مضمونها قائم على الحرية والمساواة بين جميع الأفراد، ويطرح كحل، ضرورة التنازل عن الحرية المطلقة والقبول بحرية محدودة ونسبية، شريطة أن ينفذ هذا التنازل على جميع الأفراد المتعاقدين ولا يستثنى من العقد أي فرد، وبذلك ينتقل كل فرد من حال ة العزلة إلى حالة الاجتماع، فيصبح مشاركا في إدارة المجتمع مثله مثل أي فرد من أفراد الشعب، هذا الجسم الجديد الذي نتج عن العقد والذي أصبح بفضله كل فرد يسمى مواطنا، باعتباره «شخصا أو عضوا في السلطة السيادية، التي لا يمكن أن تكون في مكان آخر غير الشعب ».(19: Gauthier ,F.1992).

مع نشأة العقد يظهر إلى الوجود مجتمع مدني وشعب ومواطنون، وبما أن العقد هو أساس كل ذلك، فهو بمثابة القانون الأساسي الذي يرقى إلى مرتبة القداسة، لأن المساس به تنتج عنه أضرار خطيرة تؤدي إلى تراجع الأفراد عن التزاماتهم وهو ما يهدد وجود الجسم ا لسياسي من أساسه، أي وجود الدولة في حد ذاتها، لكن طريقة تأسيس العقد الاجتماعي والتأكيد على حماية الجسم السياسي جعل البعض ينتقد روسو في توجهه هذا، حيث بدا وكأنه لم يفهم بأن سيادة الشعب يجب أن تتوقف عند بداية الاستقلالية الفردية والوجود الفردي، إذ أن مجال الفردية الشخصية هو شيء مقدس لا يمكن الاعتداء عليه وبالتالي على السلطة أن تتوقف عنده.

نذكر نزعة روسو التي عرضته للنقد الشديد من طرف الكثيرين، فهذا ول ديورانت يقول « أن فولتير والأحرار اعتقدوا أن التغيير يأتي من طريق التثقيف والتعليم تدريجيا بالوسائل السلمية. ولك ن روسو والمتطرفين اعتقدوا بأن التغيير لا يأتي إلا عن طريق العمل العاطفي الغريزي الذي يقضي على النظم القديمة، ويبني نظما جديدة يكون الحكم فيها للحرية والمساواة والأخوة ». (ديورانت، و. 2004 : 193). وهكذا فإن روسو قصد بصياغته تلك للعقد تحقيق المساواة والحري ة المتبادلة وبالتالي وضع قانون أساسي يحتكم إليه الجميع من حيث هم مواطنون لهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حقوق وعليهم واجبات، ولذلك فإن خلاص مواطن واحد يعتبر قضية مشتركة مثلما هو حال خلاص الدولة بأسرها، « فبدلا من أن يكون من واجب الفرد أن يهلك في سبيل الجميع، على الجميع أن يرهنوا أمو الهم وحياتهم للدفاع عن كل واحد منهم، وذلك بغية أن تحمي القوة العامة دائما الضعف الخاص، وأن تحمي الدولة كلها كل عضو فيها ». (شوفالييه، ج. 1998 : 485).

يرسي روسو أسس المواطنة التي تشكل هوية مغايرة تماما لحالة الطبيعة، إذ أن علاقة الأفراد ببعضهم لم تبقى غريز ية أو منعدمة، بل أصبحت ضرورية و إرادية وقائمة على الالتزام المتبادل، فالمواطنة إذن هي وليدة هذا الالتزام الذي يفرضه الانخراط في العقد والذي يجعل من كل فرد ينظر إلى نفسه كعضو ينتمي إلى مجتمع منظم بواسطة قوانين وضعها الشعب، إذ أن « الشعب الذي يخضع للقوانين بمجموع أفراده يجب أن يكون هو الواضع لها» (محفوظ، م. 1990 : 154)، وعليه فإن القوانين التي تترتب عن تأسيس المجتمع المدني لا ترى في الشعب جسما منقسما على ذاته، بل ترى فيه جسما يهدف إلى غاية مشتركة هي تحقيق سعادة الجميع والتعبير عن إرادة جميع الأفراد من حيث هم مواطنون لهم الحق في العدالة التي لا تتجسد إلا بوضع القوانين فوق الإرادات الخاصة وخضوعها فقط للإرادة العامة التي تنشد صلاح الكل وسعادة الجميع، غير أن العيش في النظام الاجتماعي يقتضي موقفا أخلاقيا معينا « فقد كان الإنسان في النظام الطبيعي يعيش لذاته، كان يعيش حياة نفسه، كان صالحا دون أن يعرف ذلك ودون أن يريده . أما في النظام المدني فإن نمط وجوده يتبدل، وينمو فيه نوع من الصلاح جديد يناسب حاجاته الجديدة، وبينما كان صالحا يغدو الآن كائنا أخلاقيا، إنه يشعر بأنه سيد نفسه، ويقوم بواجباته، ويتصرف في كل حادثة حسبما يملي عليه ضميره. يجب أن يكون في الدولة قانون أخلاقي، ونوع من العقيدة المدنية تعبر بصورة إيجابية عن الإنجيل، ومبادئ تؤسس عليها الدولة كأنما هي نوع من التعليم الديني للمواطن » (غروتويزن، ب. 1982 : 110).

قصد روسو من وراء تأسيسه للمجتمع المدني، إلى الارتقاء بهذ ا الجسم الجديد إلى أعلى درجة ممكنة، والبحث له عن هوية مناسبة لطبيعته، فتم ربطه بما هو أخلاقي وبما هو أكثر صلة بوجود الإنسان، حتى لا يبقى الأفراد ينظرون إليه ككيان غريب عنهم ولا يطيعونه إلا بواسطة القوة والقهر، إن الفرد لا يتحول إلى مواطن إلا إذا تشبع بالق وانين التي تؤسس الاجتماع الجديد بشكل كامل، ولا

يحصل ذلك ما لم يدرك الفرق الشاسع بين معنى الصلاح والسعادة في حالة الطبيعة وفي حالة المدنية، إننا هنا أمام هوية جديدة أي أننا أمام اجتماع حصل باتفاق على منح الوجود الفردي معنى جديدا كل الجدة، فبعدما كان وجود ال فرد متمحورا حول ذاته أصبح وجوده الآن يتحدد من خلال علاقته بغيره، ولهذا « فالقرار الذي يجعل من سكان بلد ما مواطنين ينظر، بادئ ذي بدء، إلى جميعهم نظرة مساواة : بما أن كلا منهم يضع ذاته تحت تصرف المجموع، فإن المساواة تكون قائمة بذلك، فيما بينهم » (كريسون، أ. 1962 : 85).

إن هذا الارتباط بين الفرد وبين الجسم الاجتماعي يضفي على كل فرد صفة المواطنة، مما يجعله يدخل في شبكة من العلاقات القائمة على الالتزامات المتبادلة، ومصدر هذه الالتزامات هو الشعور الأخلاقي العميق وليس الحسابات العقلية فحسب،تصبح المواطنة مسألة بحث عن هوية جماعية وعن كيفية وجد صيغة لعيش مشترك، فروسو يقرر « أنه على كل دولة أن تبحث عن فائدتها في المصلحة المشتركة والمتمثلة في تحقيق الأمن وهذا لا يحصل بفضل التحليل الفلسفي لمفهوم الأمن أو بالاعتماد على المبادئ الأولية التي يتبناها الفلاسفة، بل على كل دول ة تريد إقرار الأمن أن تضع ثقتها في القلب وليس في العقل لأن القانون الطبيعي للسلم مطبوع في القلب بصفة دائمة ومستمرة » (125 : 1998 . (Lequan, M)

يلح روسو على ضرورة أخذ الجانب الذاتي بعين الاعتبار عند تفكيرنا في البحث عن أسس صلبة ومتينة يقوم عليها الاجتماع المدني، وبالتالي شرعنة قوانين هذا الاجتماع شعوريا وعاطفيا حتى نتخلص من الانقسام والصراع والأنانية،كما نتخلص من حالة التناقض بين حالة الطبيعة التي يشتد بنا الحنين إليها وبين حالة المدنية التي تفرض علينا وجودها، هذا التناقض يفرض علينا أن نتخذ القرار الصحيح والملائم للفصل في تحديد هويتنا وإعطاء معنى صحيح لحياتنا، و إذا كان وضعنا كمواطنين أصبح ضروريا فلا داعي للبحث عن هويتنا خارج هذا الإطار، إطار المواطنة الذي ينظر إليه كدين جديد، وهذا يعني « أن يكون لكل مواطن دين يجعله يحب واجباته . لكن عقائد هذا الدين لا تهم ال دولة ولا أعضاءها إلا بمقدار ما تربط به هذه العقائد بالأخلاق وبالواجبات، التي على من يعتنقه أن يفي بها تجاه الغير... إن هناك إذن إعلان إيمان مدني، بصفة بحتة، يعود للسيد أن يحدد مواده، ليس بدقة كالعقائد الدينية و إنما كمشاعر اجتماعية، بدونها من

المستحيل أن يكون المرء مواطنا صالحا ورعية مخلصا » (شوفالييه، ج. 1998 : 513).

يبين لنا هذا مدى انشغال روسو بتأسيس هوية حقيقية للمجتمع المدني من خلال حرصه على كسب رضا كل عضو في هذا المجتمع، إلى الدرجة التي يصبح الأفراد فيها منسجمون ومتناغمون بشكل كبير مع روح الجماعة التي اختاروا الانتماء لها، وحتى نفهم نظرية روسو هذه لابد من العودة إلى تصوره للحالة الاجتماعية « فمنذ أن ينضم الفرد إلى مجتمع ما تبدأ بالنسبة له حياة جديدة، فينتهي انطواؤه على نفسه، ويغدوا بكليته ملكا للمجتمع، ولا تعود حياته إلا جزءا من حياة الجماعة » (غروتويزن، ب. 1982 : 200). لقد أثار هذا الهاجس الروسوي في بناء المجتمع المدني بناء قويا انطلاقا من فكرة المواطنة، أو بالأحرى شعور المواطنة، توجسات عديدة، مضمونها الأساسي يكمن في فقدان الحقوق الطبيعية للفرد، وخاصة الحق في الحرية والمساواة، لكن روسو يتصور أنه حل هذه المشكلة بالطريقة الأفضل، وعلى الوجه الأكمل، وذلك عند جعله إرادة جميع الأفراد الخاصة تحت سيطرت الإرادة العامة، مصدر جميع القوانين وبالتالي مصدر السيادة الشعبية، وإذا كان « الشعب هو مصدر السيادة، فإنه يملك سلطة شرعية - حسب روسو - غير محدودة وبإمكانها أن تكون مطلقة » (Touraine ,A.1994 : 118)

إن التحول من حالة الطبيعة إلى حالة المجتمع المدني، تتولد عنه تغييرات عميقة وجذرية، فبعدما كان الإنسان محدودا جدا في قدراته كما في حاجاته فرض عليه وضعه الجديد أن يكون مواطنا في جسم سياسي أي جسم مصطنع قابل للتطور والنمو الذي لا حدود له، ومن هنا يتضح لنا سبب إعطاء هذا المجتمع الجديد أهمية قصوى، من حيث أنه يوسع من الأفق الذي يرسم حركة الإنسان وذلك من خلال إضفاء صفة المواطنة عليه كصفة التزام تجاه الجسم السياسي الذي يشعر أنه جزء منه، وهذا يجعلنا نتصور أن فلسفة روسو السياسية هي فلسفة تاريخ، بما يفضي إلى استنتاج تاريخية الإنسان ذاته، بحيث أنه معطى تاريخي، وبالتالي فهو لا يصبح إنسانا إلا عندما يحدد انتماءه الاجتماعي أي لا تكتمل إنسانيته إلا عندما يصبح مواطنا صالحا، مما يجعل المواطنة تعطي له معنى وتحدد له أفقا لا حدود له أو بالأحرى تحدد له أفقا متجاوزا لذاتيته ومتساميا عن حاجاته الطبيعية المباشرة نحو البحث عن غايات أكثر إنسانية وأكثر تحررا من الحاجات الغريزية البسيطة التي كان يرى فيها سعادته في حالة الطبيعة.

إن المواطنة تقتضي بحسب روسو الشعور بوحدة الهدف وبوجود مصلحة مشتركة وهو ما يعني ضرورة تحقيق اندماج اجتماعي بين الأفراد في الجسم السياسي، لذلك يجب « التسامح بين جميع الأديان السمحة ما دامت عقائدها لا تتنافى هي وواجبات المواطن. ولكن من يجرؤ أن يقول " لا خلاص خارج الكنيسة " يجب أن يطرد من الدولة، ما لم تكن الدولة هي الكنيسة، والأمير هو الحبر. إن مثل هذه العقيدة لا تصلح إلا في حكومة وضعها إلهي، وهي ضارة في كل دولة سواها » (روسو، ج. 1972 : 185).

تفضي بنا فكرة المواطنة إلى إرساء قوانين مدنية قائمة على التسامح، وبالتالي نجد أنفسنا أمام دين مدني، أي أن فكرة المواطنة تفتح لنا أفقا واسعا، يسمح لنا بالتعايش والاندماج في جسم اجتماعي موحد رغم اختلاف آرائنا وأفكارنا الدينية، بهذا نكون مواطنون مؤمنون بالعقد الاجتماعي الذي يربطنا ويحفظ حقوقنا المدنية وينظر إلينا باعتبارنا أحرار ومتساوون أمام القوانين، ويستطيع القانون أن « يقرر بأنه ستكون هناك امتيازات، ولكن لا يمكنه أن يمنح بالتسمية أي امتياز لأي كان من الناس . ويستطيع القانون خلق طبقات متعددة من المواطنين، وتحديد الصفات التي تخول حق الحصول عليها، ولكن لا يمكنه أن يسمي فلانا أو فلانا ليندمج في هذه الطبقات... وقصارى القول أن كل وظيفة تتعلق بغرض شخصي لا تدخل أبدا في اختصاص السلطة التشريعية » (روسو، 1972 : 54، 55).

هكذا ترتبط المواطنة بالقوانين، ولا تتعامل القوانين مع الأفراد إلا باعتبارهم مواطنين، أي كشخصيات قانونية وكأعضاء في مجتمع قائم على إرادة مشتركة، ولا يتحملون مسؤوليتهم إلا من حيث هم كذلك، أي من حيث هم أعضاء لهم هويات مجردة، ولهم كيانات معنوية تؤهلهم للحصول على هوية مدنية جوهرها الولاء لدولة واحدة وقانون واحد مع اختلاف الاعتقاد، ومع ذلك تعرضت فلسفة روسو في المواطنة لانتقادات عنيفة، يرى هيغل « أن الأفكار الموغلة في التجريد والميتافيزيقا تكون ہ دامة، ف روبيسبير Robespierre من نتاج روسو، لأن انتصار الأفكار كثيرا ما يكون على حساب الإنسان » (Monique. c. 200: 35). و Constat. B رأى أن روسو ظل وفيا للفلسفة السياسية الكلاسيكية التي جعلت من المواطنة والهوية الفرية مشكلة سياسية مرتبطة بالضرورة بمشكلة المدينة ، ونكاد نحصر الانتقادات التي تعرضت لها فلسفة روسو السياسية في هذا الصدد في العودة إلى النزعة الأخلاقية التضحوية، أي التضحية بالمواطن لصالح الدولة ذات

الوجود الأخلاقي، وهذا ما أخذ على فلسفة هيغل السياسية فيما بعد كفلسفة اهتمت بالدولة وأرادت من خلالها أن تجد حلا لمشكلة الاغتراب وبالتالي تحقيق هوية الإنسان الحديث بتحقيق روح المواطنة وهو ما سعى إليه مونتسكيو بحثه عن روح القوانين.

المصادر والمراجع :

بالعربية :

- المصادر:

- أفلاطون،(د ت)، الجمهورية،نقله إلى العربية حنا خباز، (د ط)، بيروت، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.
- أرسطوطاليس، (2008)، نقله إلى العربية أحمد لطفي السيد، (دط)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- اسبينوزا، (2008)، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، (دط)، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
- روسو، جان جاك، (1972). في العقد الاجتماعي أو في مبادئ القانون السياسي، (د، ط). بيروت : اللجنة اللبنانية لترجمة المصادر.

- المراجع :

- أندريه، كريسون، (1962). روسو، حياته – فلسفته – منتخبات ط1، بيروت : منشورات عويدات.
- أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، (دط)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- برنار، غروتويزن. (1982). فلسفة الثورة الفرنسية، ط1. بيروت : منشورات عويدات.
- جان جاك، شوفالييه. (1998). تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ط4. بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- جيمس فينيكان، (1991)، أفلاطون، سيرته، آثاره ومذهبه الفلسفي، ط1، بيروت، دار المشرق.
- ديورانت، ول.(2004). قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، ط 1. بيروت : منشورات مكتبة المعارف.
- مهدي، محفوظ . (1990). اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، ط 1. بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

بالفرنسية :

- Gaille, Marie. (1998). *Le citoyen*. Paris. Edition Flammarion.
- Gauthier, Florence. (1992). *Triomphe et mort du droit naturel en révolution 1789 – 1795 – 1802.* Paris. Presses Universitaires de France.
- Lequan, Mai. (1998) *La paix*. Paris. Edition Flammarion.
- Monique Castillo ;(2002), *La citoyenneté en question* , Paris, édition Ellipses.
- Touraine, Alain. (1994). *Qu'est ce que la démocratie ?* Paris. Edition Fayard.

ARCHIVE

الهجرة والإدماج والمواطنة

أسئلة الواقع وتحديات المستقبل

قوعيش جمال الدين،

قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة مستغانم

مقدمة:

تمثل الهجرة إحدى أهم القضايا التي تحتل صدارة الاهتمامات الوطنية والدولية في الوقت الحالي، لا سميا في ظل التوجّه العالمي نحو العولمة الاقتصادية وتحرير قيود التجارة التي تقضي بفتح الحدود وتخفيف القيود على السلع وحركة رؤوس الأموال. وما نتج عن ذلك من آثار اقتصادية على الدول النامية والفقيرة.

حول هذه القضية الشائكة عقدت المفوضية الدولية لشؤون الهجرة واللجوء مؤتمرا لها في العاصمة الألمانية برلين يوم **2008/05/31**م، وذلك لمناقشة التحديات المرتبطة بظاهرة الهجرة العالمية في القرن الحادي والعشرين وكذلك بحث الفرص الرامية نحو التوصّل إلى **سياسة عالمية للهجرة** تأخذ في الاعتبار حقوق الإنسان وعملية التنمية في البلدان "المصدّرة للمهاجرين"، إضافة إلى الآثار المترتبة على موجات الهجرة إلى الدول الصناعية المستقبلة للمهاجرين.

هذا وقد احتل موضوع التنمية السياسية والاقتصادية ومكافحة الفقر في الدول "المصدرة للمهاجرين" محور التقرير الدولي. كما ركّز التقرير على مناقشة التحديات والمشكلات الناجمة عن الهجرة الدولية في كل من الدول المصدرة والمستقبلة، مستعرضا في هذا السياق سياسة الاتحاد الأوروبي في مجال الهجرة والاندماج. كما تناول التقرير الآثار المترتبة على إعادة المهاجرين إلى بلدانهم الأصلية ولاسيما على عملية التنمية هناك.

وبالنسبة للدول الصناعية المرتقبلة للمهاجرين فقد تطرق التقرير إلى الآثار الاجتماعية والثقافية والدينية المترتّبة على الهجرة الدولية إلى هذه البلدان. إنّ الهجرة ظاهرة عالمية وهو ما يفرض بالتالي انتهاج سياسة عالمية تشترك فيها الأسرة الدولية. وتجدر الإشارة بصفة أساسية، إلى أسباب الهجرة القصروية الناجمة عن الفقر والحروب والعنف السياسي وضرورة معالجة مسألة الهجرة على أرضية تراعي فيها حقوق الإنسان لتوفير حياة إنسانية حرة وكريمة للمهاجرين.

إنّ التحديات الأساسية التي تستدعي حلولا عالمية لظاهرة الهجرة تتمثل من ناحية في أنّ توقعات المهاجرين كبيرة في العيش الرغيد في الدول الصناعية، بينما تعاني بعض هذه الدول من نسبة البطالة فيها، ما "يخلق" ظاهرة الهجرة السرية أمّا التحدي الآخر هو أن مناطق من العالم تعاني من الانفجار السكاني بينما تعاني مناطق أخرى من تراجع معدل النمو السكاني.

1- مفهوم الهجرة وميزاتها الأساسية:

تعتبر الهجرة خاصية إنسانية سكانية تتمثل في الانتقال من مكان إلى آخر إمّا بحثا عن حياة أفضل أو هروبا من وضع سيئ. هذه الخاصية الديموغرافية المتمثلة في حق التنقّل تمّ الاعتراف بها عالميا منذ أكثر من ربع قرن ضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. من ناحية اقتصادية، يمكن أن يكون للهجرة المنظمة مردودا إيجابيا كبيرا، سواء على المجتمعات المهاجَر منها أو المهاجَر إليها بما في ذلك نقل المهارات وإثراء الثقافات. وتشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أنّ عدد المهاجرين في العالم وصل إلى حدود 200 مليون شخص(بيو نكول. 2003: 36). ولكن بقدر ما يسهم المهاجرون في بناء المجتمعات المستضيفة،بقدر ما يمثل ذلك خسارة موارد بشرية للدول المُهاجَر منها أي ما يعرف بهجرة العقول والكفاءات أو هجرة الأدمغة.

كما أنّ الهجرة قد تتسبب في خلق توترات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية في البلدان المُهاجَر إليها. وهو ما جعل موضوع الهجرة الدولية ينتقل إلى صدارة الاهتمامات الوطنية والدولية. وأصبحت الهجرة الوافدة من المسائل المقلقة في عددمتزايد من البلدان الأمر الذي حدا بهذه البلدان، لاسيما في السنوات الأخيرة إلى تشديد الإجراءات تجاه المهاجرين إليها وطالبي حق اللجوء.

في هذا السياق أردنا في هذه العرض مناقشة التحديات المرتبطة بظاهرة الهجرة العالمية في القرن الحادي والعشرين، وكذلك بحث الفرص الرامية إلى التوصّل إلى سياسة عالمية للهجرة تأخذ في الاعتبار حقوق الإنسان وعملية التنمية في البلدان "المصدرة للمهاجرين"، فضلا عن الآثار المترتبة على موجات الهجرة إلى الدول الصناعية المستقبلة للمهاجرين.

هذا وقد احتل موضوع التنمية السياسية والاقتصادية ومكافحة الفقر في الدول المصدرة للمهاجرين محور التقرير الدولي لهيئة الأمم المتّحدة في سنة **2005**م.(المرجع

ARCHIVE

السابق:37- 38) كما ركّز التقرير على مناقشة التحديات والمشكلات الناجمة عن الهجرة الدولية في كل من الدول المصدرة والمستقبلة، مستعرضا في هذا السياق سياسة الاتحاد الأوروبي في مجال الهجرة والاندماج. كما تناول التقرير الآثار المترتبة على "إعادة المهاجرين إلى بلدانهم الأصلية"، ولاسيما على عملية التنمية هناك. وبالنسبة للدول الصناعية المستقبلة للمهاجرين فقد تطرّق التقرير إلى الآثار الاجتماعية والثقافية والدينية المترتّبة على الهجرة الدولية إلى هذه البلدان.

2- البحر الأبيض المتوسط؛ فضاء خصب للهجرة:

شكّل حوض البحر الأبيض المتوسط عبر العصور فضاء للتبادل والتداول والتنقل بين الشعوب. فقد انطلق الفينيقيون والإغريق من الشرق لتأسيس مراكز عديدة لهم على الشواطئ الإفريقية، كما على ضفاف بلاد الغال وإيطاليا. ومنذ العهد الروماني وحتى غاية نشوء الدولة العثمانية، فإنّ أمبراطوريات كثيرة شُيّدت سلطتها التي امتدت أحيانا إلى عمق القارات الثلاث المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، آسيا، إفريقيا وأوربا. لكن العلاقة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، الشمالية والجنوبية، عرفت، بفعل التوسع الرأسمالي، والغزو الاستعماري، وانهيار الإمبراطورية العثمانية، اختلالا متزايدا في التوازن لصالح أوربا. إن تعريف الفضاء المتوسطي، حسب ما تفرضه اتفاقية الشراكة الأورومتوسطية، والتي تضم من جهة مجموعة دول الاتحاد الأوربي، ومن جهة أخرى الدول العربية المشرفة على البحر دون غيرها من دول الشرق الأوسط، سواء كانت عربية أو غير عربية، يترجم في الحقيقة وبشكل مفضوح عن هذا الاختلال الذي يُلازم العلاقات الأورومتوسطية. ذلك أنّ الاقتصار على تعريف لا يمت إلى الجغرافية بأية صلة، ويحدّ من الشراكة بحيث تقتصر على البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى الأردن، ويُقصي الدول العربية الأخرى، يُراد منه في حقيقة الأمر حمل عدد من البلدان العربية على التطبيع مع إسرائيل، أيا كان موقف هذه الدولة أو تلك من المطالب الفلسطينية، و"دمج" إسرائيل ضاربين عرض الحائط بالمطالب الفلسطينية.

- هل يمكن الحديث عن رهانات متوسّطية ؟

إنّ الفضاء المتوسطي الذي يقع تحت تأثير التاريخ والجغرافية، وقد شيّدت العلاقات التجارية والغزو الاستعماري والتيارات الدينية والثقافية بناه، هو اليوم

فريسة للعنف النيوليبرالي، وما يخلّفه من نتائج. وإن لهذه النتائج وقعها على ضفتيه معا، وذلك فيما تتقاسم كل البلدان المطلة على المتوسط عددا من المشكلات المشتركة؛

حيث يمكن الحديث عن مشاكل ناتجة الجغرافية والمناخ؛ هناك ارتفاع لسخونة الجو، نقص للموارد المائية واستغلال سيئ لها، تلوث لمياه البحر، تنافس تجاري بين المنتجات الزراعية نفسها، بالإضافة أيضا إلى تخطيط المدن والاستفادة من المكان، إدارة الموارد الطبيعية، إلخ. إنّ الحلول المقترحة اليوم من قِبَلِ رأسمال شره للربح السريع، لا تُرضينا

فضلا عن موروث يتعلّق بالتاريخ، وبالتاريخ الاستعماري على وجه الخصوص؛ مشكلات متأتية من أن التصفية المنقوصة للاستعمار لا زالت تُحدث كوارث وخرابا بدءا بالصحراء وحتى غاية فلسطين، وصولا إلى علاقات التبعية التي لا تعرف النهاية، وتتخفى وراء خطاب الصداقة بين الشعوب والتبادل الثقافي والتنسيق والشراكة.

وتتّحد اليوم كل هذه المشكلات برهانات جديدة مرتبطة بالأنماط التي تُعتمد في المنطقة لتنفيذ السياسات النيوليبرالية ومشاريع القوى الإمبريالية الرامية إلى الهيمنة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنّ الشراكة الأورومتوسطية ترسم فضاء سياسيا واقتصاديا، وإنّ الاتحاد الأوروبي يفرض على هذا الفضاء مشروعا، وإنّ الحلقة الصلبة في هذا المشروع هي تشييد منطقة للتبادل الحر منتظرة في أفق العام **2016م** (خاشاني، م.1999م: 16- 17). إنّ مشروعا كهذا لا يمكن إلاّ أنّ يزيد من تفاقم اختلال التوازن في حالاته الكثيرة، ويزيد أيضا من حالة التبادل غير المتكافئ استفحالا، ويفسح في الوقت نفسه مجالا واسعا أمام انعدام المساواة والتهميش والنبذ، وغياب الأمن.

لقد جعل الاتحاد الأوربي من نفسه، سواء في شمال أم في جنوب المتوسط، لسان حال السياسة التي تُرسم ضمن المنظمة العالمية للتجارة، والمؤسسات المالية الدولية، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، والتي يمكن إجمالها تحت وصاية "اتفاقية واشنطن": أي خوصصة القطاع العام، وتحرير تنقل الأموال والبضائع، وانثنائية قوانين العمل وتشريعاته، إلخ...

كما أنّ السيطرة على احتياطيات النفط والطاقة تُشكّل رهانا مركزيا في ما يعرفه الشرق الأوسط من صراعات وحروب، كما هي تُشكّل، بمعنى أعم، رهانا مركزيا للمشاريع الأمريكية للهيمنة، وذلك فيما يُعرف بمشروع الشرق الأوسط الكبير.

وإنّ السياسة العدوانية التوسعية لدولة إسرائيل تُشكّل حلقة من حلقات المشروع الأمريكي الذي يهدف إلى الهيمنة على المنطقة. إنّها تؤدي وظيفتها على صعيد الشرق الأوسط كوكيل عن السياسة النيوليبرالية يعمل لحساب الأسواق النقدية والشركات المتعددة الجنسيات ولصناعات الأسلحة.

إنّ تعريف الفضاء المتوسطي كما تُروّج له مسيرة برشلونة لا يعنينا، وهو ليس منا وليس لنا. فالفضاء المتوسطي الذي ندعو إليه لا يمكن أن يكون إلاّ فضاء الحركات الاجتماعية التي تُستنهض وتُعبّأ من أجل النضال ضد النيوليبرالية وضد الحرب. إنّ فضاءنا المتوسطي هو فضاء النضالات المشتركة من أجل الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، **فضاء متوسطي متضامن**، يحترم الإنسان وبيئته.

إنّنا، بهذا المعنى، نتبنى بدون تحفظ شعار المنتدى الاجتماعي المتوسطي الأول: "من أجل بحر الحقوق".

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضمّت الشراكة الأورمتوسطية، التي انطلقت في 28 نوفمبر من العام**1995م** من برشلونة، الاتحاد الأوربي واثنتي عشرة دولة من جنوب وشرق المتوسط. ثم انضمت اثنتان منها، وهما مالطا وقبرص، للاتحاد سنة **2004م**. أما تركيا فإنها مرشحة للانضمام، وهي تستفيد من اتفاقية اتحاد جمركي. وعليه، فإنّ الشراكة في نهاية المطاف تعني بالأساس ثمان(08) دول عربية، هي تونس والمغرب والسلطة الفلسطينية والأردن ومصر والجزائر ولبنان وسوريا، إضافة إلى إسرائيل. إن مسيرة برشلونة التي تُعرّف من حيث هي "أداة أساسية للشراكة وللتعاون والحوار" مع منطقة المتوسط، تُعلن عن ثلاثة أهداف لنفسها:

تشييد "منطقة للرخاء المشترك" بفضل تأسيس منطقة للتبادل الحر في أفق العام **2020م**.

أولا، لأنّ عوائق كثيرة تنتصب لتحد من حرية تنقل الأشخاص: هناك صعوبات

تعترض الفلسطينيين كلما حاولوا الخروج من الأراضي المحتلة، وهناك إجراءات تعسفية تحول دون الحصول على تأشيرة الدخول القنصلية، فضلا عن غلاء ثمن تذاكر السفر. لا زال الموروث الاستعماري يطبع الحركة الاجتماعية بطابعه. ذلك أن حركة مناهضة الاستعمار في أوروبا ظلت محدودة الأفق، ممّا غذى لدى الحركات العربية القومية مشاعر الحذر تجاه اليسار الأوربي. لذا، فإن التنديد اليوم بالسياسات الكولونيالية الجديدة التي تتخفى وراء الشراكة الأورومتوسطية، يصطدم بالموروث من العهد الاستعماري، طالما يزن هذا الموروث بثقله لا محالة على فضح السياسات الاستعمارية الجديدة. علما أن العلاقة بين منظمات المجتمع المدني ليست بصورة دائمة بريئة من الوصاية الأبوية التي ينتهجها بعض ممثلي الشمال(المرجع السابق: 21).

وعليه، فإنّ تشييد حركة اجتماعية حول البحر الأبيض المتوسط يقتضي لزوما إذا تخطي عتبة الفعل التضامني للشمال إزاء الجنوب، والإعلان عن القطيعة النهائية مع منطق الرعاية والمساعدة، وذلك من أجل تبني التفكير معا كمُوحّدين في مناهضة السياسات النيوبرالية الجديدة التي تُصيب دونما خطأ أهدافها، أي العمال وسكان الضفتين، تاركة تأثيرات مختلفة عليهم. وبالإضافة إلى العلاقات المنسوجة حول البحر الأبيض المتوسط قديما بين المنظمات النقابية والسياسية والجمعيات، يمكن ملاحظة ظهور البوادر الأولى لالتقاء الأفكار، ناهيكم والتقاء المعارك والتعبئة حول عدة موضوعات (مثل البيئة، الماء، حقوق الإنسان، المرأة، البطالة عن العمل، الحرب...). وإنّ تلاقي الأفكار والحركات من ضفة متوسطية لأخرى لهو أمر ممكن وضروري في ميادين متعددة:

من أجل زراعة لصالح الفلاح، وضد تفاقم منطق الإنتاجية في بلدان الشمال، وضد تصدير النموذج الصناعي إلى بلدان الجنوب، الذي يُفضّل التصدير على حساب ضمان السيادة الغذائية، ويُتلف المجتمعات الفلاحية.

المؤسسات المالية العالمية والمنظمة العالمية للتجار والشركات المتعددة الجنسيات أيضا، والتي تستحوذ على القطاع العام، من خلال إدارة الماء، ووسائل الاتصال والخدمات البريدية، الخ... نشر وشرح المشاريع التي تأخذ طريقها إلى المنطقة، وتصادر مستقبل شعوبها، ومنها بوجه خاص اتفاقيات الشراكة الأورومتوسطية،

واتفاقيات التبادل الحر التي تتفاوض حولها الولايات المتحدة مع عدد ما من الدول، الخ. ولن يتم ذلك إلا بإعمال الخبرة وتجميع المعطيات، وهذا ما كان بدأ فعلا منذ "القمة الأخرى" لمرسيليا في سنة **2000م** ، والتي تستدعي الضرورة إحياءها مجددا.

تبادل الخبرات حول النضالات في جميع الساحات أو حيث هي تجري، مع الإلحاح على الخبرات التي لقيت صدى ونجاحا في بلدان مختلفة من حوض البحر الأبيض(المعارك ضد البطالة عن العمل مثلا). وضع خطة من أجل تنظيم حملات مشتركة تؤدي إلى ممارسة دور قوي من أجل ترجيح كفة الصراعات الرئيسة للسياسات الراهنة(رفض احتلال العراق، "إرغام" إسرائيل على التخلي عن سياستها الاستيطانية، ودعم حقوق الشعب الفلسطيني، التنديد باتفاقيات الشراكة، المطالبة بإلغاء الديون، طرح مشاكل الخوصصة، فضح سياسة إطلاق الحرية لتنقل الأموال والمصانع، شرح وفضح دور الشركات المتعددة الجنسيات، الدفاع عن الخدمات العامة، إثارة مشكلة الماء...). إنّ لائحة المجالات التي يمكن شن نضالات مشتركة بشأنها في عموم حوض الأبيض المتوسط لطويلة.

وإنّ تقديم المقترحات في هذا الصدد هو بين أيدي الشبكات وورشات العمل المجتمعة في المنتدى. أما شبكة أتاك في حوض المتوسط، فإن من واجبها تحديد الأولويات، وأن تكون أيضا حاملة لبعض من هذه المقترحات.

3- النموذج الأوروبي:

ترتبط أوروبا اقتصاديا وسياسيا بالعالم أجمع ارتباطا وثيقا. أضف إلى هذا أنّها تجسّد، من وجهة النظر الجغرافية، الطرف الغربي من القارة الأوربية- الآسيوية. وعموما يمكن القول إن بني البشر قد دأبوا على الهجرة دائما وأبدا. إنّ الإشارة إلى هذه الحقائق أمر مهم وذلك لأنها تمكننا من الإحاطة بالظروف الجوهرية المحيطة بأوروبا باعتبارها أحد مسارح تنقلات المهاجرين على مستوى العالم أجمع.

ويلتقي المرء الأوربيين في كل أصقاع المعمورة تقريبا إمّا كسائحين أو كرجال أعمال أو كمهاجرين أو أبناء مهاجرين. من ناحية أخرى أمست أوروبا محط قدم بشر جاءوا من كل صوب وحدب. لقد "تلاحمت" أوصال العالم فغدا بُعد المسافات بين بلدان العالم أمرا نسبيا؛ بهذا المعنى صار العالم في حركة مستمرة سياسيا وجغرافيا وسكانيا وسلعيا. وفي سياق هذا كله **تبلورت أساليب ونماذج وقنوات**

جديدة للهجرة. فهجرة بعض بني البشر صارت تناظر تداول المعلومات والمتاجرة بالعملات والبضائع، إلا أن الأمر الذي تتعين الإشارة إليه هو أنّ هذه التحركات والتنقلات لا تتّخذ مسارا أحادي الاتجاه، بل هي تتم في كلا الاتّجاهين من حيث المبدأ. والهجرة لا تشكّل أحد مظاهر العولمة الناشرة أبعادها على العالم فحسب، إنما هي أيضا حصيلة منطقية أفرزتها العولمة ذاتها.

ومع هذا كله، فإنّ الملاحظ هو أن أقلية ضئيلة من بني البشر تسلك مسافات بعيدة في هجرتها، أي أنّ فئة ضئيلة العدد تهاجر من قارة إلى أخرى، أو تهاجر لأمد طويل أو على مدى الحياة. فهجرة، شبيهة بالهجرة الأوربية الكبيرة التي نزح في سياقها ما يزيد على ستين مليون أوربي إلى أمريكا وأستراليا، ستظل حالة استثنائية في أغلب الظن. الغالبية العظمى من بني البشر تنزح و"تسيح" في حدود دولها الوطنية، أي أنّها تتنقل من مدينة إلى أخرى في الوطن الأم. أمّا بالنسبة لأولئك الذين يهاجرون عبر الحدود الدولية فإنّه يمكننا القول بأنّ هؤلاء غالبا ما يهاجرون إلى دول أو أقاليم مجاورة لوطنهم الأم.

من هنا لا عجب أن تتّخذ عمليات الهجرة والاستيطان في أوروبا شكل تنقّلات إقليمية الأبعاد، أي أن تتخذ شكل الهجرة من شرق أوروبا إلى غربها أوفي إطار الإقليم الاسكندينافي أو بين البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط. أضف إلى هذا أن أكثر الناس تتنقل لقضاء فترة زمنية قصيرة لا غير. ويستحوذ عدد المتنقلين للأغراض السياحية على حصة الأسد؛ ويحتل عدد المتنقلين من رجال الأعمال المرتبة الثانية. ويشكّل التنقل للدراسة في بلد أجنبي أو العمل لدى إحدى العائلات الأجنبية من أجل تعلم اللغة أحد دوافع الإقامة في البد الأجنبي لفترة مؤقتة. وهكذا، فسواء تعلق الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية أو بأوروبا، تشكل الإقامة المؤقتة أكثر الصيغ الدارجة هنا وهناك. أما بالنسبة لأغلب بني البشر الذين يتنقلون للعمل في بلد أجنبي، فالملاحظ الآن هو أن هؤلاء يذهبون إلى هناك لقضاء فترة وجيزة تبلغ عادة بضعة شهور وليس بضعة سنين؛ إنهم قد يأتون إلى البلد الأجنبي لمرات عديدة، لكنهم نادرا ما يقيمون لمدة طويلة من الزمن. بهذا المعنى لم تعد الإشارة القائلة بأن "القوم يأتون اليوم ويستقرون لقضاء الغد أيضا" تنطبق على واقع الحال؛ فالحقيقة الملاحظة في اليوم الراهن تحتم تعديل هذه الإشارة لتصبح "القوم يأتون اليوم

ويرحلون في الغد". ومهما كان الحال، يمكن أن تكون الهجرة استراتيجية للبقاء على قيد الحياة: فالهروب من الملاحقة والرغبة في الخلاص من فخ العوز والفاقة تشكل دوافع لا يصعب فهمها.(نظيف، م.2000: 89) كما تجسّد الهجرة **استراتيجية اقتصادية** أيضا: التفتيش عن المكان الذي يتيح للمرء الفرصة المناسبة لعرض قوة عمله والحصول على أكبر أجر ممكن. أضف إلى هذا أن الهجرة يمكن أن تكون صيغة احتجاج يريد المهاجر من خلالها القول: "إنّي أحتج على الظروف السائدة في مسقط رأسي، إنّي لم أعد قادرا على الرضوخ لهذه الظروف، ولذا فإنّي أهاجر إلى عالم آخر ؟" كما تشكّل الهجرة النتيجة المنطقية لتوزيع الخيرات والرفاه ية المتحققة على المستوى العالمي توزيعا يفتقر إلى العدالة. من ناحية أخرى تشكّل الهجرة سبيلا للاطلاع على العالم والتعلّم من البلدان الأجنبية، فمن خلال الهجرة يكتسب المرء تجارب قد تنفعه طيلة حياته. وتنطوي الهجرة على هجرة المعارف والخبرات أيضا؛ من هنا لا عجب أن يتزايد عدد العمال المهاجرين، فهؤلاء صاروا يتنقلون إلى كل بقعة تخطر على البال. وكثيرا ما تشكل القوانين الحكومية عقبة كأداء أمام رغبات القوم المهاجرين؛ وفي كثير من الحالات تدفع هذه العقبة بعضهم لأن يسلكوا مسالك لا تتفق والقوانين الحكومية المرعية. إنّ الهجرة معبر قوي عن التحولات الاجتماعية؛ فالهجرة تشارك في خلق التحولات التي تطرأ على الدول والأقاليم المعنية؛ إلا أنه لا يجوز أن يغيب عن بالنا أنّ التغيرات والتحولات تطرأ على الهجرة ذاتها أيضا. تؤدي فالهجرة إلى تطعيم سكان أوروبا بأناس جاءوا من أقاليم أخرى، وإلى حدوث تغير على التركيبة السكانية فيها باستمرار وبنحو بين للعيان. وإذا كانت أوروبا قد اتصفت في يوم من الأيام بنزوح بعض مواطنيها إلى بلدان وأقاليم أخرى، إلاّ أنّ أوروبا أمست حاليا قارة تستقطب المهاجرين. فالبلدان التي جاء منها "العمال الضيوف" في سابق الزمن، نعني إسبانيا وإيطاليا والبرتغال، والنمسا أيضا(المرجع السابق: 90- 91)، صارت هي ذاتها هدفا تهفوا إليه قلوب "العمال الضيوف" الجدد القادمين من جنوب شرق أوروبا وأفريقيا وآسيا على سبيل المثال لا الحصر.

من ناحية أخرى، غدت دول من قبيل بولونيا والمجر وتركيا دولا ينزح منها بعض مواطنيها وتستقطب بعض المهاجرين الأجانب في آن واحد. ففي بولونيا ثمة احتمال

أن يكون عدد الأوكرانيين العاملين فيها قد صار يعادل، لا لربما يفوق، عدد البولونيين العاملين في ألمانيا. بهذا المعنى تغيّر حركة الهجرة اتجاهاتها باستمرار، لا بل من الممكن أن يتحول مسارها رأسا على عقب كما هو بين من التاريخ الأوروبي. ومن التناقضات الصارخة أن يواجه البعض حركات الهجرة بمشاعر مشوبة بالقلق والذعر، متجاهلا أنّ هذه الحركات كانت قد شاركت بفاعلية قوية لأن ترتقي أوروبا إلى مصاف أكثر أقاليم المعمورة رخاء ورفاهية.

4- ماهية المواطنة:

يبدأ الاهتمام بالمواطن من فكرة المواطنة نفسها؛ إذ أنّها هي الرابطة التي "توحد" المواطنين وتجمع شملهم وتزيد من تعاضدهم وتكاتفهم ، وتترتب لهم بموجبها الحقوق وعليهم الواجبات؛ وكلّما زادت وطنية المرء - أيّا كان وأينما كان- فكلّما زاد تعلّقه بوطنه واهتمامه بمواطنيه؛ وكلما ضعف الإيمان الوطني لدى الإنسان، خصوصا إذا كان في موقع سياسي أوإداري تتعلق به مصالح المواطنين، وكلّما أهمل المواطن وضيّعت حقوقه، وتنامت العصبيات والانتماءات المضادة للوطنية المفرقة للمواطنين.

وبطبيعة الحال، فإنّ نضج الحس الوطني لدي أفراد المواطنين ينعكس - بشكل تلقائي- في سياسات الدولة واهتمامها بمصالح مواطنيها العامة والخاصة؛ وضعف ذلك الإحساس ينعكس مباشرة في شكل من أشكال الإهمال واللامبالاة بالوطن والمواطن علي حد سواء، وهذا ما يفسر اهتمام الدول المتحضرة بمواطنيها وتعلق مواطنيها بها؛ وإهمال تلك المتخلّفة لمواطنيها إهمالا يتجاوز في كثير من الأحيان التقصير في أداء الواجب إلي الفعل الايجابي المحرم من قتل وحبس وتشريد...

تمّت دراسة حالة بنت تسكن هي وأهلها في منطقة حدودية من دولة الإمارات العربية المتّحدة، شاءت لها الأقدار أن تولد في الولايات المتحدة الأمريكية وأن تحمل جواز السفر الأمريكي الذي يعتبر حامله مواطنا أمريكيا حقا يحميه - وحده- القانون والبانتاغون؛ وعندما أزبد بوش الصغير وأرعد وعلمت السفارة الأمريكية أو أعلمت أنّ الحرب آتية لا ريب فيها، اتّصلت بأهل الصبية تعرض فيها كل ما في إمكانها من اجل حماية المواطنة وتأمينها؛ وللمقارنة؛ وقبل حوالي ثلاث سنين توفي

أستاذين جامعيين كانا في مهمة رسمية بالمملكة المغربية ولم تحرك السفارة المغربية حينها من أجلهم ساكنا، مع أنّها علمت بقضيتهم من طرف الدرك الملكي المغربي في اليوم الأول، إلاّ بعدما تحرّكت أواصر العائلة والجهة والقبيلة.

وعندما صدر قرار بدولة الإمارات العربية المتحدة يلزم جنسيات معيّنة - منها موريتانيا- باستخراج جوازات سفر مستقلة للأطفال- مخافة استغلالهم في ميادين العمالة غير المشروعة- بادرت الدول المعنية بالقرار إلى إصدار جوازات سفر لمواطنيها في سفاراتها وقنصلياتها بدولة الإمارات، بينما تحوّلت الجوازات عندنا إلى سلعة نادرة ازداد عليها الطلب فتضاعفت أسعارها في الأسواق السوداء إلى أكثر من عشرة أضعاف التكلفة الأصلية. وعندما جاء التغيير الذي استبشر الناس به خيرا وأصدرت قرارات بوقف التلاعب الذي كان سائدا في كل أجهزة الدولة، وحصلت عدالة في توزيع الجوازات رضي الناس وظنّوا أنّ ليس في الإمكان أبدع ممّا كان.(نظيف، م.1994 : 44)

وبما أنّ المواطنة حق مقدس لا ينتقص منه إلاّ بحق، ولا تؤثر عليه المواقف السياسية أولا ينبغي أن تؤثر عليه، ولا يسلبه الخروج من رقعة أرض الوطن بل ولا ينقص منه؛ وبما أنّ الدولة بالنسبة إلى المواطن خادمة مطيعة وأما حنونا أو هكذا يجب أن تكون، والمواطن بالنسبة للدولة هو الهدف والوسيلة في نفس الوقت، والمصلحة بينهما متبادلة والمفسدة كذلك؛ فإنّ على الدولة أن تتعامل مع المواطن - أيّا كان وأينما كان- على أساس المواطنة،والمواطنة وحدها، بإخلاص ودون أي اعتبار آخر، كما يجب علي المواطن أن يدافع عن وطنه كما يدافع عن نفسه وماله وعرضه، وحتى إن ضعفت رابطة المواطنة فلا ينبغي أن تضعف غريزة المصلحة، ومصلحة كل كن الطرفين تحت أقدام الآخر.

- ما التمثيل الدبلوماسي ؟

نشأت فكرة التمثيل الدبلوماسي أول ما نشأت على أساسين: أولهما: حماية مواطني الدول المختلفة وتوفير الخدمات لهم أينما كانوا؛ وهم بدورهم كذلك يساهمون في الهدف الثاني من أهداف العمل الدبلوماسي الذي هو العلاقات بين الدول بحسن تمثيل بلدهم بل وبالتأثير في سياسات الدول المضيفة تأثيرا يخدم وطنهم الأم، ويشاركون في نفس الوقت في البناء الداخلي من خلال عدة قنوات قد

تكون أدناها تحويلاتهم واستثماراتهم التي تعتبر جزءا أساسيا من اقتصاديات كثير من الدول خصوصا إذا كانت لديها جالية كبيرة مهاجرة، وبالأخص إذا كان مهاجر وها من ذوي الكفاءات العالية مثل بلدنا، الذي يعتبر مهاجروه إمّا من ذوي: الكفاءات العالية، أو رجال الأعمال الأثرياء، أو الطلاب الذين لا يفتئون حتى يكونوا من الأولين.

لذا لم تكتف كثير من الدول بما توفره سفاراتها وقنصلياتها من خدمات فجعلت المهاجرين والمهجرين من أبناء وطنها ممثلين في مؤسسات بلدهم التشريعية والتنفيذية وعملت لها على كل ما يثبت وطنيتها ويربطها بوطنها.

وقد كان علينا ونحن "نرمم ما أفسده النظام البائد" أن نتدارك ما مضى من إلغاء كثير من خيرة أبناء موريتانيا المهاجرين بإعادة الاعتبار إليهم، وتقوية مركزهم، وتحسين أوضاعهم، وإشراكهم في واجب بناء وطنهم الذي هم وغيرهم فيه سواء، وإسهاما في ذلك نذكّر بعدة قضايا أراها أساسية من أجل البدء في ذلكم الإصلاح المنشود:

- الخروج نظريا وواقعيا من المرحلة البائدة التي كانت مرحلة من عدم الثقة بين السلطة التي لبست لباس الدولة وتسمّت باسمها، والجاليات المتفرقة في أنحاء العالم؛ حيث كانت الجاليات - في أغلبها- إمّا معارضة أو مستقلة، وهو ما لم تكن ترضاه السلطة حينها، فقضت عليهم بالحرمان والتهميش المؤبد؛ فحرمتهم من أغلب حقوقهم وحاربت كل ما من شأنه أن يفيدهم أو يقوي مركز هم ؛ حتى إنّ السفارات كانت العقبة الكأداء أمام تنظيم الجاليات لنفسها وتكوين إطار جامع يعبر عنها مخافة أن يكون منبرا للمعارضة، أو للمطالبة بالحقوق التي كانت المطالبة بأبسطها كافية لإلقاء تهمة المعارضة القاتلة.(المرجع السابق: 45- 46)

- إعادة هيكلة الدبلوماسية الموريتانية، وتطوير العمل الدبلوماسي في جميع مستوياته؛ بدءا باختيار الأكفاء لحمل العلم الوطني في الخارج، مرورا بتوفير الخدمات وتقريبها من المواطنين، وانتهاء بالرقابة الصارمة وإزاحة المقصرين فيما ابتعثوا من أجله ومعاقبتهم إن اقتضى القانون ذلك.

- إعادة الاعتبار إلى الجالية المهاجرة وتمتيعها بكافة حقوقها السياسية التي حرمت منها طيلة العهد البائد؛ وهو مطلب عهدناه من قديم في مطالب جبهة أحزاب

المعارضة المشهورة، لكن- للأسف الشديد- غفل أو تغوفل عنه بعد سقوط النظام؛ فلم نسمع مطالبا بإشراكهم في العملية السياسية، ولم نرهم مشتركين في الجهود والمشاورات الممهدة للجمهورية الثالثة، اللهم إلاّ مشاركين يمثلون أحزابهم ومنظماتهم الخاصة ؛ وحتى وإن غابوا أو غيّبوا عمّا مضى من مشاورات، فلا ينبغي أن يغيبوا عن أنّ أذهان المشرعين وهم يدخلون التعديلات الضرورية على الدستور والقوانين المكمّلة له وخصوصا قوانين الأحزاب والانتخابات.

- مع أنّ دول المهجر وخصوصا دولة الإمارات العربية تلتزم ـ بنسبة ما ـ بتعليم أبناء المهاجرين فإنّ ذلك لا يعفي الدولة من التزاماتها الثقافية والتعليمية تجاه مواطنيها الذين يحتاجون إلى مكمّلات وطنية وثقافية في تعليمهم قد لا تكون متوفّرة في البلد المضيف، بل ولا يعفي منظمات المجتمع المدني والقوى الوطنية والمؤسسات السياسية والإعلامية من التزاماتها تجاه المهاجرين، إن لم يكن من باب الواجب فمن باب رد الجميل، وكلّنا يذكر باعتزاز البلاء الذي أبلاه المهاجرون من أجل الإصلاح والعمل الذي عملوه من أجل التغيير.

إنّ الهجرة كما لا تعفي الوطن من الاهتمام بمواطنيه، فإنّها كذلك لا تعفي المواطنين من التزام بعضهم تجاه بعض،والتزاماتهم تجاه وطنهم وأمتهم التي لها عليهم من الواجبات أكثر ممّا لهم عليها من الحقوق.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

5- الإدماج وفق النموذج الفرنسي:

بعد "مسيرة ناجحة" على مدى أكثر من قرن، يواجه "النموذج الجمهوري لعملية الإدماج" أزمة في هذه الأيام، إنّها الفكرة السائدة شعبيا التي يمكن تبينها من النقاش الدائر حول موضوع الهجرة. وفي أيّ حال فإنّ هذه الطريقة في إبراز التعارض بين الماضي(المزدان بكل الفضائل) والحاضر(القاتم والمقلق) لا "ترضي" المؤرخ. وبالتأكيد، فبمجرد العودة ثلاثة أجيال إلى الوراء يتبيّن أنّ قسما كبيرا من السكان المقيمين حاليا في فرنسا(وعلى الأرجح أكثر من الثلث) ينحدر من عملية الهجرة، وإنّ هذه الملايين من البشر قد "ذابت" تدريجيا في "المصهر الفرنسي". لكنّ الاستناد إلى هذا الواقع للقول بفعالية "النموذج الجمهوري" لعملية الإدماج، يعني ارتكاب خطأ في التحليل المنطقي يوصف بـ"الاستعراضية".

والانطلاق من الحاضر لتفسير الماضي، هو بطريقة ما إذكاء لتاريخ المنتصرين

على حساب المغلوبين، تاريخ أولئك الذين خلفوا في مرورهم أثرا على حساب المغمورين الذين لا صوت لهم. وأيّ تأمل جدي في الموضوع يجب أن يبدأ بالأخذ في الاعتبار واقعا بديهيا أكدته الدراسات العديدة الأخيرة، وهو أنّ غالبية الأجانب الذين هاجروا إلى فرنسا في الماضي لم يبقوا فيها. فقد عبّر عشرات الملايين من هؤلاء الأشخاص عن رأيهم في "النموذج الجمهوري" بالوسيلة الوحيدة التي تركتها لهم الجمهورية، أي الهروب في اتّجاه بلدان تحسن استقبالهم أكثر، فهم "صوّتوا بأرجلهم". وإذا كانت هناك رغبة في الإقرار بفكرة أنّ المرحلة الأولى من سياسة الإدماج قد قامت على استقبال الأجانب بكل احترام من أجل ترغيبهم في البقاء، يبقى من المحتّم الاستنتاج أنّ الجمهورية لم تبلغ هذا المستوى في الكثير من الحالات.

وحتى عندما يؤخذ في الاعتبار أنّ أقلية من المهاجرين قد استقرت نهائيا في فرنسا، فإنّ الحديث عن "النموذج الجمهوري لعملية الإدماج" يقود إلى التعتيم على البعد التنازعي والمؤلم في هذا التاريخ. لأنّ هؤلاء المهاجرون، إذ عزلوا في القطاعات الأقل قيمة من سوق العمل، متعرّضين في شكل فادح لحوادث العمل ومحرومين من أبسط الحقوق الممنوحة للمواطنين ومعانين من حالات كره الأجانب وتعرّضه للقمع البوليسي ولعمليات الطرد، هم دفعوا غاليا ثمن عملية اندماجهم. وكلمة "نموذج" قد توهم بأنّ الجمهورية كانت قد طرحت مشروعا سياسيا لإدماج المهاجرين، في حين أنّه خلال السبعينات والثمانينات لم تنظر أي من الحكومات في الموضوع قط. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر(**17م**) كان المهاجرون وأحفادهم قد ذابوا في المجتمع الفرنسي بدون أي تدخل من الحكومات والخبراء، ممّا يعني أنّ دور السياسة في هذا المجال، كما في حالات أخرى، كان محدودا أكثر مما يزعم في العادة.(مصطفى،ع.2001:27)

ويبدو من المفيد جدا إقامة المقارنة بين فرنسا والولايات المتحدة، وهما الدولتان اللتّان شهدتا حركة هجرة كثيفة خلال القرن العشرين(**20م**). فإذا ما ترصدنا مجرى عملية الإدماج على المدى الطويل(أي على مدى ثلاثة أجيال) نجد أنّها(خصوصا إذا ما قيّمت من خلال الحركية الاجتماعية، والممارسة الدينية والتعلق باللغة الأم) لا تختلف كثيرا بين البلدين بالرغم من كل الفوارق بين النظامين السياسين فيهما. وهذه المحصّلة تعيد إلى أذهاننا أنّ المهاجرين كانوا

الفاعلين الأولين في عملية اندماجهم التي جرت، في جزء مهم منها، في إطار النشاطات المحلية المشتركة متأثرة بعوامل عديدة، من الأصل الاجتماعي إلى الفرص المهنية المتاحة إلى الروابط العاطفية التي نسجت مع الوقت(أي الزواج المختلط).

كما أنّ الظروف لعبت دورها، فمنذ ستينات القرن التاسع عشر إلى سبعينات القرن الماضي كان كل طور من أطوار التوسّع يولّد موجات هجرة جديدة كان من شأنها "تسهيل" الحركية المتصاعدة للذين كانوا قد استقروا في البلاد من قبل، ومن شروط عمل هذه الآلية الاجتماعية ألا تضع الدولة العوائق وأن يعامل المهاجرون وأحفادهم مثل سائر السكان وإن لم يكن فورا فأقله ضمن مهلة قصيرة إلى حدّ ما. وفي الإجمال احترمت جميع الدول الديموقراطية التي شهدت حركة هجرة كثيفة، هذه المبادئ مما ساهم في "إنجاح" عملية إدماج مهاجريهم حتى وإن اختلفت الشكليات بحسب الحالات.

لكن نظرة أكثر دقة في أبعاده تبيّن أنّ مفهوم "النموذج الجمهوري لعملية الإدماج" يعني في النهاية الطريقة التي اعتمدتها "الدولة" الجمهورية في تطبيق المبادئ الأساسية التي تحكم المجتمعات الديموقراطية. ومن أجل فهم خصائص الحال الفرنسية يجب التذكير بالدور المؤسّس الذي لعبته الجمهورية الثالثة وفيها تركّز كل المشروع السياسي الذي جهد قادتها لتنفيذه في أواخر القرن التاسع عشر على دمج الطبقات الشعبية في **الدولة/الأمة**، وقد أمكن تحقيق هذا الهدف خلال بضعة عقود عبر نموذجين من عمليات الإصلاح.

فمن ناحية أولى، جرى تشجيع مشاركة الأوساط الشعبية في الحياة السياسية(مفهوم المواطنة)، وبذلك اكتسب العمال والمزارعون سلطة جماعية خوّلتهم التدخل في الحياة العامة وبفضلها تمكّنوا من الصمود بشكل فعّال في وجه التغييرات التي نشأت عن نمو الرأسمالية الصناعية كالنزوح عن الريف، ونشوء الطبقة العاملة، إلخ...

من ناحية أخرى، "شجّعت" الجمهورية الثالثة الانصهار الشعبي عبر تطوير سياسة "الحماية الاجتماعية" التي هدفت إلى التخفيف من الآثار المدمرة للتغييرات التي طرأت مع توسّع الرأسمالية. وبالتالي صار مجرد الانتماء إلى الدولة(أي الحصول على

الجنسية الفرنسية) يسمح بالتمتّع بالحقوق الاجتماعية. وقد جاء تنامي الهجرة(والعبارة برزت في تلك الحقبة في القاموس السياسي) كنتيجة مباشرة لتطبيق هذا النوع من الديمقراطية.

حتى نهاية الإمبراطورية الثانية، كان الانقسام على المستوى الاجتماعي، حيث التعارض بين جماعة الأعيان و"الطبقات الكادحة والخطيرة"، هذه الأخيرة لم تكن تتمتع عمليا بأيّ حق، وتاليا لم تكن هناك أهمية لكون الواحد من أعضائها "فرنسياً" أو"أجنبياً". وما إن بات الشعب يتمتّع بالحقوق السياسية والاجتماعية، صار من الضروري إقامة التمايز الجذري بين الذين ينتمون إلى الدولة الفرنسية والآخرين(في شكل عام الخاضعين لدولة/أمة أخرى). وهكذا جاء تصنيف الأجنبي سلبيا، فهو الذي لا يتمتّع بالحقوق الممنوحة لأبناء الوطن.(نظيف، م.2000 : 95)

ولفهم السبب الذي حمل الجمهورية على تطبيق هذا التمايز بدقة متناهية، يجب التذكير بأنّ الثورة كانت فكّكت جميع الاتحاديات والهيئات القائمة، كما منعت(أقله في عاصمتها) جميع أشكال التمييز الطائفي أو الاتني، إلخ...

وفي معظم الدول ظلت الانقسامات المناطقية والطائفية والحرفية قائمة حتى القرن العشرين، ولذلك أمكن توظيفها من جانب المواطنين الذين كانوا يناضلون من أجل الدفاع عن مصالح خاصة. أمّا في الحال الفرنسية، فقد تمّ في وقت مبكر تحديد "الوسيلة" التي منحت للإفراد لتعيين نقاط اختلافهم ولتغذية الشعور بالانتماء الجماعي، وذلك في مجالين واسعين هما الصراع الطبقي (أرباب العمل/العمال) والتمايز ما بين الوطني والأجنبي.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، أتت موجات الهجرة الكبرى تساعد في استثمار جميع الإمكانات التي وفرها هذا الانقسام. ولأنّ إمكانات المقاومة التي منحتها الجمهورية الثالثة للطبقات الشعبية لم تكن تسمح لأصحاب المصانع الكبرى بإيجاد كل اليد العاملة الضرورية على الأرض كي تتشكّل الطبقة العاملة من عمال المناجم والعمال المتخصّصين والزراعيين وسائر أنواع اليد العاملة التي تحتاجها البلاد، فقد تطلب الأمر "اختراع" فئة من الشعب محرومة الحقوق الاجتماعية الممنوحة للوطنيين، ولا يتوافر لها إمكان الاحتجاج جماعيا على القدر الذي رسم لها.

إذا، إنّ عملية دمج الطبقات الشعبية وإقصاء الهاجرين الأجانب هما وجهان لعملة واحدة. وأوضح دليل يمكن إعطاؤه من أجل فهم هذا الترابط العضوي يتعلّق بسياسة حماية سوق العمل التي انتهجت ما بين ثمانينات القرن التاسع عشر وثلاثينات القرن العشرين. عندما حظرت الدولة الجمهورية على الأجانب العمل في فرنسا بدون ترخيص رسمي إنّما هي أمنت لنفسها وسائل تنظيم موجات الهجرة، ومنع دخول المهاجرين أراضيها في فترات الركود، وتوجيه جماعات المهاجرين نحو القطاعات المنتكسة والحد من المنافسة في القطاعات التي يفضلها أبناء الوطن. وفي المرحلة نفسها جرى تعزيز هذه السياسة بسلسلة من الإجراءات كان من شأنها توسيع "وظيفة الدولة" بطريقة سمحت بمضاعفة عدد الوظائف المخصصة للفرنسيين.

ولأنّ الانقسام ما بين وطني وأجنبي قد احتل نقطة مركزية في نظام التمييزات الجمهوري، يفهم عندها لماذا كانت قضية الجنسية الفرنسية على الدوام رهانا سياسيا حساسا. فالقانون الصادر في العام **1889م**، والذي حدد الخطوط الكبرى للقانون الحالي في هذا المجال، قد لعب دورا مهما في إدماج المهاجرين عبر السماح لهم بأن "يصبحوا فرنسيين" بسهولة أكبر من ذي قبل. لكن من الخطأ النظر إلى هذا التشريع على أنّه تنفيذ اختياري لسياسة الإدماج.

في الواقع أكانت كل هذه السياسة في خدمة المصلحة الوطنية، فأزمة الجنسية والاعتقاد المتجذر لدى الزعماء بأنّ قوة الدولة هي رهن بحجم سكانه، والرغبة في زيادة عدد المجنّدين، كلّها هي الأسباب الرئيسة التي دفعت الزعماء الجمهوريين إلى إبقاء أبواب الجماعة الوطنية مفتوحة إلى حدّ ما. وفي الوقت ذاته، أدخلت هذه التشريعات الجمهورية أشكالا قانونية عززت القدرة على إقصاء هؤلاء الفرنسيين الجدد. منذ العام **1889م**(وحتى أوائل ثمانينات القرن الماضي) أصبح هؤلاء المتطبعون مواطنين من الدرجة الثانية، وقد فرض عليهم تمضية فترة "تدرّج" من عشر سنين قبل منحهم المواطنية الكاملة.

وبعد ذلك بات الانقسام ما بين وطني وأجنبي وسيلة أيضا للتفريق بين فئات متعددة من الفرنسيين. وهكذا، أدخلت الجمهورية نظاما تمييزيا قائما على "الأصل القومي"، هو الذي فتح الثغرة التي تسلل منها مؤيدو الماريشال بيتان من أجل تنفيذ

خطتهم القائمة على كره الأجانب والعداء للسامية.

كما أنّه لا يمكن فهم "النموذج الجمهوري للإدماج" إذا نسينا أن نذكّر بأنّه وليد عملية بناء الدولة/الأمة. فالجمهورية الثالثة، وعبر "فصلها" الدقيق بين الوطنيين والأجانب قد تسبّبت في بروز رهان جديد في الصراع الذي تواجهت فيه الأحزاب المحافظة واليمين المتطرف (دعت إلى تعزيز التمييز إزاء الأجانب باسم المصلحة الوطنية) والأحزاب التقدمية(جهدت للحد من أشكال التمييز هذه باسم حقوق الإنسان). وعلى مدى القرن العشرين، كانت السياسة الجمهورية في مجال الهجرة رهينة ميزان القوى بين هاتين النزعتين. وفي جردة سريعة لهذه القصة يمكن الاستنتاج أنّه كان من شأن كفاح المنظمات التقدمية وتدويل المبادلات وتعميم القيم الإنسانية في المجتمع والحد من أشكال التمييز إزاء الأجانب من دون أن تقضي عليها نهائيا.

لكن أشكال التمييز هذه، مالت في الوقت نفسه إلى التفاقم بالنسبة إلى الأفراد المنتمين إلى "الجيل الثاني"، فأبناء المهاجرين هؤلاء هم أبناء الطبقة العاملة الذين جندوا بكثافة خلال سنوات الازدهار، والكثيرون منهم ولدوا في فرنسا وحصلوا على الجنسية الفرنسية لكنّهم ظلوا ينتمون في شكل عام إلى الوسط العمالي، وعلى هذا الأساس تلقوا "صفعة قوية" نتيجة التغييرات الاجتماعية التي نتجت من عولمة الرأسمال، والمشاكل التي تواجهها عملية إدماجهم توضح الصعوبات التي تعيشها اليوم الطبقات الشعبية في مجملها. حيث هناك قسم من الشباب المنحدر من الهجرة يعاني بحدة متميزة آثار هذه الأزمة.(المرجع السابق: 101- 103)

إنّ التغييرات العميقة التي شهدها المجتمع الفرنسي منذ الخمسينات، وعلى الأخص بروز فئة اجتماعية وسيطة ما بين الحداثة وسن البلوغ ("الشباب" ما بين **15** و**25** من العمر)، ثم تضاعف المجموعات الكبرى والمناطق المدينية الشعبية جعلت "الجيل الثاني" بارزا أكثر في الحيّز العام. أضف إلى ذلك أنّ الخطاب الإعلامي يركّز على عنصر أوحد من هذه الجماعات، هم الشباب المنحدرين من هجرة المغاربة. هذا القسم من شلب الطبقة العاملة، وإذ يُنعت على الدوام بأصله الاتني وبديانة معظمهم لا يمارسها وبرهانات سياسية دولية لا تعنيه أكثر من سائر

الفرنسيين، هو ضحية عملية تمييز إن لم تكن قانونية، فهي إدارية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

هؤلاء الشباب يمثلون إلى أقصى درجة المواصفات الاجتماعية الخاصة بكل من هم من "الجيل الثاني". فحجم الهيمنة البالغ الذي عانى منه أهلهم من دون أن يتمكنوا من الاحتجاج ومختلف أشكال الرفض التي يعيشونها يوميا، تولّد لديهم رغبة عميقة في نيل الاعتراف(وتاليا الاندماج). لكنّهم في الوقت نفسه في حاجة إلى التعبيرعلنا عن رفضهم هذا العالم الذي يكرههم ويهملهم، وما التصرفات العنيفة التي تعمد إليها شريحة من هذا الشباب سوى انعكاس في آن واحد لاندماجهم في الوسط المحلي الذي هولهم(المدينة) ولرفضهم تقبل القدر الذي رسم لهم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خاتمة:

تدور مقولات الخبراء حول "عملية إدماج المهاجرين" أكثر فأكثر في الفراغ. ففي إمكان المناضلين الراغبين في التخلي عن "الفكر الأحادي" أن يستفيدوا من منجزات الأبحاث التاريخية والاجتماعية للبحث في مشروع سياسي لا يكون الهدف منه حرمان الناس التعبير والتصرف بذريعة "إدماجهم" في النظام البرجوازي، بل يكون قادرا على تطوير بنيات جديدة للعمل الجماعي بما يسمح بالتعبير بطريقة مبتكرة عن الطموحات الشعبية إلى الاندماج والحرية.

أخيرا إن تحقيق شعار حرية الهجرة مقابل حرية التجارة سيؤدي أولا إلي تساوي عائدات العمل في العالم مما سيقلل من لا تجانس الطبقة العاملة ثانيا. فالبشر لهم الحق الطبيعي في البحث عن الفرص الأفضل في الحياة, ومنعهم من التنقل والهجرة عبر الحدود القومية هو حرمانهم من هذا الحق, وهذا الحرمان نفسه هو ما يسقطهم ضحايا لعصابات تجارة الرقيق الحديثة بعد أكثر من قرن ونصف علي إلغائها. وفي حين يسمح للسلع ورؤوس الأموال بالعبور عبر الحدود بلا قيد ولا شرط, لا يسمح للبشر بما يسمح به للسلع, في حين أن العمال لا يملكون سوي قوة عملهم, وهي السلعة التي تخلق باقي السلع والقيم المضافة للسلع وخالقة رأس المال نفسه, فلماذا لا تعامل كباقي السلع, ويتاح لها فرص التنقل عبر الحدود، ألا يعني هذا ترسيخ عدم المساواة في العالم؟..

المراجع

(1)- بيونكو، لوسيا(2003)، وضعية المهاجرين، ط2، (تر.محمد عماري)سردينيا: دار نشر غروبو.

(2)- نظيف، محمد(2000)، استعمار الكفاءات الوطنية، سردينيا: دار نشر كالياري.

(3)- عمر، مصطفى(2001)، هجرة الأدمغة المغربية، وجدة: منشورات كلية الحقوق.

(4)- خاشاني، محمد(1999)، الهجرة والمواطنة، الرباط: منشورات كلية الحقوق.

الاغتراب المتعدد في موسم الهجرة إلى الشمال

بشير خليفي،

قسم الفلسفة، جامعة معسكر.

لا يمكن لأي رواية أن تخلو من موقف فكري، تعبر من خلاله ع ن فلسفة ما، وعلى صعيد الكتابة إنها بحاجة إلى تصميم مسبق إن على مستوى " خارطة الطريق " التي يتبناها الكاتب أو على مستوى الإيحاء المستمد من التراث الفكري والفلسفي المجتبى من لدن الكاتب نفسه.

في فلسفة الأدب

حينما نمعن النظر في طبيعة الفلسفة والأدب قد نلمح افتراقا على مستوى الموضوع والصياغة دون أن يحيل ذلك إلى التباعد إذ أن الاختلاف لا يعني بالضرورة التضاد أو التناقض (Dumoulie. C: 2002: 5).

فالطرح الفلسفي مبني على التأمل والمنطق الذي يحضر بالشكل الذي يؤسس فيه لمنهج الاستدلال في حين يهتم الطرح الأدبي بجمالية البلاغة والأسلوب ويعتني فيه بالعاطفة والخيال. بيد أن المدونة الفلسفية المعاصرة خصوصا، وفي كثير من أبجدياتها قد أعلنت محيى كل الفواصل التي كانت تفصل الفلسفة عن المعرفة الإنسانية بما في ذلك الأدب، بل وخصوصا الأدب المؤسس على النقد وهذا ما يمكن أن نلمحه في تفك يكية جاك دريدا و نيوبراغماتية ريتشارد رورتي، وكذا من خلال الدعوات التي تحث الفيلسوف أن يكون علىإطلاع بما تمده.(Hondrich. 925: 2005 : T)المعرفة الأدبية

والواقع أننا حينما نتأمل المؤلفات الفكرية عند أولئك الذين جمعوا بين الهاجس الفلسفي وغواية الأدب كحالة التوحيدي، سارتر و زكي نجيب محمود إضافة إلى نجيب محفوظ وآخرين فإننا قد نلمح في أغلب الأحايين اختلافا على مستوى الطرح والأسلوب في المؤلفات الفلسفية بمقابل المؤلفات الأدبية، فالاحتراف الفلسفي ظهر عند جون بول سارتر في كل من الوجود والعدم ونقد العقل الجدلي بمقاب ل ذلك تجلى الأدب في مؤلفات أخرى.

كما يمكن الحديث عن اتساق يحيل إلى لغة جديدة تحاول "أن تعقد الصلح بين صراع البلاغة والمنطق"، وذلك بتجاوز كل التخوم التي تنحو باتجاه التأسيس،

خصوصا وأن تحليل الخطاب الفلسفي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتجاوز خصوصية التوليف اللغوي، ولا يمكنه أن يقفز على البلاغة و الاستعارات وكذا الخورقات أثناء الكتابة أو التعليق والترجمة، ومن ثمة يعطي بعض الفلاسفة الجدد أهمية بالغة للرواية كحالة سرد قادرة على استيعاب فروع عديدة من المعرفة (Gray. M: 1988 : 141)، خصوصا من منظور حيازتها على الفلسفة وكذا اعتبارها موضوعا لها، إذ الرواية تطرح فلسفات الشخوص، كما أنها نتاج تفكير وهي شكل من أشكاله، فالوثيقة الأدبية يمكن أن تدخل في حيز الدراسة الفلسفية كمعلومة فكرية في ضوء ما يسمى ب " تاريخ الأفكار " (Wellek, R:1985:111).

موسم الهجرة : إطلالة أولى

بروايته المتميزة " موسم الهجرة إلى الشمال " يسجل الطيب الصالح اسمه كواحد من القامات المعرفية، الأمر عائد بالأساس إلى الاحتفاء الذي إنوجد لدى كثير من النقاد والقراء على حد سواء وهم يستقبلون هذا المنتوج بهذا العنوان المتفرد.

فحين يطرح العمل الروائي على نفسه مهمة هندسة الوقائع من خلال خطاب أدبي يؤسس في عمقه لصرامة الفكر في التعبير عن إشكالات معرفية وفلسفية، يقع على القارئ العبء الأول في اكتشاف الكنه المتجدد من خلال القراءات المتعددة والاستشكالات المستنتجة.

وكانت الرواية مفاجأة ومفاجئة، إذ أنها لا تكتفي بالسرد وإنما تتضمن فكرا وهنا تكمن الأهمية، بل يمكن القول بأنها خطاب فلسفي في أساسه يتزيا بلبوس الأدب، متخذا إياه " مطية مطواعة " تيسر نقل الإشكالات المعرفية من فجاجتها وانغلاقها التقني الصارم إلى إعطائها نفسا تحيا به في ضوء الحراك الذي تمده الشخوص المجسدة.

الطيب الصالح : السيرة والمؤلفات

الطيب محمد الصالح أحمد من مواليد مركز مروى شمال السودان عام1929، تلقى تعليمه الأول في واد سيدنا وكذا بكلية العلوم بالخرطوم، مارس التدريس ثم سافر إلى لندن حيث عمل هناك في هيئة الإذاعة البريطانية تحديدا بالقسم العربي

كما اشتغل مديرا إقليميا في منظمة اليونسكو بباريس، وممثلا لليونسكو في منطقة الخليج العربي، وعمل أيضا مديرا عاما لوزارة الإعلام والثقافة في دولة قطر (1984 – 1989).

من مؤلفاته : عرس الزين (1962)، موسم الهجرة إلى الشمال (1966)، دومة ود حامد (1985)، المنسي إنسان نادر على طريقته (2004). توفي الطيب الصالح بلندن في 18 فيفري 2009.

موسم الهجرة : إطلالة على الدلالة

موسم الهجرة إلى الشمال (Season of Migration to the North) ثاني رواية صدرت للطيب الصالح سنة (1966)، طبعت في دور نشر عديدة بما في ذلك الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة (1970) في حوالي 156 صفحة من الحجم المتوسط.

دلالة العنوان تحيل إلى هجرة الأدمغة التي انتشرت خصوصا بعيد حصول معظم الدول العربية على استقلالها.

فالإحالة هنا واضحة : انتهى موسم الهجرة إلى الجنوب ليبدأ موسم الهجرة إلى الشمال، والشمال أوروبا والدول المتطورة، وما يحمل ذلك من دلالات واستشكالات وجودية ومعرفية.

موسم الهجرة : الاغتراب المتعدد

تبدأ الرواية بعودة مغترب سوداني (الراوي) من لندن بعد إكمال دراسته التي استغرقت سبع سنين، وكله حنين إلى الأهل والبلد، في أمسية اليوم الأول ضج حوله الإخوة والأحباء، بينما جاءت أمه حاملة صينية الشاي، وفي إطار هذه الجلسة الحميمية جلس الجميع يرتشف ويتحدث.

كان الراوي يدرك أن التغير خاصية الأشياء فوجد أن قريته الواقعة قرب ضفاف النيل وإن تغيرت بعض ملامحها إلا أنها مازالت ترفل بأريج المكان، فالنخلة ذاتها التي تذكره بأصله لازالت قرب المنزل، وجريدها الأخضر المتهدل فوق قامتها يوطن الراوي تحت أمداء السكينة.

كما التقى الراوي بأهله وأهل قريته فغاب عنه الكثير إما لموتهم أو لحداثة المعرفة بهم ومن بين هؤلاء كان مصطفى سعيد.

كان اللقاء سريعا خلف وراءه إستفهامات عديدة لم ت برح عقل الراوي، وقد تأجج الاستشكال حينما دعي الراوي ذات مساء إلى مجلس شراب، وكان

مصطفى سعيد حاضرا، أفرغ مصطفى سعيد في جوفه كؤوسا من الخمر أحدثت له انتشاء، وطفق يردد شعرا إنجليزيا بلكنة لندنية.

تأجج فضول الراوي لوقع انبهار ألم به من جراء سماع هذه اللغة في ق ريته المنسية، فعقد العزم أن يعرف.

بعد الاستفاقة توطدت العلاقة، ودعا مصطفى سعيد الراوي ليخبره عما تخفى، وكان الحديث بداية من النبوغ حينما اختصر مساره الدراسي بسبب عبقريته ليتجه كهجرة أولية من الخرطوم إلى القاهرة ثم إلى لندن ليصبح أستاذا محاضرا في الجامعة، وهنا تبدأ الغرابة.

إذ شكل مصطفى سعيد عنصر الجذب لثلة من النساء الانجليزيات الباحثات عن المغامرة مع الرجل الزنجي القادم – بحسبهن – من الأدغال والذي تحيل سحنته إلى اللون الحاصل من الصهر والارتماء في النار...

أصبحت هاتيك النسوة اللواتي يعبقن أريج البخور والعطور العربية في غرفة نومه مريضات بهذا الرجل ذو السحر القاتل والذي يحيل في نسخة معدلة إلى ألف ليلة وليلة.

وبالفعل كانت النتيجة انتحار ثلاثة منهن : فتاتين هما آن همند و شيلا غرينود وسيدة متزوجة هي ايزبيلا سيمور.

فالأولى طالبة مولعة بسحر الشرق وماضيه الأسطوري لذلك كانت تطمح إلى الزواج الحضاري بين العرب و أوروبا.

والثانية عاملة في مطعم صاحبة فلسفة إنسانية تمحو بين الطبقات والأجناس استدرجها مصطفى سعيد إلى فراشه مستغلا فلسفتها.

والثالثة سيدة متزوجة مصابة بالسرطان فاض من عينيها حنان مسيحي على طفل يتيم، انتحرت لأنها أدركت بأن مصطفى سعيد دونجواني يلبس كل حالة لبوسها حتى "يوافق شن طبقته".

بالمقابل وجد "جين موريس" امرأة من معدن آخر، إذ كانت عصية فلم يتمكن منها، فقد اعتبرته ثورا همجيا لا يكل من المطاردة ولم تتوان في كل مرة من إسماعه كلمات قاسية كان آخرها :" إني لا أتصور أن تكون أيها الأسود الحقير زوجا لي" (الطيب الصالح : 52، 1979).

جين موريس على نقيض الأخريات شكلت له أرقا لم يتطهر منه إلا في ليلة الصدق و المأساة حينما غرز في صدرها خنجرا ليتدفق سائل احمر معلنا نهايتها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

... وبعد قضائه في السجن بضع سنين، عاد مصطفى سعيد إلى موطنه الأصلي السودان، ليستقر في قرية واقعة على ضفاف النيل ومن دون أن يعرف سكان القرية تاريخه استأنسوا به، حينما لاحظوا دماثته و عفته، إذ كان يحضر الصلوات الخمس في المسجد بانتظام ... فتزوج حسنة بنت محمود التي أمدها بكثير من الاحترام و وجد فيها الخليلة و الحليلة التي أغدقت عليه الحب.

وفي نوع من الغموض مات مصطفى سعيد و هو يتوسط مياه النيل، تاركا وصية الاعتناء بالزوجة و الأبناء للراوي.

أراد "ولد الريس" أحد وجهاء القرية أن يتزوج أرملة مصطفى سعيد التي التزمت بالرفض في البداية إلا أن ضغط الأقربين أكرهها على القبول.

حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ في ليلة الدخلة قتلت حسنة بنت محمود "ولد الريس" بطعنات مميتة، رافضة بذلك أن تكون لغير ذكرى زوجها الذي وصفها بالسخاء، حينما أشار إلى عينيها الحوراوين النجلاوين التي يمتزج فيهما الحزن بالحياء.

لكن السخاء – هذه المرة – كان في المعنى المعاكس، إذ لم تبخل نفسها بالموت، فأنهت حياتها بطريقة يصورها الكاتب بمأساوية رهيبة

موسم الهجرة : الاغتراب الدائم

لقد شكلت رواية موسم الهجرة للطيب الصالح سبقا روائيا، أعلن من خلاله عن ميلاد "عبقري الرواية العربية" (محمدية سعيد : 78.1984) رغم أن الروائي لطالما رفض الاحتفاء بهذا المنجز قائلا بأن ذروته الفنية لم تكتمل بعد و أنه لم يقدم كل ما يريد.

فمن خلال "الموسم" يتضح أن الكتابة الروائية عند الطيب الصالح تمتح من فضاء معرفي واسع يظهر إلمامه بالتراث، ففي كل مرة يشير الروائي إلى أنه قارىء نهم للكتابة ا لتراثية، وفي الضفة الأخرى يثري زوادته المعرفية بالفكر المعبر عنه باللغة، إذ أن استقراره في لندن مكنه – كما قال – من الإطلاع على الاختراعات الفكرية و المنجزات الثقافية.

الواقع أن رواية موسم الهجرة لم تعبر عن موسم واحد، في إحالة لتاريخ محدد فرغم أن كتابته ا تعود لسنوات خلت، إلا أن الإشكالات المعرفية التي طرحت في زمن الكتابة لا زالت مبسوطة إلى اليوم خصوصا ما تعلق ب "الاغتراب العلائقي مع الآخر"، هذا الأخير الذي غالبا ما يصنف العربي من منطلق حمولة فكرية مسبقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تربطه إلى جوار الحب الشديد للذائذ و الميل نحو الخر افة، كما تشير البشرة السوداء في نفس الحمولة تقريبا إلى البلادة الشديدة التي قوبلت بالغضب و الحقد المرير وكانت النتيجة قرونا من التعذيب والإهانة

مشكلة " الاغتراب العلائقي بين الشرق و الغرب " ليست جديدة فقد أثيرت مع سهيل إدريس في الحي اللاتيني و يحي حقي في قنديل أم هاشم، وكذا توفيق الحكيم في عصفور من الشرق.

بيد أن رواية موسم الهجرة إلى الشمال فاقت كل التوقعات بسبب شهرتها الكبيرة، المسألة عائدة بالأساس إلى أن كاتبها مفكر قام بهندستها بالشكل الذي تثير معه إشكالات أدبية ومعرفية بالأساس، هذا زيادة على الحبكة ال فنية وعلى القاموس اللغوي الذي يتسم بالفرادة.

كما يتمظهر الاغتراب في رؤية الفتيات الانجليزيات لمصطفى سعيد من منطلق الاستغلال البعيد عن الحب المبني على الندية والتضحية المتبادلة، فالعلاقة كانت حسية تشير إلى هوس عاطفي، أو جنسي بالأساس من خلال النظرة لمصطفى سعيد كمظهر للقوة البدائية الوافدة من إفريقيا.

بينما يتمظهر الحب عند حسنة بنت محمود بوصفه طاقة إنسانية خلاقة وكأن الكاتب أراد أن يقول – فيما لم يقله – بأن الجنس يستحيل إما لقوة حيوانية جامحة تؤدي إلى الهلاك أو إلى وسيلة توصل للخصب والنماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مشكلة مصطفى سعيد تك من أساسا في اغترابه حيث وجد عسرا في إحداث الندية وتقبل الغرب له حتى بوصفه مدرسا شابا للاقتصاد، فلم يجد بدا إلا من استعمال لغة الجسد من خلال القول : " لقد جئتكم غازيا ... " (الطيب الصالح : 1979، 73).

والمعنى هنا يتضح في التجاوز الحضاري الكبير بين الشرق والغرب وفي إمكانية إحداث الانتقام إما بالجنس في لحظة الشبق أو بالسادية أثناء القتل

وتنتهي الرواية بأن اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب مآله الفشل الشديد نظرا للإرث الحضاري الموجد للاغتراب والذي يتمظهر في الغالب بوصفه عائقا أبديا، في ضوء الصور النمطية التي يح تفظ بها كل طرف عن الطرف الآخر، فالعربي غالبا ما يعبر عنه بأنه زير نساء، خاطف طائرات، حارق أعلام، واضع متفجرات بينما الآخر مستغل، متعجرف غير قمين بالثقة.

لقد تزي الطيب الصالح بالرمز والأسطورة والتاريخ في نقل أفكاره وهي إشارة حسنة من خلال إعادة النظر في هذه العلاقة، والدعوة إلى التحول من سلبية المفعول إلى حيوية الفاعل ليس بالجسد فقط وإنما بالأفكار المنتجة التي أشار إليها الكاتب من خلال العودة إلى الينابيع والمظان الأولى وذلك بتجسيد الموقف الحضاري في الارتباط بالأرض عن طريق الزراعة أولا وكذا التعلق بمياه النيل كرمز للنماء، إضافة إلى إعادة الاعتبار للتواصل الاجتماعي مع سكان القرية، مع الإشارة إلى أن قتل " ود الريس " يحيل أيضا إلى وأد الأفكار البالية والفكر المنغلق الذي يكبل عقل الإنسان ويمنعه من الانعتاق والتحليق.

في معضلة الاغتراب : مقاربة أخيرة

تعد رواية موسم الهجرة إلى الشمال من الروايات الإشكالية التي يمكن للدارس أن يتوقف فيها معالجا بالبحث والاستقصاء عدة إشكالات معرفية، تبقيها نصا مفتوحا يدرأ كل قراءة تدعي الفهم الكامل

الواقع أن مصطفى سعيد عاش محنتين أساسيتين : في الداخل حينما ظل مهاجرا على مستوى النفس با حثا عن لحظة صفاء يعلن من خلالها الانتصار، وعلى مستوى الخارج كحالة تيه في المكان لشخصية تنقلت من الجنوب إلى الشمال حاملة معها غربتها وقلقها الوجودي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعضلة في اغتراب مصطفى سعيد أنه معبر عن حالة التيه والحيرة التي تكبل الإنسان العربي وتجعله غير قادر على المج اراة من منطلق تلك الحمولة التاريخية التي يحوزها الغرب عن الشرق والتي تبقى عائقا أمام كل محاولة للتعايش

كما يعبر أيضا عن لحظة إجهاض مستمرة لنماذج اجتماعية واسعة يعبر عنها مصطفى سعيد في عدم قدرته على التعبير عن المواطنة بمعناها العضوي وذلك في ضوء اتجاهه نحو الانتقام.

لتكون نتيجة الاتصال الحضاري فشل ذريع، يضفي على الغربة – غربة المكان – سواء في لندن أو في القرية السودانية إحساس الضياع الذي ينحو كمنحنى دالة جيبية، ولن يتباعد هذا الإحساس عن الاغتراب بالمعنى الذي يحيل في لحظة أولية إلى المكان والنفس، بالنظر إلى طبيعة الاعتبار المتبادل، وهي النظرة التي ترهن وضع مصطفى سعيد وتبقيه خارج إطار الندية.

وهذا ما يمكن ملاحظته بحدة عند العقول المهاجرة التي غالبا ما تعيش في " منزلة بين المنزلتين " فلا هي استطاعت الاندماج عند الآخر الذي يسعى للحفاظ على

هويته، ولا هي تمكنت م ن الأوبة إلى المظان الأولى بالشكل الذي يحقق لها اندماجا مريحا.

والواقع أن الإنسان يهجر موطنه الأول لأسباب عديدة، يمكن التعبير عنها في لفظتي : طلب وهروب، طلب للعلم أو للثراء أو لهما معا، وهروب من تهديد أو عوز و مسغبة.

كما تعد – أقصد الهجرة – من أصعب القرارا ت التي يتخذها الإنسان الذي يترك الأماكن التي شهدت طفولته وذكرياته بمقابل وضع جديد، وهي الحالة التي عاشها مصطفى سعيد – كما قال – حينما " ترك الأهل والأحباب والدور الفسيحة والتواصل الاجتماعي ليجد نفسه داخل غرفة صغيرة، في بلد غريب بين قوم غرباء " (الطيب الصالح :1979، 29).

فالبعد الزماني واضح المعالم في صياغة " الموسم " الذي لا يحيل إلى " كل المواسم "، وعلى مستوى المكان فإن " الشمال " اعتبر مقصدا من خلال تحقيق الغايات التي لا يحوز عليها " الجنوب "، والتي يمكن تلخيصها في (نا) المتكلم بمقابل (هم) كمعبر ع ن الآخر المعني بالاتصال أو التجاوز.

وهي في نهاية المطاف رحلة اغتراب دافعها التملك، إذ أن الصراع برمته مبني على هذه التيمة، على مستوى الانتماء الذي يصير معه الوطن مركزا للحركة (يمنى العيد : 1981، 105)، ويزداد الوضع حدة خصوصا مع مصطفى سعيد الذي تغيب حياته "بغربة القارئ" حينما لا يدرك هذا الأخير سر النهاية.

وهي إحالة أيضا إلى ثنائية القوة والضعف المؤججة لهذا الصراع، على المستوى الحضاري الذي كانت فيه المعادلة لغير صالح مصطفى سعيد من جراء تراكمات تاريخية أفضت إلى الترويج لفكرة ارتباط الحضارة بالشمال، وكذا ع لى المستوى الجنسي كحالة بديلة بتجدر بها الانتقام ويصل بها الاغتراب أوجه، هذا ما أبانت عنه عبارة مصطفى سعيد الشهيرة " لقد جئتكم غازيا ... " (الطيب الصالح : 1979، 73).

أخيرا

من خلال روايته المتميزة أراد الطيب الصالح أن يغوص في نفسية الإنسان بلغة بسيطة وراقية أخاذة في غاية النقاء بعيدا عن الثرثرة والخطابية المقيتة، بيد أن جمالية الرواية تكمن في قابليتها المتعددة للقراءة من منطلق حملها لأفكار عديدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولعل الفكرة الظاهرة التي يحيل إليها العنوان هي سؤال الهجرة بكل تجلياته وتعقيداته، والذي يعبر في أوج حدته عن الا غتراب كحالة ملازمة للبعد الحضاري المفقود، والتي عبر عنها الطيب الصالح في شخص مصطفى سعيد " المثخن " بالرمزية التي تحيل إلى اغترابه المتعدد في مستويات متعددة لعل أبرزها : " الوطن، الحضارة و الجنس...".

قائمة المصادر و المراجع

أ- بالعربية :

1- الطيب الصالح 1979)، موسم الهجرة إلى الشمال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط.

2- محمدية أحمد سعيد وآخرون 1981)، الطيب الصالح عبقري الرواية العربية، دار العودة، بيروت، ط3

3- يمنى العيد 1981)، تملك الوطن ومعادلة الجنس والحضارة ، معاناة في التاريخ في رواية: موسم الهجرة إلى الشمال، (مقال) مجلة الطريق، عدد خاص بالرواية العربية 3 4)، بيروت.

ب- بالإنجليزية :

1- Gray Martin (1988), *A Dictionary of Literary Terms*, Longman York Press, Beirut, 2 Edition.

2-Honderich Ted (2005), *The Oxford Companion To Philosophy*, Oxford University Press, New York, 2 Edition.

3- Wellek Rene and Wareen Austin (1985), *Theory of Literature*, Penguin Books, UK, 3 Edition.

ج- بالفرنسية :

1- Dumoulie Camille (2002), *Littérature et Philosophie*, Armand Colin, Paris, 1 Edition.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهجرة والإدماج والترجمة

قراءة تحليلية للفصل المترجم من كتاب "أوليري"-"مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب" من ص 233 إلى ص263، ترجمة: الدكتور تمام حسن، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية.

حمادي هواري،

قسم الفلسفة، جامعة معسكر.

مقدمة :

إن الفلسفة أو الثقافة الإسلامية إذا أردنا التوضيح أكثر، لم تصل إلى درجة التطور الذي أدركته سابقا، ولاسيما في عصورها الذهبية، إلا بفعل عوامل ترتكز أساسا على الاحتكاك بالثقافات الأجنبية أو الخارجية، حيث لا نستطيع إنكار وجود أفكار فارسية ويونانية ويهودية اند مجت وامتزجت بها في ميادينها المختلفة العلمية والأدبية والفلسفية، وهو ما يدل على احتكاك المسلمين بالأمم الأخرى، ويبين أهمية الاستفادة من معارف وتجارب الآخرين كما كان في الماضي، وكما نحن في حاجة إليه اليوم.

إدراكا منا لهذه الحاجة التي ذكرناها آنفا حاولنا في مقالنا هذا بيان أهم الطرق التي وصلت بها تلك الثقافات والمعارف إلى المسلمين في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية ، ألا وهي الترجمة، وعيا منا بأهميتها ماضيا وحاضرا ومستقبلا في بناء الازدهار الحضاري، فقد توصل المسلمون في العصر العباسي إلى أرقى درجات التطور في شتى الميادين بعد حدوث التلاقح الثقافي بين ما هو محلي وما هو أجنبي خارجي، الذي ك ان من المؤثرات الهامة في بناء مزيج من الأفكار العربية والأجنبية المتطورة، هذه الأخيرة لم تكن لتصل لولا كوكبة من المترجمين الذين هجروا بلدانهم الأصلية واستوطنوا البلدان التي قصدوها بعد الرعاية والحماية التي تلقوها من الخلفاء الذين أولوا اهتماما بالغا للمترجمين الوافدين وجعلوهم من المقربين منهم إدراكا منهم لقيمتهم في نقل التراث الأجنبي الذي كان من العوامل الحاسمة في ازدهار الحضارة الإسلامية آنذاك ، باعتبارهم قد ساهموا في نقل أفكار متن وعة لم تقتصر على الفلسفة اليونانية فقط بل تجاوزتها إلى معارف في شتى العلوم تتعلق بالطب والفلك والطبيعيات..الخ.

انطلاقا مما سبق حاولنا في مقالنا هذا التأكيد على أهمية الاحتكاك بالثقافات الأجنبية اليوم في بناء الازدهار الحضاري والثقافي الذي لا يتحقق إلا

بوجود علاقة وطيدة بين عناصر ثلاثة سنحاول أن نفهم من خلالها إدراك فعالية الهجرة في تحقيق حضارة راقية عرفها المسلمون في العصر العباسي بعرض أحد الأنشطة الهامة آنذاك في الحقل المعرفي والثقافي ألا وهو الترجمة، أولها الهجرة كحراك اجتماعي لأشخاص وأفراد من بلدانهم الأصلية، ولاسيما من المدن الفارسية التي نشئوا فيها إلى بلاد جديدة هاجروا إليها وهي دولة الخلافة العباسية، وثانيها هو استقرارهم في كنف الوطن الجديد وتفاعلهم مع السكان المحليين واندماجهم في الثقافة الإسلامية وهو ما ترتب عنه عملية تفاعل بين الثقافات الوافدة والمحلية، وثالثها هو أحد أهم النتائج المترتبة عن هذا التثاقف وهو حركة الترجمة التي تعتبر أهم الأنشطة التي وقفت وراء التطور والتحضر الذي عرفه المسلمون آنذاك.

هذه الأهمية التي كانت ولازالت تكتسيها الترجمة في تاريخ الحضارات البشرية، ولاسيما الحضارة الإسلامية دفعتنا إلى القيام بدراسة تحليلية أو قراءة لفصل من جملة ثلاثة عشرة فصل التي يتكون منها كتاب "مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب" تحت عنوان - الترجمة إلى العربية- نظرا لعلاقته الوطيدة بموضوعنا المطروح المتعلق بصورة أدق بنشاط المترجمين الوافدين إلى الشعوب الإسلامية، ودورهم الفعال في الازدهار الذي عرفته الحركة العلمية والثقافية آنذاك، ومن ناحية أخرى نتوخى إدراك الأهمية التي تكتسيها الترجمة في تطور الشعوب العربية اليوم، فنحن لا نسعى إلى مجرد بناء لتحليل تاريخي لحقبة من العصور الإسلامية من خلال قراءتنا لهذا الفصل، بل هدفنا الأسمى هو إدراك فعالية الهجرة كحركة، والاندماج كنتيجة لها خلال عصر من أهم عصور الحضارة الإسلامية انفتاحا وتطورا، من أجل الوعي بأهمية الثقافات الأخرى في تطورنا اليوم، بعيدا عن روح التعصب للثقافة المحلية، ونكران فعالية العامل الأجنبي الذي كان ولازال عاملا حاسما في بناء ثقافة مزدهرة ومتطورة تكون أرضية لبناء حضارة متطورة نحن في حاجة ماسة إليها من أجل مواكبة الركب الحضاري، ومسايرة معطيات العولمة التي لا تتحقق إلا عن طريق ما يسمى بفكرة المواطن العالمي.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على قراءة تحليلية لهذا الجزء وفق تفصيل لشخصيات هاجرت مواطنها الأصلية وانصهرت أفكارها ونشاطاتها في البلاد التي قصدتها، وكانت بمثابة السبل المؤدية إلى التلاقح الثقافي بين الأجنبي والمحلي ألا

وهم المترجمين، فكثيرا ما يتجاهل مؤرخو العلم والفلسفة أثرهم الفعال في نقل أفكار كبار الفلاسفة والعلماء في مقابل ذيوع صيت أولئك الذين تلقوا تلك المواد والمعارف الفلسفية والعلمية جاهزة عن هؤلاء المترجمين، وذلك حسب عرض أحد الباحثين اللذين تناولوا هذه القضية ألا وهو الباحث "أوليري" وهو أستاذ في جامعة"بريستول"- Bristol - ببريطانيا، و مستشرق مهتم بدراسة الثقافة العربية، وصفه صاحب مقدمة الكتاب الذي نعتمد عليه ومترجمه إلى العربية الدكتور "تمام حسان" المدرس بكلية العلوم بجامعة القاهرة بالنزاهة والبعد عن روح التعصب و الاعتراف بفضائل الآخرين.

والكتاب بعنوان"مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب "من تأليف"أوليري"وترجمة الدكتور"تمام حسان"، الملتزم بطبعه ونشره المكتبة الأنجلو المصرية يتكون من ثلاثة عشرة فصل خاصة ببيان مختلف المسالك التي أدت إلى وصول الثقافة اليونانية إلى العرب.

وقد آثرنا في بحثنا هذا أن نقوم بقراءة تحليلية وصفية للفصل الثاني عشر المتعلق بالترجمة إلى العربية لأنها أحد السبل الرئيسية التي وصلت بها الثقافة الإغريقية إلى العرب و باعتبارها تثير إشكالية جوهرية هي:

أين يظهر دور الهجرة والمواطنة في حركة الترجمة التي عرفها العصر العباسي؟ وما أثر ذلك في بناء صرح الحركة الثقافية التي عرفت تطورا كبيرا آنذاك؟ وكيف يمكن استثماره في فهم الراهن الذي تعيشه الأمة الإسلامية ومعالجة المشاكل التي ما فتئت تتخبط فيها؟ وهذه المسألة بدورها تتضمن عدة إشكاليات أهمها:

ما طبيعة الترجمة من الثقافات الأجنبية إلى العربية؟ أو كيف ولماذا ترجمت المؤلفات الأجنبية إلى العربية رغم وجود تباعد جغرافي وثقافي بين اليونان والعرب، وخاصة إن كنا لا نستطيع إنكار وجود تقارب بين الفلسفتين اليونانية والإسلامية في الكثير من القضايا؟

معالجة هذه الإشكالية ذات أهمية كبرى إذ تمكننا من فهم أوضح لقضية الترجمة وأهميتها قديما و حديثا وحتى اليوم، و إدراك أثرها في بناء الفكر الفلسفي و الإنساني ككل، كما نستطيع من خلالها أن ندرك الكثير من الجوانب المتعلقة بالعلاقة بين الفلسفة الإسلامية و التراث الأجنبي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبناء على ذلك سنعتمد منهجا تحليليا وصفيا لنماذج من المترجمين الذي هاجروا إلى بلاد المسلم ين واستقروا بها حسب قراءة لهذا الفصل الخاص بالترجمة، باعتماد شرح مختلف لمباحث التي تضمنها الفصل حسب طرح المؤلف من جهة و وفق علاقتها بالهجرة والاندماج من ناحية أخرى وذلك حسب العناوين التالية:

- فعالية الترجمة في الهجرة كمدخل لقراءة الفصل يهيئ القارئ لفهم ا لموضوع أكثر.
- المترجمون الأوائل ويتضمن المنطلقات الأولى أو الظروف التي أدت إلى هجرة المترجمين.
- حنين ابن إسحاق كمترجم مشهور هجر من الحيرة إلى أرض الإغريق والمسلمين واندمج معهم.
- نشاط الترجمة من آسيا إلى الأندلس.
- ثابت بن قرة كمترجم وثني سريالي اندمج في ثقافة المسلمين.
- **فعالية الهجرة في الترجمة:**

قبل البدأ في تحليل الفصل الخاص بالترجمة في كتاب "أوليري" بجدر بنا الإشارة إلى أن حركة الترجمة ارتبطت بعامل حاسم في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ألا وهو الهجرة وتمثل توافد العنصر الأجنبي على عاصمة الخلافة الإسلامية بتشجيع وتحفيز من الخلفاء، ولاسيما العنصر الفارسي الذي لعب دورا فعالا في الترجمة التي نقلت المادة الفلسفية والعلمية الأجنبية إلى العالم الإسلامي، حيث لم يدرك هذا الأخير درجة من التقدم العلمي في عصره الذهبي لولا هؤلاء، وهو ما يجعل الترجمة نشاطا هاما وفعالا في إدراك معطيات التحضر والتمد ن من معارف وصنائع في شتى الميادين، وخاصة إذا كان حملة العلم - حسب ابن خلدون – في الإسلام أكثرهم من العجم، إذ يقول :"ومن الغريب في الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته ،مع أن الملة عربية وصاحب الشريعة عربي " (ابن خلدون،ع. 2004:616)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويحلل ابن خلدون الأسباب التي تقف ورا ء هذه الحالة من الركود والتخلف العلمي ويحددها في طبيعة المجتمع العربي القائمة على السذاجة والبداوة بعيدا عن إعمال العقل وحب المعرفة والتطلع إلى المدنية، بالإضافة إلى اعتماده على التلقي

والحفظ دون نقد وبحث وتمحيص بسبب عدم وجود التأليف والتدوين في الفترة الأولى، كما أن الصنائع في نظره من اختصاص الحضر والعرب أبعد الناس عنها، والحضر في أصلهم عجم سكنوا بلاد المسلمين واندمجوا معهم، حيث كانوا من الموالي ينحدرون من حضارة أخرى تلقوا فيها العلوم والصنائع وهي دولة الفرس، والدليل على ذلك واضح حيث حتى المتمكنين من علوم لغتهم أي العربية هم من العجم، ومنهم سيبويه صاحب صناعة النحو كان فارسيا، ونفس الأمر بالنسبة للعلوم الأخرى المتعلقة بالدين كالتفسير والكلام وأصول الفقه، "حيث لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم :- لو تعلق العلم بأكناف السماء، لناله قوم من أهل فارس- (ابن خلدون، ع .2004: 617) هكذا يستشهد ابن خلدون بأدلة عقلية ونقلية لبين دور العنصر الأجنبي في بناء الحضارة الإسلامية، ويضيف في هذا الصدد بالنسبة للعلوم العقلية أنها اختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلى المعربون من العجم (ابن حلدون،ع.2004: 617)، وبالتالي فقد كان للعجم دورا فعالا في نقل أسباب التمدن من علم وصنائع إلى الحضارة الإسلامية بعد أن تلقوا أصولها الأولى في بلدانهم الأصلية، وعملوا على ترجمتها إلى لغة البلدان التي سكنوها وأوطانهم الجديدة حيث أصبحوا يدرجون مع العرب تحت اسم واحد وهو المسلمون بعض النظر عن ثقافتهم الأصلية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انطلاقا من هذه النظرة التي قدمها ابن خلدون ندرك أن المادة العلمية والفلسفية وحتى الحرف والصنائع استلهمها العرب من العجم بعد تغلغل العنصر الفارسي خاصة في مختلف أقطار دولة الخلافة الإسلامية، وهو ما يؤكد فعالية الترجمة التي حمل رايتها جملة من الأجانب سعوا سعيا حثيثا لترجمة مختلف الأفكار الفلسفية والعلمية بتشجيع الخلفاء والأمراء بعد استقرارهم بالبلاد العربية وهجرتهم لمواطنهم الأصلية، حيث ساعدهم تمكنهم من اللغات التي ترعرعوا في ظلها كالفارسية والسريالية واليونانية، وتعلمهم للغة العربية بعد اندماجهم مع العرب من ناحية أخرى على التحكم في الترجمة في مستويات مختلفة.

انطلاقا مما سبق حاولنا فهم مسألة الهجرة والاندماج والترجمة من خلال قراءة أحد فصول كتاب مسالك الثقافة الإغريقية وهو المتعلق بالترجمة، حيث نتعرض لمختلف الشخصيات الناشطة في ميدان الترجمة وفق عرض المؤلف لها، وحسب تاريخ هجرتها ووفق فعاليتها داخل الموطن الجديد الذي استقرت فيه من أجل إدراك أثرها

البارز الذي لا يستطيع أحد إنكاره في نقل الأفكار الفلسفية والعلمية إلى بلاد المسلمين، والتي كانت سببا مباشرا لتطورهم آنذاك، و الوعي بأهمية التفاعل الحضاري مع الأفكار الأجنبية اليوم، وتشجيع المترجمين على الفعالية في مختلف الميادين لمواكبة الركب الحضاري.

المترجمون الأوائل:

في هذا الجزء يشير المؤلف إلى الظروف السياسية والتاريخية لظهور حركة الترجمة وهنا يستعمل كلمة حركة للدلالة على هجرة ونشاط المترجمين في نقل الأفكار الإغريقية إلى العربية، وقد ظهرت في نظره في عهد هارون الرشيد الذي تولى الخلافة عام 786م ببغداد، كما يؤكد على وجود مجهودات سابقة في ميدان الترجمة خلال 24سنة التي مرت منذ تأسيس بغداد إلى ولايته، ث م يفصل عوامل تأسيس مشروع الترجمة بمثالين هما منطقتا -مرو- و -جنديسابور- هاتين المدينتين عرفتا هجرة كبيرة لأعداد هائلة من المترجمين إلى البلاد العربية.

دور منطقة "مرو"في الترجمة : وهي منطقة بعيدة في "خرسان" في الشرق كانت على صلة قريبة من بغداد رغم بعدها الج غرافي عنها نتيجة لهجرة مجموعة كبيرة من الشخصيات منها إلي بغداد كوطن جديد لهم إن صح التعبير باعتبارهم قد استقروا بها في كنف الحلفاء والوزراء، كما أن العباسيين جاؤوا إلى العرش بثورة نبعت منها ومن خرسان، مما أدى بالحكومة العباسية إلى أن تضم الكثير من الوزراء الفارسيين من البرامكة، هذا النفوذ الفارسي رما بالعرب إلى المؤخرة في مقابل تمجيد للفرس باسم روح الشعوبية التي تمثل شعور منظم مسموم ضد العرب تميز به الفرس، وبالتالي في نظر أوليري كانت خرسان و عاصمتها مرو مهدا للشعوبية و في نفس الوقت مصدرا لثقافة هارون الرشيد الذي كان له ميول فارسية قوية، كل هذا الوضع سيشجع قدوم الفرس إلى العرب وعملهم في ميدان الترجمة، وهذا ما أكده كذلك عبد الرحمن مرحبا الذي رأى أن "حركة الترجمة الرسمية بدأت في العصر العباسي الأول"(مرحبا، ع. 2000 : 293) وذلك نظرا لدخول العنصر الأجنبي وع مله في هدا الميدان، الذي سيعكس حركة حثيثة في ميدان نقل العلوم والفلسفة إلى بلاد العرب ينطلق من تمكن الوافدين إلى أقطار البلاد العربية من لغات متنوعة كاليونانية والفارسية إضافة إلى اللغة العربية، وهو ما جسده أوليري هنا بالإشارة إلى أحد الشخصيات التي دخلت في خدمة أحد أمراء العرب، وهو شخصية ابن المقفع وهو من المترجمين الأوائل الذين يشير إليهم المؤلف و يعتبره

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فارسيا دخل في خدمة عيسى ابن علي، ابن عم الخليفتين العباسيين الأوليين ترجم من الفارسية القديمة كتاب"كليلة ودمنة".

وبالتالي كانت الترجمة في أول أمرها تعتمد على نشاط الفرس داخل الأمة لعربية ، و- خرسان - ولاسيما عاصمتها -مرو- كانا القناة التي انتقلت بها المادة الرياضية و الفلكية إلى بغداد عن طريق الوزراء البرامكة الأزوريون الذين شجعوا هجرة ونشاط المترجمين.

- دور منطقة- جنديسابور- في الترجمة : كانت حسب أوليري منطلقا ثانيا للترجمة وهي مدينة قريبة من بغداد تأسست بها مدرسة للترجمة وهي -مدرسة جنديسابور- أنشأها- كسرى أنوشروان- (531- 578م) وجمع فيها الكتب السريانية واليونانية و الهندية و أمر بترجمتها إلى الفهلوية (الفارسية القديمة)وقد امتازت بالعلوم الطبية بشكل خاص (نظلة، أ. 1990 : 141)هنا يؤكد أوليري أن الأطباء المشهورين قد جاؤوا منها إلى بغداد وبنجاحهم في مهنتهم بقوا هناك، حتى أصبحوا أثرياء وذوي نفوذ، وأنشئوا أكاديمية خاصة، وعملوا على ترجمة العلم الإغريقي وخاصة الطب إلى السريانية ثم ألحقت الترجما ت العربية بالسريانية بالتدريج ، هنا يمكن الإشارة ولو باختصار إلى السريان كواسطة بين العرب واليونان وهم قوم من النصارى يتكلمون اللغة السريانية، وقد كانت اللغة اليونانية شائعة في مدارسهم حيث كانوا يتقنونها ، مما أدى بهم إلى نقل الثقافة اليونانية إلى لغتهم، ولما فتح العرب بلادهم أعجبوا بتراثهم فطلبوا منهم نقل التراث العلمي من السريانية إلى العربية، وقد أكد عبد الرحمن مرحبا على دورهم في الترجمة قائلا:"السريان هم بصورة عامة حلقة الاتصال بين العرب و بين اللغة اليونانية، وعنهم عبرت الثقافة اليونانية إلى العرب" (مرحبا، ع. 2000 : 294 - 295).

- بعض المترجمين : هنا أشار المؤلف إلى مترجمون آخرون اشتغلوا في ميدان الترجمة بعد اندماجهم في الثقافة الإسلامية زيادة على ثقافتهم الأصلية سنشير إلى أهمهم وهم : الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب الذي ترجم في نظره كتاب- الماجسطي- أو الكتاب الأعظم الذي انتهى منه عام 727م، وسهل بن ربان الطبري وهو مترجم يهودي جاء من مرو وترجم من أجل هارون الرشيد، عرف باسم "البربون " أي الممتاز، من كتبه في الطب فردوس الحكمة، بعد ذلك أشار المؤلف إلى وصول مؤلفات أرسطو المنطقية إلى العرب بالسريالية وهو ما يؤكد دورهم الفعال في نقلها إلى المسلمون، بعد ذلك أشار إلى أحد المترجمين المسيحيين في بلاد

المسلمين وهو عبد الله بن المسيح بن عبد الله وعيمة الحمصي (780- 840م)وهو مسيحي يعقوبي كان أحد المترجمين الذين قاموا بالترجمة العديد من الكتب ولاسيما الأرسطية، وأشار أوليري بعد ذلك أبو يحي البطريق وهو الذي وضع ترجمة عربية لمؤلف في التنجيم اسمه- Tetrabiblos- لبطليموس، ثم جبريل ابن بختشوع الذي جاء من جنديسابور و ابنه بختشوع الثاني الذي عمل طبيبا للبلاط في عهد الهادي ثم عاد إلى جنديسابور وهجر من جديد إلى بغداد في عهد هارون الرشيد وعمل في الطب كذلك، ليبين هنا أن معظم المؤلفات الطبية الإغريقية التي وصلت إلى العرب كانت من الترجمات السريالية، وهو ما يؤكد أهمية السريان في العلم العربي.

يحدد بعد ذلك المؤلف نظرة عامة حول الترجمة انطلاقا مما سبق ليبين أنها بدأت في عهد هارون الرشيد بتشجيع الوزير جعفر بن برمك، وقد ارتبطت بالرياضيات و الفلك عن طريق علماء من- مرو- جاء بهم جعفر، وكانت أولا بالسريانية التي انتقلت إلى العربية فيما بعد، كما يبين أن الترجمات كانت بحاجة إلى ترجمة الاصطلاحات بدقة، فادى ذلك إلى وجود ترجمات أدق مبنية على العودة إلى المؤلفات الأصلية، أو إلى مراجعة الترجمات السابقة، بالإضافة إلى وضع ترجمات مبنية على المؤلفات الإغريقية مع اقتباسات توضح و تشرح المؤلف الأصلي، فرغم أن العلم في نظر –أوليري- كان عند العرب في ذلك الوقت بدعة العصر إلا أنه يؤكد أنه لقي الاهتمام من رجال البلاط الذين أنفقوا عليه بسخاء وكان في رعايتهم جملة من المترجمين، فالحركة العلمية في نظره وجدت صدى خافتا خارج دوائر القصر ولم يعن العرب بها بصفة رئيسية لاهتمامهم بالفقه والنحو، ولم يحدث أي مجهود في ترجمة فلسفة أرسطو حتى نهاية عصر هارون لاعتقادهم انه حجة في المنطق فقط، وبالتالي فلولا هجرة هؤلاء المترجمين الأجانب واستقرارهم بالبلاد العربية لم تكن لتصلهم تلك المادة العلمية والثقافية

الترجمة في عهد المأمون : بعد موت هارون الرشيد عام 808م أشار أوليري إلى تغير الأحداث الذي سينعكس بدوره على واقع الترجمة، وركز أساسا علي المأمون لأنه شجع هجرة المترجمين واستقرارهم في ظل خلافته، فقد " انهال عليه المترجمون من كل حدب وصوب : من الشام وفارس ،منهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يساهمون جميعا في حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والسريالية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها " (محمد علي،

ع.1986ص 38)، "فالترجمة لم تنشط بالمعنى الصحيح إلا في القرن الثالث الهجري (9م)وهو العصر الذهبي للترجمة عصر المأمون" (مرحبا ،ع. 2000 : 303)، وكان شغوفا جدا بالدراسات العلمية والفلسفية، لكونه تلقى ثقافته في- مرو- في محيط الهيلينية المحدثة، و طبق القواعد الفلسفية على العقائد الإسلامية، وهو ما شجع هجرة المترجمين إلى دولة الخلافة من كل صوب وحدب تحت كنفه، فقد جمع العلماء والمترجمين من مختلف الجنسيات وأسس مدرسة معروفة ببيت الحكمة التي قال عنها عبد الرحمن بدوي : وبيت الحكمة هذا هو اسم المدرسة التي أمر المأمون بإنشائها للتوفر على ترجمة علوم الأوائل من اليونانية و السريانية إلى العربية (بدوي ع 8)ومن بين الذين أشار إليهم أوليري في هذا الصدد أبو زكريا بن يحي بن ماسويه المتوفى عام 857م وهو مسيحي نسطوري ابن صانع عقاقير، ترأس مدينة جنديسابور بعد مغادرة- جبريل - لها إلى بغداد، وهو بدوره انتقل إليها فيما بعد كذلك باقتراح من جبريل، وقدم إلى البلاط كطبيب ماهر وعالم بالطب الإغريقي، وقد ألف كتابا في طب العين أسماه—دغل العين- ومجموعة من الحكم الطبية سماها —النوادر الطبية— وهو الذي سيكون تلميذه ا لمترجم المشهور حنين بن اسحق.

من خلال قراءتنا لهذا الباب ندرك أن الترجمة كانت ذات صلة وثيقة بعاملين أساسيين، الأول يتمثل في الهجرة لمجموعة من المترجمين من مواطنهم الأصلية إلى عاصمة الخلافة الإسلامية، والثاني يتمثل في استقرارهم في تلك البلاد واندماجهم مع أهلها خاصة بعدما تقربوا من الخلفاء، ووصل بعضهم إلى اعتلاء المناصب السياسية، و كنموذج لهذا المستقر الجديد بيتين كانا مجمعا للعلماء المهاجرين، وهما بيت الحكمة وقصر أبناء موسى على وجه الخصوص، "إذ تلاقت في البيتين أفكار ذات جنسيات مختلفة تفاعلت مع بعضها بعضا و تلاقحت وظلت تتغذى بمنابهل تنبع داخل العالم الإسلامي وأخرى تنساب خارجة ليتكون من كل ذلك مزاج فكري جديد " (مرحبا، ع. 305 :2005)، إذ اعتمدت في أول الأمر على نشاط الفرس بعد تغلغلهم في صفوف الحكم بظهور الدولة العباسية مع البرامكة بالانطلاق من منطقتين —مرو- بخرسان التي عرفت مجموعة من الشخصيات ذهبوا إلى بغداد بتشجيع الوزراء لهم، و جنديسابور التي عرفت أكبر مدرسة للترجمة هجرت منها عدة شخصيات إلى بغداد للعمل في هذا الميدان، كما يتبين أن الترجمة في البداية كانت من اليونانية إلى السريانية، ومن هذه الأخيرة إلى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربية، وقد اقتصرت في أول الأمر على مؤلفات في العلوم والطب بصورة كبرى بالمقارنة مع المؤلفات الأخرى، بالإضافة إلى مؤلفات أرسطو في المنطق لأهميتها آنذاك في الدفاع عن العقيدة، ولكن هنا يجدر الإشارة إلى أن الترجمة كانت سائدة قبل العصر العباسي، حيث أن الإمعان في النظر في مؤلفات"المتكلمين الأوائل كأبي الهذيل العلاف، وهشام بن الحكم يتبين على أنهم كانوا على إطلاع واسع بالفلسفة اليونانية وإلمام بمصطلاحاتها " (مرحبا ،ع.2000: 293) فالمتكلمين قد استعملوا المنطق وهو ما جعل عبد الرحمن مرحبا يقول أن خالد بن يزيد بن معاوية قد أمر بترجمة الأورغانون من اليونانية إلى العربية (مرحبا ، ع.2000 : 292)، ويقصد هنا بالأورغانون كتب المنطق التي ترجمه المسلمون في عهد الدولة الأموية نظرتهم لحاجتهم إلى الدفاع عن العقيدة بظهور مشاكل عقائدية مختلفة أدت إلى ظهور علم الكلام، كما تمت ترجمة كتب الطب في العصر الأموي في عهد مروان بن الحكم و عمر بن عبد العزيز، بالإضافة إلى ذلك يجب الإشارة إلى أن الترجمة قد لاقت الرعاية منذ الوهلة الأولى للحكم العباسي مع الدور الذي لعبه الخليفة أبو جعفر المنصور فيها حين جعلها برعاية الدولة، وبا لتالي يمكن القول أن الترجمة كمصدر لوصول الثقافة الإغريقية إلى العرب حظيت باهتمام المسلمين منذ ظهور الدولة الأموية إلا أنها عرفت أوج ازدهارها ونشاطها في العصر العباسي ومع المأمون خاصة الذي اهتم بالمترجمين وشجع هجرتهم واستقرارهم بالقرب منه، وظهر في عهده أشهر المترجمين وهو حنين بن اسحق.

حنين بن اسحق:

من خلال الكتاب ندرك أن أوليري قد حدد مبحثا خاصا في هذا الفصل(أوليري :246_254) لهذا المترجم الذي جاء من الحيرة وهاجر إلى بلاد الإغريق واستقر بالبصرة أين تعلم العربية وببغداد أين اشتغل با لترجمة، مما يؤكد أهميته في هذا الميدان، فهو أشهر المترجمين الذين نقلوا الثقافة الإغريقية إلى العربية، و" أكبر المترجمين من اليونانية إلى العربية و السريانية في العصر العباسي" (بدوي، ع. 1984 :463) حيث ساهمت تنقلاته عبر مختلف الأقطار من تمكنه من مختلف اللغات و إتقانه لها وهو حسب المؤلف تكون الخطوط العامة لحياته معروفة، وهو ما جعلنا نحدد تحليلا خاصا لهذا المبحث باعتماد "كتاب مترجمي وشراح أرسطو " (مجمد فتحي، ع. 2001 : 89)ومعطيات الكتاب بالاطلاع على حياته ومنهجه وترجمته ودوره لكي ندرك فعالية هجرته في الترجمة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن حياته يشير أو لير ي إلى تاريخ وفاته ما بين عام 873أو 877م، ثم يبين أنه جاء من مدينة الحيرة، وكان أبوه صانع عقاقير مسيحيا نسطو ري ا، وهو ينسب إلى العباد وهم قوم من النصارى ليسو من الطبقة الحاكمة انطلاقا من لقبه وهو العبادي الذي يشير حسب - أوليري- إلى انتمائه لطبقة المحكومين في الحيرة، وهو ما يعكس اندماجه في الثقافة الإسلامية بعد هجرته إلى البصرة وبغداد، كما بين كيف حضر في شبابه محاضرات ابن ماسويه في جنديسابور وتعلم الصيدلة عنده حين أزعجه بكثرة أسئلته فطرده من المدرسة، حينها هجر إلى بلاد الإغريق وهناك حصل على المعرفة التامة باللغة اليونانية، والخبرة بنقد النصوص على طريقة الإسكندرية، ثم عاد إلى البصرة أين تعلم اللغة العربية على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي، بالإضافة إلى ذلك فقد كان متمكنا من اللغة السريانية، توجه قبل عام 826م إلى بغداد وحصل فيها على رعاية جبريل الذي أعد له بعض الترجمات لمؤلفات جالين، فلاحظ جبريل إتقانا بالغا لتلك الترجمات فصر بذلك وعمل على تقديم حنين لأبناء موسى الثلاثة وهم محمد وأحمد وحسن، وقد كان هؤلاء رعاة أسخياء للبحث العلمي فاهتموا بحنين وقدموه إلى الخليفة المأمون الذ ي اختاره لرئاسة بيت الحكمة وعول عليه في ترجمة كتب أرسطو فأجاد نقلها، ولذا اختصه بمنح كثيرة حيث كان يقدم له زنة الكتاب الذي يترجمه ذهبا، "لذلك كان حنين يكتب بحروف غليظة وأسطر متفرقة على ورق غليظ جدا لعظيم حجم الكتاب وتكبير وزنه" (مرحبا، ع. 2000: 307) فبفضله أصبحت الترجمة ذات مفعول قوي ونقلت عدة مؤلفات إلى العربية.

كما أشار أوليري إلى منهجه وترجمته، فالمنهج يقوم على وضع النسخ بالعربية والسريانية والمقارنة بينهما، أما عن الترجمات فيرى أنه ترجم عشرين كتابا لجالين إلى السريانية، اثنان منها لبختشوع بن جبريل، وآخران لسلاموية بن بنان، وواحدا لجبريل، وآخر لبن ماسويه، وراجع الستة عشرة ترجمة التي وضعها –سرجيوس الرسفي- وترجم أربعة عشرة مؤلفا إلى العربية، ثلاثة منها لمحمد بن موسى وواحد لأحمد، كما يمكن الاشارة الى ترجماته التي نقلها الى السريانية أو العربية والتي تتمثل في محاورات أفلاطون وهي: تيماوس، الجمهورية السوفسطائي، القوانين وكتب لأرسطووهي :المقولات، التحليلات، تلخيص كتاب العبارة ايساغوجي، السماع الطبيعي، السماء والعالم، النفس، الأخلاق، وكتب جالينوس في الطب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انطلاقا من هذه الترجمات السابقة لاشك أن حنينا ي كتسي أهمية بالغة في ميدان الترجمة فبفضله كما يرى أوليري تم وضع المنهج الكامل في طب الاسكندرية لدى الطلاب العرب، كما أنه كان مدرسة تلقى فيها العديد من المترجمين تكوينهم، و يمكن القول أنه دو دور كبير في نقل الثقافة الإغريقية إلى العرب بترجمتها إلى السريانية أو العربية، "فقد ترجم ما يزيد عن 200 كتاب من اليونانية إلى العربية منها 95تخص جالينوس وحده"(محمد فتحي، ع. 2001: 100)، كما أنه أوجد ألفاظا عربية تقابل الكلما ت اليونانية التي لم يعرف لها نظيرا في السريانية أو العربية، كما أنه قدم أدق الترجمات وأكثرها وضوح ا، فكان مدرسة للترجمة تخرج منها بعده ابنه اسحق بن حنين (910)م وهو أبو يعقوب اسحق ابن حنين العبادي من أشهر أطباء عصره، وكان أكثر من أبيه عناية بترجمة كتب الفلسفة اليونانية وخدم الخلفاء العباسيين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (بدوي، ع. 1984: 126)، وكان أيضا رياضيا وهو أصغر أولاد حنين، بفضل تمكنه من اللغات وحسن ترجمته نال شهرة أبيه في الترجمة، له عدة ترجمات إلى السريانية والعربية ككتب الخطابة و الجدل، في النفس الكون والفساد لأرسطو، بالإضافة إلى ذلك تخرج له ابن أخيه - حبيش بن الحسن- الذي ترجم نصوصا إغريقية لهيبوقراطيس، ومؤلفات حول النبات أصبحت منطلقا لما كتبه العرب عن العقاقير، كما أن هناك تلميذ أخر له يستحق الاشارة في نظر أوليري وهو عيسى بن يحي بن ا إبراهي م الذي يعتبر مترجم للمؤلفات الطبية إلى العربية، وبالتالي يمكن القول أن كل كبار العلماء من الج يل التالي لحنين هم تلاميذ له لاعتمادهم على مترجماته، كما يتبين من خلال التحليل لشخصية حنين وأبيه ودورهما في الترجمة أن هجرة حنين إلى البلاد الإغريق ثم البصرة وبغداد واستقراره في كنف ابن العباس لعب دورا حاسما في ذيوع صيته، وفعالية الترجمة، وهو ما يؤكد أهمية الانتقال بين الأوطان في تعلم اللغات والاشتغال بالعلوم والمعارف في مختلف الأمصار ترجمة وشرحا وتأليفا كعامل حاسم لتحقيق الازدهار الحضاري و الثقافي.

مترجمون آخرون:

في هذا الباب يشير"أوليري" إلى المسار الجغرافي للترجمة بتحديد مجموعة من المترجمين ظه روا في آسيا ليصل بعد ذلك إلى انتقالها إلى الأندلس أين عرفت عهدها النهائي، وذلك حسب عرض بعض المترجمين في آسيا نشأووا في ظل الثقافة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السيريالية والمسيحية وأهمهم يوسف الخوري وهو قسي س ترجم عام908م كتاب أرخميدس عن المثلثات من نسخة سريانية، كما وضع ترجمات عربي ة لكتاب جالين حول الطب، قسطا بن لوقا البعلبكي وهو مسيحي سوري وضع ترجمة لمؤلف – هبسكليس- التي راجعها الكندي فيما بعد، وأخرى لكتاب ثيودوسيوس، بالإضافة إلى كتب أخرى، ليبين بعد ذلك نهاية عهد الترجمة في آسيا، والاقتصار على التعليق والعرض مع المراجعة أحيانا لبعض الترجمات القديمة.

أما عن الترجمة في الأندلس التي بلغت حسب المؤلف عهدها النهائي فيها فندرك أثر الهجرة في نشاطها في هذا البلد من خلال إرسال الراهب "نيقولاس"من طرف الإمبراطور البيزنطي إلى قرطبة بعد فشل الأمير في إيجاد من يترجم أحد الكتب المهداة إليه بالل غة الإغريقية، حيث كان هذا الراهب يتقنها مع العربية فقام بترجمة ذلك المؤلف، و علم الناس الإغريقية فخلقت دروسه حماسا كبيرا في الترجمة، وكان عصر عبد الرحمن الثالث حسب أوليري عصرا ذهبيا للترجمة في الأندلس حين شجع المترجمين على الاستقرار فيها خدمة للعلم وا لمعرفة هذا ما يؤكد أهمية الهجرة في حقل الترجمة فلولا هجرة هذا الراهب إلى بلاد الأندلس لما ترجمت مختلف المؤلفات الإغريقية ولما تعلم الناس اللغة الإغريقية التي ينتفعون بها في فهم الفلسفة من مصادرها الأصلية.

ثابت بن قرة:(826م- 900م)- (211ه- 288ه)

وضع أوليري هذا المترجم في باب خاص ابتداءا من الصفحة 257 إلى نهاية الفصل يؤكد أهميته في ميدان الترجمة، وهو بدوره يمثل نموذجا للاندماج بين الثقافة السريالية والإسلامية، وهو ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن مارينوس بن سلامويوس ولد بحران بالعراق هذه المنطقة ركز أوليري على خصائصها، التي تجمع بين ثقافة متعددة الخصائص، وكانت مدرسة التقت فيها الوثنية اليونانية بالديانات البابلية و الصابئية و الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، قد عدت بعد الفتح العربي مركز ازدهار علمي و اقتصادي من خلال ترجمة الآثار اليونانية إلى العربية، ومن أساتذتها ثابت بن قرة، ولم يكن مترجما من الصف الأول فحسب بل كان نابغة في علوم كثيرة مثل الطب والرياضيات والفلسفة والفلك نظرا لتشبعه من مناهل ثقافية متعددة تعكسها صفات المنطقة التي ولد فيها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالإضافة إلى تلك الصفات التي تميزت بها مدينة حران يبين- أوليري- أنها شهيرة بنقاء لغتها الآرامية (من الآرميين وهم قوم من البدو العرب في الصحراء بين العراق وسوريا كما أكد أن المدينة مبعث للثقافة التي أثرت في الكنيستين النسطورية واليعقوبية وقد رصعت فيها الأفكار بالأفلاطونية المحدثة، كما بين أننا نأخذ مختلف المعلومات عن الديانة القديمة في حران من ملاحظات الدمشقي حيث اعتبرها بصورة عامة مدينة وثنية، اعتنق فيها البعض الإسلام، وآخرون المسيحية خوفا من المأمون الذي أمرهم بذلك، بينما بقي آخرون على الوثنية حسب مختلف الروايات، وكان أهل حران من الصابئة و عباد الكواكب، هذا الجو المتميز للمنطقة صنع شخصية وثقافة المترجم ثابت بن قرة التي عرضها أوليري فيما بعد بالتفصيل بالإشارة إلى انه كان في مبدأ أمره صرافا في سوق حران، فلما انقلب إلى الفلسفة برع فيها وأصبح خبيرا بثلاث لغات هي الإغريقية والسريانية والعربية، كما كان جيد النقل إلى العربية و من حذاق المترجمين، اشتغل بعلوم الأوائل فبرع فيها، له مساهمة في الوصول الى الهندسة التحليلية.

أما عن ترجماته يبين أوليري أنه ألف بالعربية حوالي 150 بحثا في المنطق والرياضيات والفلك والطب وكتب بالسريانية 15بحث آخر، ومن أهم ما ترجم كتاب ا لمجسطي لبطليموس، الأصول الخمسة لاقليدس، وألف بالإضافة إلى هذه الترجمات أبحاثا في الفلك والرياضيات وعرض في هذه الأخيرة نظرية الأعداد الوفاقية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انطلاقا من ما سبق فان ابن قرة يعتبر من أشهر المترجمين و الباحثين الذين نقلوا الثقافة الإغريقية إلى العرب في ميادين الرياضيات والفلك، كما كان له تلاميذ كثيرون أمثال عيسى ابن أسد ترجم إلى العربية مؤلفات مختلفة ألفها ثابت بالسريانية، كما يشير- أوليري- إلى وجود ابن لثابت وهو أبو سعيد عمل طبيبا للخليفة القاهر بقي على ديانته الوثنية رغم عيشه في كنف دولة الخلافة الإسلامية.

في آخر الفصل يعرض أوليري لبعض الأحداث التي أدت إلى التسامح الديني مع الصابئة، وأشار إلى تهدم مدينة حران بصورة نهائية عام 1032م ولم يبق منها إلا هيكلا لعبادة القمر ولم تعد إلا قرية صغيرة بعد أن هجرها مختلف العلماء والمترجمين، مما يبين أن الواقع سيؤثر على الوضع العلمي بما فيه ميدان الترجمة، ومنه يمكن القول أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية أساس الازدهار

الحضاري والثقافي الذي عرف آنذاك بفعل عوامل متنوعة كتعدد اللغات وتنوع البنية الثقافية أساس التكوين المتميز والفعالية التي تميزت بها شخصية ابن قرة التي يمكن أن نقول عنها دون مبالغة أنها نموذج للاندماج بين الثقافا ت والتبادل الثقافي.

خاتمة :

انطلاقا من هذه الدراسة الو صفية والقراءة الخاصة بفصل الترجمة إلى العربية من كتاب أوليري "مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب " الذي حدد فيه مختلف الظروف والعوامل التي أدت إلى وصول الثقافة اليونانية إلى العرب، ولاسيما الترجمة التي حاولنا من خلال الإطلاع على مختلف الشخصيات النشطة في مجالها خلال العصر الذهبي للمسلمين إبراز أثر الهجرة التي عرفها العنصر الأجنبي إلى عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك في تأسيس البنى ا لأولى للتطور والازدهار الذي عرفه المسلمون في ذلك العصر توصلنا إلى نتائج هامة وهي:

هجرة العنصر الأجنبي و لاسيما الفارسي الممثل في العلماء والمترجمين إلى مركز الخلافة أحد العوامل الهامة في الازدهار الحضاري والثقافي الذي بلغته الحضارة الإسلامية في تلك الفترة.

استقرار هذا العنصر الأجنبي بالبلاد الإسلامية واندماجه في الثقافة المحلية بتشجيع الخلفاء و الوزراء أحد العوامل الأساسية في النشاط العلمي والثقافي الذي بلغ ذروة تطوره آنذاك، وذلك بتضافر جهود الجميع في خدمة دولة الخلافة، والشعور بالانتماء لها مهما تعددت ا لديانات كالمسيحية والإسلامية، واللغات كالعربية والسريالية، هذا التعدد والتنوع الثقافي كان ايجابيا على حقل الترجمة والعلم ككل، ولكن لم ينجح في خدمة الأمة لو لم يكن برعاية الخلفاء والوزراء الذي أنفقوا بسخاء على العلم والترجمة إدراكا منهم لقيمتها، وبالفعل كان نتيجتها حضارة راقية في شتى الميادين.

هناك تفاعل بين الهجرة كمنطلق لتوافد كوكبة المترجمين إلى عاصمة الخلافة، ولاسيما بعد تأسيس بيت الحكمة، والاندماج خلال العصر العباسي في إرساء تلاقح ثقافي بين ثقافات متعددة المشارب هدفها واحد هو خدمة دولة الخلافة والعلم ككل، هذا التفاعل يبدوا جليا في حقل الترجمة كأحد المسالك الهامة التي وصلت بها الثقافة الإغريقية إلى العرب، وبها تحصلوا على علوم اليونان من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طب وفلك ورياضيات و تحصلوا على الفلسفة اليونانية الأفلاطونية و الأرسطية، والتي استطاعوا من خلالها بناء حضارة راقية في آنذاك.

توافد المترجمين إلى دولة الخلافة يؤكد أهمية نشاط الترجمة في إرساء فكرة الحوار بين الثقافات والتسامح خدمة للحقيقة والعلم والوطن الذي نعيش في كنفه لأنها السبيل الأمثل للإطلاع على أفكار الآخرين والاحتكاك بهم، كما يؤكد أن التفاعل الحضاري والتباد ل الثقافي حتمية لا مفر منها لتحقيق التطور و الازدهار وخاصة اليوم بعد ظهور فكرة المواطن العالمي.

كما يتبين من البحث أن الترجمة لابد لها من رعاية واهتمام، فقد كانت آنذاك برعاية الخلفاء والوزراء إدراكا منهم لقيمتها، فقد كانت في العهد العباسي برعاية الخلفاء كهارون ا لرشيد والمأمون مؤسس بيت الحكمة والوزراء كجعفر بن برمك، وأصحاب الأموال كأبناء موسى الثلاثة، كلهم اهتموا بالمترجمين كحنين و ثابت ومن الضروري اليوم تشجيع العمل في ميدان الترجمة والإكثار من مراكز الترجمة المتخصصة.

بواسطة الترجمة تمكن المسلمون من فهم تراث ا لغير من أجل الاستفاد ة منه في حل المشاكل المختلفة كما هو الحال في الطب لمعالجة الأمراض، أو من أجل الدفاع عن العقيدة التي كانت سببا رئيسيا لترجمة كتب المنطق، وحتى اليوم أصبح من الضروري ترجمة كتب الغير للاستفادة من الأفكار الايجابية ومواجهة الأفكار السلبية التي تتضمنها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الأخير يمك ن القول أن هناك تلازم بين الهجرة والاندماج و الترجمة التي كانت قديما أحد المسالك والسبل الهامة التي وصلت بها الثقافة الإغريقية إلى العرب في مختلف الميادين، ومنطلقا تمكن العرب به من تحقيق حضارة راقية في ذلك العصر، وهو ما يبين أهميتها اليوم من أجل فهم تراث والتبادل الثقافي كأساس لقدرة الأمة الإسلامية اليوم على مواجهة تحديات العصر ومسايرة الركب الحضاري، ونحن بعد عرض ظاهرة الهجرة وتجسيد فعاليتها في ميدان الترجمة لا نشيد بالعنصر الأجنبي أو ندعو إلى دمجه في ثقافتنا أو الاندماج في ثقافته بحيث يكون نموذجا وقدوة لنا، بقدر ما ندعو إلى الاستفادة من منجزاته، وفق فكرتين متلازمتين يكون بهما الإنسان فعالا ومتفاعلا وهما أولا :مواطن محلي بكون عالميا، و ثانيا:مواطن عالمي يكون محليا.

قائمة مصادر ومراجع البحث

- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1- 2004.
- أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، نقله إلى العربية د —تمام حسن، المكتبة الأنجلومصرية.

_ بدوي عبد الرجمن، موسوعة الفلسفة،ج1 ، المؤسسة الغربية للدراسات والنشر ط1_1984.

_ بدوي عبد الرجمن، الفلسفة والفلاسفة عند العرب، دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس، دون طبعة، دون تاريخ.

- مرحبا عبد الرحمن، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، عويدات للنشر والطباعة بيروت لبنان،ط 2000.
- محمد علي عصام الدين، بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجم ة، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزى وشركاه 1988.
- نظلة أحمد أمين الجبوري، الفلسفة الإسلامية، حكمة الشريعة جامعة بغداد ط1- 1990م.
- فتحي محمد عبد الله، مترجمو وشراح أرسطو عبر العصور، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط1- 2001م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com